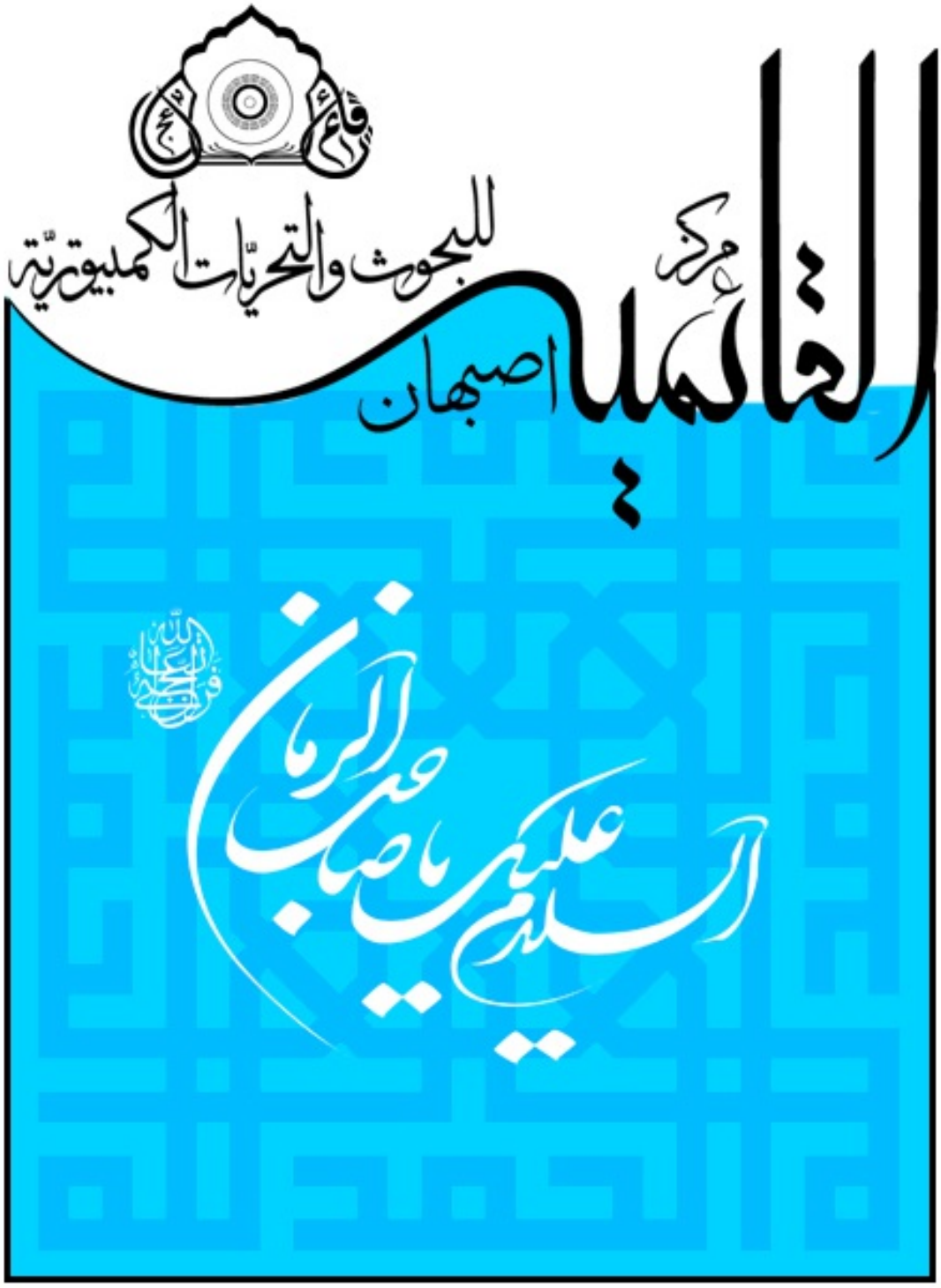

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

كارستن نيبور

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها

الجزء الاول

الانتشار العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة الى شبه الجزيرة العربية

كاتب:

نيبور كارستن

نشرت فى الطباعة:

موسسه الانتشار العربى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر المجلد ۱ ----- ۱۰
اشارة ----- ۱۰
الجزء الأول ----- ۱۰
المحتويات ----- ۱۰
رائحة اللوحات ----- ۱۱
المقدمة ----- ۱۳
الرحلة من كوبنهاغن إلى القسطنطينية ----- ۱۵
ملاحظات من القسطنطينية ----- ۲۳
الرحلة من القسطنطينية إلى الإسكندرية ----- ۲۸
ملاحظات من الإسكندرية ----- ۳۱
الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة ----- ۳۶
رحلة دمياط و العودة إلى القاهرة ----- ۳۸
ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة و دمياط، استنادا إلى الخارطة على اللوحة ۱۰ ----- ۴۲
أسماء المدن و القرى التى ذكرها السيد فورسكال خلال رحلته من القاهرة إلى الأسكندرية من القاهرة إلى الإسكندرية ----- ۴۳
اشارة ----- ۴۳
من الإسكندرية إلى الرشيد ----- ۴۴
من الرشيد إلى القاهرة ----- ۴۴
مواقع بعض المدن المصرية القديمة ----- ۴۵
وصف القاهرة و بولاق و مصر العتيقة و الجيزة ----- ۴۹
اشارة ----- ۴۹
على خارطة مدينة القاهرة أو مصر ----- ۵۰
أسماء الجسور على القناة التى تجتاز القاهرة ----- ۵۱

أسماء البرک ----- ۵۱
أسماء أبواب القاهرة ----- ۵۱
فی بولاق و مصر العتیقة و الجیزة ----- ۵۱
سکان مدینة القاهرة و شکل الحکم و التجارة فیها ----- ۵۹
الآلات التی تعمل علی الماء، الطواحین، معاصر الزیت، أدوات الفلاحة، فرن النشادر و آلات تفقیس البیض فی مصر ----- ۶۶
لباس أهل الشرق ----- ۷۰
التمارین و التسلیات التی یقوم بها الشرقیون فی أوقات فراغهم ----- ۷۶
آثار مصر ----- ۸۵
سیر الرحلة من القاهرة إلی السویس و إلی طور سیناء ----- ۹۳
الرحلة من السویس إلی جدة ----- ۱۱۰
ملاحظات فی جدة ----- ۱۱۸
الرحلة من جدة إلی مخیّة ----- ۱۲۳
رحلة من مخیّة إلی بیت الفقیه ----- ۱۳۴
رحلة من بیت الفقیه إلی غلفقة و الحدیدة و الزبید و التحیتا(Tahate) و القحمة(Kahhma) و هدیة و إلی الجبال المنتجة للبنّ ----- ۱۳۸
سیر الرحلة من بیت الفقیه إلی عدن، و جبلة و تعز و حاس ----- ۱۴۵
لرحلة من بیت الفقیه إلی المخا ----- ۱۵۲
الرحلة من المخا إلی تعز ----- ۱۵۹
الرحلة من تعز(TAA'S) إلی صنعاء ----- ۱۶۶
الرحلة من صنعاء إلی المخا ----- ۱۸۲
سیر الرحلة من المخا إلی بومبای ----- ۱۸۹
سیر رحلة هولندی فی مناطق یمنیة لم تذکر فی الصفحات السابقة ----- ۱۹۳
اشارة ----- ۱۹۳
I- الطریق المؤدیة من صنعاء إلی بیت الفقیه عبر ریما ----- ۱۹۳
II- الطریق المؤدیة من قسمة إلی جبی ----- ۱۹۵

III- الطريق المؤدية من جبى إلى بيت الفقيه ---- ۱۹۵
IV- الطريق المؤدية من جبى إلى سمفور ---- ۱۹۵
V- الطريق المؤدية من صنعاء إلى قسمة عبر لومة ---- ۱۹۵
VI- الطريق المؤدية من ذمار إلى دوران ---- ۱۹۵
VII- الطريق المؤدية من صنعاء إلى صعدة ---- ۱۹۶
VIII- الطريق المؤدية من صنعاء إلى كوكبان ---- ۱۹۶
VIIII- الطريق المؤدية من شبام إلى عمران ---- ۱۹۷
طريق كوكبان، عبر حشيش فى تهامة ---- ۱۹۷
ملاحظات حول الجوّ فى كل من القسطنطينية و القاهرة و شبه الجزيرة العربية و بومباى ---- ۱۹۸
تدوين السيد كرايمر فى السويس لدرجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت خاصتى أثناء رحلتى إلى جبل سيناء عام ۱۷۶۲. ---- ۱۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى القاهرة فى شهر تشرين الثانى/ نوفمبر ۱۷۶۲. ---- ۱۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى جدّة فى بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر ۱۷۶۲ ---- ۱۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى مخيّة فى شهر كانون الثانى/ يناير ۱۷۶۳ ---- ۱۹۸
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى مخيّة فى شباط/ فبراير ۱۷۶۳ ---- ۱۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى الشهر نفسه فى بيت الفقيه ---- ۱۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى بيت الفقيه فى شهر آذار/ مارس ۱۷۶۳ ---- ۱۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى بيت الفقيه فى شهر نيسان/ أبريل ۱۷۶۳ ---- ۱۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى المخا فى شهر أيار/ مايو ۱۷۶۳ ---- ۱۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى جدة فى بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر ۱۷۶۲ ---- ۱۹۹
فى تعز فى نهاية شهر حزيران/ يونيو ۱۷۶۳ ---- ۱۹۹
خلال سفرى من تعز إلى صنعاء لا حظت ارتفاع مستوى محرّ ريومور. ---- ۱۹۹
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى تموز/ يوليو ۱۷۶۳ فى بئر القصب قرب صنعاء ---- ۲۰۰
درجات الحرارة وفقا للمحرّ نفسه فى المخا فى شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۳ ---- ۲۰۰
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى بيرا(Pera) قرب القسطنطينية فى شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۱ ---- ۲۰۰

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر تشرین الثانی/ نوفمبر ۱۷۶۱ ---- ۲۰۰
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی کانون الأول ۱۷۶۱ ---- ۲۰۱
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی کانون الثانی/ ینایر ۱۷۶۲ ---- ۲۰۱
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شباط/ فبرایر ۱۷۶۲. ---- ۲۰۱
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی آذار/ مارس ۱۷۶۲ ---- ۲۰۱
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی نیسان/ أبریل ۱۷۶۲. ---- ۲۰۱
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر أیار/ مایو ۱۷۶۲ ---- ۲۰۱
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر حزیران/ یونیو ۱۷۶۲. ---- ۲۰۱
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر تموز/ یولیو ۱۷۶۲ ---- ۲۰۱
درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۲ ---- ۲۰۲
فی شهر أیلول/ سبتمبر ۱۷۶۳ ---- ۲۰۲
فی شهر تشرین الأول/ أکتوبر ۱۷۶۳ ---- ۲۰۲
فی شهر تشرین الثانی/ نوفمبر ۱۷۶۳ ---- ۲۰۲
فی شهر کانون الأول/ دیسمبر ۱۷۶۳ ---- ۲۰۲
فی شهر کانون الثانی/ ینایر ۱۷۶۴ ---- ۲۰۲
فی شهر شباط/ فبرایر ۱۷۶۴ ---- ۲۰۳
فی شهر آذار/ مارس ۱۷۶۴ ---- ۲۰۳
ملاحظات حول حرارة الهواء فی القسطنطینیة ---- ۲۰۴
فی الإسکندریة ---- ۲۰۴
فی القاهرة ---- ۲۰۴
فی شبه جزیرة العرب ---- ۲۰۶
ارتفاع مستوی الزئبق فی محرّ ریومور فی القاهرة طیلة الأیام عند الظهیرة علی مدی عام ۱۷۵۹ ---- ۲۰۸
ارتفاع مستوی الزئبق فی محرّ ریومور فی القاهرة طیلة الأیام عند الظهیرة علی مدی عام ۱۷۶۰ ---- ۲۰۸
ارتفاع مستوی الزئبق فی محرّ ریومور فی القاهرة طیلة الأیام عند الظهیرة علی مدی عام ۱۷۶۰ ---- ۲۰۸

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---------- ۲۰۸

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر المجلد ۱

اشارة

ام كتاب: رحلة الى شبه الجزيرة العربية / تعريب عبير منذر

نويسنده: نيبور، كارستن

تاريخ وفات مؤلف: ۱۸۱۵ م

موضوع: سفرنامه

زبان: عربى

تعداد جلد: ۲

ناشر: موسسه الانتشار العربى

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۲۰۰۷ م

نوبت چاپ: اول

rhlah ila shbh aljzirah ala'rbiah wila blad a'khra mjaourah lha

تأليف: كارستن نيبور تاريخ النشر: ۰۴/۱۰/۲۰۰۷

ترجمة، تحقيق: عبير المنذر

الناشر: مؤسسة الانتشار العربى

النوع: ورقى غلاف كرتونى، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۷۶۲ صفحة الطبعة: ۱ مجلدات: ۲

يحتوى على: صور/رسوم ،جداول ،رسوم بيانية

الجزء الأول

المحتويات

المقدمة ۱۱

الرحلة من كوبنهاغن إلى القسطنطينية ۱۵

ملاحظات من القسطنطينية ۳۰

الرحلة من القسطنطينية إلى الإسكندرية ۳۹

ملاحظات من الإسكندرية ۴۴

الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة ۵۲

رحلة دمياط، و العودة إلى القاهرة ۵۷

ملاحظات حول خط سير الرحلة بين الرشيد، و القاهرة و دمياط ۶۶

أسماء المدن و القرى التى ذكرها السيد فورسكال خلال رحلته من القاهرة إلى الإسكندرية ۸۱

مواقع بعض المدن المصرية القديمة ۸۳

وصف القاهرة، و بولاق، و مصر العتيقة و الجيزة ۹۰

سكان مدينة القاهرة و شكل الحكم و التجارة فيها ۱۰۶

الآلات التى تعمل على الماء، الطواحين، معاصر الزيت، آلات الزراعة، أفران النشادر و آلات تفقيس البيض فى مصر ۱۱۷

لباس أهل الشرق ۱۲۷

التمارين و التسليات التى يقوم بها الشرقيون فى أوقات فراغهم ۱۴۱

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶

آثار مصر ۱۵۸

سير الرحلة من القاهرة إلى السويس، و إلى جبل سيناء ۱۸۴

الرحلة من السويس إلى جدة ۲۱۸

ملاحظات فى جدّة ۲۳۱

الرحلة من جدة إلى مخيّة ۲۴۱

رحلة من مخيّة إلى بيت الفقيه ۲۶۱

رحلة من بيت الفقيه إلى غلفقة و الحديدة و الزبيد و التحيتا(Tahate) و القحمة(Kahhma) و هدية و إلى الجبال المنتجة للبنّ ۲۶۹

سير الرحلة من بيت الفقيه إلى عدن، و جبلة و تعز و حاس ۲۸۱

الرحلة من بيت الفقيه إلى المخا ۲۹۳

الرحلة من المخا إلى تعز ۳۰۲

الرحلة من تعز إلى صنعاء ۳۱۵

الرحلة من صنعاء إلى المخا ۳۴۱

سير الرحلة من المخا إلى بومباى ۳۵۳

سير رحلة هولندى فى مناطق يمنية لم تذكر فى الصفحات السابقة ۳۵۹

ملاحظات حول الجو فى كل من القسطنطينية و القاهرة، و شبه الجزيرة العربية و بومباى ۳۶۵

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۷

رائحة اللوحات

فهرس اللوحات الصفحة

۱- منظر الشواطىء قرب جبل طارق و سبتة(۲۳ (Ceuta

۲- منظر لمدينة مرسيليا ۲۵

۳- خارطة مدينة القسطنطينية، و غالاتا(Galata) ، و صودار(۳۳ (Scudar

۴- كتابات هيروغليفية على مسلّة فى القسطنطينية ۳۶

۵- قياس بعض المسلّات و أهرام مصر ۴۷

۶- منظر لمدينة الرشيد ۵۳

۷- خارطة مدينة دمياط ۵۹

۸- منظر لمدينة دمياط ۶۲

۹- قلعة على مصب النيل ۶۴

۱۰- بعض الآثار المصرية ۸۵

۱۱- منظر لباب الفتوش، أحد أبواب القاهرة ۹۴

۱۲- مخيم الحجاج قبل انطلاقهم إلى مكة ۱۰۰

۱۳- بعض الآلات المائية فى مصر ۱۱۸

۱۴- رسم و صورة لطاحون فى القاهرة ۱۲۰

۱۵- صورة لفرن ملح النشادر، و آلات أخرى مختلفة ۱۲۲

۱۶- صورة فرن، لتفقيس البيض ۱۲۴

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸

۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۰- لباس الرأس عند الشرقيين ۱۲۹، ۱۳۱، ۱۳۳، ۱۳۴، ۱۳۶

۲۲- لباس نساء الإغريق فى الإسكندرية ۱۳۹

۲۳- ألعاب الشرقيين المختلفة ۱۴۳

۲۴- الآلات الموسيقية عند الشرقيين ۱۴۷

۲۵- رسم للراقصات فى القاهرة ۱۵۱

۲۶- رسم لموكب عرس فى القاهرة ۱۵۵

۲۷- رسم لعرب مصر ۱۶۰

۲۸- كتابات هيروغليفية على صندوق قرب قلاع الكبش ۱۶۶

۲۹، ۳۰، ۳۱، ۳۲، ۳۳- كتابات هيروغليفية على صندوق من الرخام فى بولاق ۱۶۸، ۱۷۰، ۱۷۲، ۱۷۳، ۱۷۵

۳۴- كتابات هيروغليفية على مسلّات مكسورة ۱۷۶

۳۵، ۳۶- كتابات هيروغليفية على أوان صغيرة من المرمر ۱۷۷، ۱۷۸

۳۷- كتابات هيروغليفية و رموز على صندوق مومياء ۱۷۹

۳۸- كتابات هيروغليفية نقشت على الخشب و الحجر ۱۸۰

۳۹- رموز و أشكال من الكتابات الهيروغليفية ۱۸۲

۴۰- رسم لبعض الآلهة عند المصريين ۱۸۳

۴۱- منظر للصخور فى الطريق نحو جبل سيناء ۱۹۶

۴۲- موقع الدير على جبل سيناء، و إحدى المقابر ۱۹۹

۴۳، ۴۴- كتابات هيروغليفية على مقابر فى الصحراء ۲۰۲، ۲۰۶

۴۵، ۴۶- منظر للدير على جبل سيناء ۲۰۸، ۲۰۹

۴۷، ۴۸- كتابات على طريق السويس نحو جبل سيناء ۲۱۲، ۲۱۴

۴۹- منظر لمدينة السويس و الطور(۲۱۶ (To ?r

۵۰- محيط الطور ۲۲۱

۵۱- منظر لمدينة ينبع(Janbo) و لمدينة جدّة ۲۲۷

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹

۵۲- صورة لحاج تركى ۲۲۸

۵۳- خارطة مدينة جدة ۲۳۵

۵۴- صورة لصياد فى جدة ۲۳۹

۵۵- صورة لامرأة من جدة ۲۴۲

۵۶- وضع مدينة ينبع و القنفذة(Ghچ۲۴۷ (nfude

۵۷- صورة لامرأة عربية من تهامة ۲۵۴

۵۸- خارطة لمدينة مخيّة ۲۵۷

۵۹- منظر لمدينة بيت الفقيه و محيطها ۲۶۲

۶۰- خارطة لمدينة بيت الفقيه و محيطها ۲۶۷

۶۱- منظر فى محيط قرية بلقاص(Bulg ce) ، و للجبال التى تنتج البن ۲۷۸

۶۲- صورة لامرأة عربية من الجبال المنتجة للبن ۲۷۹

۶۳- منظر لهدية(۲۸۲ . (H die.

۶۴- خارطة مدينة تعز ۳۰۵

۶۵- منظر لمدينة تعز ۳۰۶

۶۶- منظر لقصر يريم، و لمنزل فى بير القصب ۳۲۹

۶۷- تصوير لجلسة بحضور إمام صنعاء ۳۳۱

۶۸- خارطة لمدينة صنعاء ۳۳۸

۶۹- لباس أصحاب الشأن من العرب فى اليمن ۳۳۹

۷۰- وضع مدينة المخا(Mochha) و مرفئها ۳۴۶

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱

المقدمة

شغلت هذه الرحلة الشهيرة حيّزا مهما فى التاريخ الأدبى لقرننا هذا، حتى أن إحدى الإمم التى حاولت أن تستأثر بالفنون و العلم حسدت عظمة هذه الرحلة. و اهتم علماء البلاد قاطبة بنجاح هذه المهمة فحاولوا قطف ثمارها دون أن يقاسمونا مخاطرها. و عاد السيد نيبور وحده من شبه الجزيرة العربية من بين الخمسة الذين تشرفت الدانمارك بإرسالهم بكنوز علمية أهم من فروة كولشيد الذهبية الشهيرة، و قد حاول بعض النمامين الحسّاد الادعاء أن موت زملاء الأول أودى بثمار الأبحاث كافة، لكن ما إن أصدر وصفه لشبه الجزيرة العربية حتى سارع العلماء البارزون إلى مدحه و الثناء على ملاحظاته المفيدة و البنّاءة.

و لا يجهل أحد فى عالم الأدب انطلاقة هذه الرحلة و تطوراتها و نتائجها، كما نجد هذه المعلومات مفصلّة فى مقدمة أسئلة السيد ميكائيليس و مقدمة وصف شبه الجزيرة العربية، مما دفعنا إلى الاكتفاء بما لم يرد فى مقدمة الأعمال السابقة التى انتشرت و نالت الإعجاب.

استهل السيد نيبور عمله بالإشارة إلى أن «سكان اليمن، أى سكان الجزء الجنوبى لشبه الجزيرة العربية، الذى يعرفه الأوروبيون باسم العربية السعيدة Felix Anabia ، كانوا فى العصور الغابرة متحضرين و مشهورين بتجارتهم مع الأجانب». و أضاف إن «هذا البلد لا

يزال الأهم بنظر العلماء، لذا استحق أن يعرف بدقة أكبر. و كنا قد استفدنا من اللغة العربية فى ترجمة مقاطع عدة من الكتاب المقدّس، لكن هذه اللغة تنقسم إلى لهجات محلية عدّة شأنها فى ذلك شأن اللغات القديمة المستخدمة فى بلاد شاسعة، و تبقى لهجة اليمن لغزا يحيّر علماء أوروبا. و يمكن لشبه الجزيرة العربية أن تشكل حقلا واسعا للاكتشافات بالنسبة لعلماء الطبيعيات، فقد يجد مترجمون فى الأسماء التى يطلقها العرب على النبات و الأحجار و غيرها تفسيرا لأسماء كثيرة وردت فى الكتاب المقدس. و تحصد الجغرافيا فوائد عدة من رحلة كهذه، إذ تكثر عندنا الكتب العربية القديمة حول التاريخ و الجغرافيا التى ينبغى معرفة وضع الجزيرة الحالى لفهمها، كما أتت الكتابات المقدّسة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲

على ذكر مدن عربية عدة. و يمكننا ذكر أسباب أخرى، جعلت محبى العلوم يتمنون أن تقوم بعثة علماء برحلة كهذه».

و بعد ذكر أسباب الرحلة و نتائجها فى مقدمة وصف شبه الجزيرة العربية، يضيف الكاتب: «بالرغم من أن الموت غيّب رفاقى، فلا ينبغى اعتبار أعمالهم و كأنها هباء منثورا، إذ إن السيد فورسكال قد قام بعمل جبّار حتى مرض، و زوّدنى بمعلومات مهمّة حول التاريخ الطبيعى، كما ترك السيد دى هافن معلومات دقيقة حول الرحلة من كوبنهاغن إلى القاهرة، و من السويس إلى جبل سيناء».

و يضيف السيد نيبور: «إن الذين يقرؤون العمل للتسلية و إزجاء الوقت، يستمتعون حين يروى المسافر قصصا هزلية عن طريقة حياة الغرباء، و عن المصاعب التى واجهها الخ». و يعترف قائلا «إن هذا أكثر إمتاعا من وصف جاف للمدن و الطرقات التى مرّت بها البعثة، و ليسهل على جمع عدد كبير من هذه القصص اللافتة و الممتعة، فلقد تكبّدت مشقة كبيرة حين رسمت خرائط المدن و وضعت تفاصيل الطرق. لكن محاولة تسلية القارىء ستدفعنى إلى إهمال الأبحاث المفيدة هدف الرحلة. لكنى لم أتمكن من كبت شعورى حين وجدت أن العرب لا يقلّون إنسانية عن الأمم الأخرى التى تدّعى الأدب و التهذيب، و لقد أمضيت فى البلاد التى زرتها (كما ينبغى أن يتوقع كل مسافر) أياما ممتعة و أخرى مزعجة. و كنت قد كلّفت دراسة الجغرافيا، و الذين يعرفون هذا الميدان، يقدرون ما ينبغى تكبّده من متاعب لجمع معلومات فى بلد غريب، و لا يجهلون أهمية مهمتى، و بالتالى يستطيعون إطلاق حكم سليم حول مدى إنجازى لها».

و أدرج السيد نيبور فى نهاية عمله، رواية رحلات المرتد الهولندى الذى جال فى مناطق عدة من اليمن و هى المناطق التى لم يتمكن من زيارتها بنفسه، ثم أتت ملاحظاته حول الجو لاحقا، على أن يتركها للجزء الثانى، و هى ملاحظات سجلها بين كوبنهاغن و بومباى.

ثم تواجه عالمنا مع عدد من الصحافيين الذين أوردوا مقتطفات من عمله، فأثنى على الذين تحدثوا عنه بإنصاف و عقلانية و منطق، و لكنه لم يتوان عن تشبيه الذين أطلقوا عليه حكمهم- دون أن يسمعوه- بالسراج(Seradji) ، فقال: «لا يحق لهم أن ينصبّوا حكّاما شرعيين على الآداب، على غرار السراج بين قضاة مصر». و استفاض بلوم الصحافى دى لمغو(de Lemgo) الذى أسند إليه ملاحظات بعيدة كل البعد عن تلك التى عرضها، و قد أورد أمثلة عدة على ذلك. يقول الصحافى «نستنتج من روايات الكاتب أن الجو فى شبه الجزيرة أقل صفاء من جو أوروبا، و أنّ أهل الزوج يعتبرون الزوجة إرثا لا ينتقل إلى أيد غريبة، و أنّ بطليموس لم يلغ لغة الفراعنة كما فعل بلغة الأقباط، و أنّ القرآن كتب على الأرجح بأحرف قبطية، و أنّ الأفاعى خطيرة بوجه الإجمال فى شبه الجزيرة، و أن العرب لا يحتاطون من البرص انطلاقا من قناعة دينية، و أن المنّ يكثر بعد تساقط الأمطار بغزارة، و أنّ الخصوبة تضاعف بألف، الخ ...». و إن راجعنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۳

وصف شبه الجزيرة العربية، لكونّا فكرة مغايرة عن الموضوع. و يبرهن كاتبنا بفصاحة أن مقتطفات كهذه تسىء إلى العمل، و يجب ألا تقتضب أقوال كاتب بهذه الطريقة العنيفة، و ينبغى أن نتوقع أن يقوم البعض بإسدال ستار خداع على أسلوب كتاب يريدون مدحه، انطلاقا من تحيز أعمى و متصلّب، فيما يقوم آخرون بالسخرية من العمل عبر إظهار نقاط ضعفه و حسب. و للردّ على هؤلاء، طلب

السيد نيبور من السيد ميكائيليس إصدار حكمه، و يبدو لنا أنّ هذا الأخير أجدر الناس بالحكم على العمل لاطلاعه، و بالتالى يمكننا إلقاء نظرة على المقتطف الذى كتبه عن وصف شبه الجزيرة العربية و الذى ورد فى آخر أسئلته.

نأمل أن يلاقى هذا العمل إعجاب القراء. و أن يسعى أبناء عصرنا وراء الاكتشافات العظيمة، و أن يهتموا بالأمور المفيدة، و لا نشك فى أنّ كتابا كهذا يسلّط الضوء على جزء من الكرة الأرضية مثير للاهتمام و مجهول، لذا سيلاقى بين هواة المعلومات الحقيقيين التقدير و الإعجاب.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵

الرحلة من كوبنهاغن إلى القسطنطينية

إلى القسسطنطينية

اجتمعت بعثتنا التى أعدّت العدة للسفر إلى شبه الجزيرة العربية فى كوبنهاغن، و تلقت الأمر من الملك بالتوجه إلى أزمير على متن أسطول حربى فركبنا السفينة فى ۴ كانون الثانى ۱۷۶۱. و تبين لنا أولا أننا نتمتع بكافة وسائل الراحة و التسلية الممكنة أثناء هذه الرحلة. و كانت السفينة بقيادة السيد هنرى فيشر، فجهز لنا غرفتين واسعتين بقدر ما تسمح به السفينة، و اعتدنا تناول طعام الغداء و العشاء فى غرفة القبطان، و قد برهن هذا الأخير فضلا عن ضباط الطاقم عن لطف و تهذيب فائقين. و لقد اضطررنا إلى البقاء فى المرفأ ليومين بانتظار رياح مؤاتية فلم نبحر إلا فى السابع من شهر كانون الثانى، ففى ذاك اليوم هبّت رياح جنوبية مواتية لكنها كانت هادئة فبلغنا بصعوبة مرفأ هلسنيورى(Helsingo ?r) عند المساء بالرغم من التيار. و فى الأيام التالية، استحالت الرياح قوية، و بالرغم من أننا رفعنا الأشرعة فى ۴ كانون الثانى، لم تدم الرياح المواتية طويلا، فهبّت فى الليلة التالية عاصفة هوجاء استمرت دون توقف حتى صباح السادس عشر من الشهر نفسه. و دهمنا فى هذا الوقت خطر شديد، فالجو مظلم، و قد استحال علينا تحديد موقعنا بسبب التيار الذى يتجه فى الكاتغيت(Kattegat) تارة نحو الشمال و طورا نحو الجنوب. و فى صباح السادس عشر من كانون الثانى، خشينا أن نكون قرب شواطىء السويد، لكن الشمس التى بانت قليلا عند الظهر سمحت لنا بتحديد موقعنا قرب جزيرة ليسويه(Lesso ?e) . و بما أن الريح لم تكن مواتية، عاد الجو مظلما من جديد، قررنا فى السابع عشر العودة إلى هلسنغر، فوجدنا فى المرفأ السفن التى غادرته معنا، و اعتقدنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶

أن السفن التى لم تعد إما التجأت إلى مرافىء أخرى أو غرقت. و عند ما غادرنا هلسنيورى، عبرنا سوند(Sund) ، أطلقنا ثلاث طلقات مدفع تحية، ردّت، عليها قلعة كورنبرغ(Corenberg) بثلاث طلقات، و قلعة هلسنيورى بأربع طلقات، فالسويديون يحيون بطلقات مزدوجة، فيما يحيى الدنماركيون بطلقات مفردة، لكن هذه العادة لم تتبع عند عودتنا، لأننا حاولنا مرارا المغادرة، فالأساطيل الحربية التى تمرّ فى سوند لا تحيى إلا فى المرة الأولى التى تبحر فيها و بعد العودة من رحلتها.

و لقد حرصت فى الرحلات كلها على قياس ارتفاع القطب عند الظهر و فى المساء، و استخدمت لهذه الغاية ثمنية هادلى(Hadley) . و للملاحظات المسجلة فوق البحر فائدة كبرى و إن كانت لا تتمتع بدقة تلك التى تسجل على الأرض و بالتحديد حين يكون الطقس شتاء حيث لا ترتفع الشمس كثيرا فوق الأفق. و يمكننا تحديث الخرائط الجغرافية و البحرية و جعلها أكثر دقة إذا ما تأكدنا من موقع الأماكن الرئيسة و يسعدنى أنى تمكنت من تحديدها بدقة كبيرة، و لكن لا جدوى من إدراج الملاحظات و الحسابات الفلكية التى سجلتها فى عرض البحر هنا، و سأكتفى بذكر تلك التى سجلتها قرب الشواطىء و أولها فى ۱۸ كانون الثانى حيث كنا قرب هلسنيورى جنوبا. و حدّدت ارتفاع القطب على ۵۵؟ ۵۷؟، و كانت الإبرة الممغنطة تميل ۱۴ درجة نحو الشمال.

ثم فى ۲۶ كانون الثانى (يناير) غادرنا هلسنيورى للمرة الثانية، و كانت الرياح مواتية، و فى اليوم التالى حل الضباب طيلة النهار فرأينا

فی الشمال عند الظهر قوس قزح ضبابیا، لا یختلف عن القوس قزح العادی إلا بکونه أبیض و من غیر ألوان. و عند ظهر الیوم التالی، فی ۲۸ کانون الثانی، تبین لی أن ارتفاع القطب یبلغ ۵۷؟ ۷۴؟، و استنتجت ذلک من انحراف الإبرة الممغنطة التی تمیل فی هذا المحیط نحو الشمال إلی ۱۴ درجة و نصف. و حین یبعد المکان الذی نحاول تحدید ارتفاع القطب منه، ینبغی التحلی بنظرة ثاقبة و خبرة لتحدید المسافة الفاصلة بین المکان و السفینة، و بما أنها رحلتی الأولی راجعت الضباط و الملاحین مرارا لأنهم أصحاب خبرة أکثر منی فی هذا المیدان. و اعتبروا أننا نبعد ۳ أمیال و نصف عن مارشراند(Marstrand) ، لذا، تم تحدید ارتفاع قطب قلعة مارشراند علی ۵۷؟ و ۴۹؟، فیما قطب صکاغن(Skagen) علی ۵۷؟ و ۳۸؟ حسب تقدیرنا.

و ساعدتنا الریاح حتی أواخر کانون الثانی (ینایر)، فتمکنا من اجتیاز الکاتغیت(Kattegat) و وصلنا بحر الشمال. و فی بدایة شهر شباط (فبرایر) عاکستنا الریاح، و عصفت بقوة فی ۲ شباط (فبرایر) و اللیلة التالیة حتی أننا لم نجرؤ علی إشغال النار فی السفینة. لکننا جالدنا، لأننا علمنا أنه لا بد من تحمل هذه المشقات فی البحر، و تأسفنا لفقداننا أحد البحارة بعد أن وقع عن السفینة و لم نتمکن من إنقاذه بسبب الظلام الدامس و الأمواج العاتیة. و هدأت العاصفة، لکن الریاح بقیت معاکسة فتراجعنا بدلا من أن نتقدم.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۱۷

و صعد علی متن السفینة فی ۵ و ۶ شباط/ فبرایر ربّان من براکفیاد(Brackefiad) و آخر من فلکرو(Fleckero ?e) ، لکن قائد السفینة رفض المساعدة التی عرضاها علیه لاعتقاده بأن السفینة فی مأمن و لا داعی للجوء إلی أیّ مرفأ. و فی ۸ شباط/ فبرایر تعرّضنا لعاصفة هو جاء أخری، و طلبنا المساعدة، فما لبثنا أن رأینا مرکبا صغیرا یتجه نحونا من الشاطیء، لکن العاصفة ازدادت حدة و تساقطت الثلوج بغزارة فاضطررنا إلی العودة نحو عرض البحر و لم نعد نری المرکب. و استمرت الریاح تعصف فی الیوم التالی، و لم نعد نتوقع تحسنا فی حال الطقس، أو نأمل باللجوء إلی أحد مرافیء النروج، فاجتزنا بحوالی ۳۰ ساعة المسافة التی أخذت منا ۱۵ یوما عند الانطلاق، فرسونا فی ۱۰ شباط/ فبرایر قرب حصن کرونبرغ(Cronenburg) .

فی ۱۲ شباط/ فبرایر، تبین لی أن ارتفاع القطب، علی بعد ربع میل إلی الجنوب من کرنبرغ هو ۵۵؟ و ۵۹؟، لذا نستنتج أن ارتفاع قطب هذه القلعة الواقعة إلی الشمال و قرب مدینة هلسنیوری هو ۵۶؟.

و عانی البحارة الأمرّین من جراء الطقس الردیء، فمات بعضهم و مرض بعضهم الآخر، و بما أنه لا یجوز القیام برحلة طویلة کهذه مع کل هؤلاء المرضی، کتب قائد السفینة إلی کوبنهاغن طالبا النصح، فتلقی الأمر بالعودة. و فی أثناء ذلک، تحوّلت الریاح جنوبیة- شرقیة و جنوبیة کما تمنینا منذ فترة، فأرسلوا إلینا بسرعة المزید من المؤن و البحارة کی لا نتأخر. لکن یبدو أنه کتب علینا أن نکون لعبة فی ید الریاح التی عصفت غربا قبل أن نتمکن من رفع المرساة. و یدّعی البعض أن الهواء فی هذا المحیط یعصف من الجهة الغربیة للهاجرة خلال تسعة أشهر من السنة، و هذا الأمر محتمل للغایة إذا ما أخذنا بعین الاعتبار کم أرجأت هذه الریاح رحلتنا.

و أصیب رفاقی الأربعة بدوار البحر، لکنهم رفضوا ترک المرکب باستثناء السید دی هافن الذی لم یتأقلم مع السفر بحرا. و بما أن السفینة سترسو فی مرسیلیا، طلب إذنا من الملک کی یسافر إلی هذه المدینة برا، و ما إن حصل علی الإذن حتی غادر السفینة فی ۱۷ شباط/ فبرایر. و لم أعان کالآخرین لأننی لم أصب بدوار البحر حتی خلال العواصف الهوجاء، کما سلّمت أمری للرب و اتکلت علی مهارة ضباطنا و بحارتنا، فکنت آوی إلی فراشی کلما هبّت عاصفة فی حین کان هؤلاء یجاهدون للحفاظ علی السفینة رغم البرد و المطر و الریاح.

و فی ۱۹ شباط/ فبرایر مساء، ترکنا مرفأ هلسنیوری للمرة الثالثة، آملین أن تساعدنا الریاح المواتیة، لکن ما إن وصلنا صکاغن(Skagen) ، حتی تحولت الریاح إلی غربیة و أجبرتنا علی الإبحار فی قناة الکاتغیت.

و فی ۲۲ ظهرا، کان رأس کول(Kull) علی بعد خمسة أرباع المیل إلی الشرق، و کان ارتفاع القطب ۵۶؟ و ۲۰؟، و بالتالی ارتفاع قطب الرأس ۵۶؟ و ۱۹؟؛ و عند المساء، ألقینا المرساة قرب هلسنغر.

منذ غادرنا كوبنهاغن، قطعنا ۴۵۰ ميلا لكننا لم نقترب من البحر المتوسط إلا ۴ أميال، و نكتشف مما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸

تقدم المخاطر التى يتعرض لها من يسافر بحرا و كم يصعب على البحار تحديد زمن وصوله و لا سيما فى هذه المناطق الشمالية حيث الرياح غير منتظمة بعكس المناطق المدارية.

و استأنا لعودتنا للمرة الثالثة، لكن ما لبثنا أن سررنا لوجودنا فى مرفأ لأن عاصفة هو جاء هبّت فى اليوم التالى، فحمتنا الشواطىء من غضب الطبيعة، لكننا اضطررنا إلى إنزال عارضات الصارى و الصوارى كى لا تعانى السفينة من الرياح العاتية. و أخذت الأمواج تلطم السفينة بعنف كما لو كنا فى بحر الشمال، فأنزلنا مرساة ثالثة خوفا من ألّا تكفى الأوليان لإيقاف الباخرة. و هبّت الرياح من الغرب و دامت حتى الخامس من شهر آذار/ مارس ثم هدأت تدريجيا.

كان لا بد لنا، بحسب تقديرنا و بحسب يوميات المسراع ، من أن نتقدم أكثر نحو الشمال عند مغادرتنا، و نحو الجنوب عند عودتنا، فراقبت المسراع، و تبين لى أن خطه قصير بعض الشىء و أن الرمل لا يسيل إلا ۲۹ دقيقة، و اعتقدت أن فى الأمر خطأ ما، لكن تبين أن البحارة قلصوا خط المسراع عمدا لأنه يتمدد لاحقا بعد الاستعمال، و بالتالى يتم تصحيح الخطأ الناتج عن قصره تلقائيا. أما سبب عدم سيلان رمل النصف دقيقة ۳۰ ثانية فيعود إلى عدم إمكانية إيقاف الخط فى الوقت المحدد الذى تعطى فيه الإشارة و لا سيّما حين تكون السفينة مسرعة. إذا، لهذه التصحيحات فائدتها، خاصة فى عرض البحر و حين تكون الرياح مواتية، و تجعل البحار أكثر انتباها حين يخشى المرور فى مكان خطر، أو حين يدفع التيار السفينة بشكل ملحوظ. لكن حين تكون القناة ضيقة كالكاتغيت، و حين تعاكس الرياح سير السفينة كما حصل معنا، قد تؤدى هذه الوسائل إلى نتائج غير محمودة، لأننا نردّ الخطأ عادة إلى قوة التيار و تنوعه. و مهما حاولنا اتباع القواعد الواردة فى كتب الملاحة بدقة، تطالعنا صعوبات جمّة عمليا فلا يمكننا تحديد مكان تواجدنا بدقة حين تتعدد الرياح المعاكسة. و حرىّ بالملاحين اعتماد الملاحظات الفلكية للتأكد من تقديراتهم، فمراقبة القمر تسمح بتحديد خط الطول فى عرض البحر بدقة. و اعتمد البروفسور ماير هذه الطريقة التى تنتشر بين الإنكليز، فقد صادفت فى بومباى ربّان سفينة و بحارا من مركبين مختلفين تابعين لشركة الهند الغربية يستعملان هذه الطريقة بنجاح كبير. و قد قمت بنفسى بدراسات عدة خلال الرحلة، فأرسلتها من مرسيليا إلى البروفسور ماير الذى سعد بتلقيها، و أمر بإرسالها إلى إنكلترا و هو على فراش الموت ليبرهن فائدة ألواحه القمرية. و طبعت هذه الدراسات فى إنكلترا مرفقة بلوائح السيد ماير المصححة.

فى ۱۰ آذار/ مارس غادرنا مرفأ هلسنيورى للمرة الرابعة، و عند الظهر أصبح رأس كول على مسافة ميلين و ثلاثة أرباع منا، ما بين الجنوب الشرقى و جنوب الجنوب الشرقى، و أضحى ارتفاع القطب ۵۶؟

و ۲۷؟، مما يعنى أن ارتفاع قطب رأس كول يبلغ ۵۶؟ و ۱۸؟. و فى ۱۲ آذار/ مارس، أضحى ارتفاع القطب ۵۷؟، ۵۸؟، على بعد ۴۰ ميلا نحو الغرب، إلى الشمال من صكاغن(Skagen) ، و تبين لنا هنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹

أن الإبرة المغنطة تميل نحو الشمال ۱۷؟؛ كما لاحظنا أن المياه أصبحت أكثر ملوحة كلما اقتربنا من بحر الشمال. و أشار المكحال لدىّ فى المياه العذبة إلى ۳۲۶ د و فى مرفأ كوبنهاغن إلى ۳۳۰، و قرب هلسنيورى إلى ۳۳۱، و قرب رأس كول إلى ۳۳۲، و قرب نسّ(Nesse) إلى ۳/ ۴ ۳۳۳ و إلى ۳۳۸ حيث كنّا. و بما أن السيد فورسكال كان يملك مكحالا أكثر دقة من مكحالى و يعمل على تسجيل درجة ملوحة المياه بدقة، لم آبه كثيرا بالموضوع. كما بحث عن سبب و ميض المياه المالحة و أظنه اكتشف السبب خلال الرحلة، فقد اعتاد أن يجمع أنواعا عدة من الحيوانات البحرية و من بينها أنواع مختلفة من الميدوزا (قنديل البحر) ، و بعد رمى بعض منها من النافذة ليلا لاحظنا أن شرارات صغيرة تظهر على كل ما تلمسه المياه التى تعيش فيها هذه الحيوانات. ثم أعاد تجربته و تأكد ظنه بأن و ميض مياه البحر ناتج عن هذه الحيوانات الصغيرة اللزجة التى تكثر فى البحار.

و بما أن ارتفاع القطب بلغ ۶۰؟ و ۲۹؟، و حوالى ۸؟ و ۴۳؟، نحو غرب هاجرة باريس، لاحظنا فى ۱۶ آذار/ مارس أن الإبرة المغنطة تميل نحو ۲۲؟ و ۳۰؟. أما فى ۱۸ آذار/ مارس فمالت ۲۵؟، وفقا لدراستنا، علما أن ارتفاع القطب ۶۰؟ و ۲۴؟، و حوالى ۱۱؟ و ۱۰؟ نحو غرب هاجرة باريس.

و استمرت الرياح مواتية لنا أكثر مما كانت عليه فى الرحلات السابقة العقيمة، و عند ما اقتربنا من نسّ، و بدلا من أن نعود إلى هلسنيورى كما فعلنا سابقا، هبّت فى ۱۲ آذار/ مارس عاصفة مناسبة جعلتنا نتقدم ميلين و نصف الميل فى بعض الأحيان. لكن فى ۱۹ آذار/ مارس هبّت رياح معاكسة استمرت حتى آخر الشهر و عنفت فى بعض الأحيان، و وقع بحاران عن الصارى فكسر ساق أحدهما و جرح الآخر لكنه ما لبث أن عاد إلى أعماله. و لم نتعرض لخطر عظيم لأننا فى عرض البحر و على متن باخرة متينة، و لم نشعر بعنف حركة المركب إلا حين هدأت العاصفة فجأة، فعند ما تعصف الرياح لا يميل المركب إلا من جهة واحدة، لكن حين تتوقف الرياح فجأة، لا يمكن للسفينة إلّا أن تتبع حركة المياه حتى يهدأ البحر الذى أثارته العاصفة.

و دفعتنا الرياح المعاكسة حتى ۶۳؟ و نصف من ارتفاع القطب أى قرب شواطىء إيسلنده، و بدأت طلائع الربيع تظهر فى ۳۱ آذار/ مارس فعرفنا أجمل وقت فى العالم، لكن الهدوء ساد طويلا فلم نتمكن من التقدم. و بلغ ارتفاع القطب ۶۱؟، ۱۸؟، و خط الطول الغربى فى باريس حوالى ۱۴؟

و ۳۰؟، و تبين لنا وفقا لدراسات عدة و للنتيجة الوسطية أن الإبرة الممغنطة تميل نحو ۲۳؟، ۱۶؟.

و ربما أن السماء فى المناطق الشمالية نادرا ما تكون صافية، لم نر أى شفق قطبى شمالى، علما أن رؤيته أمر شائع على اليابسة فى هذه المنطقة. و فى ۳ نيسان/ أبريل مساء، شاهدنا قوس قزح متعدد الألوان، لكن السحب ما لبثت أن غطّته و حرمتنا من هذه المشهد الرائع.

فى ۵ نيسان/ أبريل، و أثناء عاصفة هوجاء، لاحظنا من أعلى الصارى نورا خفيفا يطلق عليه البحارة عادة اسم القديس جرمان أو

نار القديس ألم(St. Elme) ، لأن الاعتقاد ساد فى الماضى أن هذه الشعلة الخافتة هى علامة ظهور القديسين، لكن منذ اختراع الكهرباء توصلوا إلى تحديد هذه الظاهرة بشكل أصح. و عصفت الرياح الجنوبية الغربية التى منعتنا من التقدم ميلا واحدا طويلا، لكن فى ۶ نيسان/ أبريل أصبحت الرياح مواتية فقطعنا ۳۹ ميلا- و نصف الميل خلال ۲۴ ساعة. و فى اليوم التالى، قطعنا مسافة أطول، لأننا فى السابع من الشهر نفسه، عند الظهر، كنا على خط عرض ۵۷ و خط طول ۳۶، و فى الثامن من نيسان/ أبريل كنا على خط عرض ۵۴ و خط طول ۴۹. و فى ۱۶ نيسان/ أبريل لاحظت أن الإبرة الممغنطة تميل إلى ۱۶؟، ۱۷؟، و نحن على خط عرض ۴۲ و خط طول ۳۹. فى ۱۸ نيسان/ أبريل رأينا سنونو البحر و سمكا يعرف باسم نوردكابر(Nordkaper) ، فاستنتج الضابط معنا أنها دلائل عاصفة قادمة، ما لبثت أن هبّت بعد الظهر. و خلال هذه العاصفة، لاقى أحد البحارة حتفه بعد أن سقط فى البحر، و منعتنا الأمواج العاتية و سرعة السفينة من إنقاذه.

ثم مرت أيام لم نر فيها اليابسة، لكن فى ۲۱ نيسان/ أبريل، و عند المساء، شاهدنا رأس القديس فنسان فى الجنوب الشرقى، على بعد خمسة أميال و نصف الميل. و كان الضباط و التلامذة البحريون و الملاحون قد حدّدوا موقع السفينة استنادا إلى يوميات المسراع، لكن تقدير قائد السفينة كان الأكثر دقة لأنه لم يخطىء إلا بحوالى ۴۴ دقيقة و هى تعادل ثلاثة أرباع الدرجة. و أعطانى القائد نسخة عن تقديراته تظهر موقع السفينة اليومى عند الظهر منذ الحادى عشر من شهر آذار/ مارس و حتى الحادى و العشرين من شهر نيسان/ أبريل، و سأدرجه هنا حتى يتمكن من تحديد مسارنا عبر بحر الشمال على الخارطة كل من أراد ذلك. زد على ذلك، أنى لا أرى ضرورة رسم خارطة هذه الرحلة و بالتالى زيادة عدد الرسوم، علما أنى وضعت تقديرا للطريق التى سلكنا و سجلته على الخارطة الهيدروغرافية.

تحديد لموقع السفينة، يظهر موقعها يوميا عند الظهر منذ الحادى عشر من آذار/ مارس ۱۷۶۱ و حتى الحادى و العشرين من شهر

نيسان/ أبريل:

فى ۱۴ آذار، نقل الرأس من الخارطة المسطّحة إلى خارطة بحر أسبانيا المصغرة. و تواجدت على خط عرض ۶۱؟ ۱۸؟ شمالا و خط طول ۱۶؟ ۸؟.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲

فى هذا الوقت عينه، كان رأس القديس فنسان على بعد ۵ أميال إلى الجنوب الشرقى. و سجل موقع هذا الرأس على الخارطة على خط عرض ۶؟ ۴۵؟، أى إن الفرق ۴۴؟ و صفر؟

أضحت رحلتنا أكثر إمتاعا فى البحر المتوسط، فبعد أن أمضينا شتاء عاصفا فى الكاتغيت و بحر الشمال، دخلنا هذا المناخ اللطيف فى أجمل فصل من فصول السنة. و فى حين لم نر فى المناطق الشمالية- حيث أمضينا الشتاء- إلا بعض الجبال البعيدة، شاهدنا هنا جبالا تارة على الساحل الأوروبى و طورا على الساحل الإفريقى، و أحيانا على الساحلين فى آن واحد، و تضفى هذه الجبال على المنظر العام جمالا. و إن ضايقتنا العواصف فى بحر الشمال، فلقد أزعجنا الهدوء التام أحيانا فى البحر المتوسط، و لا سيّما و أن المياه العذبة شحّت على متن السفينة، لكن ضباطنا لم يجدوا هذا الأمر سببا كافيا لدخول مرفأ ما. و اكتفى السيد بورانفند(Baurenfeind) برسم بعض المناظر و منها جبل طارق و سبتة اللذان رسما على اللوحة الأولى. و فى ۱۴ أيار/ مايو، رسونا قرب سان أستاش(St .Estache) ، على بعد ميل و نصف إلى الغرب من مرسيليا، و صادفنا هناك سفنا حربية من إسبانيا و هولندا و السويد و مالطا. و كان مرفأ مرسيليا يعجّ بالسفن التجارية الفرنسية التى لم تكن تجرؤ على مغادرته بسبب الحرب بين فرنسا و إنكلترا. فضلا عن سفن البلاد المحايدة التى استأثرت بالتجارة بين فرنسا و الشرق و بلاد أفريقيا، كما صادفنا مركبا إنكليزيا يعيد إلى مرسيليا سجناء حرب فرنسيين. دخلنا المدينة عند المساء، و التقينا رفيقنا السيد دى هافن الذى غادر السفينة فى ۱۷ شباط/ فبراير و وصل مرسيليا عبر البر بعد أن اجتاز ألمانيا و فرنسا.

سعدنا بالإقامة فى مرسيليا بعد هذه الرحلة الطويلة، و عملنا على زيارة المكاتب و متاحف الهواة و أولئك الذين يجمعون حيوانات البحر و يبيعونها للهواة و صيادى المرجان الأحمر، فضلا عن الأبوين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۴

اليسوعيين الشهيرين السيد بزيناس(Pezenas) و السيد لاغرانج(La Grange) اللذين يملكان مرصدا مجهزا بأفضل المعدّات الإنكليزية. و لا حاجة هنا للحديث عن التجارة المزدهرة بين مرسيليا و الشرق، و عن وضع هذه المدينة، و مرفئها و حصونها و جنائنها الغنّاء و غير ذلك من الأمور، لأنها وصفت سابقا بشكل مفصّل، لكن السيد بورنفند رسم المدينة قبل مغادرتنا سان استاش، فطلبت تثبيت هذا المنظر على اللوحة رقم ۱۱ لأنى لم أشاهده فى مكان آخر.

صادفنا هنا ثلاثة مراكب تجارية دانماركية على استعداد لمرافقتنا إلى أزمير، صعدنا على متن السفينة فى أواخر شهر أيار/ مايو. على أن نبحر من سان أستاش مع هذه المراكب الثلاثة، لكن أبجر سفينتنا انقطع و مضى النهار بأكمله قبل أن نتمكن من رفع المرساة. و فى اليوم التالى، عاكستنا الريح، فلم نتمكن من الإبحار قبل ۳ حزيران/ يونيو، و فى الخامس منه، من بعد الظهر شاهدنا من بعيد أربع سفن و تبين لنا من الأعلام المرفوعة أنها سفن إنكليزية. و كنا قد صادفنا خارج مضيق جبل طارق إحدى سفن الأسطول التابع للأميرال سندرز(Saunders) ، و توقعنا أن نصادف سفنا أخرى تابعة لهذا الأسطول فى البحر المتوسط. و لم تكن الحرب معلنة بين الدانماركك و إنكلترا، لذا لم نتوقع أى اعتداء على سفينتنا، لكن بما أن سفننا التجارية كانت فى مرفأ فرنسى، و لم نكن نعلم إن كان الإنكليز سيفتشونها، اتخذ قائد السفينة الإجراءات اللازمة لمنعهم. و بقيت سفننا التجارية ملازمة لنا، و تمّ تحضير المدافع، و توزيع الأسلحة، و وضعت الأسرّة بما فى ذلك أسرّة الضباط و المسافرين فى شباك المتاريس، و وزعت المرشات حيث يجب وضعها، و باختصار تحضّرنا للقتال. عند المساء، سمعنا صوت مدفع، رددنا عليه فى الحال، لكن الهدوء منع الإنكليز من الوصول إلينا فى ذاك

اليوم، و بعد منتصف الليل، وصلت إحدى سفن الأميرال سندرز الأربع بقربنا، و بعد مفاوضات قليلة تابع كل منا طريقه. و فى السابع من الشهر نفسه، عند المساء، تحضّرنا مجددا للقتال، لأننا رأينا عشر سفن فى البعيد، لكنها ابتعدت خلال الليل و لم نرها منذ ذلك الحين. و فى اليوم الثانى، طلب قبطان إنكليزى، و هو آمر سفينة بحرية، زيارة سفننا التجارية، لكن قائد سفينتنا رفض السماح له بذلك. و عند ما رآنا على استعداد للدفاع عنها، انسحب على مضض.

فى ۶ حزيران/ يونيو، راقب علماء الفلك ظاهرة نادرة و هى مرور كوكب الزهرة أمام الشمس، و تحضّر العلماء لدراسة هذه الظاهرة فى أوروبا، كما أرسل علماء إلى أماكن مختلفة من العالم، و تلقيت الأمر بمراقبة هذه الظاهرة أينما كنت. و بما أن السفينة لم تكن قد ابتعدت كثيرا عن اليابسة، لن تكون لملاحظاتى فائدة كبيرة كما لو كنت على اليابسة، و صعب علىّ القيام بهذه الدراسة بالدقة المطلوبة، فحركة السفينة و إن كانت بطيئة تؤثر فى عمل كهذا. و بما أن البحر كان ساكنا لأيام عدة، فإننى استعديت لدراسة هذه الظاهرة بأفضل طريقة ممكنة، و سأورد ملاحظاتى، علما أن الخبراء لن يستفيدوا منها إلا- إذا أرادوا معرفة مدى خطئى. و فى ۶ حزيران/ يونيو، و عند شروق الشمس، كان كوكب الزهرة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶

أمام قرص الشمس، و بما أنه كان مغطى بغيمة سميكة عند انجلاء القسم الأول لهذا الكوكب، لم أر سوى انجلاء القسم الأخير منه. بعد مراقبة الكوكب، قست ارتفاع الشمس مرارا، و احتسبت ارتفاع القطب حيث كنا، ثم صححت الساعة بعد مراقبة القطب فى اليوم الثانى عند الظهر. و تبين لى من هذه الدراسة، الوقت الصحيح أن انجلاء الجزء الأخير لكوكب الزهرة عن قرص الشمس هو الساعة ۹ و ۳ دقائق، و ۵۳ ثانية، على خط العرض ۴۰؟ ۶؟، قرب خط هاجرة مدينة مارسيليا.

وصلنا جزيرة مالطا فى ۱۴ حزيران/ يونيو، ورسونا فى المرفأ الكبير، بالمدينة، لأن عاصمة هذه الجزيرة مقسّمة إلى مدن عديدة صغيرة، محاطة بمجموعة خلجان تشكّل مرافىء آمنة. و يبدو منظر المدينة رائعا من هذه الناحية، و قد بنيت منازلها على الطريقة الشرقية، أىّ مسطّحة من الأعلى و تستند إلى مرتفعات و عرة، و هى من الحجر المقصوب، حتى الحصون بنيت بالطريقة نفسها أو حفرت فى الصخر. أما الصخر الذى تقوم عليه الجزيرة فمن الحجر الكلسى الليّن الذى يمكن حفره بسهولة كالخشب. و لا ينبغى أن نستغرب إن وجدنا الكثير من الكنائس و القصور الرائعة لأن الجزيرة غنية بالمال و بالمهندسين الماهرين .

و تبقى كنيسة القديس يوحنا أبهى كنائس مالطا، فقد سخا عليها سادة المدينة الكبار و زينوها بقبورهم الرائعة. و يقال إنها جمعت كنزا لا يصدّق، من ضمنه زينة ذهبية و فضية ثقيلة الوزن كالتماثيل و الثريات و غيرها فضلا عن شمعدان كبير مع سلسلة ذهبية يقال إنها كلّفت ۵۰۰،۰۰۰ قطعة نقدية من نقد مالطا. و نجد العديد من الأشياء الثمينة ضمن الكنوز المحفوظة فى الكنائس المتاخمة، و من بينها صليب من الذهب الصافى، يزن ۲۴ ليبرة، و جزء من مهد يسوع المسيح المرصّع بالأحجار الكريمة. باختصار؛ فإن ثروة هذه الكنيسة تفوق كنوز الكعبة فى مكة، كما تفوق كنوز ضريح محمد فى المدينة. و نجد فى المدينة مستشفى جيدا، يستقبل كافة المرضى من دون استثناء و يعنى بهم، و يقال إن الطعام يقدم بأطباق من فضة، و لعل هذا الأمر الأخير يخصّ به الفرسان المرضى أو ذوى الشأن. أما اهراءات الحنطة الكبرى فمحفورة فى الصخر، و يتم جرّ المياه إلى المدينة من نبع يبعد عنها ثلاثة أميال تقريبا، و ذلك بواسطة أنابيب بنيت فى بداية القرن السابع عشر. يبلغ طول جزيرة مالطا أربعة فراسخ و ثلاثة أرباع أما عرضها ففرسخان و ربع. و تتميز الجزيرة بشاطئها المتعرّج فى الجنوب و شاطئها المستقيم فى الشمال، حيث نجد العديد من الخلجان، و حيث تمّ بناء العديد من الأبراج و الحصون لصد هجوم الأعداء، فأصبحت الجزيرة بالتالى محصّنة كليا. و لا نجد سوى مساحة صغيرة مزروعة، لكنها أرض غنية بكافة الفواكه الشهية، و يكثر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۷

السكان فى هذه الجزيرة بسبب الحرية التى يتمتعون بها.

و شاهدنا فی مرفأ مالطا السفینة الحربیة الترکیة، التی فرّ بها العبید المسیحیون من جزیرة ستانشیو(Stanchio) فی ۱۹ أیلول/ سبتمبر ۱۷۶۰، حین کان القبطان الترکی و مساعدوه علی الیابسة. و بقی العبید الفارون فی جوار هذه الجزیرة، حتی بعث إلیهم أهالی مالطا الذین لم یفهموا کیف تجرأت سفینة ترکیة علی الاقتراب من جزیرتهم. و وعد العبید بتسلیم السفینة و المدافع شرط أن یسمح لهم بمقاسمة باقی الغنائم، فدخلت السفینة المرفأ فی ۶ تشرین الأول/ أکتوبر من السنة نفسها. و عاد العقلاء من العبید إلی موطنهم مع حصتهم من الغنیمة، فی حین بقی قسم آخر منهم فی مالطا و عملوا جاهدین علی تبدید حصتهم. و عثر علی متن السفینة علی ۸۳ مدفعا، ۶۶ منها من البرونز، وضع عدد منها فی الامبراطوریة و عدد آخر فی البندقیة و عدد فی المصانع الترکیة. و قد بنی المرکب علی الطراز الترکی و بطریقة متینة للغایة، و نجد قرب الصاری مجلسا صغیرا، اعتاد الضباط الجلوس فیه، کما نجد فی وسط السفینة و من الجهتین مقاعد مشابهة، لأن الأتراک لا یحبون التنزه علی متن السفینة أو علی الیابسة. أما متن السفینة فضیّق، و نجد بین الغرفة السفلیة و العلیا للقبطان عشرات المدافع، و نصب بعض منها علی الکوثل حیث ینام العبید. صوّب المسیحیون هیکل السفینة و جعلوها علی النمط الأوروبی، لکننا علمنا لاحقا فی مصر، أن فرنسا اشترتها و أعادتها للسلطان کهدیة. و بدا هذا الأمر مستغربا حتی لفرنسیی الشرق، نظرا إلی أن أمّتهم بأمسّ الحاجة للمال و السفن لمتابعة الحرب ضد الإنکلیز، لکن الفرنسیین یسعون إلی مراعاة السلطان بغیة تسهیل تجارتهم مع الشرق. و یبدو أن دیانة مالطا، التی لا تسعی إلی القضاء علی الکفّار، لم تمانع کثیرا فی إعادة السفینة. و یتخوف أهالی مالطا کثیرا من غضب السلطان، لذا یعملون جاهدین علی ترمیم القلاع الصغیرة الواقعة علی شاطیء البحر، و یمرنون سکان الجزیرة، و نجد لدیهم ثلاث سفن حربیة فیها ۶۴ و ۶۲ و ۲۰ مدفعا و ۴ سفن شراعیة حربیة فضلا عن السفینة الترکیة، و قد جهزت کل سفینة شراعیة بثلاثة مدافع و خمسین مجذافا یحرکها سجناء قیّدوا بها و هم من الأشقیاء و من العبید المسلمین من أفریقیا و ترکیا.

و قلّما نسمع بمالطیین یأسرون أتراکا أو یتغلبون علیهم منذ أن حرّمت علیهم المعاهدات بین ملک نابولی و السلطان دخول الأرخبیل، لکننا نجد بین المسیحیین أناسا لا یطلبون أکثر من القتال من أجل الدین حین لا یجدون فرصة أخری لجمع ثروة، لأن الأمل بالغنیمة یفوق عندهم حماستهم الدینیة المسیحیة. یقال فی الشرق، إنهم حین یحصلون علی سفینة مجهزة لا ینقصهم سوی إذن مرور أو أمر من أمیر موناکو أو أی أمیر إیطالی آخر یعرف باستعداده لمحاربة المسلمین المسالمین الذین لا یعرفونهم علی الأرجح، کما قیل لی إنه یسمح لکل صاحب سفینة مسیحی بإحضار غنائمه إلی مالطا. و لا ینبغی أن

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۲۸

نستغرب أن ینسب المسلمون إلی المالطیین ما ننسبه نحن إلی المغاربة، و الجزائریین و التونسیین و الطرابلسیین، إذ یعیش هؤلاء البرابرة علی الأقل بسلام مع بعض الأمم المسیحیة فی حین أن فرسان مالطا یعادون الأمم الإسلامیة کلها.

زرت و السید فورسکال الملّاحات التی تبعد أمیال و ۳/ ۴ المیل عن المدینة، و هی مؤلفة من ۱۶ مربعا، یبلغ طول و عرض الواحد منها ۱۰۰ قدم و کلها مطلیة. یتم ملؤها بماء البحر مرتین سنویا، فتتبخر المیاه خلال شهر تارکة الملح فی القعر، و یقال إنه یتم جمع ۷۰۰ سلم کل مرة، و یبلغ ثمن السلم الواحد ۴ سکودی(Scudis) . و بالتالی، یکسب السید الأکبر الذی یعود إلیه هذا المردود حوالی ۵۶۰۰ سکودی سنویا من ماء البحر. و نجد بالقرب من هذه المربعات، ملاحات أخری غیر مطلیة و تنتج بالتالی ملحا سیيء النوعیة یستخدم لتملیح السمک و دفع أجور العمّال. و نری الفقراء فی أماکن أخری، یحملون میاه البحر إلی الصخور و یجمعون القلیل من الملح الذی تترکه بعد تبخرها. و نلاحظ قرب الملاحات وجود قبة صغیرة.

علی ضفاف البحر یمکن وضع زورق صغیر تحتها، و یقال إن سفینة القدیس بولس غرقت فی هذه المنطقة، فتمّ بناء کنیسة تحمل اسمه و یبلغ طولها ۵۵ قدما و عرضها ۴۵ قدما. و قصدنا فی یوم آخر سان أنطوان بوسکیه(St .Antoine ,Bousquet) ، و هما منزلان ریفیان للسید الأکبر، تحیط بهما الحدائق و أشجار اللیمون، و بقربهما کهف جمیل للغایة.

لا تبعد سیتا- فتشیا، عاصمة الجزیرة کثیرا، لکنها لم تعد آهلة بالسکان، و یلفت الأنظار فیها معبد رائع یعلوه کهف صغیر، یقال إن

القديس بولس التجأ إليه خلال الأشهر الثلاثة الأولى بعد غرق سفينته.

و لا نرى فى هذا الكهف لصغره سوى تمثال للقديس و كومة من الحجر الصخرى الذى حفرت فيه المغارة، و يدعى البعض أن لهذه الحجارة قدرة عجائبية، و أن من يحمل معه قطعة منها لا يخشى عليه من لسعة الأفاعى، لذا ترسل قطع من هذه الحجارة إلى كافة بلاد العالم التى تدين بالديانة الكاثوليكية- الرومانية. كما يعرض فى المعبد تمثال الكونت روجر النورماندى الذى طرد العرب من مالطا. و تقع فى جوار المعبد تلة يقال إن القديس بولس وعظ من أعلاها و دعا الناس إلى الدين، و إحياء لهذه الذكرى أقيم له تمثال و هو يعظ. و نجد فى محيط سيتا- فتشيا الكثير من المساكن المحفورة فى الصخر، و قد سدّت مداخل العديد من الممرات كى لا يضيع المرء داخلها. و تتألف هذه المساكن من عدة غرف صغيرة، فضلا عن قبو كبير يبدو و كأنه استخدم للتجمعات، و تطالعنا آثار طاحونة صغيرة فى مكان آخر. و مهما كان هدف هذه المساكن المحفورة فى الصخور، لا بد أنها كانت مأوى مناسبا للسكان قديما فى زمن القيظ و لا سيّما و أنهم لم يعتادوا العيش فى ترف و لم يكونوا ليخشوا النهب و السرقة. و حافظ أهالى مالطا على كتابة فينيقية نقشت على حجر لكنى لم أرها بنفسى. و جمعنا ملاحظات حول طول جزيرة مالطا و عرضها، أوردنا ذلك فى يوميات و ملاحظات الفيزياء و الرياضيات و علم النبات للأب فاى(Feuille) ،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹

و قد حصلت على نسخ من خارطة المدينة و خارطة لجزيرة مالطا و جزيرة غوزن(Gosen) ، لكنى أعتقد أن هناك خرائط دقيقة مطبوعة، و لم أشأ زيارة اللوحات المحفورة.

غادرنا جزيرة مالطة فى ۲۰ حزيران/ يونيو و لم نر الأرض حتى الخامس و العشرين من الشهر نفسه.

و عند ظهر ذاك اليوم، كنا على خط عرض ۳۶؟، ۱۱؟ و كانت جزيرة سابينزا(Sapienza) بحسب تقديرات الربان على بعد سبعة أميال نحو الشمال، نستنتج من ذلك أن ارتفاع قطب هذه الجزيرة هو ۳۶؟ ۳۹؟. و دخلنا مجموعة الجزر فى ۲۶ حزيران/ يونيو، و بعد مراقبة دقيقة للشمس فى الهاجرة، تبين أننا كنا على ۳۶؟، ۱۰؟ فى ذاك اليوم. و قدّر الربّان المسافة التى تفصلنا عن الجزر المجاورة، و وفقا لتقديراته تقع جزيرة سريغوتّو(Serigotto) على خط عرض ۳۵؟، ۵۲؟، أما جزيرة أوفو(Ovo) فعلى ۳۶؟، ۹؟، و رأس سان أنجيلو(St .Angelo) على ۳۶؟، ۲۶؟. و نجد هذه الجزر على مسافة أبعد نحو الشمال على خارطة الأرخبيل التى وضعها السيد دانفيل(D'Anville) بانتباه و ذكاء و التى نشرت فى باريس سنة ۱۷۵۶. و كنت أتمنى أن أتابع ملاحظاتى و دراساتى الجغرافية، لكن نزيفا حادا أصابنى، حتى أنى فقدت الأمل فى رؤية القسطنطينية و حتى شبه الجزيرة العربية. لكنى شكرت القدر الذى أصابنى بعلة، فى وقت أمكننى فيه الحصول على المساعدة و الراحة، و بالرغم من أننى عانيت من الحرارة لكنى كنت بين أوروبيين، و قد قدّم لى قائد السفينة كل المساعدة التى يمكن الحصول عليها على متن سفينة. فى ۳ تموز/ يوليو، وصلنا و المراكب الثلاثة التى رافقتنا من مرسيليا إلى مرسى أزمير، و نزل رفاقى إلى اليابسة، لكنى لم أتمكن من مغادرة السفينة و اكتفيت بمشاهدة هذه المدينة الشهيرة بتجارتها من زجاج غرفتنا. فى ۱۰ تموز/ يوليو، رفعنا المرساة و وصلنا فى ۱۳ من الشهر نفسه قرب جزيرة تنادوس(Tenados) حين رأينا بعض الآثار التى نظن أنها تعود لطروادة(Troye) . و هنا تلقينا الأمر بمغادرة السفينة و التوجه إلى عاصمة الأمبراطورية العثمانية برفقة المترجم الذى أرسله للقائنا سفير الملك فى القسطنطينية السيد دى غابلر(De G bler) . و لم أتجرأ على القيام بهذه الرحلة على متن مركب صغير مكشوف يمكّننا من الوصول بسرعة، كما لم نتمكن من إيجاد مركب مزوّد بغرفة فى جزيرة تنادوس، فاضطررنا إلى انتظار مركب آخر من الدردنيل. و ما إن وصل، حتى استأذنا قائد السفينة و ضباطها الذين شاركناهم أوقاتا صعبة وسط العواصف الهوجاء و الرياح المعاكسة و أوقاتا طيبة أخرى. و جرّينا للمرة الأولى السفر مع المسلمين، إذ صعد العديد من الأتراك على متن المركب حين كنا قرب تنادوس و من بينهم رجل ذو شأن جاء لتذوق خمر قائد سفينتنا. بدت لنا لغتهم، و لباسهم و طريقة عيشهم غريبة للغاية حتى أننا لم نعد نأمل بقضاء وقت ممتع بين الشرقيين. و لم تساعدنا الرياح فى رحلتنا بين تنادوس و القسطنطينية التى لم

نصلها إلا فى ۳۰ تموز/ يوليو، و رسونا قرب غلطة(Galata) و منها رافقنا المترجم إلى منزل السيد دى غابلر فى بيرا(Pera) مباشرة. و قد قابلنا هذا الوزير بلطف و طيبة لا مثيل لهما، حيث قام بإيوائنا جميعا فى بيته، و قدّم لى كل ما يمكنه أن يساعدنى على استرداد صحتى و عافيتى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰

ملاحظات من القسطنطينية

وردنا الكثير من الوصف للقسطنطينية أو اسطمبول، كما يسميها الأتراك، فلا يسعنى إضافة أشياء جديدة و مهمة و لا سيّما أنى لم أبق فى المدينة لوقت طويل، كما لم تتسنّ لى فرصة رؤية الكثير فيها. و ما إن تحسنت صحتى حتى انتقلنا إلى مصر، لكن بما أنى تعرفت عن كثب و فى طريق العودة على مكان إقامة السلطان سأورد هنا بعض الملاحظات و يسرنى أن أذكر أمورا لم تكن معروفة من قبل.

إن مدينة القسطنطينية كبيرة بلا شك، لكن إذا ما اعتبرنا كاراغاش(Kara Ag sch) ، و غلطه(Galata) و بيرا(Pera) ، و دولما باغش(Dolma Bagsche) و غيرها، و هى واقعة فى الجهة الأخرى للخليج فضلا عن أسكدار(Scudar) قاضى كوى(Kadi Kaj) الواقعتين فى الجهة الأخرى للبحر و بالتالى فى آسيا، مدنا أو قرى بحد ذاتها، لا يمكننا عندها مقارنة مساحة القسطنطينية مع ضاحيتها أجيب(Ajub) ، و الأحياء الواقعة خارج الأسوار على ضفاف البحر بمساحة لندن أو باريس. و لا يمكن تحديد عدد سكان مدن الشرق، لأن عادة إحصاء المواليد و الوفيات غير متبعة بعد، و أقصى ما يمكن أن يفعله المسافر فى هذا الإطار هو تحديد مساحة المدينة و معرفة إذا ما كانت مسكونة بالكامل. أعتقد أن مدننا مكتظة بالسكان أكثر من مدن الشرق، أما سقوف المنازل فى الشرق فمنخفضة مقارنة مع المنازل الأوروبية، و يحلو للشرقيين ترك مساحات خضراء وراء منازلهم. أما المسافرون الذين يعتبرون مدن الشرق مكتظة للغاية فيعتمدون فى حكمهم هذا على العدد الهائل للأشخاص الذين نصادفهم فى الشوارع التجارية. لكن ينبغى الانتباه إلى أن الشرقيين لا يحبون اصطحاب الأجانب إلى المنازل التى تقيم فيها عائلاتهم، مما منع دخول التجار و الحرفيين إليها. و يعمل هؤلاء الأخيرون فى محال صغيرة على طول الشوارع التجارية، لذا لا نرى فى بعض الأحيان سوى نجارين فى أحد الشوارع، و حدادين فى شارع آخر، أو صائغين أو تجار حرير أو تجار جوخ أو صانعى أمشاط أو غيرهم. و يتوجه الآلاف من هؤلاء إلى القسطنطينية صباحا، ليغادروها عند المساء إلى منازلهم القائمة فى ضواح بعيدة أو فى قرى واقعة على المضيق قرب البحر الأسود. هذا الكم الهائل من الأشخاص الذى لا نرى إلا القليل منه فى شوارع أوروبا، هذا الحشد من الرجال و النساء الذى يؤم الشوارع التجارية للعمل أو للتسلية يبدو استثنائيا بالنسبة لأجنبى لأن الشوارع ضيقة للغاية، لكن لو اعتاد المسافرون زيارة الأحياء البعيدة لما صادفوا الكثير من الناس كما فى مدن أوروبا.

و تبقى خارطة القسطنطينية التى وضعها القبطان الأفضل بين الخرائط التى شاهدتها كلها، لكن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱

المقياس الذى اعتمده صغير بحسب رأيى مما أظهر المدينة أكبر من حجمها الطبيعى. و قد تبدو الطريقة التى اعتمدتها لقياس المدينة غير دقيقة بالنسبة لعلماء الرياضيات لأنى لم أستخدم إلا البوصلة و أقدامى.

و بما أننى قست الخطوط الأساسية كلها أى محيط المدينة و العديد من الشوارع فى القسطنطينية و الضواحى و المدن المتاخمة، لا أظن أن الخطأ سيكون فادحا، و لعلّى أخطأت ببضعة أقدام و حسب، لكن هذا الخطأ ليس بحجم الخطأ الذى يمكن أن أرتكبه لو اكتفيت بتحديد مساحة المدينة استنادا إلى الزاوية المقاسة من خارج الأسوار. أظن أنه لا يمكن الطلب من المسافرين إلى بلاد الشرق قياس المدن بدقة أكبر من نتيجة القياس الذى يعتمد البوصلة و القدم، لأنه يصعب وضع خارطة للمدن دون إذن من القاضى.

و لن يبحث أحد عن كافة الشوارع فى خارطة مدينة شرقية، لكن ينبغى أن تكتفى بمساحتها و موقعها و ساحاتها الكبرى، و هذا ما

نجده فی الخارطة التی وضعتها للقسطنطینیة علی اللوحة الثالثة، فضلا عن خرائط مدن الشرق الأخری، و أعترف أن معظم الشوارع فی خارطة القسطنطینیة مسجلة اعتباطا و لملء الفراغ. و إلیکم تفسیرا للأرقام المدوّنة علی هذه اللوحة. ۱) باغجه قبو، ۲) بالف بازار قبو، ۳) زندان قبو، ۴) أودون قبو، ۵) أیازمه قبو، ۶) أون قبانی، ۷) جبالی قبو، ۸) أیا قبو، ۹) یکی قبو، ۱۰) یذری قبو، ۱۱) فنر قبو، ۱۲) یالاد قبو، ۱۳) عیوان سدای قبو، ۱۴) أکری قبو، ۱۵) أدرنة قبو، ۱۶) طوب قبو، ۱۷) یکی قبو، ۱۸) سلوری قبو، ۱۹) یدی قلله قبو، ۲۰) أدرنه قبو، ۲۱) ساماطیه قبو، ۲۲) داود باشا قبو، ۲۳) یکی قبو، ۲۴) قوم قبو، ۲۵) غاتلادی قبو، ۲۶) أخور قبو، ۲۷) بالوق خان قبو، ۲۸) داغرمان خان قبو، ۲۹) طوب قبو، ۳۰) یالی یوسف قبو، ۳۱) دمیر قبو، ۳۲) سالوق جیسم قبو، ۳۳) بابا حمام قبو، ۳۴) دامو قبو، ۳۵) ولید یامع، ۳۶) مسرجرشی(۳۷ (Misrtscharschi) قصر الوزیر أو الباب، ۳۸) مسجد آیا صوفیا، ۳۹) مسجد آیا صوفیا الصغیر، ۴۰) السلطان أحمد الجمزی و المیدان، ۴۱) حظیرة للحیوانات المتوحشة، ۴۲) الترسانة، ۴۳) العمود المحروق، ۴۴) علی باشا الجمزی(۴۵ ، (J masi) عثمانی جمزی، ۴۶) السلطان بجزات جمزی، ۴۷) وزیر خان، ۴۸) بزستان أو شوارع تجاریة مقببة و محال تجاریة، ۴۹) السرای القدیم، ۵۰) سلیمانی جمزی، ۵۱) قصر آغا الإنکشاری، ۵۲) القناة، ۵۳) شاه زاد جمزی، ۵۴) السلطان سلیم جمزی، ۵۵) کنیسة البطریرکیة للروم، ۵۶) فاتی جمزی، ۵۷) آثار قصر قسطنطین، ۵۸) أدرن قبو جمزی، ۵۹) السلطان محمد جمزی، ۶۰) المیدان أو حیّ الانکشاریین، ۶۱) حیّ آخر للانکشاریین، ۶۲) مستشفی المجانین، ۶۳) علی باشا جمزی، ۶۴) داود باشا جمزی، ۶۵) الأبراج السبعة، ۶۶) دفتردار أسکاله سی، ۶۷) مسجد وب، ۶۸) الماء العذب، ۶۹) بانیو، مکان حجز العبید، ۷۰) میت أسکاله سی، ۷۱) مقر إقامة سفیر الدانمارک، ۷۲) مقر إقامة سفیر السوید، ۷۳) مقر إقامة سفیر إنکلترا، ۷۴) مقر إقامة سفیر بروسیا، ۷۵) مقر إقامة سفراء نابولی و روسیا و هولندا و البندقیة و فرنسا و فیینا، ۷۶) أج أغلان سروج، قصر یربی فیه عدد کبیر من الخدم، ۷۷) خزان میاه لقناة السلطان محمود، ۷۸) کوجک قوللّه قیوسی و بیوک قوللّه

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۳۲

قیوسی، و نجد فی غلطه عشرات أبواب أخری و هی: طوب خانه قبو، کرج قبو، أکری قبو، موم خانه قبو، قور بشونلی مخزن، قره کوی قبو، بالق بازار قبو، أسکی یاغ قبان، کور کجی قبو، أزاب قوبسی ۷۹). منازل السلطان الریفیة،L L إشارة إلی المقابر.

و یبلغ ارتفاع قطب سرای السلطان ۴۱؟، ۱؟، لأن ارتفاع قطب بیرا، بحسب دراساتی، یبلغ ۴۱؟، ۲؟ ۲۶؟. أما شکل مدینة القسطنطینیة فمثلث، غیر متساوی الأضلاع و غیر مستو، و لا یتعدی حرم المدینة، وفقا لقیاسی ۱۳۰۰۰ قدم مزدوج، علما أن معظم الرحلات تعتبره أکبر. و تحیط بالمدینة أسوار، لا تنفع للدفاع عنها، و یظن الأتراک أنهم محصنون بفضل الحصون الأربعة الصغیرة الواقعة علی القناة من جهة الأرخبیل، و الأربعة الأخری الواقعة علی القناة من جهة البحر الأسود علما أنها حصون غیر ذات أهمیة. و نجد علی طول المرفأ أو الخلیج، خارج أسوار المدینة، و من ضاحیة أیوب و حتی السرای طریقا واحدا، کما تطالعنا من حین إلی آخر منازل بنیت الواحدة وراء الأخری، و بعضها فی الماء جزئیا. و یتم ردم المرفأ یومیا فی بعض الأحیان، لزیادة المساحة و بالتالی للبناء مما یجعل الأسوار غیر مجدیة للدفاع عن الشعب و المدینة. و فی السنوات الأخیرة، قام الأتراک بردم مساحات شاسعة و بناء أحیاء کبیرة قرب بعض الأبواب، انطلاقا من السرای و حتی الأبراج السبعة، لکن أسوار المدینة فی معظم هذه الأمکنة لا زالت قریبة من البحر. و یحیط بالمدینة من جهة الیابسة بدءا من الأبراج السبعة و حتی ضاحیة أیوب سور مزدوج و حفرة واسعة، و اکتفی السکان منذ زمن الیونان بتصلیح السور، أما الحفرة فقد ردمت تقریبا. و أما القصر المسمی الأبراج السبعة فصغیر و یصلح فی حاله الیوم، کسجن، أکثر مما یصلح للذود عن المدینة. و یبقی مدخل المرفأ و المضیق الواقع من جهة البحر الأسود الأکثر تحصینا، فقد جهزا بالمدافع التی نصبت بجانب السرای قرب طوب خان و فی کیس کلّسی،(lesiچKiss K) ، لکنها غیر قادرة علی الدفاع عن المدینة بشکل فعّال ضد أسطول، یهاجمها من الجهة الأخری، بعد أن یجتاز الدردنیل. و یعتبر هذا الجزء من القسطنطینیة الواقع من جهة المرفأ و البحر کثیر السکان، و یعزز هذا الشعور باکتظاظ المدینة البیوت المتکئة علی التلال التی تبدو و کأنها متلاصقة. أما من جهة الیابسة، بین أدرن

قبو و الأبراج السبعة فنجد العديد من الحدائق الكبيرة داخل الأسوار. و تغطى سراى السلطان، و السراى القديم و هو مسكن ارامل السلاطين، فضلا عن المساجد الكبيرة و العديدة مساحة شاسعة، كما يعملون على بناء مساجد جديدة، لكن عدد السكان لن يتزايد مع تزايد عدد دور العبادة. و يؤكد البعض أن القسطنطينية اكتظت بالسكان فى السنوات الأخيرة مما اضطر السلطان إلى إبعاد عدد من الناس إلى المقاطعات و الريف.

و تطل هذه المدينة على مناظر رائعة لا سيما من جهة البحر، و تتكىء القسطنطينية و المدن و القرى المجاورة على التلال حيث يبنى على قمتها أجمل المساجد، و يفصل بين المنازل عدد من الحدائق المزروعة بالأشجار. لكن هذا المنظر الجميل لا يتفق و داخل المدن حيث الأزقة ضيقة و طريقة البناء سيئة و عشوائية،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۴

و تبنى المنازل من الخشب الرقيق حتى ليظن المرء أن هيكلها أقفاص للطيور، أما الجدران فمن الآجر غير المشوى. و تبنى القصور و الأبنية العامة من الحجارة و بشكل متين، لكن لا يظهر منها من جهة الشارع إلا الجدران الشاهقة، و للقصور و المنازل العادية مساوئها، فالمنازل المبنية من الآجر تدفن من فيها عند أقلّ هزّة أرضية، و القصور المضاءة بالمشاعل تحرق ساكنيها. و هذان النوعان من الحوادث شائعان فى هذه المدينة. و يبقى مرفأ القسطنطينية أجمل مرفأ فى العالم، و هو يمتد على مساحة شاسعة، و يمكن للمراكب أن ترسو فى أى جهة منه و بأمان تام، كما يمكنها الاقتراب من الشاطىء و تحميل ما جاءت من أجله. إن موقع القسطنطينية بين البحر الأسود و الأرخبيل، فضلا عن الأعمال المزدهرة التى تجذب سكان الضواحى و المدن المجاورة تجعل من هذه المدينة محطة للسفن و المراكب، حتى أن البحر يبدو و كأنه مرصّع بها.

يقع سراى السلطان على مرتفع عند الطرف الشرقى للمدينة، عند مدخل المرفأ، أمام المضيق الممتد إلى البحر الأسود أى البوسفور، و هو بالتالى مطلّ على مناظر جميلة من كافة الجهات، كما نستنتج من الخارطة التى أوردتها هنا. و يفصله عن المدينة سور عال، يمكنه أن يدفع عن السلطان غضب رعاياه لكنه لا يحمى المدينة، لكن تحيط به من جهة المياه مجموعة من المدافع القادرة على الدفاع عن مدخل المرفأ و المضيق الممتد نحو البحر الأسود. و يمتد السراى على مساحة شاسعة و يضم الكثير من الجنائن، و تبدو الأبنية العامة كلها و كأنها مطلية بالرصاص. لم ألج سوى الفناء الخارجى للسراى، فلا يسمح بالدخول إلى حرمه، لم أر فيه ما يلفت الأنظار سوى بيت المال السيىء البنيان فضلا عن بعض الإسطبلات. نقرأ فى بعض الأعمال التى وصفت القسطنطينية أن عبارة «الباب» أو «الباب العثمانى» المستخدمة فى أوروبا تأتى من مدخل هذا الفناء الخارجى لكن لست أدرى عمّا استندوا فى حكمهم هذا. يطلق الأتراك على الباب اسم قبو كما يطلقون الاسم نفسه على القصر، لكن يشار بهذا الاسم فى القسطنطينية إلى قصر الوزير. و قيل لى إنه إذا ما أرادوا استخدام هذه الكلمة للدلالة على قصر السلطان، ينبغى أن يقال سلطان قبوسى، كما يقال آغا قبوسى للدلالة على قصر آغا الانكشاريين.

و يقصد مترجمو السفراء الأوروبيين يوميا تقريبا الباب أى قصر الوزير، لأنه محل إقامة مترجم السلطان كى يبقى قريبا من الوزير أو الريس أفندى إذا ما أراد محادثته أو التكلم مع مترجم أوروبى. و لعل الأوروبيين الذين سمعوا أولا بالباب أو بمحكمة الوزير، ظنوا أن المقصود هو بلاط السلطان، لذا أطلق اسم الباب العثمانى على بلاط سلطان العثمانيين. و لست على اطلاع على اللغة التركية للادعاء بأنه من الخطأ الإشارة إلى بلاط السلطان باسم الباب، لكن لا أظن أن أصل الكلمة يعود إلى الباب الخارجى لبلاط السلطان.

إليكم أسماء المساجد الكبرى أو مساجد السلطان كما تسمى هناك: آيا صوفيا: حوّل الأتراك هذا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵

المعبد الذى بناه الأمبراطور جوستنيان إلى مسجد، و نجد فى كتب عدة رسومات لهذا المسجد، و يمكن انطلاقا من هذه الرسوم تكوين فكرة واضحة عن شكل المساجد الأخرى التى سآتى على ذكرها، إذ يبدو أن هذا المسجد يشكل نموذجا لكافة المساجد

التركية. مسجد السلطان أحمد وليد، و قد بنت هذا المسجد والدة السلطان. مسجد السلطان عثمان، السلطان بايزيد.(B jazet) ، السلطان سليمان، شاه زاد و قد بنى هذا المسجد فى عهد السلطان سليمان، السلطان سليم، السلطان محمد، مسجد بناه محمد الثانى الذى فتح القسطنطينية، و قد دمره الزلزال كليا فى عام ۱۷۶۶. أدرن قبو جمزى، مسجد بنته إحدى بنات السلطان سليمان و قد تضرر كثيرا من جرّاء الزلزال نفسه. و لا يمكن مقارنة أى من هذه المساجد مع آيا صوفيا من حيث البناء، لكن العديد منها يفوق الأخير من حيث المساحة. و تضفى هذه المساجد على المدينة جمالاً و قد بنيت على أعلى مرتفعاتها، و طليت قببها و مناراتها المتعددة بالرصاص.

و تقوم هذه المساجد وسط ساحات عامة واسعة، محاطة بحائط أو بمساكن لأولئك الذين يهتمون بها و للفقراء، و تبنى المدارس قرب المساجد حيث توزع يوما الصدقة إما من الخبز و إما من المأكولات. و يتم دفن مشيدى المساجد فيها، حتى أننا قلّما نجد اليوم أضرحة رائعة للعائلات الكبرى فى أية مدينة من العالم كما نجد فى القسطنطينية. كما نرى فى هذه المدينة العديد من المساجد التى بناها السلاطين و زخرفوها، لكنها ليست محط أنظار كتلك التى أتيت على ذكرها. نجد فى مدينة أسكودار(Scudar) و حدها أربعة مساجد بنتها سيدات مسنات من العائلة الحاكمة، و بالرغم من أن السلاطين غير ملزمين ببناء مسجد إلّا حين ينتصرون على أعدائهم و يستولون على مساحات كبيرة من أرضهم كافية للإنفاق على المسجد و على الأشخاص الذين يخدمونه، بنى السلطان مصطفى، الحاكم اليوم، مسجدين، الأول فى أسكودار على مرتفع يواجه السراى و بيرا و الثانى فى القسطنطينية، و هو مسجد صغير. أما مسجد أيوب فأهمها لأن السلاطين الجدد يقلّدون فيه السيف عند وصولهم إلى العرش، و نجد فى القسطنطينية العديد من مساجد الوزراء و الأغنياء الجميلة، فضلا عن كنائس الروم التى حوّلت إلى مساجد، و نجد مسجدا صغيرا فى كل حىّ تقريبا. و تنتشر فى المدينة الخانات أو الفنادق العامة، و البزستان أو الشوارع التجارية المقببة، فضلا عن الحمامات الرائعة مما يزيد من جمالها و يسهل الحياة فيها. كما نجد فى المدينة منازل توزّع المياه مجانا، و يقع أحد هذه المنازل أمام الباب الخارجى للسراى، و قد بنى بذوق رفيع و هندسة رائعة، فهو مفتوح من كافة الجهات و طليت قضبانه الحديدية بالذهب، و نجد فى داخله أناسا يحملون أوان من النحاس الذهبى مربوطة بسلاسل و مليئة بالماء.

إن هذه المدينة تتغذى بالمياه العذبة من ثلاثة خزانات كبيرة، يبعد الواحد منها عن الآخر ثلاثة أميال، و كل خزان منها هو صورة مصغّرة عن سدّ مأرب الشهير، لأن المياه المتدفقة من الجبال المجاورة و المتجمعة فى الوادى يحجزها حائط متين، و يتم تصريفها تدريجيا. لكن كلفة بناء السدود أمام الخزانات لا تقارن مع الكلفة الباهظة لنقل المياه إلى قصور الحكّام، فالأرض غير مستوية، مما يتطلب جرّ المياه تارة عبر التلال

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶

و طورا من حولها، و حيث توجد الوديان، تمّ بناء سدود عالية و متينة، لنقل المياه إلى خزانات أخرى كبيرة فى القسطنطينية، و تتم صيانة هذه المنشآت على نفقة السلطان. و لعل البعض يعتقد أن الأتراك يدينون لليونان بهذه المنجزات الرائعة، لكن أكّدوا لى أن أحد الخزانات التى ذكرتها- الواقع إلى شمال قرية برغاس(Burg s) - قد بناه السلطان الحاكم حديثا، و أن خزان الماء قرب بانجه قوى و القناة الممتدة حتى القرى قرب البوسفور و حتى غلطه بنيا فى عهد السلطان محمد. و الدليل الآخر على أن سلاطين الأتراك لا يهملون رعاياهم كليا، أمر السلطان مصطفى، الحاكم حاليا، ببناء ممرّات عند طرف السراى و من الحصن الأخير فى الجهة الآسيوية و حتى البحر الأسود، كى يتمكن البحارة من سحب المراكب بسهولة، و لا سيما و أن التيار قوىّ للغاية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷

و نعلم من الروايات التى وصلتنا بوجود مسلّة ضخمة و أفعى ثلاثية مشوّهة فى الميدان قرب مسجد السلطان أحمد، كما وردت فى الكتب الرسوم المنقوشة على قاعدة المسلة، فضلا عن الكتابات اليونانية الممحوة جزئيا لأنها مغطاة بالتراب. لكننا لا نجد نسخة عن

الحروف الهيروغليفية، و لعل السبب يعود إلى أن أحدا لم يجرؤ على نقلها فى ساحة عامة وسط المدينة و قرب السراى. و أعترف أنى خلال إقامتى الأولى فى القسطنطينية، لم أجرؤ على تفحص هذا النصب التاريخى، بسبب الأخبار التى سمعتها عن المسلمين، لكن فى طريق العودة، نقلت الحروف الهيروغليفية المنقوشة على المسلة كلها (اللوحة الرابعة) من دون أن أخشى أكثر من ۱۵۰ تركيا تجمعوا حولى لمشاهدة عملى. و تكفى الإشارة فى خارطة القسطنطينية إلى موقع الصرح الذى تحفظ فيه الحيوانات البرية، و إلى الميدان، و قصر قسطنطين، و العمود المحروق و ساحات أخرى استفاض الآخرون فى وصفها. و نجد فى القسطنطينية منازل فسيحة تحت الأرض أو أقبية تسندها أعمدة عدة يطلق عليها اسم «ألف عمود و عمود»، و يعيش الحائكون فى هذه الأقبية التى تبدو و كأنها كانت فيما مضى خزانات مياه. و شاهدت فى أحد الأقاليم ۳۲ عمودا من الرخام على الطراز الكورنثى، كما رأيت فى إقليم آخر عددا من الأعمدة العالية غير المتناسقة أشك فى أن تكون من صنع مهندس معمارى يونانى، أو من عمل الأتراك، و قد رسمتها على اللوحة الخامسة، أ. و نجد فى جوارها بابا مسدودا، و يؤكد البعض أنه يمكن الانتقال منها إلى غاليبولى عبر ممر تحت الأرض، و هذا ما أعتبره تضخيما لكل ما يتعلق بالعصور القديمة.

و يحيط بمدينة غلطه سور، لكن نرى فيها آثار حائطين قديمين و متينين، يقسمانها إلى ثلاثة أحياء أو إلى ثلاثة حصون خاصة. و تستند هذه المدينة إلى مرتفع و عر، قبالة القسطنطينية و هى مكتظة بالسكان، و يعيش فيها معظم التجار الأوروبيين و المسيحيين الشرقيين. و يقيم السفراء الأوروبيون فى بيرا و هى ضاحية من ضواحى غلطه، و منهم سفير بلاط فرنسا و سفير بلاط إنكلترا، و سفير جمهورية الأقاليم المتحدة فضلا عن بايلو البندقية(Bailo) ، و سفراء الدانماركى، و السويد، و نابولى و بروسيا و القاصد الرسولى، و سفير روسيا المقيم. و لقد قدّم أول سفير بروسيا أوراق اعتماده إلى السلطان فى العام ۱۷۶۱ قبيل وصولنا و يقيم مندوبو الجزائر و تونس و طرابلس و راغوز(Raguse) فى القسطنطينية و إنما ليس بشكل مستديم، و لا يعتبرهم الأتراك سفراء أجانب شأنهم فى ذلك شأن مفوضى أمراء مولدافيا اليونانيين و والاشيا. و يرسو أسطول السلطان فى ترس خانه(Ters Ch na) (قرب الترسانة)، فى خط مستقيم قرب الشاطىء، و هو فى حالة مزرية بالرغم من أن المراكب مطلية بشكل جميل، و نجد فى طوب خانه، مبنى كبيرا تصنع فيه المدافع، يجاوره مسجد رائع. إن عدد السكان فى أيوب، و قاره أغاش، و غاسكوف، و قاسم باشا، و بيرا، و سان ديمترى، و طوب خانه، و فندقلى، و قبداش قليل للغاية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸

و يقع قسم من إسكودار فى واد، و قسم آخر يستند إلى تلال و القسم الثالث يعلوها، و تكثر فى هذه المدينة الحدائق، و نجد خارج أسوارها مداخن واسعة مزروعة بالسرو. و يقع قس قولى أو البرج على صخرة صغيرة فى الماء، أما قاضى كوى(Kadi Koj) ، فيما بعد خلقدونية، فلم تعد سوى قرية كبيرة، و أجمل ما فيها كنيستها اليونانية، حيث عقد المجمع الدينى الشهير.

و يملك السلطان العديد من المنازل الريفية فى أيوب، و قره آغاش قرب الترسانة، و منزل السلطان محمود فى دلمه باغجه، و منزل السلطان مراد بين إسكودار و قاضى كوى، كما يملك العديد منها على مضيق البحر الأسود. لكن السلطان الحالى قلما يزور هذه المنازل باستثناء منزل قره آغاش حيث المياه عذبة، و لأنه منفرد و بالتالى كئيب مما يتلاءم و مزاج السلطان. و تتداعى المنازل الريفية الأخرى، حتى أن السلطان أمر بهدم بعض منها بغية استخدام المواد لبناء المساجد و الحمامات.

و للروم فى القسطنطينية ۲۳ كنيسة، أما الأرمن فلهم ثلاث، كما تملك هاتان الأمتان كنائس فى غلطة و الضواحى. و يقيم فى بيرا رجل دين برتبة مطران. و يقيم فى بيرا و غلطه رهبان من الروم الكاثوليك يتبعون ۶ رهبانيات مختلفة، لكل منها كنيستها التى تقع تحت حماية أحد سفراء أوروبا، كما يملك كل من سفير انكلترا و هولندا و السويد كنيسته الخاصة. و يملك اليهود العديد من المعابد فى القسطنطينية و المدن و القرى الأخرى المذكورة أعلاه، و غالبية يهود تركيا من التلموديين، لكن القّرائين(Karaites) يملكون معبدا فى غاسكوف، و يقال إنه يمنع على أى طائفة أجنبية، إسلامية أو وثنية، بناء معابد فيها، لكن العديد من الطوائف

تجتمع هناك من دون أن تكترث الحكومة للأمر.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹

الرحلة من القسطنطينية إلى الإسكندرية

ما إن تحسنت صحتي حتى أخذنا بالأهبة لمغادرة القسطنطينية، قاصدين مصر، و كان بإمكاننا الحفاظ على لباسنا الأوروبي في الإسكندرية، لأن سكّان هذه المدينة اعتادوا رؤية الإفرنج أي الأوروبيين. لكن لباسنا هذا و المغاير لبساطة لباس العرب يمكن أن يعرضّنا في القاهرة و في شبه الجزيرة لأسئلة مزعجة و لسخرية السكان، فضلا عن أنه سيشكل عبئا علينا في غياب المقاعد و وسائل الراحة الأخرى التي نجدها في أوروبا. و حصلنا في القسطنطينية على ملابس طويلة كتلك التي يرتديها الشرقيون. و اشترينا عدة للطبخ، و مؤنا ضرورية لرحلتنا المقبلة. و زوّدنا السيد دي غابلر، الذي أحسن وفادتنا في القسطنطينية، بإذن مرور من السلطان، و رسائل توصية، و نقود مصرية، و في ۸ أيلول/ سبتمبر، أبحرنا على متن سفينة من دلسينيو(Dulcigno) ، و هو مرفأ بحري على الخليج الأدرياتيكي، غير بعيد عن جمهورية راغوس. و كنا نأمل بالانطلاق في اليوم التالي، لكن الرياح المعاكسة أعاقتنا و أخّرنا القبطان الذي لم تكتمل حمولة مركبه. و غادرت السفينة المرفأ و ابتعدت عنه، لكن البضائع استمرت تصل إليه حتى في أثناء الليل. و لم ننطلق بالفعل إلّا في ۱۱ أيلول/ سبتمبر، لكن الرياح لم تسعفنا، فلم نصل إلى الدردنيل و لم نرس قرب قوم قلّة أي الحصن الواقع في الجهة الآسيوية إلّا في ۱۵ من الشهر نفسه. و يصعد على متن السفن الآتية من القسطنطينية، رجال من الجمارك لمعرفة ما إذا كانت تحمل عبيدا فارين أو بضائع لم يبلّغ عنها لجمرك القسطنطينية. و مرّ اليوم الثاني في التفتيش مما سرّني، لأننا لم نتوقف إلا لساعات قليلة في هذا المكان، في طريقنا إلى القسطنطينية، و كنت مريضا للغاية فلم أتمكن من النزول إلى اليابسة، فحملت عدّتي، و تمكنت من دراسة هذا المكان الشهير.

و مساحة قصور الدردنيل ليست بالكبر الذي نتوقعه، فالقصر الواقع من جهة آسيا لا يتعدى كونه مربعا صغيرا من الأسوار السميكة و المحاطة بالأبراج. أما المدافع التي تحميه فضخمة للغاية، بيد أنها نصبت على الأرض مباشرة أو على أخشاب غليظة، و قد عاينت بعضها فتبين لي أنها لم تعمل منذ أمد بعيد، وحشي بعضها الآخر بقذائف من حجارة مغطاة بالرمل و التراب. و مضيق الدردنيل ضيق فإذا ما قصفت المدافع من جهة وصلت القذائف إلى الجهة الأخرى، و هو متعرج للغاية، فيصعب اجتيازه في ليلة واحدة حتى و إن كانت الرياح مؤاتية. و بوسع الأتراك تصويب مدافعهم على تعرجات المضيق بكلفة متدنية، و بالتالي لا يمكن لأسطول معاد أن يمرّ و يهاجم القسطنطينية من جهة البحر، و إذا افترضنا أن جيوشا ساندت الأسطول برا و هدمت القصور و مدافع المضيق و أمّنت تراجعه، يخشى على الأسطول الغرق عند

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۴۰

أدنى عاصفة إذ تكثر المواقع غير المنخفضة القعر بين الدردنيل و القسطنطينية. و إذا ما أرادت القوى المسيحية إسقاط عاصمة الأمبراطورية العثمانية من جهة البحر، ينبغي أن تفرض عليها حصارا و تمنع عنها المؤن التي تصلها من ما وراء البحر الأسود أو الأرخبيل، فإذا ما شحّت بعض المواد الضرورية و ارتفعت الأسعار قد يستسلم الأتراك. و تبقى خرائط السيد دي أنفيل التي تحمل عنوان: شواطىء اليونان و الأرخبيل أفضل الخرائط التي وصلتنا عن تلك البلاد. و تقع قتيم قاله على خط عرض ۴۰؟، ۸۰؟.

ثم أبحرنا مجددا في ۱۷ أيلول/ سبتمبر، و في الثامن عشر من الشهر نفسه مررنا أمام القصرين الواقعين عند مدخل المضيق، و قيل لي إن اسمهما القصر القديم و القصر الجديد، و يبعدان عن الدردنيل حوالى ۳۶ ميلا- وفقا للقياس التركي. و صادفنا قرب تندوس(Tenedos) سفينتين حربيتين تركيتين تنقل هذا السفير إلى القسطنطينية، إذ اتفق السلطان و جمهورية البندقية، على أن لا تتجاوز أية سفينة حربية مضيق الدردنيل و أن ينقل السفير الذي يتغير كل ثلاث سنوات إلى تندوس و منها إلى القسطنطينية على

متن سفن تركية، و ذلك إثر خلاف حول بعض السفن من البندقية فى مرفأ القسطنطينية.

فى ۱۹ أيلول/ سبتمبر ظهرا، تبين لى أن جزيرة ساموس(Samos) تقع على خط عرض ۳۷؟، ۴۶؟، و جزيرة فورنا(Furna) على خط عرض ۳۷؟ ، ۴۲؟، و جزيرة أيكاريا(Icaria) على خط عرض ۳۷؟ ، ۴۴؟. و فى ۲۰ أيلول/ سبتمبر، مررنا أمام جزيرة ستنشيو(Stanchio) ، و أراد قبطان السفينة التزود بالمياه العذبة، لكننا لم نتوقف لأننا ننقل على متن سفينتا قبطانا ينبغى أن يتسلم قيادة سفينة حربية فى رودس، و لأن الرياح مواتية للغاية. و فى ۲۱ أيلول/ سبتمبر، رسونا فى مرفأ مدينة رودوس، و التقينا الكابتن باشا أو قائد أسطول السلطان، مع بعض السفن البحرية، فحييناه بثلاث طلقات مدفع و ردّ بطلقة واحدة.

و لا تحب أية مدينة فى الشرق تلقى زيارة أسطول السلطان، لأنه ينبغى تقديم هدايا قيمة لقائده، و لعدم انضباط البحارة. و لقد نزلت و السيد فورسكال و السيد بورفيندر إلى اليابسة ما إن وصلنا إلى رودوس و ذلك بغية التحدث إلى قنصل فرنسا، لكن منزله كان مقفلا لتجنب سوء تصرف البحارة، و ما سمحوا لنا بالدخول لأننا نرتدى الثياب التركية لو لم نلتق مصادفة براهب كبوشى ردّنا من حيث جئنا. و أرسل القنصل معنا مرافقا للتجوال فى المدينة، لكننا سمعنا الكثير من الأخبار السيئة حول الأتراك فتجنبنا كثرة التجوال.

لاحظنا أن منازل هذه المدينة مبنية بشكل متين، و فى الشارع المسمى شارع الفرسان، رأينا البعض يرتدى درعا، أما قصر السيد الأكبر فمهدّم تقريبا. و بما أن الأتراك لا زالوا يذكرون كلفة الاستيلاء على هذه المدينة، و يعتبرونها صعبة المنال، بالرغم من أنهم تركوا التحصينات فى الحالة نفسها التى أضحت عليها حين استولوا على المدينة، و تركوها فيما بعد لتصبح أنقاضا. لكن تبقى رودوس أمنع قلاع الامبراطورية العثمانية، و كان التمثال الشهير المخصص للشمس يقوم قرب هذه المدينة فيما مضى، لكن يصعب تحديد موقعه حاليا، و يقوم عند مدخل المرفأ برج من كل جهة، و يعتقد أن هذين البرجين قاعدة لقدمى التمثال، لكن يبعد الواحد عن الآخر حوالى ۴۰۰ إلى ۵۰۰ قدم، و هى مسافة كبيرة تجعل الأمر غير قابل للتصديق.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۴۱

و قررنا للمرة الأولى أن نأكل فى مقهى تركى، كان الطعام شهيا إنما مكلفا، أكلنا على منضدة واسعة من الخشب، فى الشارع، من دون سكين أو شوكة و فى طبق من الآجر السيئ، ثم انتقلنا لزيارة يهودى، يزوّد الأوروبيين بالنبيذ. كانت عنده فتاتان، يدّعى أنهما ابنتاه، و هما تتكلمان الإيطالية، و قد قدمتا لنا أكياسا صغيرة صنعتاهما بنفسهما، وفاقت كلفة هذه الزيارة اليهودية كلفة الغداء التركى.

لا زال العديد من اليونان يعيشون على الجزيرة، لكن لا يحق لهم البقاء فى مدينة رودوس(Rhodus) . فى اليوم التالى، رافق السيد دى هافن و السيد كرامر بعض اليونانيين الذين أرادوا زيارة المطران المقيم فى قرية قرب المدينة، و ما إن وصلوا، حتى لحق بهم بعض الموسيقيين الأتراك، لكن المطران لم يكن يهتم بموسيقاهم، فرفضوا المغادرة من دون أن يكسبوا بعض المال. و قام خلاف بينهم، و قبل أن يغادروا، استبدل أحد الموسيقيين حذاء السيد دى هافن الجديد بحذائه القديم. و لو عدنا إلى أوروبا مباشرة بعد ذلك، لما شكرنا بهذه العادة- عند الشرقيين- التى تقضى بنزع الحذاء قبل دخول المنزل. لكن أمرا مماثلا لم يحصل لأى من رفاقنا فيما بعد، فلم نعد ننظر إلى هذه الحادثة كأمر كبير.

و أراد قبطان سفينتنا الإبحار فى ۲۲ أيلول/ سبتمبر صباحا، مما منعنى من تحديد ارتفاع بعض النجوم ليلا، أما على متن السفينة فيقتصر أفقنا على الهاجرة، لأن جزيرة رودوس تقع إلى الجنوب و اليابسة قريبة منا نحو الشمال. لكن بما أننا لم نبحر إلّا قرابة الظهر، استخدمت الثمنية لتحديد ارتفاع الشمس فى أوقات مختلفة، كما سجّلت الوقت بين ارتفاع و آخر استنادا إلى ساعتى التى تعمل بالثوانى، و تبين لى أن سفينتنا قرب رودوس كانت على خط عرض ۳۶؟، ۲۶؟.

و لم نبتعد طوال الرحلة عن شواطىء القارة أو الجزر منذ القسطنطينية و حتى رودوس، لذا لم أجد داعيا لتسجيل ملاحظات حول الطريق الذى اتخذته السفينة. و عند ما لم أعد أرى اليابسة بين هذه الجزيرة و مصر، ظننت أن قائد السفينة سيستخدم الثمنية، لكن تبين لى أن الأتراك لا يستخدمون هذه الوسائل.

و لقد كان المركب مزودا بخرائط بحرية جيدة، و رمال، و مسراع، و بوصلة عادية فضلا عن بركار سمتى، لكنهم لم يستخدموا المعدات التى أخذوها عن قبطان أوروبى منذ سنوات.

و لعل قبطان سفينتنا سرق هذه المعدات كلها، لأن الأتراك متهمون بأنهم يدعون كونهم جزائريين أو تونسيين أو طرابلسيين فيستولون على سفن الأمم الأوروبية العاقدة معاهدات سلام مع الأتراك، و حين لا يتجرؤون على سرقة السفينة بأكملها، يعملون على سلب الخرائط، و البوصلات و بعض المؤن، و قد تحدّثت فى الإسكندرية إلى قبطان تعرّض لعملية سطو كهذه. و كان قبطان سفينتنا يخشى أن يقع فى المصيدة نفسها على هذه الطريق، لأن الشائعات تسرى أن مالطيين أو بالأحرى قراصنة، يحملون جوازات مرور و يرفعون علم بعض الأمراء الإيطاليين، يجولون شواطىء مصر و سوريا. و لقد كان مركبنا مثقلا بالحمولة، و لم تكن المدافع الموجودة على متنه لتنفعنا لأنها مربوطة جزئيا بحبال، و سلك القبطان الطريق مباشرة من رودوس نحو الإسكندرية، و كان الهواء مواتيا، و إلّا لما وصلنا إلى المرفأ دون التعرض

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۴۲

لمخاطر عدة، لأن شواطىء مصر منخفضة للغاية مما يجعلها خطرة جدا بالنسبة إلى المراكب القادمة.

و اعتدت قياس ارتفاع الشمس كل يوم عند الظهر، و كنت أدلّ القبطان على مكان وجودنا على الخارطة و أحدد له كم نبعد عن الإسكندرية، مما أسعده، فطلب من أمين سره أن يراقب هو أيضا الشمس ليحدد المسافة التى تفصلنا عن المدينة، لكن حين رأى هذا الأخير أن هذه الدراسة تتطلب جهدا كبيرا و الكثير من الحسابات لتحديد ارتفاع القطب فضّل الاكتفاء بالوسائل القديمة.

يتكلم كل من القبطان و أمين سره و البحارة القليل من الإيطالية، و قد زار أمين سرّه البندقية و مرافىء أخرى فى إيطاليا حتى أنه وصل إلى فيينا. و روى له الكاثوليك أخبارا عن غيرهم من المسيحيين أغرب مما يرويه السنّة عن غيرهم من المسلمين. و سألته يوما، إن كان هناك و ثنيون فى البلاد الواقعة تحت حكم السلطان فأجابنى بوجود الكثيرين منهم فى ألمانيا و هنغاريا، و يطلق عليهم هناك اسم اللوثريين، و ليس لديهم أدنى فكرة عن الله و أنبيائه، الخ. و أظهر، خلال النقاشات حول الدين، أنه مسلم حقيقى، و حاول أحد العلماء فى بعثتنا إقناعه بحقيقة الدين المسيحى، فغادر قائلا إن من يؤمن بغير الله هو ثور و حمار. و هكذا أعلمنا الرجل بضرورة ترك كل شخص لإيمانه، و لاعتقاده بأن ديانته هى الأفضل طالما لا يشك هو بالأمر، لكن حين راجعت لا حقا بعض المسلمين حول مبادىء دينهم، أطلعتهم بعض الشىء على الديانة المسيحية، من دون أن أشير إلى أنها أفضل من مبادىء القرآن، و لم يغضب بالتالى أحد منهم.

و كان أمين السر يقوم بمهام الإمام على متن السفينة، فبعد أن يتحضر المسلمون للصلاة، أى بعد الاغتسال وفقا لأصول معينة، يبسط الإمام أمام الآخرين سجادته على أن يستقبل مكة. يصطف الآخرون جنبا إلى جنب، وراء الإمام، كى يتمكنوا من رؤية حركاته، و يوجهوا وجوههم شطر مكة. و عند بدء الصلاة، يضع الإمام إبهاميه وراء أذنيه، للإشارة إلى أنه يتعالى عن الأمور الدنيوية و يحصر فكره بالله وحده، و يقلّده كل من يصلى وراءه. كما يقلدونه حين يركع و يسجد، و يرددون وراءه كلمة الله أكبر حين يقولها. و باختصار، يقلّد المسلمون فى أثناء الصلاة من يؤمّهم، و بما أننى، لم أكن أعرف هذه الأمّة عن كثب، خشيت أن أثير استياءهم إن حضرت صلاتهم. لكنهم لا يخجلون من تواضعهم أثناء الصلاة و لا من الشعائر التى يتبعونها عند ذكر الله، و لهذا السبب، لا ينشغلون عن صلاتهم بوجود أجانب يتبعون ديانة مختلفة عن ديانتهم. و كنت مرة فى منزل حاكم السويس، و عند وصول الإمام، و فيما أخذ الحضور فى التحضر للصلاة، أردت المغادرة، لكن الحاكم نفسه أشار بإمكانية البقاء. و يبقى الشعب هو الوحيد الذى لا يحتمل وجود مسيحى فى المسجد و لا- سيما فى أوقات الصلاة. و نرى الكثير من المسلمين الذين يصلّون فى منازلهم، فلا يتوجهون دائما إلى المساجد أو إلى أماكن التجمع حيث يكون الإمام، إنما يصلّون فى مكان تواجدهم ساعة الصلاة و إن كانوا فى الشارع. و هكذا يصلى كل منهم على متن السفينة حين يتسنى له ذلك أثناء النهار. و كانت صلاة المساء تتم جماعة، بعد مغيب الشمس مباشرة، و

يختمونها قائلين: «اللهم اجعل رحلتنا سعيدة!».

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۴۳

حجزنا لأنفسنا حجرة القبطان، مع حجرة أخرى طويلة وضيقة تجتاز السفينة، مما يسمح لنا بالابتعاد كليا عن الأتراك حين نملّ رفقتهم. و تقع فوق حجرتنا، حجرة أخرى مخصصة للنساء من القيان المميزات أى اللواتى يريين كنساء كريمات النسب فى تركيا. كان لقائد السفينة و البحارة حجراتهم تحت حجرة القبطان التى نقيم فيها و أمام تلك التى تقيم فيها النساء. و يبقى التجّار و الركاب الآخرون أياما بأكملها، على سطح المركب. و تجلس القيان فى زاوية تحت سطح السفينة، أما الرجال فيحاولون إيجاد أماكن لهم من دون إزعاج الآخرين، و تتم معاملتهن بشكل جيد، لأنهن أعددن للبيع فى مصر، لذا يحاول صاحبهن الوصول بهن إلى مصر معافين. كنت و السيد فورسكال نجلس غالبا بين متاعنا للقراءة أو للكتابة، و فى يوم ما، سمعنا فوقنا صوت بعض النساء، و لم نتمالك أنفسنا من النظر عبر النافذة لاكتشاف المزيد، و بما أن القيان لم يعتدن هذه الحشرية، و حين اكتشفن أننا أجانب (لأننا لم نعتد اعتمار العمامة فى غرفتنا كما يفعل الشرقيون) أخذن بالصراخ، و بإطلاق الشتائم. لكن ذلك لم يخفنا، حين رأينا إحداهن تحاول تهدئة الأخريات، و اعتدن تدريجيا على رؤيتنا. و عرضنا عليهن أنواعا عديدة من الفواكه و السكاكر المصنّعة فى أوروبا، فكنّ ينزلن محارمهن من النافذة كى نضع فيها ما استطيبن، و قدمّن لنا بدورهن بعض الهدايا البسيطة. و لم نكن نتكلم التركية و لم يكنّ يتكلمن أية لغة أوروبية فاكتفينا بالإشارات، و رددت لى أجملهن بعض الكلمات، فسألنا أمين سرّ السفينة عن معنى بعض الكلمات التركية، لنفهم ما قالته، فعلمنا أنها أشارت إلينا بضرورة توخى الحذر و بعدم الظهور إلا فى أوقات الصلاة، و حتى فى وقت كهذا قد نتعرض لمفاجأة. أخيرا، اعتدن إعلامنا عند ما يكنّ وحيدات بالضرب على نوافذهن، و هكذا تسليت و السيد فورسكال مرارا، لكن لا أنصح أحدا بأن يحاول التعرّف على القيان التركيات و إن كان بهدف التسلية مثل ما فعلناه. و لم يكن من السهل أن يرانا ركاب السفينة و طاقمها لأن نوافذها من جهة الكوثل، و لو اكتشف أمرنا، لأوقعتنا حشريتنا فى مأزق.

فى ۲۵ أيلول/ سبتمبر ظهرا، و بعد أن قست ارتفاع القطب، علمت أننا لا زلنا بعيدين عن الشواطىء المصرية، لكن قائد السفينة اعتقد أننا اقتربنا، فأمر بإنزال الأشرعة فى الليلة التالية. و لم نر اليابسة إلا فى السادس و العشرين ظهرا، و كنا إلى الشرق فيما الرياح تتحول نحو الغرب فلم نصل ميناء الإسكندرية إلا فى المساء و بعد جهد جهيد. و للمدينة مرفآن، أحدهما يسمى القديم و هو الأكبر و الأعمق و الآمن، فرسونا فيه، فيما تضطر السفن الأوروبية إلى الرسو فى المرفأ الشرقى السيىء. و لم نغادر السفينة إلّا فى اليوم التالى، بينما نزل معظم الركاب الآخرين فور رسونا، أمّا النساء العبيد، فتمّ نقلهن ليلا و بسريّة تامة. و توفى ستة إلى ثمانية أشخاص من ركاب السفينة أثناء هذه الرحلة القصيرة و من بينهم ملّاح اعتاد التردد علينا فى الأيام الأولى، و يعتقد أن الطاعون قضى عليهم، لكن لعل أسبابا أخرى عجّلت بموتهم. و لم تصب بعثتنا، بفضل الرب، بأى مرض معد بالرغم من أن طبيبنا عاد العديد من المرضى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۴۴

ملاحظات من الإسكندرية

تقع مدينة الإسكندرية أو سكندرية كما يسميها العرب و الأتراك على لسان أرض، بين شبه الجزيرة و أسوار المدينة القديمة و بين المرفأين، على خط العرض ۳۱، ۲۱؟؟؟. أما الأرض التى بنيت عليها المدينة فمنخفضة حتى ليقال إن القسم الأكبر منها غمرته المياه فيما مضى، و تضفى المساجد، و أبراج المعابد، و بعض الصروح الكبيرة، و بقايا أسوار المدينة القديمة، و عمود بومبى(? Pompe e) ، و مسلّة كليوباترا، و أشجار النخيل حلّة جميلة على المدينة، كما يراها القادم من أوروبا. و لقد أشرت سابقا إلى أن المرفأ القديم واسع و عميق و آمن، على عكس المرفأ الجديد حيث ترسو السفن القادمة من أوروبا، فهو غير سالك تقريبا، و يزداد سوءا يوما بعد يوم. أما قاعه فملىء بالحجارة، حتى أن البحارة يضطرون إلى ربط العارضات و العوامات بالمرساة لإبقائها ممدودة و لمنع احتكاكها

بالحجارة. و نجد فى المحيط بقايا أسوار قديمة، و أعمدة مكسورة و حجارة ضخمة، لكن هذه الأمكنة الرائعة و غيرها التى ذكرها الكتّاب القدامى، تغيرت للغاية فلم أتمكن من التعرّف إلّا على القليل القليل من الأشياء استنادا إلى وصف هؤلاء الكتّاب، مما يجبرنى على ردّ الذين يتوقعون الحصول على تفاصيل حول هذا الموضوع إلى كتب أخرى و لا سيما كتاب بوكوك(Pocok) الذى درس الآثار بحرص و انتباه.

و تقع أمام الإسكندرية الحديثة و مرفأيها شبه جزيرة كبيرة، يطلق حاليا على الجزء الغربى منها و الواقع أمام المرفأ القديم اسم رأس التين. و لم أقع فيها على أثر يستحق الذكر سوى قلعة صغيرة، هى مسكن متداع، و ملّاحة و الكثير من أشجار التين، و منها نال هذا الجزء من الجزيرة اسمه. و نجد فى الطرف الشرقى لشبه الجزيرة حصنا يرابط فيه ۵۰۰ انكشارى، و يقع هذا الحصن على صخرة صغيرة، و يشغل على الأرجح حاليا مكان القناة القديمة الشهيرة. و يمتد سدّ يبلغ طوله حوالى مئة قدم من هذا الحصن حتى مدينة الإسكندرية الجديدة، و بما أن الأمواج ترتطم بهذا السد بعنف عند هبوب الرياح الشمالية، تمّ بناء جسور كى تصب المياه فى المرفأ. و نجد قبالة هذا الحصن، و عند مدخل المرفأ حصنا آخر صغيرا قائما على صخرة، و يمكن العبور إلى اليابسة من فوق سور يبلغ طوله ۱۵۰۰ إلى ۱۶۰۰ قدم، و تمّ فتح ثغرات فيه كى تنسكب المياه فلا تهدمه.

و لقد بحثنا عبثا عن دلائل على مساحة مدينة الإسكندرية كما كانت حين أسست. لأن الأسوار الحالية للمدينة القديمة بناها العرب، و يتجلى ذلك فى الكتابات العربية المنقوشة عليها، و فى هندستها، و فى أبراجها المزوّدة بأعمدة رخامية. إن مساحة حرم الأسوار القديمة، كما هى عليه اليوم، أصغر من المساحة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۴۵

التى نسبها المؤرخون للإسكندرية الكبرى، لكن هذه الأسوار التى بناها العرب عظيمة و عالية و طويلة.

و وجدت أن ارتفاعها يبلغ ۴۳ قدما، إلى ۵۰ قدما، بما فى ذلك الحاجز أى قرب باب الرشيد، لكن هذه الأسوار مهدمة فى مواقع عدة، و تتم الحراسة فى بعض الأبراج كما أشار نوردن و بوكوك و غيرهما .

و لم تهجر الإسكندرية فجأة، إنما تراجعت تدريجيا، مع تراجع عدد السكان و افتقارهم. و لم يتركوا من القصور القديمة الرائعة إلّا ما لم يكن بالإمكان نقله أو استخدامه فى أبنية جديدة، كما تمّ نبش أساسات الأسوار، لذا نرى الكثير من الآثار القديمة، و بما أن الإسكندرية الجديدة تفتقر للمياه العذبة باستثناء تلك التى تجمع من النيل و الأمطار، يضطر السكان إلى الاهتمام بعدد كبير من الخزانات تكفى مياهها لحاجتهم السنوية، و لهذا السبب، يعملون على منع انسداد القنوات التى تحمل مياه النيل إلى الخزانات. و بالرغم من أن القناة الممتدة من النيل و التى تجرى قرب أسوار المدينة غير قابلة للملاحة منذ سنوات، يقومون بتنظيفها سنويا و فتحها، بعد أن يرتفع منسوب النيل إلى حدّ معين. و تمّ جرّ المياه من الجهة الشرقية للمدينة عبر قناة صغيرة تحت الأرض لتصب فى الخزانات و حين تمتلىء هذه الخزانات، تجرّ المياه الزائدة فى قناة صغيرة عبر أسوار المدينة القديمة لتصبّ فى المرفأ القديم.

أما أفضل أثر من الآثار القديمة الموجودة داخل حرم المدينة و الذى لم يتمكن المسلمون من نقله هو مسلّة كيلوباترا، و هى من الغرانيت الصلب الأحمر اللون، مكونة من قطعة واحدة ككل المسلات التى اكتشفت قرب قصور و معابد المصريين القدامى. و قد غاص قسم من المسلّة فى الأرض، لكن بقى منه ۶۱ قدما، و ۱۱ بوصة من حيث الارتفاع، و ۷ أقدام و ۳ بوصات من حيث العرض . و يبلغ عمق بعض الكتابات الفرعونية المنقوشة على المسلّة بوصة واحدة، و يبدو من ذلك، أن المصريين القدامى سعوا لتخليد كتاباتهم، لكن خلفاءهم لم يتمكنوا من قراءتها، و قد رسم السيد نوردن هذه المسلّة بشكل جيد. و نجد مسلّة أخرى قرب الأولى، و يبلغ عرض كل جهة منها ۶ أقدام و ۳ بوصات، و هى غير منتصبة بل مكسورة و مغطاة جزئيا بالتراب.

و لم يبق من معابد الإسكندرية القديمة الرائعة ما يستحق الاهتمام سوى كنيسة سان الباناز(St .Albanase) ، و هى كنيسة واسعة للغاية، و يدّعى البعض أنها مزينة بعدد كبير من الأعمدة الجميلة، و أنها تضمّ مجموعة غنية من الكتب اليونانية. لكن تمّ تحويل هذه

الكنيسة الجميلة، منذ زمن، إلى مسجد، لذا يمنع دخولها على المسيحيين. و نلاحظ قرب الكنيسة على بعض الأعمدة الغرانيت الحمراء، و بقايا قصر واسع.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۴۶

و لا تتميز كنيسة القديسة كاثرين التابعة للروم، بكبرها أو بروعة هندستها، إنما بحجر الرخام الأبيض المرقّط بالأحمر الذى بنيت منه، و يدّعى الرهبان الروم أن رأس القديسة كاثرين قطع على هذا الحجر، و هنا تكمن أهميته، و ما النقاط الحمر إلّا دليل على ذلك. و تقع كنيسة القديس مرقس الإنجيلى، التابعة للأقباط على مقربة من الأولى، و يعرض فيه قبر هذا القديس الذى لم يعد يفتحه الأقباط، لأنهم يقولون إن رجالا من البندقية استولوا على رأس الإنجيلى، فيما يؤكد الروم الكاثوليك أنهم تمكنوا من تخليص الجثة بأكملها من سجن الملحدين و أن الأقباط يسيئون إليهم حين يدّعون أن رجال الدين من الروم لم يأخذوا إلّا رأس القديس، و يتذكرون التدابير الحذرة التى اتخذها إخوانهم للنجاح فى هذه المهمة. يقال إنهم قطّعوا الجثة و لفوها، و أوهموا الجميع أنها لحم خنزير كى لا يكتشف المسلمون و اليهود عند الجمارك هذا الكنز العظيم فيستردّوه من جديد. و يصعب إرسال الجثث من الإسكندرية إلى البلاد المسيحية، و قد منع الأتراك نقل المومياء لأنهم يعتبرون ذلك حشرية لا طائل تحتها هى التى تدفع الأوروبيين إلى نقل هذه الجثث القديمة من مكان دفنها، لكن، بما أن اليهود يسيطرون حاليا على الجمارك فى الإسكندرية أصبح نقل الجثث إلى خارج مصر أسهل من إرسالها إلى أوروبا على متن المراكب الإيطالية. و قد وصلت صناديق عدة، تحمل مومياءات إلى متن المركب بأمان، لكن البحارة أرادوا مغادرة المراكب إن لم يعد القبطان جثث الكفرة هؤلاء، لذا اضطر السيد ماريون المكلّف بإيصال المومياء إلى أوروبا إعادتها، كما اضطر القبطان الإيطالى الآخر الذى نقلها إلى إخفاء أمرها و حقيقتها عن بحارته. و يعرض فى كنيسة القديس مرقس كرسى، يقال إنه صنع تماما كالكرسى الذى جلس عليه الإنجيلى و هو يعظ و يبشر، و تجدر الإشارة إلى أن بعض البروتستانت دفنوا فى هذه الكنيسة. و نجد ضمن حرم أسوار الإسكندرية التى بناها العرب ديرا لرهبان الفرنسيسكان و بعض منازل العرب المتداعية فضلا عما ذكرته عن المسجد الكبير و الكنيستين، أما باقى المدينة فموحش.

كان عمود بومبى جزءا لا يتجزأ من المدينة فى زمن اليونان، لكنه حاليا خارج الأسوار و على بعد ربع ساعة من مدينة الإسكندرية التى بناها العرب، و قد أحسن نوردن رسم هذا العمود. و بما أن الجميع غير متفق حول ارتفاع هذا الصرح، عمدت إلى قياسه بنفسى و وجدت أن طوله (من دون الأساسات) يبلغ ۸۸ قدما و ۱۰ بوصات . إذا، و استنادا إلى رأيى الخاص، لا يبلغ هذا العمود الارتفاع الذى يدعيه المسافرون الآخرون، لكن هذا لا يمنع اعتباره قطعة رائعة من العصور القديمة لأنه مصنوع كليا من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۴۸

الغرانيت الأحمر، و قسم هذا العمود إلى ثلاثة أقسام، كل منها ضخم للغاية؛ لم أستطع تمييز إلا القليل من الكتابات المحفورة على الجهة الجنوبية الغربية من العمود، و لقد حاول السيد دى هافن جاهدا، اكتشاف المزيد، لكنه لم يتمكن من معرفة القدر الذى يدّعى الآخرون اكتشافه قبلنا. و يبدو أن المهندس المعمارى اليونانى لم يشأ تخليد اسمه بهذه الكتابات أو أنه لم يكن يعرف طبيعة الحجر كما عرفها المصريون القدامى، لأن اليونان لو حفروا هذه الكتابات على العمق نفسه الذى حفر فيه المصريون الحروف الهيروغليفية على المسلّات لأمكن قراءتها. و نلاحظ أن قدماء المصريين اعتادوا الكتابة على جهات المسلّات الأربع، أما اليونان فقد كتبوا على الجهة الوحيدة من العمود التى عانت الأكثر من عوامل الزمن. و كانت أساسات العمود قد تعرّضت للكثير من الأضرار، عند وصول نوردن، و قد عمل تشربتشى على إصلاحها، لكن لا يمكننا أن نستنتج أن العمود الكبير قائم على عمود آخر أصغر حجما كما يؤكد بعض المسافرين. و هذا دليل على أن المسلمين لا يعملون جميعا على إلحاق الضرر بالأثريات، و تجدر الإشارة إلى أن العديد منهم يحاول الاستفادة من هذه الآثار، و لا يختلفون فى ذلك عن الأوروبيين. و لنفترض أن رجلا فقيرا وجد فى حديقة منزله عمودا أثريا جميلا إذن لأثر جعله رحى يستفيد منه. و توازى زوايا مسلّة كليوباترا الأربع أركان العالم الأربعة، لكن زوايا قاعدة عمود بومبى

تنحرف حوالى ۱۲ درجة، إذا، يحتمل أنهم اعتمدوا على موقع الصروح المحيطة ببناء هذا العمود و ليس على موقع الهاجرة كما حصل عند بناء الأهرام.

و لقد لاـ حظت خلال إقامتنا فى الإسكندرية، أن العرب يتسكعون حول المدينة و بين الآثار، و لم أشأ التعرض للسلب عند وضع خارطة للمدينة، و لا سيما و أننا نملك واحدة ممتازة و هى تلك التى وصفها السيد نوردن. و بما أننى أستطيع رؤية جزء كبير من أسوار المدينة القديمة من على المرتفع الذى يقوم عليه عمود بومبى، قمت بقياس بعض الزوايا من هذا المكان، على أمل أن أسجل قياسات أخرى من أماكن مختلفة. و دفعت الحشرية أحد التجار الأتراك الحاضرين للنظر عبر المنظار الذى وجهته نحو المدينة، فتخوّف من رؤية برج مقلوب، و شاعت الأخبار أنى جئت المدينة لأقلبها رأسا على عقب، و وصلت الشائعة إلى أذنى الحاكم. و رفض الانكشارى المخصص لحراستى مرافقتى و أنا أحمل معى معداتى، و بما أنى كنت أعتقد أنه لا يسمح لأوروبى الخروج فى المدينة دون أن يرافقه انكشارى، لم أكمل عملياتى الحسابية. و فى وقت لاحق، رأى عربى فى رشيد مركبا مقلوبا عبر منظارى فكاد يرميه فى الأرض، مما دفعنى إلى توخى الحذر فى أعماقى، و اضطررت إلى ذلك طالما لم أتمكن من التحدث معهم لجهلى لغتهم. و حضر فلاح شريف ورزين الدراسات الفلكية التى قمت بها على الطرف الجنوبى للدلتا، و لكى يرى أمرا مثيرا، أدرت المنظار ناحية القرية، فهلع عند رؤيته المنازل المقلوبة، و سأل خادمى عن السبب فأجابه أن الحكومة مستاءة من سكّان القرية فأرسلتنى لأدمرها، فأصيب الرجل بالجزع و طلب منى الانتظار كى يضع زوجته و أولاده و بقرته فى مكان آمن، و أكّد له خادمى أن أمامه ساعتين فأسرع عائدا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۴۹

إلى منزله، و أفلت عائدا إلى الباخرة ما إن اجتازت الشمس الهاجرة. و لاـ ينبغى أن يفاجأ المرء من ردة فعل المسلمين إزاء أمور كهذه، إذا ما فكّر فى أن الأوروبيين، منذ وقت غير بعيد، كانوا يعتبرون أى شىء لا يفهمونه سحرا.

كان يتمّ دفن الموتى فيما مضى غرب الإسكندرية، و نجد حاليا الكثير من المدافن هناك. أما نوعية التربة فكنوعية التربة فى مالطا، كلسية و لزجة مغطاة بطبقة خفيفة من التراب و الرمل، لذا يتبين لنا عند التجوال على ظهر جواد أن الأرض مفرّغة فى بعض الأمكنة. و على مقربة من عمود بومبى، و قرب مصلى صغير، دخلت سراديب للأموات، شبيهة بتلك التى وصفها بوكوك فى هذا المكان، أصغر من التى شاهدتها.

و تتألف السراديب من غرفتين محفورتين فى الصخر، إحداها خلف الأخرى، و للأولى ۱۲ فجوة من كل جهة على مستويين، و يبلغ ارتفاع كل فجوة قدمين و نصف، أما عرضها فقدمان و عمقها حوالى ستة أقدام، و قد صممت كلها كمدافن، ل ۴۸ شخصا. أما فى الغرفة الثانية فلم أجد سوى ۶ فجوات، و رأيت فى عمق الغرفة قبالة المدخل، فجوة صغيرة فى الحائط، يصل ارتفاعها إلى ۴ أقدام و عرضها إلى قدمين و نصف. و على بعد فرسخ من الإسكندرية، نحو الغرب، زرنا سراديب أوسع و أبهى، و كان المدخل شبه مسدود بالردميات، و حتى فى داخل السراديب اضطررنا أحيانا إلى الزحف لتجنبها. و لقد رأينا فى أعلى الممر الأول، بعض الكوى التى يمكن أن تكون قد استعملت لوضع الشموع أو القناديل منحوتة فى الصخر، ثم انتقلنا إلى غرفة مربعة، لها من كل جهة باب، و بعض الزينة الهندسية البسيطة. أما الباب الشمالى فيختلف عن الأبواب الأخرى لوجود بابين صغيرين بجانبه، لكن بما أن الركائز التى تفصلها عن الأول قد دمّرها الزمن، لم يعد يشكل معه سوى مدخل وحيد. و بدت الغرفة من هذه الجهة مستديرة و مقببة، و يبلغ قطرها ۲۰ قدما. و شاهدنا ثلاث غرف صغيرة إلى جانب الغرفة الكبرى، و هى تشبه المقابر السورية القديمة و مقابر الملوك قرب القدس، لأن هناك فجوات فى الجوانب، يتم وضع الموتى فيها، و قد رسمتها على اللوحة الخامسة، الحرف ب. ثم انتقلنا من الغرفة، التى ذكرتها، عبر باب آخر و ممرات عدة يصعب سلوكها حاليا، إلى ساحة واسعة للغاية، لكنها استحالت واطئة بسبب كميات الغبار و الرمال التى ملأتها و التى دخلتها من فتحات غير معروفة، و لعلهم اعتادوا تخزين القمح فى هذا المكان.

و بما أن هذه الساحة كبيرة جدا، سـدّت بصفوف من الركائز التى يبلغ حجمها ۳ أقدام مربعة، صنعت من الصخر دون أية زخرفات. و نجد هنا أيضا العديد من الممرات و الأقبية التى حفرت فى الصـخر، لكنها أضحت ملجأ للحيوانات المفترسة فقررت عدم المخاطرة. و ينبغى التزود بضوء لزيارة هذه السراديب، كما يتم إطلاق النار قبل دخولها لطرد الحيوانات المفترسة التى قد تتواجد فيها. و نجد غرب هذه السـراديب مرفأ صـغيرا أو خليجا، و يبدو و كأن قصرا قد شيّد على أحد شواطىء الخليج فيما مضى، لأننا نعثر على الكثير من قطع الرخام التى استخدمت على الأرجـح لرصف الأرض أو تزيين الجدران. و نشاهد هنا أيضا غرفتين حفرتا فى الصـخر و كأنهما خزانان للمياه، لأن النزول إليهما، يتمّ عموديا عبر فتحة صغيرة، تعلو

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۰

درجـات تمتـد على جهتى الصـخرة التى حفرت فيهـا بعض الأمـاكن للجلوس بعيـدا عن الشـمس و القيـظ مع التمتع بمنظر البحر. كما تطالعنـا أدراج طويلـة أخرى حفرت فى الصـخرة نفسـها، و لعـل أهم الآثار حمامات بومبى(Pompe ?e) ، و هى مؤلفـة من ثلاث غرف متحاذية و محفورة فى الصخر، و لكل غرفة باب من جهة المرفأ تدخل منه مياه البحر، أما الغرفة الأخيرة ففى آخرها فتحة صغيرة فى الصـخر تسـمح للمياه بأن تسيل، و تركت مقاعد حفرت فى الصخر. و لم أنتبه إلى نسبة ارتفاع أو انخفاض المياه فى هذه الأماكن، لكنى أعتقد أنها تصل إلى مستوى المقاعد، و نستنتج من ذلك، أن منسوب المياه لا ينخفض كثيرا قرب الإسكندرية.

و لا يتعامل الأجانب مع سكان الإسـكندرية، لكن السـفن التجارية القادمة من أوروبا و أفريقيا إلى مصر ترسو أمام هذه المدينة فضلا عن تلـك التى تـأتى لتحميـل البضـائع من مصـر لتنقلهـا إلى أفريقيـا و أوروبـا، ممـا يجعـل مردود الجمـارك مهمـا للغايـة. و يقيم فى الإسـكندرية العديـد من التجّار الأوروبيين، فضـلا عن قنصل فرنسا و البندقية و هولندا و راغوز، و يمثّل إنكلترا قنصل هولندا أيضا، أما السـيد ماريون فنائب قنصل الـدانمارك و السويـد و توسـكانه و البندقيـة. و يتكلم أهالى الإسـكندرية و مصـر عامـة اللغـة العربيـة، أما الأجانب الـذين يجهلون هـذه اللغـة فيعتمـدون اللغـة الإيطاليـة، و قـد صادفت فى الإسـكندرية وحـدها مسـلمين يتكلمون الفرنسـية، و الدانماركية و السويدية كما لو أنهم ولدوا فى تلك البلاد. و هذا ما يجعلنى أميل إلى الاعتقاد بأن أهالى الإسكندرية أكثر قابلية لتعلم اللغات الأجنبيـة من باقى المسـلمين، لكن يبـدو أن أمل الكسب و الربـح فضـلا عن عـدم التعلّق بالـدين يدفعانهم لتعلم هذه اللغات. و يسـتحيل أن يمارس مسـلم شعائر دينه بين البحارة الأوروبيين، و بالرغم من ذلك نجد إسكندرانيين يعملون لسنوات تحت أمرة قبطان مسيحى، و حين يتعلمون اللغة يكسبون بالتالى الكثير من المال، و بسهولة.

يخضع حاكم الإسكندرية لوصاية القاهرة، و بالتالى لسلطان القسطنطينية. و تدفع القبائل العربية التى تجول فى مصر مبالغ معينة للحاكم التركى، و هى مسالمة أحيانا، تتصرف كحليف للأتراك لكنها تعود و تتمرد فيضطر الحاكم إلى إرسال المئات بل الآلاف من العسكر لطردها إلى داخل البلاد. و خلال إقامتنا فى الإسكندرية، اقترب هؤلاء الرحّل من المدينة و أخذوا يزعجون الفلاحين العرب. و فى ۱۱ تشـرين الأول/ أكتوبر، ضـرب المئات منهم خيامهم على بعـد نصف فرسـخ من المدينة، و عند الصـباح، أراد قبطانان من البندقية رؤية عمود بومبى، فأوقفوهمـا البـدو و أمروهمـا بنزع ثيابهمـا و بتسـليم كـل مـا يملكـان، فقـال لهم الانكشـارى الـذى يرافقهما، إنّ هـذين الأوروبيين لم يسـيئا لهم و إن كان هناك حساب بينهم و بين الحاكم فليصـفوه، فتركوا القبطانين و شأنهما و حاولوا سـلب الانكشارى الـذى لم ينـج منهم إلا بعـد أن تمزقت ثيابه. و حين يأتى هؤلاء العرب المدينـة للتسوق، يـدخلونها الواحـد تلو الآخر كى لا يلاحظهم السكّان، لكن فى ذاك اليوم، دخلوا الإسكندرية بأعداد كبيرة، و جرت حادثة لم أر مثلها فى رحلاتى كلها، و قد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۱

تابعنا ما جرى من شـرفة منزلنا أو من على سـطحه: يقول البعض إن سـكان الإسـكندرية أخبث شـعب فى الأمبراطورية العثمانية، فحين رأوا أعداءهم، أرادوا الانتقام من الفوضـى التى خلّفها هؤلاء خارج المدينة، فيما يعتقد البعض، أن ابن أحد الشـيوخ، اشترى رصاصا و بـارودا، و أراد تجربـة بنـدقيته فى المدينـة، فـأطلق النار على المنزل المقابل للمتجر الـذى اشترى منه. عندئـذ، وجّه إليه صاحب المنزل

كلاما فظا كما لو أنه من العامة، وردّ عليه الشيخ الشاب كما لو أنه يخاطب أحد أتباعه فى الصحراء، فدبّ الخلاف بينهما أولا. و هبّ عرب آخرون لمساندة الشيخ، و سارع سكان المدينة لمساعدة جارهم، فتجمعوا فى ساحة كبيرة قرب منزلنا و من الجهة التى ينبغى أن ينسحب العرب منها. و كان يمكن للفرسان بينهم أن ينسحبوا بسهولة، لكنهم رفضوا ترك رفاقهم الراجلين، فأخذوا يكرّون بأفراسهم على جماعات الأعداء فيشتتونها، لكن ما أن ينسحبوا حتى يرشقهم أهالى الإسكندرية بالحجارة إلى أن يصل بعضهم مسلحا. و عند ما تبيّن للعرب البدو أن أهالى الإسكندرية يفوقونهم عددا، حاولوا ألّا يقتلوا أحدا، لكن أعداءهم لم يعاملوهم بالمثل، فقتلوا فارسا رشقا بالحجارة و آخر بالرصاص. و أخيرا، فرّ البدو بعد أن فقدوا خمسة عشر رجلا و بعض الجياد، و أساء الإسكندريون معاملة السجناء، فتوفى اثنان منهم من كثرة الضرب. عندها، حاصر العرب المدينة، و سلبوا السكّان الكثير من المواشى، لكن السلام استتب بعد يومين و أعيدت الغنائم إلى الطرفين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۲

الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة

يسلك الأوروبيون، الذين نشروا أخبار رحلاتهم من الإسكندرية إلى القاهرة، الطريق نفسه، فيقصدون رشيد أولا ثم ينتقلون إلى القاهرة، مبحرين نحو عالية النيل، و كنا نودّ السفر برا لرؤية المناطق المصرية التى لا تزال مجهولة. لكننا نعلم مما تقدّم أن العرب الرحّل يجعلون هذه الرحلة مستحيلة، إلّا إذا كنا لا نكترث إن تعرّضنا للنهب. و هذا ما عانى منه لاحقا أحد رفاقنا، و هو السيد فورسكال الذى أراد التوجه من القاهرة إلى الإسكندرية برا، فأجبر على إعطاء اللصوص الأعراب كل ما يملك. و لم يعيدوا إليه سوى ثيابه الداخلية.

استأجرنا مركبا صغيرا للتوجه من الإسكندرية إلى رشيد، و غادرنا المدينة فى ۳۱ تشرين الأول/ أكتوبر، لكن الرياح المعاكسة لم تسمح لنا بالتقدم كثيرا، فتوقفنا فى أبوقير(Abukir) على بعد أربعة فراسخ من الإسكندرية. و يوجد هنا خليج، ترسو فيه السفن التى لا تستطيع الوصول إلى مرفأ الإسكندرية، فضلا عن حصن صغير فيه بعض الجنود قرب القرية. ثم فى ۱۱ تشرين الثانى/ نوفمبر، كانت الرياح ما تزال معاكسة، مما دفع رفاقى إلى الانضمام إلى بعض الأتراك الذين انتظروا الرياح المواتية طويلا، و متابعة الطريق عبر البرّ، فاستأجروا زورقا صغيرا لعبور بحيرة تصب فيها مياه النيل و تصب هى فى البحر المتوسط، ثم اجتازوا منطقة رملية على ظهور الجياد و الحمير، و لم يجدوا فيها ما يلفت الانتباه سوى عشرة إلى اثنى عشر عمودا حجريا، تدل على الطريق حتى رشيد. و على الرغم من ذلك، لم يصلوا قبلى بكثير، فقد هبت رياح مواتية، و وصلت إلى المدينة فى ۲ تشرين الثانى/ نوفمبر.

إن الطريق من الإسكندرية إلى رشيد خطيرة جدا فى الشتاء، إذ يغرق العديد من السفن فى مصب النيل. و بالرغم من أن منسوب المياه فى النهر لم ينخفض كثيرا، فاعتذر قبطاننا قائلا إن مجرى النهر يتغيّر غالبا فى هذا المكان. و لا خوف على المصريين من هجوم سفن معادية عبر ساعد النهر هذا، و لذا أعتقد أنّ المصريين، تركوا الحصون المحيطة تتداعى. لكن، بقى حصن على الضفة الغربية للنيل بين المصب و رشيد، و هو حصن قديم و عال، إنما مهجور كليا، و لا يلفت الأنظار فيه سوى بعض الكتابات العربية و بعض المدافع الحديدية القديمة، كما نجد حصنا صغيرا، غير جدير بالاهتمام، على الضفة الشرقية للنهر.

و اشتهرت مدينة رشيد، أو روزويت كما يقول الأوروبيون، فى تاريخ شبه الجزيرة العربية منذ القدم، لكن يبدو أنها ازدهرت بعد تراجع التجارة فى مدينة فوه الواقعة على النيل نحو الشمال. و هى اليوم مخزن للبضائع التى تنقل من القاهرة إلى الإسكندرية إلى القاهرة، لأن السفن الآتية من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۴

القاهرة تصل حتى رشيد فقط، و ينطبق الأمر نفسه على تلك المنطقة من الإسكندرية. و رشيد مدينة كبيرة، تقع على الضفة الغربية

للنيل، و على مرتفع يطل على النهر من جهة و على مصبه من الجهة الأخرى، و هى على خط عرض ۳۱؟، ۲۴؟. و نجد فى جنوبها مرقبا قائما على مرتفع، رسم من أعلاه السيد بورنفند منظرا للمدينة حفر على اللوحة السادسة. و على مقربة من هذا المكان، قرب قرية أبى مندور، يتعرّج النيل بشكل جلى، و فى هذا المكان، تمّ اكتشاف ۲۰ عمودا من الرخام فنقلت إلى القاهرة، و ظنّ الأوروبيون المقيمون فى رشيد أنهم وجدوا فى هذا المكان مدينة كانوبوس(Canopus) . و تقول الروايات المصرية إن ساعدا كبيرا للنيل يمتد من هذه المنطقة نحو الغرب، و يمرّ عبر بحيرات صغيرة أشرنا إليها فى اللوحة العاشرة، ليصب أخيرا فى البحر قرب أبو قير ، لكن هذا الممر مسدود كليا بالرمال التى تحملها الرياح بسهولة و التى تكثر فى هذه المنطقة.

و يقيم فى رشيد قنصل فرنسا و البندقية و بعض التجّار الأوروبيون الذين يؤمّنون نقل بضائع أصدقائهم بين القاهرة و الإسكندرية، و قد أقمنا فى المدينة عند الآباء الفرنسيسكان. و يشيد الأوروبيون بتهذيب و لياقة سكّان هذه المدينة، لذا يمكن أن نقيم فيها لمدة أطول من تلك التى نمضيها فى المدن المصرية الأخرى حيث لا يتمتع الأوروبيون بالاحترام اللازم. لكننا سارعنا بالوصول إلى القاهرة، ففى ۶ تشرين الثانى/ نوفمبر، غادرنا رشيد على متن مركب صغير و وصلنا فى اليوم نفسه إلى منتود(desچMent) ، و أجبرنا الهواء المعاكس على الإرساء هناك.

فى ۷ تشرين الثانى/ نوفمبر مساء، بلغنا بلدة ديروط، فحملت ساعتى و نزلت إلى اليابسة، لأن الجو صاف و لا يخشى علىّ من سكان المنطقة، و بعد مراقبة ارتفاع نجمة فى الهاجرة، وجدت أن ديروت تقع على خط العرض ۳۱؟، ۱۳؟، و حاولت مرارا القيام بدراسات فلكية، لكن محاولاتى باءت بالفشل، فاضطررت إلى الاكتفاء بملاحظة تعرجات النيل و الوقت الذى لزمنا للانتقال من مكان إلى آخر، و لسوء الحظ التقيت بأصحاب مراكب رفضوا إعطائى أسماء القرى أو كانوا يجهلونها، إذ ينبغى اجتياز هذه المنطقة مرارا لحفظ كافة الأسماء. و سافرنا فى بعض الأحيان ليلا، فلم أستطع رؤية القرى كلها. و بما أن المسافة بين ديروط و القاهرة أكبر من أن يضع المرء خارطة جيدة لمجرى النيل من دون أن يسجل ارتفاعات القطب المختلفة، حددت خلال رحلات قصيرة قمت بها لاحقا، عند ما كنت فى القاهرة، موقع وردان على خط عرض ۳۰؟، ۳؟، و سأوردها لاحقا بشكل أوضح فى الدراسات الفلكية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۵

فى ۸ تشرين الثانى/ نوفمبر، مررنا أمام مدينة فوه، و قد فقدت هذه المدينة مجدها و ازدهارها السابقين.

يقال إننا يمكن أن نرى حتى اليوم الجمارك، و منزل قنصل البندقية الذى أقام فى هذه المدينة. و نجد بالقرب منها قناة، تتحد مع أخرى أكبر من منها رشمانى، و بعد ريّ الحقول المجاورة، و ملء خزانات المياه فى الإسكندرية، تصب فى البحر قرب هذه الأقنية غالبا، و كوّنت هذه الأتربة تلالا لا نجدها فى أماكن أخرى فى هذا البلد المسطح. و ترسو السفن المتوجهة من رشيد و دمياط إلى القاهرة فى مرفأ بولاق الذى وصلناه فى ۱۰ تشرين الثانى/ نوفمبر مساء.

إن الرحلة ممتعة للغاية فى هذا الفصل حيث يكتسى الريف ثوبا أخضر، و تحيط بالنهر القرى على الضفتين. و بالرغم من أن المنازل حقيرة بشكل عام، لأنها مبنية من الآجر غير المشوى و مسطّحة من الأعلى، يحيط بها الكثير من أشجار النخيل، و تكثر أبراج الحمام المميزة فى هذه البلاد، مما يضفى على المشهد العام طابعا ممتعا و غريبا بالنسبة لأوروبى وصل البلاد لتوه. و نشاهد قرب العديد من القرى، بقايا مدن قديمة، كما نجد قرب تيران(Ter ne) كميات كبيرة من الملح أو ملح البارود الذى يستقدم من أماكن مختلفة، لنقله عبر النيل، و إرساله إلى الخارج. و لم أر تماسيح فى هذا النهر بين رشيد و القاهرة و دمياط، و يعتقد المصريون، أن حجابا وضع فى السور فى المكياس(Mikkias) قرب القاهرة يمنع هذه الحيوانات من التوجه نحو أسفل مجرى النهر.

و لكل مركب و إن اختلف قليلا عن غيره اسم مختلف فى اللغة العربية كما فى اللغات الأوروبية، أما تلك التى تقتصر رحلتها على الإبحار بين الإسكندرية و القاهرة فصغيرة و مسطحة القعر. و قمنا برحلتنا بين الإسكندرية و رشيد على متن مركب يحمل اسم شرم(Scherme) ، و فيه حجرة واسعة مريحة، و كان يتم جرّه حين يكون الطقس هادئا، لذا لم تستغرق رحلتنا طويلا- و يكثر

الحديث عن قراصنة يجوبون النيل، لكنهم لا يثيرون القلق، شرط أن نقوم بالحراسة ليلا، و أن نطلق النار غالبا، كي يدركوا أننا نحمل أسلحة ناريـة. و نبقى عـادة مصباحا مضاء أثناء الليل، ليعرفوا أن المركب يحمل أوروبيين، و هم يعلمون أنه يصعب مفاجأتهم و هم نيام. و فى شهر آذار/ مارس من العام ۱۷۶۲، تمّ نهب ثلاثة مراكب على ساعد النيل هذا.

و يسود الاعتقاد بأن هؤلاء القراصنة قلّما يهاجمون مركبا بأكمله، إلا إذا علموا مسبقا بأن عدد ركابه قليل أو إذا كانوا على اتفاق مسبق مع الريّس(Re ?is) . و هناك أمثلة على (ريّاس) تقاسـموا الغنيمة مع القراصنة، لذا ينبغى على المسافر الاستعلام لمعرفة لمن يسلّم أمره. و يعرف قراصنة النيل عملهم جيدا، و بما أنهم تعلموا السباحة ككافة سكّان ضفاف النهر، إما لقضاء ساعات حلوة فى الماء عند اشتداد القيظ أو لاجتياز النهر بأقل كلفة، يصعد هؤلاء على متن المركب حين لا يجرؤون على الظهور مع مراكبهم الخاصة، و يحملون كـل مـا تقع عليه يـدهم على سطح السفينة ثم يقفزون إلى الماء مع ما سلبوه. و لـدينا أمثلة على أنهم لم يـدخلوا المركب فى بعض المرات، بل اكتفوا بمدّ أيديهم، و سرقة الأغراض من تحت

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۶

رؤوس النيام. و يروى الأتراك القصة التالية عن أحد القراصنة: خيّم أحد الباشاوات، الذى وصل حديثا إلى مصر، على ضفة النيل، و قام رجاله بحراسته جيـدا فألقوا القبض على لص أراد سلبهم متاعهم. و عنـد الصباح، أحضر اللص أمام الباشا الذى هدّده بقتله على الفور، فلم يطلب السجين سوى إذن القيام بلعبة خفّة فريدة، على أمل أن ينال عفو الباشا على حدّ قوله. و سمح هذا الأخير بذلك بعد أن دفعه حب الاستطلاع إلى تعلّم هـذه اللعبة، عنـدها جمع اللص ثياب الباشا و ما وجـده فى الخيمة فى صرّة، كما يلف المصريون ثيابهم عنـد ما يريـدون الانتقال من ضفة إلى أخرى سباحة. و بعـد أن قام بألعاب خفة عـدة، ألقى بنفسه فى النيل، و فرّ إلى الضفة الأخرى و هو يحمل غنيمته على رأسه قبل أن يتمكن الأتراك من جلب بنادقهم لإيقافه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۷

رحلة دمياط و العودة إلى القاهرة

بعد أن رسـمت ساعد نهر النيل الممتد من القاهرة إلى البحر الأبيض المتوسط، شعرت برغبة فى رؤية الساعد الآخر الذى يمر بمحاذاة دمياط و ذلك فى سبيل رسم خارطة صحيحة لهـذا الجزء من بلاد مصر الـذى يسـميه الأوروبيون اليوم الدلتا؛ هذا هو الجزء الناقص على الخارطة التى رسـمها السيد نوردن لمجرى النيل، بـدءا من الشلال الأول و وصولا إلى البحر. و كنت على استعداد للسفر إلى دميـاط فور وصولى إلى القاهرة و لكننى اضـطررت لإرجاء هـذه المهمـة إلى شـهر أيار/ مايو من السنة القادمـة لأن الطقس الممطر و الغـائم كـان يمنعنى من الرصـد الجوى. و لكننى لم أنـدم على تأجيل الرحلة، لأننى استفدت من هـذه الفترة و حاولت أن أتقرب من الشرقيين نظرا لجهلى التام بعاداتهم و لغتهم.

يطلب الأوروبيون الـذين يتنقلون فى هـذه البلاد الحمايـة من الحاكم ظنا منهم أنه لمن المستحيل التنقل بأمان إن لم يعط الحاكم قادة السفن و الأشخاص الذين يؤجرون الجمال للسفر برا، الأمر بالاعتناء بهم.

و غالبا ما يقوم أحد خدام الحاكم باستدعاء أول ربّان يصادفه أو ينتظر منه هدية؛ و حين يعلم هذا الأخير أن شخصا مرموقا يطلب منه الاعتنـاء بأحـد المسـافرين، يخال أنه سيجنى ثروة طائلة؛ فيستغل الفرص لتقـديم خـدماته للشخص الموكل إليه، و يحاول أن يختلق المخاطر فى كل مكان، حتى يثبت شجاعته.

و لطالمـا اعتقـدت أن اللجوء إلى كبـار التجار فى هـذه البلاد، هو الحل الأنسب فى الظروف المماثلة؛ فهم يـدركون أكثر من سواهم المخـاطر التى قـد نتعرض لهـا فى الأمـاكن التى ننوى زيارتهـا؛ كمـا و أنه يعمل لحسابهم قادة سـفن و جمالون ينقلون لهم البضائع، و يسعون لنيل حظوة لدى التجار أكثر منه لدى حاكم لا يجنون منه شيئا. و من الصعب رسم خارطة صحيحة لبلد غريب، خاصة إن كان

المرشد لا يعرف أسماء القرى التى يمر بها، أو أنه لا يريد إعطاء أسمائها للرحالة. و لقد كنت أبحث عن ربان قطع عدة مرات الطريق المؤدية إلى دمياط، و يعرف القرى جيدا و لا يحبذ السفر ليلا، حتى تتاح لى فرصة مراقبة مواقع القرى و تعرجات النيل. فطلبت من أحد التجار أن يعلمنى بموعد سفر الربان الذى يتمتع بالصفات المطلوبة، فأوصانى بربان ماهر للغاية، أما السيد بورانفيند الذى لم يغادر القاهرة إلا لماما خلال إقامتنا فيها فقرر مرافقتى فى هذه الرحلة. فاستخدمنا انكشاريا للسهر على راحتنا و خادما آخر لتحضير الطعام لنا، و عدنا إلى بولاق فى ۳۰ نيسان/ أبريل ۱۷۶۲. كان المركب الصغير الذى نقلنا إلى دمياط يحمل اسم كنج، و تتوافر فيه كافة وسائل الراحة التى نعمنا بها فى المركب الذى سافرنا به إلى رشيد.

و فى صباح الأول من أيار/ مايو غادرنا بولاق و لم أستفق إلا بعد أن قطعنا عدة أميال و لكننى لم يفتنى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۵۸

شىء لأننى اجتزت هذه الطريق من قبل. و عند الطرف الجنوبى للدلتا شاهدنا قصر القاهرة. و يطلق العرب على هذه البقعة اسم بطن البقرة؛ و هم يؤمنون بالأسطورة القديمة التى تقول إنه فى زمن الوثنيين، عثر فى هذه البقعة، على تمثال ضخم، على شكل بقرة. و يمتاز النيل بسعته و كثرة جزره بدءا من القاهرة و وصولا إلى الدلتا. و يؤدى ارتفاع منسوب مياه النهر إلى جرف هذه الجزر من مكان إلى آخر؛ و لما كانت مياه النهر تعلو و تنخفض جدا فى هذه البقعة، لا حظنا أن عدد الجزر قد زاد عن شهر تشرين الثانى/ نوفمبر؛ و ذلك لأن منسوب المياه ينخفض فى شهر أيار/ مايو. و كنا نشاهد فى القرى المحاذية لنهر النيل، خفرا مهمتهم إعلام الناس بوصول بواخر القراصنة. لكن سكان بعض القرى كانوا يرسلون مراكبهم ليلا، و كل من يطلب حمايتهم يتعرض للسلب. فى ذلك اليوم، ألقيا المرساة قرب تعبل(Tabble) لأن الربان كان يخشى القرى الأخرى؛ فأنزلت المزولة لأحدد ارتفاع القطب؛ و لكنى لاحظت أن الدقران مكسور.

فأعدت الأداة إلى مكانها دون أن أتمكن من تدوين أى ملاحظة.

غادرنا تعبل صباح الثانى من أيار/ مايو؛ لكن الرياح القوية أرغمتنا على الإرساء فى «مصدر الشادر».

و لما كنت قد أصلحت آلتى، استطعت بصعوبة تحديد بعد الشمس عن خط المراقبة العمودى حتى أتمكن من تقدير بعد هذه البلدة عن خط العرض. و مع اقتراب المغيب، بلغنا «ميت العطار»؛ و رغم هدوء الرياح مع حلول المساء، عادت لتهب بعد نصف ساعة من الجهة الجنوبية- الغربية، حاملة معها عواصف قوية، و غبارا و رمالا. و لما كانت مراكب النيل مزودة بأشرعة كبيرة لا يحسن القادة التحكم بها، فغالبا ما تؤدى العواصف القوية إلى قلبها؛ و فضّلنا بالتالى أن نلقى بالمرساة فى تلك الساعة.

عند الساعة الخامسة من صباح الثالث من أيار/ مايو، تابعنا طريقنا و بلغنا قرية «زفتة»، حيث رصدنا ظهرا ارتفاع الشمس. و يتبين لى أن القرية المذكورة تبعد عن خط العرض ۳۰ دقيقة و ۴۲ ثانية. و تبعد بلدة زفتة عن ساعد النيل، الممتد من القاهرة إلى رشيد ۶ فراسخ و هى تقع بين القاهرة و دمياط، وفقا لحسابات ربابنة السفن. يحكم هذه البلدة وال من القسطنطينية، يقيم فى القاهرة حيث عين قائم مقام له؛ و نجد فيها ۳ جوامع وقبة مبنية على قبر نبى يقدسه الناس. و يزيد عدد منازل الأقباط فيها على ۳۰۰ منزل؛ و قد وجهوا لى دعوة لزيارة كنيستهم المتداعية. تغطى أرض هذا المعبد حصر قذرة تتكاثر فيها البراغيث من شدة الحر و نجد فيه عددا كبيرا من العكازات التى يستند عليها الأقباط خلال إقامة شعائرهم؛ و يظن الأوروبيون أن هذا الأمر يسىء لزينة الكنيسة خاصة و أن لوحات الأقباط قبيحة للغاية؛ فقد شاهدت فى إحدى كنائس «مصر العتيقة» لوحة ليسوع المسيح و مريم العذراء و بعض القديسين، و هم يمتطون حصانا.

و لعل الأقباط يرون أن الحمير لا- تتلاءم مع هذه الشخصيات المقدسة رغم أنه يحظر عليهم ركوب دواب أخرى فى القاهرة. تتميز كنيسة زفتة بعتبة بابها التى كانت قديما تمثالا لأحد آلهة الإغريق. تقع مدينة ميت غمر على الضفة الشرقية للنيل قبالة مدينة زفتة. و نجد فيها ۶ جوامع و كنيسة للأقباط. و بالرغم من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۰

أن جميع منارات الجوامع مستديرة الشكل، لاحظنا أن إحدى منارات ميت غمر مربعة، مما يدفعنا للظن أنها كانت قديما جرس كنيسة. مما لا شك فيه أن السكون الذى يسود عند المساء، يساعد البواخر القادمة من القاهرة على الإبحار ليلا، دون أن يخشوا ردة فعل سكان القرى المحاذية للنيل، و خاصة و أن الرياح الشمالية تهب فى النهار؛ و فى ذلك اليوم حالت الرياح القوية دون متابعة طريقنا، لكن بعد أن هدأت ليلا غادرنا زفته، ترافقنا باخرتان أخريان. و ما كدنا نقطع مسافة صغيرة، حتى رأينا سفينة للقراصنة متوجهة نحونا؛ لكنها بدّلت و جهتها بعد أن أطلقنا النار عليها. و شاهدنا لاحقا، فى ظل الأشجار، و خلف الجزر الصغيرة، زوارق مختلفة، ظن الربّان أنها تابعة للقراصنة؛ و لكن لم تجازف أى منها بقطع الطريق علينا. و فى اليوم التالى، رأينا عوامات محمّلة بالأوانى و الأباريق الفخارية، من مصر العليا. و فى سبيل صنع عوامة مماثلة تعلق الأوانى و تربط إلى جانب بعضها تحت خشب النخيل الخفيف الوزن، و يتراوح طولها بين ۴۰ و ۷۰ قدما و عرضها بين ربع و نصف قدم؛ يقودها ۶ أو ۷ رجال، يستعملون أغصان الشجر لدفعها، و يحملون عليها كل ما يلزم لتحضير الطعام فى تدبير أمورهم. و يقال إنهم ينقلون فى الأوانى الفخارية بضائع غالية الثمن.

لكن لا يبدو لى ذلك صحيحا، لأن المياه تتسرب إلى الأوانى و تتلف كل ما فيها. و الجدير ذكره أن هؤلاء الرجال يستعملون (النقّافة) للدفاع عن أنفسهم ضد القراصنة. و بعد أن يبيعوا الأوانى الفخارية و العوامة، يعودون إلى مصر العليا مشيا على الأقدام. و فى ذلك النهار، لم يلفت نظرى إلا بلدة المنصورة حيث سجن لويس الحادى عشر. و مع أنها لا تبدو أكبر حجما من دمياط إلا أننى لم أستطع مشاهدتها إلا عند مرورنا بقربها. فقد بنى على هذه الضفة من النيل، سور كبير، يمتد حتى بحيرة باهر، و هذا السور يحول دون تدفق المياه بكثرة لرى الأرياف المجاورة الغنية بالأرز. ثم عند وصولنا إلى المنصورة، هبت الرياح الشمالية و أجبرتنا على بلوغ الشاطىء. فاغتنمت هذه الفرصة لتحديد ارتفاع القطب على بعد نصف ميل من البلدة الشمالية- الشمالية الشرقية؛ فتبين لى أن المنصورة تقع على بعد ۳۱ دقيقة و ۳ ثوان من خط العرض. و فى الخامس من أيار/ مايو أنهينا رحلتنا إلى دمياط. و لم يلفت انتباهنا فى الطريق، سوى ۲۰ مركبا، محمّلة بالنحل؛ و كان سنجق المنصورة قد حطّ رحاله مع ۴۰ عبدا و خادما بين قريتى بدوى و كفر بدوى بغية تحصيل أرباح النحل؛ إذ كان كل مركب يحمل ۲۰۰ خلية نحل، مما يعنى أن العشرين مركبا كانت تنقل ۴۰۰۰ خلية، يبلغ طول كل واحدة منها ثلاث أقدام، و قطرها قدم واحد.

مما لا شك فيه أن موقع بلدة دمياط ملائم للتجارة، شأنه فى ذلك شأن بلدة رشيد؛ فالبضائع الآتية من سوريا و البلدان المجاورة تمر فى دمياط حتى تنقل بعدها إلى القاهرة. و فى المقابل لا نجد فيها تجارا أو كهنة أوروبيين، رغم أنها تضم بعض الموارنة و المسيحيين الشرقيين الذين ارتبطوا بالكنيسة الرومانية، و يحكى أنه كان يقيم قديما فى دمياط قنصل و تجار فرنسيون؛ لكن بعد أن لاحظ السكان تعلّق الأوروبيين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۱

بنساء المسلمين، قرروا قتلهم جميعا. و منذ ذلك الحين، منع ملك فرنسا رعاياه من الذهاب إليها. فكانوا ينتدبون مفوضين عنهم للاهتمام بمصالحهم فى تلك البلدة، أو يجرون تبادلاتهم التجارية على سطح السفن. غير أننى قابلت ربانين فرنسيين مقيمين فى تلك البلدة؛ و كان يبدو عليهما الخوف من السكان الذين لم ينسوا الحملات الصليبية، و لا الحادثة التى أتيت على ذكرها آنفا. و أكّدا لى أنهما لن يتجرآ على إخبار سفير فرنسا فى القسطنطينية عن سوء معاملة السكان لهما؛ كما و أنهما لا يتوقعان أن يساعدهما أحد. و لا حظت أن هذين الربانين يعتمران عمامة على رأسيهما و يرتديان الأزياء التركية، و يستعملان اللغة المحكية فى المنطقة، حتى لا يحاول الرعاع إساءة معاملتهما. كنت أحمل رسالتى توصية إلى تاجر إغريقى و آخر إيطالى، كان قديما تاجرا معتمدا فى القاعدة؛ و بعد أن غرق فى الديون، لم يتجرأ على العودة إلى بلاده و فضل اعتناق الإسلام. و كان يأمل أن يجمع ثروة طائلة فى مصر خاصة و أن واحدا من كبار البهاوات فى القاهرة، تكفل بحمايته. و لكن بعد أن فقد صديقه هذا حظوته اكتفى الإيطالى بأنه يشغل وظيفة فى جمارك دمياط. و يقال إنه كان يعيش حياة مترفة من جراء تعامله مع الأوروبيين؛ فهو يسهل عليهم عملية نقل البضائع التى يرسلونها

عبر دمياط أو يرعى مصالحهم فى هذه البلدة. و رغم اعتناقه الإسلام منذ عدة سنوات، لم يكف عن مجاملة الأوروبيين علما أن المرتدين عن الدين يكرهون الأوروبيين أكثر من المسلمين الأصليين.

يتبيّن لى من خلال الرصد الجوى أن بلدة دمياط تقع على بعد ربع ميل شمالى رشيد و على بعد ميلين من البحر الأبيض المتوسط، أى إنها أبعد من رشيد الواقعة على الضفة الأخرى للنيل. و استنادا إلى تقرير أحد الربابنة الذى يرتاد غالبا السواحل الممتدة بين دمياط و رشيد، يقع رأس برولوس على بعد ميل و نصف الميل شمالا. و منذ فترة و جيزة، ارتفع عدد اللصوص فى هذه المنطقة، و باتت طريقها محفوفة بالمخاطر.

فمن الجهة الغربية للهند، بدءا من دمياط شمالا، وصولا إلى مصبّ النيل، و رأس برولوس غربا، تمتد طبقة رقيقة من الرمال، تجعل الأرض قاحلة. لم أر أثرا لأسوار مدينة دمياط؛ و لعل أحدا لم يحاول إعادة بنائها، بعد أن دمّرت عام ۶۴۸ للهجرة استنادا لأقوال أبى الفدا. و لكننى استطعت رؤية المكان الذى سدّ فيه مجرى نهر النيل بسلسلة؛ فعلى الصفحة الشمالية داخل البلدة، نجد برجا قديما حيث لا يزيد عرض النهر على ۱۰۰ قدم، كما و نجد على الضفة الغربية، أنقاض برج مماثل مدمّر كليا.

و بما أننى لم أقض وقتا طويلا فى دمياط، لم أتمكن من تحديد مواقع شوارع هذه المدينة كلها. و بعد أن قست طول السوق، الذى يخترق البلدة كلها، و طول السور وضعت الخارطة التى نراها على اللوحة ۷.

كما و رسم السيد بورانفيد منظرا عاما للبلدة (راجعوا اللوحة ۸). و تكثر فى المناطق المحيطة بدمياط قنوات المياه المخصصة لرى حقول الأرزّ فيها. و تشير الأحرف الموضوعة على خارطة مدينة دمياط إلى مواقع الأماكن التالية: ۱) برج قديم مزود بنقوش عربية، (خارطة الطابق الثانى للبرج)، ۲) بقايا قصر قديم، ۳)

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۲

كنيسة حوّلها المسلمون إلى جامع؛ و يقال إنها تضم لوحات من عهد الإغريق، ۴) مغسل القطن، ۵) مقابر، ۶) جامع بناه السلطان، ۷) المنشية، ۸) مكان ذبح الدواب، ۹) منطقة شيخ عباس، ۱۰) دير الإغريق، ۱۱) الجمارك، ۱۲) الجامع الكبير.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۳

و قمت برحلة صغيرة من دمياط إلى مصبّ النيل أو بوغاز(Boghas) ؛ و خلافا لمصب رشيد، لا يشكل هذا المصب خطرا على البواخر، إذ تكثر فيه الأرصفة الرملية و المنارات و زوارق الإنقاذ، المعدّة لإغاثة البحّارة الغرباء. تجتاز هذا المصب بواخر ضخمة متوجهة نحو البلدة؛ لكن نظرا لانخفاض منسوب المياه على هذا الساحل، تلقى معظمها المرساة على بعد ميل عن اليابسة. تمثل اللوحة ۹ حصنا قديما يبعد عن البحر ۷۰۰ قدم. و قد قست هذه المسافة بدقة حتى يتمكن الرحالة اللاحقون من تحديد بعد مصر عن البحر. و يبلغ طول هذا الحصن ۵۸ قدما و عرضه ۲۳. و يزعم خادمى أنه قرأ تحت النقوش على بوابة الحصن «۱۶۹».

و الجدير ذكره أن لا أحد يجرؤ على السكن فى هذا الحصن خوفا من الأشباح؛ فعند اقترابنا منه، راح المسلمون يتلون الصلوات. و عند وصولنا، تلوا صلاة أخرى قرب المدافع الضخمة؛ فاضطررت للعودة معهم إلى المركب دون أن أشاهد الجزء الداخلى من الحصن، كانت هذه المرة الأولى التى أشاهد فيها مسلمين خائفين من الأشباح. و لم أتجرأ على ذكر الموضوع أمام العرب. و نرى غربى النيل، نحو الجنوب، على بعد ۱۵۰ قدما عن الساحل حصنا جديدا مأهولا، من العام ۱۱۱۶؛ أى إنه لم يمض على وجوده ۵۹ سنة قمرية. يتخذ هذا البناء شكلا مستديرا كما يبدو على الخارطة أوب من اللوحة ۹. و نرى عند الأسفل قاعدة مستديرة فيها مدفعان برونزيان، و ثلاثة حديدية. كما و نجد خمسة مدافع صغيرة فى الطبقة الثانية من المبنى، و إن تقدمنا أكثر نحو الجنوب نر برجا قديما متداعيا، مأهولا بالسكان. أما فى الجهة الشرقية، قرب قرية القولى، فنرى قواعد مدفعية مهدمة طولها ۲۰ قدما، و فيها مدفع قديم مكسور، و آخر أكله الصدأ.

أتيت على ذكر بحيرة باحر، فى وصف شبه الجزيرة العربية، تمتد هذه البحيرة من دمياط شرقا وصولا إلى غسا(Ghassa) ؛ نشاهد

على جزر هـذه البحيرة بقايا بلدات قديمة. و قبل سـنوات خلت، قدم مضـيفنا لربان فرنسـى كتابا مطبوعا بالأحرف الأوروبية، و حجارة من هذه الجزر، موضوعة فى صـندوق حديدى؛ و حين أقول إن الكتاب مطبوع بأحرف أوروبية، أقصد أنها أحرف غريبة عن مضـيفنا، لأن الشـرقيين يعتبرون كل حرف أو نقش لا يفهمونه من أصل أوروبى. و نشاهـد على مقربـة من المتوسط، قرب قريـة مطارد، أنقاض بلدة سـتانوس أو تنوس، التى تحمل اسـمها إحدى مصبّات النيل. سمعت الناس يتحدثون عن أنقاض هذه البلدة، و لكن لم يرها أحد منهم. و عرفت أنه يمكننـا السـفر برا إلى دميـاط و العودة منها بعـد ثلاثـة أيام. فمع ارتفاع عـدد اللصوص، باتت هـذه الطريق محفوفة بالمخاطر أكثر من طريق باحر؛ فسكان هذه المنطقة فقراء و لا يحبذون أن يعود الرحالة بحقائبهم كلها. و تقع فى الجهة الجنوبية غرب دمياط، بلـدة ديمشـلى حيث يصـنع النسـيج، و لا تزال حتى اليوم بلدة بلباس غنية عن التعريف، و لكن أحدا لم يحدثنى عن موقعها؛ و هى تضم عددا وافرا من النصب القديمة .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۵

كنت أتمنى أن أشاهـد بقايـا تنسـوس قبـل مغـادرة هـذه المنطقـة، فضـلا عن زيـارة ديمشـلى و منصـل، و المرور بباحر للـذهاب إلى المنصورة. و لكننى أخاطر بخسارة معـداتى، و خاصة و أنها زيارات ثانوية، و علينا التوجه لاحقا إلى شبه الجزيرة، التى تشـكل أساس رحلتنا. لـذلك غادرت و السـيد بورانفيند دمياط فى ۱۲ أيـار/ مايو. و لما كنت قـد رصـدت ارتفاع القطب خلال توجهى إلى دمياط، اكتفيت فى طريق العودة، بمشاهدة تعرجات النيل، و نقل أسماء القرى و المسافة التى تفصل بينها بغية التحقق من ملاحظاتى الأولى. و الجدير ذكره أن الرياح أسعفتنا كثيرا فى طريق العودة، حتى أننا بلغنا القاهرة فى ۱۵ أيار/ مايو.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۶

ملاحظات حول سير الرحلة من رشيد إلى القاهرة و دمياط، استنادا إلى الخارطة على اللوحة ۱۰

يتحدث التاريخ القديم عن بلاد مصـر الشـهيرة المكتظة بالسـكان؛ و يأتى التاريخ الشرقى على ذكرها عدة مرات. لكن علماء الجغرافيا يسـعون إلى دراسة بنيتها الحالية، بغية فهم الوصف الذى أعطاه المؤلفون القدامى لها. ممّا لا شك فيه أنه تتوافر لدينا خرائط مفصّلة و مرسومـة بـذكاء؛ لكننى لاـ أظـن أن واضـعيها اسـتطاعوا الاعتمـاد دومـا على الأبحـاث الـتى اسـتعملوها لتنفيـذ عملهـم. و مـن بين كل الأشـخاص الـذين زاروا مصـر، لم يسـتطع أحـد رسم خرائط دقيقة لها مثل الأب سـيكار و الكابتن نوردن؛ و لكن لم تتح الفرصة لأى منهما للتحقّق من صـحتها من خلال الرصد الجوى. غير أن مراقبة خطوط العرض و خاصة فى مصـر، تساعد على وضع خرائط جغرافية صحيحـة؛ إذ تقع الأماكن الأكثر أهمية على ضـفاف النيل، أو على مقربة منه، و هو يجرى بشـكل مسـتقيم من الجنوب إلى الشـمال. و يمكننا بالتالى قياس المسافة التى تفصل القرى بعضها عن بعض انطلاقا من خطوط العرض المختلفة.

و لاـ يمكننـا أن نطلب من الرحّالـة الـذى لا يقيم فى مصـر إلا لفترة وجيزة أن يضع خارطـة للبلاد؛ و لا أظنه يقـدم لنا معروفا بأن ينقل خارطة قديمة و يدخل عليها بعض التعديلات. و فى هذا الإطار وضعت خارطة لسير رحلتى، و أشرت إلى المبادىء التى استعملتها فى رسمها. و خلافا للخرائط الأخرى، لا تجدون عليها عددا كبيرا من القنوات و الأنهر و البحيرات الصغيرة. إن الشريف الإدريسى يتحدث عن أنهر طويلـة، لاـ تزال موجودة حتى يومنـا هـذا، كمـا و أكّـد لى المصـريون أن بلادهم تحوى عـددا كبيرا من القنوات و البحيرات الصـغيرة، التى تظهر عنـد ارتفـاع منسوب مياه النيل؛ بيـد أننى لم أشاهـد ذلك فى الأماكن التى رأيتها بأم عينى أو تلك التى حـدثنى عنها أشخاص يعرفون البلاد جيدا؛ فلو حاول الرحالة كلهم أن يحذوا حذوى، لاستطعنا أن نقدر الخدمات التى يقدمها كل واحد منهم لعلم الجغرافية الحديث. و إننى أفتخر بنفسـى لأنى اسـتطعت أن أحدد بدقة مجرى الفرعين الأساسيين للنيل، من القاهرة إلى المتوسط، فضـلا عن موقع البلـدات و القرى المحاذية له. و لعل الرحالة الآخرون قد يزورون المناطق المصـرية الأخرى و يرسـمون خرائط مماثلة عن سير رحلاتهم.

إننى أتمنى على الأوروبيين كافة الذين يزورون البلاد أن يكسبوا صداقة الأقباط الذين يعملون أمناء سر أو محاسبين لدى البهاوات؛ لأننى واثق كل الثقة أنه من الصعب الحصول على لوائح كاملة بأسماء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۷

القرى التى تخضع لنفوذ أرباب عملهم. لكننى لم أحاول سلوك هذه الدرب؛ و أظن أنكم ستعذروننى لأن خارطة مدينة القاهرة أخذت الكثير من وقتى فضلا عن أننى لم أجرؤ على توطيد علاقاتى بسكان البلاد و الاستعلام عن الأمور كلها. و مما لا شك فيه أن الرسم المفضل لمصر الحديثة يساعد الرحالة على تقديم وصف جغرافى دقيق لبعض المناطق و أظن أن بعض علماء أوروبا سيجمعون هذه التفاصيل لرسم خرائط كاملة لهذا البلد.

لا حظت فى مقدمة كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية»، أنه من الصعب كتابة أسماء المدن و القرى بلغتنا، خاصة إن كان يلفظها أشخاص يستعملون لهجة مختلفة، و لا يحسنون لغتهم الأم. لهذا السبب، كتبت أسماء القرى نفسها بطريقة مختلفة، معتمدا بذلك على لفظ عدة أشخاص. و إليكم ما فعلته للحصول على الأسماء العربية للقرى و المدن فى مصر؛ فبعد أن دونّتها كلها خلال الرحلة باللغة الأجنبية، طلبت من لغوى عربى فى القاهرة أن يكتبها لى بالعربية وفقا للسان القوم الذين رافقونى. و إننى لفخور بنفسى لأننى استطعت كتابتها بلغة عربية صحيحة، حتى يتمكن كل أوروبى من أى بلد كان أن يكتبها بلغته الأصلية. و على كل شخص يحمل لائحة بأسماء المدن المصرية أن يتلوها على نفسه ليعيد كتابتها بالأحرف الأوروبية. و غالبا ما يكتب العرب الأسماء العربية المألوفة عندهم من دون نقاط؛ أما الأقباط فيبدلون مكان النقاط أو ينسون وضعها. لهذا السبب يتعذر على الأجنبى قراءتها بشكل صحيح، كما يتعذر على المترجم كتابة الأسماء بشكل لائق. و سأذكر فيما يلى الأسماء الواردة فى كتاب «جغرافية السودان»، علما أن معظمها مشوه للغاية حتى أن الأشخاص الذين لا يحسنون كتابة العربية لن يتمكنوا أبدا من التعرف عليها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۶۹

و لعلّى لم أرض القارىء حين أدرجت أسماء المدن و القرى الواقعة على طرفى النيل، فى وصف سير رحلتى من الرشيد إلى القاهرة، و من القاهرة إلى دمياط؛ فجمعت بالتالى هذه الأسماء، و تعرجات النهر، فى قسم منفصل، حتى يتمكن الجميع من مراجعتها. و قد يظن البعض أن إدراج اللائحة برمّتها، غير ضرورى، خاصة و أن بعض القرى متلاصقة للغاية، و ذكرها كلها يتطلب خارطة أكبر. و سآتى أيضا على ذكر رحلة السيد فورسكال من القاهرة إلى الإسكندرية. و أظن أنه لى كامل الحق فى ذلك، لأننى أعطيت صديقى هذا بوصلة قبيل انطلاقه، و رجوته أن يدوّن لى أسماء القرى التى يمر بها. و يحدد لى مواقعها؛ و عند عودته سلّمنى هذه اللائحة بنفسه.

و مما لا شك فيه أننا نستطيع الاستفادة من هذه المعلومات كلها، لرسم خرائط محدّدة، إن جمعنا معلومات وافرة عن مصر السفلى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۷۶

رحلة اى الجزيرة العربية و الى بلاد اخرى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۷۸

(نجد فى هذا المكان قناة تنبع من ساعد النيل و تمر أمام دمياط و طنطا، حيث دفن أحمد البدوى و هو ولىّ مصرى شهير. و يقال إن العديد من الحجاج يزورون يوميا قبر المذكور حيث يقام سوق كبير. و هذا سبب وجيه لجذب الأجانب.)

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸۱

أسماء المدن و القرى التى ذكرها السيد فورسكال خلال رحلته من القاهرة إلى الأسكندرية من القاهرة إلى الإسكندرية

اشارة

باب البكرى ۱) منية السرج، جنوبى- غربى القاهرة ۲) شبرا المكاسة، جنوبى- غربى القاهرة ۳) دمنهور ۴) باسوس، غربى- جنوبى- غربى الأهرام ۵) أبو الغيط، جنوبى- غربى- جنوبى الأهرام، أبو المنجه: جسر ۶) خراقانيه، جنوبى- غربى الأهرام ۷) بهاده ۸) سفيته، ساعد النيل الذى يمر أمام دمياط ۹) شبرا الشهابيه ۱۰) كفر الحمه ۱۱) شنادان؛ يمتد الطريق نحو الشمالى- غربى ۱۳) فرعانيه- شمالى- غربى الأهرام ۱۴) سمان: لا نرى منها الأهرام الخضرة ۱۵) قلته: ساعد من ساعدى النيل ۱۶) ثلولنا ۱۷) فيشه النصارى ۱۸) سرس القته ۱۹) منوف العلا ۲۰) تشا و غمرين ۲۱) منيه الواط ۲۳) سلمون عشمة ۲۴) دمشه شمالى- شمالى- غربى أبو كلس ۲۵) بشادى ۲۶) عمروس، على النيل- كومازن ۲۷) طنوب ۲۸) الزعبره؛ يمتد الطريق شمالا على مقربة من النيل ۲۹) النجيلة، شمال النيل: تقع فى منتصف الطريق بين القاهرة و الإسكندرية- مليحة ۳۰) كفر بريم، شمالى- غربى- غربى بلاقوش ۳۱) بريم ۳۲) تقيده ۳۳) صفه العنب ۳۴) أبراج الحمام ۳۵) رمسيس، شمالى- غربى- شمالى دقدوقة- النقراش ۳۶) النيرة، شمالى- غربى ۳۷) أبو زينة، شمالى- غربى بهاى ۳۸) دنشان، شمالى- غربى- شمالى عوجه ۳۹) تسونس ۴۰) دمنهور البحيرى الواقعة فى ثلثى الطريق بين القاهرة و الإسكندرية ۴۱) القروى ۴۲) بركة غطاس ۴۳) كريون، شمالى- غربى- شمالى نشو ۴۴) عكريشة العجوز ۴۵) كفر سليم؛ تقع بلدة أبو قير على شمالى- غربى هذه المنطقة ۴۶) بيضه، و هى مدينة مهدمة ۴۷) الإسكندرية.

من الإسكندرية إلى الرشيد

بحيره سبخة عراما؛ حصن أبو قير؛ سد؛ بحيرة المعدية؛ قرية الزاوية القريبة من قرية الشيخ حصر؛ أدكوى، العلامات، أو ۱۱ دعامة حجرية على طريق الرشيد.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸۲

من الرشيد إلى القاهرة

۱) شيخ منصور ۲) سلمية ۳) محلة الأمير ۴) ديبى ۵) تفينة: ساعد النيل الذى يمر أمام الرشيد ۶) أمطوبس ۷) شمشيزة ۸) سنديون؛ فى منتصف الطريق بين الرشيد و محلة الكبير ۹) فوا ۱۰) محلة العلوى ۱۱) محلة مالك ۱۲) سلميه ۱۳) شرفا ۱۴) سيدى إبراهيم الدسوقى ۱۵) دماجون ۱۶) محلة أبو على الغريبة ۱۷) جمينة ۱۸) شباس الشهدة، الواقعة شرقى- جنوبى- شرقى الطريق ۱۹) شباس الأمير، شرقى- جنوبى- شرقى الطريق ۲۰) طويلة، شرقى- جنوبى- شرقى الطريق- شيخ حاوس البدوى ۲۱) روينة النطاح شرقى- جنوبى الطريق ۲۲) سخا، شرقى- جنوبى- شرقى الطريق ۲۳) جنوبى- شرقى شرقى الطريق ۲۴) نمرة، شرقى- جنوبى الطريق ۲۵) مهتندية، جنوبى- شرقى الطريق ۲۶) سندسيس ۲۷) محلة الكبيرة ۲۸) شرنبابل ۲۹) العجازية، جنوبى- شرقى الطريق ۳۰) متحاسى، جنوبى- شرقى الطريق ۳۱) شبرا، جنوبى- جنوبى- شرقى، غربى النيل- سنباط، ۳۲) دهتورا- حانوت ۳۳) دمسيس، شرقى النيل ۳۴) أبو البنهان، جنوبى- شرقى الطريق ۳۵) عشنة جنوبى شرقى النيل ۳۶) نعمان ۳۷) كفر نعمان، قبالة سنباط ۳۸) سرنكه، قبالة داكورا ۳۹) كفر سرنكه، على مقربة من النيل ۴۰) أبو نغا ۴۱) دقادوس ۴۲) ميت غمر ۴۳) زفتة، غربى النيل ۴۴) أولاد عنان؛ يمتد بعدها الطريق جنوبى- جنوبى- غربى الدلتا ۴۵) فرسين ۴۶) ميت الرخا ۴۷) شرنبخون ۴۸) بقسه ۴۹) ميت بره؛ ينعطف بعدها الطريق إلى داخل البلاد ۵۰) ميت الحوفين ۵۱) داميه جنوبى- غربى- جنوبى النيل ۵۲) بره ۵۳) وروره ۵۴) كفر الجزار ۵۵) بطا ۵۶) عرب أرمل ۵۷) مسيد الخضر، غربى النيل ۵۸) طحله شرقى النيل ۵۹) كفر الرحلات؛ نرى الأهرام جنوبا ۶۰) أميه، جنوبى- غربى الطريق ۶۱) خراب ۶۲) أكهور الورد جنوبى- غرب الأهرام ۶۳) قرنفيل ۶۴) سندابيس ۶۵) كفر الحارث جنوبى- شرقى الطريق ۶۶) كفر الجديد جنوبى- شرقى الطريق ۶۷) قليوب، جنوبى- شرقى الطريق، و جنوبى- غربى الأهرام، و جنوبى القاهرة- جسر أبو المنكه ۶۸) المكاسة ۶۹) منيه السراج ۷۰) مصر القاهرة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸۳

مواقع بعض المدن المصرية القديمة

تكثر فى الكتب المصرية القديمة أسماء مدن شهدت تغيرات جذرية، حتى أننا لم نعد نستطيع تحديد موقعها؛ و نسمع اليوم الناس يتحدثون عن دمياط و المنصورة و محلة الكبير و زفته و ميت غمر و رشيد و فوه و منوص و كالجوب، و غيرها من المدن التى لم تظهر إلا منذ وقت قصير. و لما كانت الإسكندرية قد قضت على ممفيس و فسطاط الإسكندرية و فسطاط القاهرة، سقطت المدن المصرية الأخرى تباعا و حلّت محلها مدن أخرى، دخل معظمها طى النسيان أيضا. أما بالنسبة للمدن الأخرى، فقد شهدت بدورها تقلبات كبيرة؛ فبعد ترسيخ الدور السياسى فى البلاد، اتحد السكان و حققوا معا ازدهارا صناعيا باهرا؛ و لكنهم ما لبثوا أن دخلوا عهد الانحلال. و اللافت للنظر أن مدن الدلتا كلها عرفت تغيرات جذرية؛ يقول هيرودوس فى كتابه الثانى، إن بوفيروس (المعروفة اليوم بأبو صير)، كانت تقع فى وسط الدلتا؛ و يبدو أن هذا الجزء من مصر الذى كان يعرف قديما بالدلتا كان أكثر اتساعا منه اليوم، و أنه كان يحدّه من الشرق تارة مويس، حيث تصب القناة الكبيرة الممتدة بين قطريب و القاهرة، فى بحيرة باهر. أما عدد المدن المصرية الحالى، فلا يوازى عدد المدن التى كانت موجودة قديما فى البلاد؛ و هذا الأمر لا يثير الدهشة، لأن الفرس و اليونان و الرومان و العرب و الأتراك الذين حكموا مصر تباعا، عمدوا إلى تدمير هذا البلد الخصب، من خلال حكامهم، بعد أن جنوا منه أموالا طائلة، فراحوا يقلصون سبل عيش السكان، الذين اضطروا للهجرة منه و التخلى عن قراهم و مدنهم.

لا أظن أنه من السهل تحديد موقع معظم المدن المصرية القديمة التى ازدهرت خلال الألفى سنة الماضية. لكننا نستطيع استرجاع موقع عواصم بعض الأقاليم و المدن، مع الأخذ بعين الاعتبار السدود التى شيّدها المصريون القدامى، لحماية أنفسهم من فيضانات نهر النيل، و خاصة تلك التى نجدها قرب بقايا المدن القديمة، من هضاب و قطع صوان، و رخام و خزف، و الجدير ذكره أننا لا نجد فى مصر السفلى كميات كبيرة من المعالم القديمة الجميلة، فقد غطى التراب معظمها مع مرور الزمن، كما و نقلت كافة المواد، حتى المدفونة منها تحت الأرض، إلى مناطق أخرى، لتستعمل فى تشييد الأبنية الحديثة. و لم يكف المصريون عن التنقيب فى الأماكن الأثرية بغية استخراج الحجارة اللازمة لبناء الجوامع و المنازل و حتى الأكواخ المتواضعة؛ كما و أنهم يبحثون عن كنوز أسلافهم الأثرياء فيغربلون الأرض المحفورة بحثا عن الفضة و الذهب و الحجارة المنحوتة. و سأذكر لكم المناطق التى فى زرتها فى مصر السفلى حيث تمّ العثور على بقايا مدن قديمة. و يمكنكم مقارنة مواقعها على خارطتى. أما بالنسبة للأسماء فسأترك للعلماء الذين يحسنون قراءة كتب المؤلفين القدامى، عناء تحديدها.

عند وصول المسافر إلى هذه الجهة من مصر، يرى آثارا قديمة قرب الإسكندرية الجديدة؛ و لقد قدمت

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸۴

وصفا مفصلا لها سابقا؛ و الجدير ذكره أن اسم هذه المدينة غير مشكوك فيه لأننا نعرف تماما من بناها، و أنها احتفظت باسمها الأصلى. و رغم أن هذه المدينة تعد قديمة مقارنة بالمدن الأوروبية و مدن مصر الحديثة، فهى تعتبر حديثة مقارنة بالمدن القديمة فى هذه البلاد؛ كما و أن بانيها شخص غريب. أتيت على ذكر بلدة كابوبوس و يقال إنها كانت تقع قرب بلدة أبو مندور فى الجنوب، فى جوار رشيد، و إنها مغطاة اليوم بطبقة من الرمال الرقيقة، جرفتها الرياح شيئا فشيئا. و نشاهد على مقربة من هذا المكان، بقايا بلدة قديمة فى جوار منتوس؛ لم أشاهد هذه البلدة رغم أننى سمعت عنها فى القاهرة. أخبرنى السيد فورسكال أنه خلال سفره برا من القاهرة إلى الإسكندرية، عثر على بقايا بلدة قديمة، غربى النيل، بين دمنهور و بريم على مقربة من قرية رمسيس. و علاوة على ذلك، نرى اليوم آثارا قديمة قرب سلحجر فى الدلتا؛ يعود اسم هذه البلدة إلى أصل عربى، لكن البلدة التى كانت تحمل هذا الاسم ازدهرت زمن المصريين القدامى.

و شاهدت فى بولاق صندوقا من الصوان عليه أحرف هيروغليفية، منقولا من سلحجر. فسافرت إليها خصيصا من القاهرة بعد أن أكدوا لى أنها تحوى آثارا قديمة رائعة. لكننى لم أر إلا معالم البلدة التى تحدثت عنها آنفا، و بعض الأعمدة الشبيهة بتلك التى رسمها نوردن و بوكوك فى مصر العليا، و التى استعملها سكان هذه القرية الفقراء لدعم منازلهم. اكتفيت برسم الحجارة التى عثرت عليها أمام معصرة للزيت (راجعوا اللوحة ۱۱، د) و تدل الرسوم الهيروغليفية على هذه الحجارة، على أن المصريين القدامى قاموا بنحتها؛ فهى منقوشة عليها شأنها شأن الرسوم التى رأيتها على الحجارة الأخرى؛ و لكن اللافت للنظر هو أن الصور الوسطى كانت بارزة أكثر من سواها. و خلال هذه الرحلة شاهدت قرب قرية القم مرتفعات ضخمة، قيل لى إنها بقايا مدينة قديمة.

تكثر فى الجهة الشرقية للدلتا معالم مدن قديمة. ذكرت سابقا أنه فى مدينة ستانسوس المطلة على باحر، نجد معالم مدينة قديمة كثيرة، و أننا نستطيع بالتالى تحديد موقع بلدة تانسوس القديمة. و ذكرت اسم بلدة أبو صير الصغيرة، الواقعة على ساعد النيل الذى يمر أمام دمياط، و اسم بلدة بوصير الشهيرة؛ تقع قرب هذه المنطقة بلدة بعليت حيث شاهد بوكوك و سيكارد معالم رائعة الجمال. و يقال إن الآثار القديمة تكثر قرب ميت بعذ و قناطر الويش، و الغال و سمنوّر. و من الواضح أن هذه المنطقة من الدلتا مميزة جدا و تستحق أن يتوقف فيها الرحالة للقيام بأبحاثه؛ و يزعم أنه فى عهد هيرودوس كان المصريون يحجون إلى هذه الشوارع؛ و يزور الأقباط سنويا كنيسة فى جميان؛ و يمكننا مرافقة هؤلاء الحجاج خلال سفرهم دون التعرض للمخاطر. فهم ينزلون فى سمانود؛ إنها بلدة صغيرة جدا و لكنها تقع فى الموقع نفسه الذى كانت تقع فيه قديما بلدة سبانتوس؛ و نجد صوب الجنوب مرتفعات ضخمة فى جوار قرية قطريب. و هذه المرتفعات هى بقايا بلدة قطريبس. و بعد عناء طويل، أقنعت ربان السفينة بإلقاء المرساة فيها، لأن سكانها من القراصنة. و أدركت لاحقا أنهم نقلوا الحجارة التى يمكن استعمالها و لم يتركوا إلا الصوان و الرخام.

كان سيد هذه المنطقة، صديقا لى، و يقوم بأعمال التنقيب فى هذه المنطقة؛ حتى أنه كان يغربل الأرض بحثا عن حجارة أو خواتم أو شىء من هذا القبيل. فقدم لى خنفساء ذهبية، استخرجها مؤخرا من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸۶

الأرض، (ترونها على اللوحة ۱۱، ج) من الصعب قراءة الأحرف المكتوبة عليها و كأنها نقشت بواسطة إزميل شبيه بذلك الذى يستعمله النحاتون اليوم. و لقد شاهدت خنفساء فى البصرة، عند السيد ريغو، و لكنها لا تضاهى هذه جمالا. و نرى فى الصورة أ، قطعة من الخزف اللماع، و كأنها غطاء وعاء ما.

و أظن أن الصور محفورة بالطين، و هى شبيهة بالعناوين التى نراها على أغلفة الكتب؛ و هذا يثبت أن المصريين القدامى عرفوا الإزميل و الطباعة.

حدّد علماء الجغرافية القدامى و الحديثون موقع بلدة هليوبوليس بدقة شديدة. و نرى بقاياها قرب بلدة مطاره فى الجهة الشمالية- الشمالية الشرقية، على بعد فرسخين من القاهرة أو ۳ فراسخ من فسطاط أو مصر العتيق. و لكن لم يتبق منها إلا سدود كبيرة و مرتفعات من الرخام و الصوان و الخزف و بقايا سفنكس (أبو الهول)، و نصب عمودى، لم يتمكن السكان من نقله نظرا لثقله؛ فهو مصنوع من الصوان و مغطى بالرسوم الهيروغليفية على جهاته الأربع؛ أما زواياه فهى موجهة نحو جنوب- الجنوب- الشرقى، و شمال- الشمال الغربى، و الشرق- جنوب- شرق، و الغرب- جنوب- غرب.

قارنت الصورة الأصلية برسوم نوردن و اتضح لى أنها صحيحة. ثم فى ۲۴ كانون الأول/ ديسمبر كانت المياه تغمر المكان، فلم أستطع الاقتراب جيدا من النصب العمودى لرؤية النقوش. و ترون فى الصورة ج، من اللوحة ۵، أننى حاولت قياس الارتفاع كما يلى: رسمت خطا من أ إلى ب طوله ۸۴ ۹. بوصته؛ و من ب إلى د طوله ۵ أقدام و ۷ بوصات؛ مما يعنى أن القاعدة طولها ۸۸ قدما و ۸ بوصات. و يبلغ طول الزاوية ه- و- س ۳۰ درجة؛ كما يبلغ طول النصب فوق الأفق ۵۱ قدما و ۴ بوصات؛ و الخط من ب إلى س ۶ أقدام و ۹ بوصات و بالتالى يبلغ ارتفاع النصب من الطبقة السفلى ۵۸ قدما و بوصة؛ وضعت هذه القطعة الأثرية الجميلة فى المعبد الشهير

المخصص لعبادة الشمس، فى بقعة منخفضة جدا. حتى أن مياه النيل تصل إلى ارتفاع ۵ أقدام و ۸ بوصات عند بلوغها ذورة علوها. و رغم أن المعبد يشكل جزءا من البلدة، إلا أنه كان محاطا بمرتفعات ضخمة لحمايته من فيضانات النيل. و يقول السكان القدامى إنه تم بناء بعض المنازل على هذه المرتفعات. و لقد حاول الدكتور شو فى الطبعة الجديدة لكتاب رحلاته، أن يثبت أن هذا الجزء من مصر المعرض لفيضانات النيل قد ارتفع كثيرا منذ عهد هيرودوس. فلا بد إذن من الحفر قرب هذا النصب لمعرفة الارتفاع الذى غطى فيه البلاط بالتراب. لكن الشعب المصرى لا يحب أن ينقب الأوروبيون فى الأماكن التى تكثر فيها الأثريات، ظنّا منهم أننا نبحث عن الكنوز. لكنهم لم يمانعوا حين ذكرت لحاكم المنطقة الأسباب التى تحثّنا على القيام بهذه الأبحاث، طالبا منه مساعدة الفلاحين لنا. و ممّا لا شكّ فيه أننى أثرت فضول سكان مطاره و أنا أقيس ارتفاع النصب؛ فوقفوا على مقربة من المكان. لأنه خيّل لهم أننى سأرمى هذه الحفنة من الحجارة فى الهواء و آخذ الكنز المدفون تحتها. لكنهم لم يوجهوا إلىّ أى عبارة فظّة، بعد أن اتضح لهم أنهم أخطأوا الظن. و يسمى الكتّاب العرب هيليوبوليس عين شمس و مصر.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸۷

و نشاهد على بعد فرسخين شمالى- شرقى هيليوبوليس، آثار قرية قديمة، يطلق عليها العرب اليوم اسم تل اليهود أى مقابر اليهود. و ممّا لا شكّ فيه أن أرض غصن تشكل جزءا من هذه المنطقة. و لعل معبد اليهود الشهير الذى بناه أونياس، يقع فى هذه المنطقة و ليس فى هيليوبوليس، كما يظن البعض. فمن الممكن بالتالى العثور فى الجوار على آثار يهودية. و لم أشاهد هذه الهضاب إلا بعد انطلاقى من القاهرة، على بعد فرسخين منها. و قالوا لى إنه تقع قربها قريتا سبيتن و ميت الدمائة.

أعطى سكان بلدة فايدبيه، المجاورة للقاهرة، السيّد فورسكال أسماء المناطق الأخرى الواقعة فى هذا الأقليم، التى كانت مجهولة، نظرا لكونها مأهولة باليهود. و لمّا كانت هذه المناطق تستحق الزيارة، سأذكر فيما يلى الأسماء التى جمعها السيد فورسكال: ۱) لبلب(Liblab) ، عين سيدنا موسى، على بعد فرسخين و نصف من قاعدبيه. و يقال إنه وجد قديما فى هذا المكان عين مياه عذبة ۲) مرقاب سيدنا موسى، على قمة جبل، على بعد فرسخ و نصف من لبلب، من جهة مصر العتيق. ۳) طرطور اليهود، على بعد ۴ أو ۶ فراسخ من قاعد بيه؛ و نشاهد فيها بقايا قصر قديم ۴) فاسكيتا البطقية(Faesqita bataqiae) الواقعة على بعد فرسخين من قاعدبيه، على الجهة الشمالية- الشرقية. و تكثر فى هذا المكان ينابيع المياه، و التربة الحمراء التى تغطى الأراضى و الجبال ۵) تنور فرعون أو جبل فرعون، الواقع على بعد فرسخ من قاعدبيه، نحو الشرق ۶) مقابر اليهود على بعد ۶ فراسخ من قاعدبيه. و لقد وجدت قديما، فى هذا المكان، بلدة كبيرة مأهولة من اليهود (لعلها البقايا نفسها المذكورة آنفا فى تربة اليهود) ۷) قلعة راى على بعد ۷ أو ۸ فراسخ من قاعد بيه. و نجد هنا بقايا قصر قديم من عهد موسى. و يضيف السيد فورسكال، أنه أخبر هؤلاء العرب، أن أولاد إسرائيل اجتازوا البحر الأحمر، جنوبى السويس، قرب عين سيدى موسى.

من الملاحظ أن العلماء الحديثين، ترددوا فى تحديد موقع بلدة ممفيس، نظرا لكثرة البقايا من زمن (أبو الفدا) و الشريف الإدريسى؛ كما و أن الكتاب العرب و الأوروبيين، حددوا موقع هذه البلدة بدقة شديدة.

أما السبب الذى حال دون أن نسمع شيئا عنها، فيعود إلى أننا نسينا أن العرب أطلقوا على عاصمتهم اسم مصر، بينما كانوا يسمون العاصمة القديمة مصر العتيق و سموا بالتالى مصر، كلا من هيليوبوليس، و ممفيس و الفسطاط و القاهرة، بينما تحمل اليوم القاهرة كلا من الأسماء التالية: مصر، و فسطاط و مصر العتيق. تقع مدينة ممفيس على الضفة الغربية للنيل، على مسافة يوم بكامله من مصر، استنادا لرأى أبو الفدا؛ لكن الشريف الإدريسى يقول إنها تقع جنوبى مصر، أى الفسطاط، أو عاصمة مصر فى تلك الحقبة. و من جهة أخرى يؤكد بنيامين دو تودلا أن ممفيس تقع على بعد فرسخين من فسطاط العام ۱۶۹۷، و لقد شاهد مايى(Maillet) بقاياها حيث كان يتمّ التنقيب عن المومياء؛ فطلب شهادة بلينيوس الأكبر(Pline) ، الذى قال صراحة إن الأهرام تقع بين ممفيس و الدلتا مما يعنى أن ممفيس تقع جنوبى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸۸

الأهرام التى لا تبعد كثيرا عن الجيزة. و لقد شاهد بوكوك فى هذه المنطقة بقايا مدينة قديمة حسبها بقايا مدينة ممفيس . أما أنا فلم أشاهد إلا الأهرامات الأولى، لأننى لم أقصد جنوبى مصر؛ فلم أر بالتالى معالم بلدات أخرى. لكننى سمعت أنه فى جوار سقاره نرى بعض معالم مدينة ممفيس، كما و أننى رأيت فى القاهرة، حجارة مستخرجة من هذه الأنحاء، استعملت فى بناء المنازل الحديثة و الجوامع فى العاصمة الجديدة. و لن أذعن لرأى السيد شو، الذى يدّعى أن ممفيس كانت تقع فى الموقع نفسه الذى تقع فيه اليوم الجيزة، رغم نفوره من بوكوك و كل من يعارضه الرأى حول هذا الموضوع. و سأحاول مناقشة بعض المقاطع، التى نقلها هذا العالم عن عدة مؤلفين، و ذكرها فى الصفحة ۲۹۶، من كتابه «رحلات و ملاحظات» المطبوع فى لندن العام ۱۷۵۷؛ رغم أننى لا أظنها تثبت شيئا مما نريد إثباته. و فى سبيل ترسيخ فكرته، يستشهد الدكتور شو، ب (ديودور(Diodore ديودورس الصقلّى (ص ۲۹۶). الذى يقول إن ممفيس تقع فى النقطة التى ينقسم فيها النيل إلى عدة فروع. و هكذا فاستنادا إلى هذا المقطع، لا يمكننى القول: إن هذه المدينة تقع فى موقع الجيزة، بل فى الجهة الجنوبية؛ لأن النيل لا يبدأ بالتفرّع عند الطرف الجنوبى للدلتا، بل فى البقعة الواقعة بين الجيزة و الأهرام. و هو يقول فى الصفحة ۲۹۷، إن للدلتا حدودا ثابتة و غير متغيرة، على منأى من ممفيس؛ بيد أننى لا أوافقه الرأى؛ فرغم أن حدود الدلتا هى بطن البقرة أى فى جوار قرية ضروة، فمن الممكن القول إن حدود الدلتا كانت تمتد قديما نحو الجنوب. فساعد النيل الذى رسمته على الخارطة، بدءا من أم دينار وصولا إلى الورايق ليس قناة ضيقة، بل ممر عريض، تجتازه السفن المسافرة من بولاق إلى رشيد، نظرا لعمقه. و من الممكن القول إذن إن حدود الدلتا كانت قديما قرب الورايق أو سواها. و لما كان هذا لمجرد تخمينى، سأراجع ملاحظات بطليموس التى يستعين بها الدكتور لإثبات وجهة نظره. أما بطليموس فيقول: إن ممفيس تقع على بعد ۲۹ دقيقة و ۵۰ ثانية من خط العرض، و الدلتا على بعد ۳۰ دقيقة منه؛ بينما يبلغ ارتفاع الجيزة ۳۰ دقيقة أيضا؛ فإن كانت ممفيس تقع على بعد ميلين و ربع الميل جنوبا، لا- يمكن القول إنها كانت تقع فى موقع الجيزة، و يحاول الكاتب تحديد موقع ممفيس وفقا لبعدها عن الأهرام (ص ۲۹۸). و يمكننا الاستنتاج أن هذه المدينة كانت واقعة جنوبى النيل على مسافة متساوية من الأهرام. أما سترابون فيؤكد بأننا نستطيع رؤية الأهرام من بابل و أن ممفيس واقعة قبالة هذه المدينة؛ و يحاول الدكتور شو أن يثبت، استنادا لهذا المنطق (ص ۲۹۹) أن ممفيس كانت واقعة فى البقعة التى نشاهد فيها اليوم الجيزة. و صحيح أننا نشاهد الأهرام من قصر القاهرة القديم أو بابل القديمة. لكن الكتّاب الذين أتيت على ذكرهم آنفا، و الذين شاهدوا بأم عينهم بقايا ممفيس، يؤكدون أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۸۹

هذه المدينة كانت تقع جنوبا على مقربة من فسطاط، و بابل؛ و هذا ما يحثنا على الاعتقاد أنها لم تكن واقعة غربا، بل قرب بابل. و لقد أراد سترابون القول إن ممفيس كانت تقع قبالة بابل؛ و هو يستشهد بهيرودوس، الذى يؤكد أن ممفيس كانت تقع فى القسم الضيق من مصر. انطلاقا من هذا المبدأ، بحثت عن موقع المدينة فى الجهة الجنوبية، خلافا للدكتور شو، رغم أنه يدّعى أن الجيزة واقعة فى القسم الضيق؛ لأننى اكتشفت أن هذا المكان يقع جنوبا، فى أرض مكشوفة، محاطة بهضاب، بنيت عليها الأهرام، التى تشكل القسم الأكثر ضيقا فى مصر. و إن صحّ القول إن الأهرام واقعة فى جوار ممفيس، فذلك يعنى أنها أخذت عنها لعبتها و بعبارة أخرى، أظن أن الكتّاب الذين ذكرهم الدكتور شو، لا يقدمون لنا البراهين اللازمة، للقول إن مدينة ممفيس كانت واقعة فى المكان نفسه الذى نرى فيه اليوم الجيزة، بل يحاولون إقامة الدليل على أنها كانت تقع بين الأهرام و سقاره. و لكن المدهش فى الأمر هو أن هذا العالم الكبير لم يلحظ فى كتاب «جغرافية السودان»، و لا فى كتاب «وصف الرحلة»، اللذين يذكرهما فى الصفحة ۳۰۶، للتحقق من موقع مدينة هيليوبوليس، أن موقع مدينة ممفيس، محدد فيهما، كما أنه لم يحاول مقارنة وجهة نظره بشهادة مؤلفى هذين الكتابين.

و يبدو أن اختلاف وجهات النظر بين شو و بوكوك، حول موقع مدينة ممفيس، أثار خلافا بين العلماء الإنكليز. و إليكم ما يقوله مؤلفو «التاريخ العالمى الحديث»، الجزء الأول، (ص ۳۲۸): «كانت مدينة ممفيس تقع فى موقع الجيزة الحالى نفسه؛ و هذا ما يؤكده

لنا الدكتور شو، الذى تعتبر ملاحظاته الجغرافية حول مصر و شبه الجزيرة العربية، جديرة بالقراءة أكثر من سواها، نظرا لصحتها و دقتها، و استنادا إلى أبحاث علمية سليمة، و انتقادات سوية ... و بعبارة أخرى سيصمد كتابه فى وجه الحملات الموجهة ضده، و بعد أن يدخل كل من حمل قلمه و حاول تقليده أو الحط من قدره طى النسيان، أو يواجه بازدراء، جدير به الجدارة كلها».

و بما أنى كنت أجهل السبب الذى حثّ العلماء الإنكليز على إصدار هذا الحكم التعسفى بحق الرحالة كافة، و اعتبار الدكتور شو زعيما لهم، فلن أستطيع أن أقدم تفسيرا ملائما لهذا القرار. و لكننى أقرّ بأننا لا نجد وصفا للرحلات خاليا من العيوب، أو رحالة معفى من الأحكام المسبقة؛ لذلك من الأفضل عدم الدفاع عن آرائنا بعناد. و لعل يهود و أقباط مصر يستطيعون تحديد مواقع مدن هذه البلاد القديمة، لكن الأوروبيين لا يسعون أبدا لتوطيد صداقتهم بهؤلاء الأشخاص و يفضلون استشارة سواهم، فى حال لم يعطهم، أول شخص يصادفونه، أجوبة مرضية .. و لم أحاول أبدا الاستفادة من هذه الفرصة؛ و لكننى أنصح الرحالة اللاحقين، باستغلال هذا الأمر.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۰

وصف القاهرة و بولاق و مصر العتيقة و الجيزة

اشارة

شهدت المناطق المحيطة بالقاهرة تغيرات جذرية خلال الأحد عشر قرنا الماضية، أى بعد أن حكم المسلمون مصر و دمروا بعض المدن، و أهملوا أخرى، و بنوا بعضها الآخر فى مكانها. بعيد وصولهم إلى مصر، استولوا على مدينة مصر، بعد أن غادر المقوقس و لا يزال موقع هذه المدينة غير محدّد، رغم أن مؤلفى «التاريخ العالمى» يؤمنون بأنها مدينة ممفيس الشهيرة. و لكن استنادا إلى رواية المؤرخين الشرقيين، انسحب المقوقس مع حاميته إلى إحدى جزر النيل بينما سلك اليونانيون الذين كانوا يساندونه الطريق المقابلة باتجاه الإسكندرية .

كانت مصر تقع إذن على الضفة الغربية للنيل؛ بينما يقع كل من ممفيس و الإسكندرية على الضفة الشرقية منه. و عند مغادرتهم هذه المدينة، لم يضطر اليونانيون لاجتياز النيل، حتى يعودوا إلى الإسكندرية. و لعل مصر هذه هى بابل، التى تحدث عنها المؤلفون اليونان، و الواقعة جنوبى القاهرة، بين جبل المقطّم و النيل، إننا نجد فى هذه المنطقة، أنقاض كنائس قديمة، يجلّها الأقباط؛ كما و أن اليهود، الذين كانوا كثرا فى مصر ، يملكون مقبرة فى هذا المكان، رغم بعده عن القاهرة، و خطورة السبل المؤدية إليه.

أطلق المسلمون على المدينة الأولى التى بنوها اسم الفسطاط؛ و تحدث بعض المؤلفين العرب عن أصلها . فبعد أن استولى عمرو، قائد الخليفة عمر، على هذا القسم من مصر كان يستعد هو و رجاله للتقدّم نحو الإسكندرية. و لكنه ترك فى تلك المنطقة خيمة، بنت عليها حمامة عشها، فقال العرب إن هذا الأمر فأل حسن، و ارتأوا بناء مدينة فى تلك البقعة. و لكن كانت لديهم أسباب أخرى للاستقرار فى هذه المنطقة؛ فالمسلمون الذين وصلوا حديثا إلى تلك البلاد، فضّلوا عدم الإقامة داخل المدينة، بين السكان المسيحيين. و ارتأوا أن يبنوا مكانا لهم خارجها، حيث حطّوا رحالهم، و ذلك فى سبيل حماية أنفسهم. فاستقر قربهم العرب الذين كانوا يعملون فى مصر، فضلا عن المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام؛ فأدّى ذلك إلى ولادة مدينة الفسطاط. و لئن كان اليونان و الرومان قد جعلوا من الإسكندرية عاصمة البلاد نظرا لقربها، فقد اختار العرب ضواحى الفسطاط للسبب نفسه. كما أن الحاكم المقيم فى وسط

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۱

البلاد، يستطيع أن يرسل الجيوش، من هذه البقعة إلى الأقاليم كافة، إن دعت الحاجة لذلك.

و بعد أن أصبحت الفسطاط عاصمة بلاد مصر، سميت مصر؛ و لكنها لم تستمتع طويلا بهذا الشرف، إذ بدأت تضعف شيئا فشيئا، و القاهرة تزداد قوة. و بعد أن تحولت القاهرة إلى عاصمة للبلاد، أسميت مصر أيضا، بينما عرفت الفسطاط، التى كانت تحمل هذا الاسم

أصلا، بمصر العتيقة. و رغم ذلك حافظ المصريون على الأسماء القديمة، و أطلقوا على مدينة مصر، اسم القاهرة، و على الشارع الطويل المطل على النيل، و الذى يشكّل جزءا من مصر العتيقة، اسم الفسطاط. و الأوروبيون وحدهم بدّلوا اسم هذه المدينة الأخيرة؛ فهم يسمّون الفسطاط أو مصر العتيق. القاهرة القديمة، رغم أن سكان البلاد الأصليين لم يسموها أبدا القاهرة.

نعلم جيدا أن مدينة القاهرة قد بنيت عام ۳۵۸ أو ۳۵۹ للهجرة، على يد جوهر، قائد جيش الخليفة الفاطمى المعزّ و لكن هذه المدينة الجديدة لم تعتبر ضاحية الفسطاط إلا عام ۵۷۲، بعد أن سوّرها صلاح الدين، و بنى فيها جوامع جميلة، و مدارس و مستشفيات؛ فالشريف الإدريسى، الذى وضع كتبه قبل هذه الحقبة، لم يأت على ذكر القاهرة، و اكتفى بالتحدث عن الفسطاط، التى كانت معروفة يومها بمصر. نشاهد اليوم فى القاهرة بقايا سورين من أسوار المدينة: يقع السور الداخلى بين باب الفتوح و باب نصر و باب غريب و باب المشرق و باب الفولى؛ و يقع السور الخارجى بين باب الحديد و باب الشارى بين باب المشرق و القصر، قرب باب القرافه. و أنا لا أعرف أيا من هذين السورين بناه صلاح الدين لأننى لم أنقل أية نقوش عربية من هذه البلدة، رغم توافرها بكثرة؛ و لكننى أعتقد أنه بنى السور الداخلى. و كانت حدود مدينة القاهرة كما وصفها جان ليو، على النحو التالى: تشمل ضواحى هذه المناطق، و الأماكن الواقعة خارج باب الفتوح و باب النصر و باب الفولى؛ فهذه البوابات الثلاث تضاهى الأخريات عظمة و جمالا. و لا حظ الأمير رادزفيل الذى وصف حدود القاهرة كذلك، أن الشارع الممتد من باب الفولى إلى القصر يعد من الضواحى. و يقول السيد جان وايلد الذى قضى عدة سنوات فى القاهرة فى بداية القرن السابع عشر، إن المدينة كانت مسورة؛ و أظنه يقصد السور الخارجى.

و من الصعب أن نعرف إن كانت مساحة مدينة القاهرة قد زادت أو تقلصت خلال القرون الأخيرة، و لا نملك خارطة لها.

ثم إنه من خلال وصف جان ليو لهذه المدينة، يمكننا القول إنها لم تشهد تغيرات جذرية منذ عهده؛ و رغم أن شارع تيلون(nچTeil) قد صغر بعض الشىء و أن القرافة تضم عددا أكبر من المقابر؛ و رغم أن عدد المنازل بين القاهرة و بولاق و مصر العتيقة كان فى تلك الحقبة يفوق عددها الحالى؛ علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذا المؤلف لا يأتى على ذكر شوارع كثيرة واقعة على الطرف الآخر للمدينة. و لعل الضواحى لم تكن متلاصقة، و لا قريبة من القاهرة، كما هى اليوم. و هو لا يشير إلى تاريخ هذه المدينة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۲

أبدا؛ و لذلك سأكتفى بالتحدث عن موقعها و مساحتها. انطلاقا من هذا المنظار، رسمت خارطة للقاهرة و المدن المجاورة لبولاق و مصر العتيق و الجيزة (اللوحة ۱۲). و الجدير ذكره أن تنفيذ هذه الخارطة تطلب عناء طويلا، كما و أن فظاظة سكان القاهرة تجاه كل من يتبع ديانة مختلفة عن ديانتهم، زادت الأمر خطورة و لا إخال أن أحد الأوروبيين حاول الإقدام على هذه الخطوة من قبل. و لكننى جازفت بقياس الشوارع، خاصة تلك التى لها منفذان، و بتحديد موقعها بواسطة بوصلة صغيرة. نجد بين هذه الشوارع الرئيسية أحياء مختلفة، تضم شوارع صغيرة لها منفذ على الشوارع الرئيسية. و يقطن فى هذه الأحياء الحرفيون و السكان الفقراء الذين يعملون فى المدن الشرقية فى دكاكين صغيرة فى السوق. و لما كان الزوج يغيب عن منزله طوال النهار، و لما كان الشرقى غير معتاد على زيارة زوجة صديقه أو ابنته، فالأجنبى الذى يشاهد فى حى مماثل، هو حتما تائه، و يحاول أول شخص يصادفه، إعلامه بأن الشارع لا ينفذ إلى الطرف الآخر و عليه أن يعود أدراجه. و بالتالى لا يتمكن الأجنبى إلا من زيارة الأحياء المنفصلة. بيد أنه أتيحت لى فرصة رؤية بعض الأحياء الشعبية؛ و قد أشرت إليها على خارطتى، لأعطى مثالا عن مواقع شوارع القاهرة المميزة. و على غرار كافة المدن التى رأيتها فى الشرق، عمدت إلى الإشارة إلى موقعها و مساحتها و أبوابها على الخارطة. فى حين أنه قلّما يهم الأوروبيين التعرف إلى شوارع مدن الشرق، و لا أحد يجبر الرحالة على التعرض لهذه المخاطر من أجل مسألة سخيفة إلى هذا الحد. و سأشرح لكم فى ما يلى معنى الأحرف و الأرقام التى تشاهدونها على اللوحة المذكورة:

على خارطة مدينة القاهرة أو مصر

أ- محل إقامة الباشا الحاكم، ب- حى الانكشاريين أو بمعنى آخر، القصر، ج- حى الغربيين؛ تقع الأماكن أ و ب ج على صخرة، تسمى القصر أو الحصن، د- محلة قره ميدان، ه- محلة الرميلة، و- قلعة الكبش؛ و هى عبارة عن قصر متداع، يقع بقربه جامع طولون- سلطان حسن؛ و هو عبارة عن جامع رائع، على مقربة من سوق عقال، حيث يجتمع التجار كلهم، ح- جامع الأزهر، و هو جامع و معهد، ط- بطركية الأقباط؛ يقيم فيها بطرك مصر الإغريقى، ى- كنيسة القديس نقولا اليونانية؛ و نجد على مقربة منها عقال حمزاوى، ك- كنيسة قبطية مبنية فوق أنقاض كنيسة أرمنية، ل- كنيسة و مقر أسقف جبل طور اليونانى، م- مقر القاضى، ن- خان الخليل، س- المارستان أو الحجر الصحى، ع- مقر القنصل الفرنسى و التجار الفرنسيين، ف- مقر قنصل البندقية، ص- حى اليهود ق- قبة الغربيين؛ كانت قديما مقر جيوش الغربيين، و فيها حصن و جامع كبير؛ لكن فى هذا المكان يستقبل سكان القاهرة الباشاوات الذين يصلون برا، ر- مقابر البندقيين و الأقباط، ش- المسلخ، ت- فرن لتفقيس البيض؛ و نجد أيضا فى هذا الحى مصنعا للبارود، ث- فرن الكلس.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۳

أسماء الجسور على القناة التى تجتاز القاهرة

أ- قنطرة فم الخليج، ب- قنطرة الجنينة، ج- قنطرة السباع، د- قنطرة أمرشى، ه- قنطرة الجماميز، و- قنطرة سنقر، ز- قنطرة عبد الرحمن كخيا، ح- قنطرة باب الخرق، ط- قنطرة الأمير حسين، ى- قنطرة الموسكى، ك- قنطرة الجديدة، ل- قنطرة باب الشعرية، م- قنطرة الخروبى، ن- قنطرة الضاهر بيبرس.

أسماء البرك

س- بركة الشيخ قمر، ع- بركة الرطلى، ف- بركة اليزبكية، ص بركة الفواله، ق- بركة أبو شوارب، ر- بركة النصرية، ش- بركة القصارين، ت- بركة أيوب به، ث- بركة الفيل.

أسماء أبواب القاهرة

۱- باب النصر، ۲- باب الفتوح، (راجعوا اللوحة(۳ XIII- باب المدبح، ۴- معمل النشى، ۵- باب الشعرية، ۶- باب البكرى ۷- باب الشيخ شايب، ۸- باب الحديد، ۹- باب ولاد عنان، ۱۰- باب الهوى، ۱۱- باب الفوالة، ۱۲- باب سوق البكرى، ۱۳- باب المدابغ، ۱۴- باب الشيخ ريحان ۱۵- باب الناصرية، ۱۶- باب غيط الباشا، ۱۷- باب أيوب به، ۱۸- باب سقى زينب، ۱۹- باب طولون، ۲۰- باب الخليفى، ۲۱- باب القرافة، ۲۲- باب الجبل، ۲۳- باب ليسار، ۲۴- باب قره ميدن، ۲۵- باب العزب ۲۶- باب الانكشارية، ۲۷- باب الوزير، ۲۸- باب الحطاب، ۲۹- باب المعروف، ۳۰- باب الغريب، ۳۱- باب السويلى.

فى بولاق و مصر العتيقة و الجيزة

۳۲- الهالة، صرح متداع يستقبل فيه سكان القاهرة الباشاوات الذين يعبرون النيل ۳۳- متجر خشب ۳۴- مستودع قديم للأسلحة ۳۵- متجر الملح ۳۶- الجمارك ۳۷- سوق كبير أو قيسارية ۳۸- مصنع آجر ۳۹- أماكن تنزل فيها حجارة ممفيس، و غيرها من المدن القديمة، و ينقل منها سكان القاهرة مياه النيل على الجمال ۴۰- منزل بيه ريفى كان يقيم فيه الباشا الذى عزله سكان القاهرة ۴۱- المصطبة حيث يتعلم أسياد القاهرة لعبة رمى القوس. ۴۲- كفر العين، صرح كبير يسكن فيه حاليا الدراويش ۴۳- منزل متواضع ينزل فيه الباشا عند حفر سد القناة؛ و تشيد العروس بين النيل و السد، عند تنظيف القناة ۴۴- كنائس و مقابر قبطية؛ و يقال إن الهياكل العظيمة تتحرك فيها مرة فى السنة ۴۵- صرح ۵ شاهق، له خمس نواعير، ترفع بواسطتها مياه النيل، لتنقل بعده إلى خزان قرب القصر

۴۶

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۵

- جامع كبير ۴۷- جامع أبو زكى، بانى القناة ۴۸- كنيسة قبطية ۴۹- جامع عمرو ۵۰- بقعة مسورة، يسكن فيها المسيحيون ۵۱- متجر يوسف للقمح ۵۲- البزار ۵۳- الجمارك ۵۴- فرن فى الجيزة ۵۵- مصانع فخار.

لم أرسم سوى مياه البرك، التى لم تكن جافة فى شباط/ فبراير و آذار/ مارس. و لم أستطع تحديد سعة الجنائن المغلقة، على هذه الخارطة؛ و لكنها تكثر فى الأماكن التى رسمت فيها أشجار، و تمثل إشارة L L L L المقابر فحسب. و تحمل شوارع القاهرة أسماء الأبواب و الجسور المحاذية لها.

تقع بلدة القاهرة، مصر أو القاهرة الكبيرة، كما يسميها الأوروبيون، على بعد فرسخ عن بولاق و النيل، فى بقعة رملية، على سفح جبل المقطم. و يمكننا رؤية المدينة جيدا من قمة الجبل علما أنها محاطة من الجهات الأخرى بمرتفعات من الأقذار التى تجمع يوميا من المدينة و تنقل إليها على ظهر الحمير. و رغم أن القاهرة مدينة كبيرة، لا يمكننا القول إنها مكتظة بالسكان أكثر من المدن الأوروبية التى توازيها مساحة. نجد فى هذه العاصمة المصرية مستنقعات كبيرة، تتحول إلى بحيرات صغيرة عند ما تمتلىء بالمياه.

و تحتل الجوامع المساحة الأكبر من هذه المدينة. و نرى فى بعض الأحياء كحى باب الفولى و طولون و حنفى و باب اللوق، و التى لا أعرف شوارعها الأساسية جيدا، رغم أننى أشرت إليها على خارطتى، حدائق فسيحة و أماكن فارغة خاصة بين القناة و بركة الفوال، التى عاينتها عن كثب. و على خلاف المنازل الأوروبية، لا- تتميز منازل القاهرة بارتفاعها. كما و أن معظمها مبنى من القرميد غير المشوى و لا يتألف إلا من طبقة واحدة. يخال، بعض الأوروبيين، أن مدينة القاهرة مكتظة بالسكان، علما أنهم لم يعيروا مواقع الأحياء انتباها. ففى بعض الأماكن، يستطيع جاران، أن يتبادلا- الأحاديث من خلف منزليهما، رغم أنهما يقطنان فى حيين منفصلين؛ بينما يتوجب عليهما قطع ربع فرسخ ليلتقيا معا؛ إذ إن الحى له منفذ واحد على الشارع الرئيسى. و بالتالى، يرى الأجنبى هذه الشوارع الكبيرة مكتظة بالناس خلال النهار، خاصة و أنها تشبه شوارع مدن الشرق كلها من حيث ضيقها. لكننا غالبا ما نجد الطرقات الأساسية خالية من الناس، خاصة و أنها بعيدة عن وسط المدينة، و لا يكثر فيها الحرفيون؛ و يبدو الفرق جليا عند دخولنا إلى الأحياء المنفصلة.

قدمت لنا الكتابات الأخرى شرحا مفصلا للغاية عن أحياء مصر و أبنيتها، حتى أننا نستطيع الاكتفاء بذكر موقعها على الخارطة. و لكننى سأضيف بعض الأشياء على ما سبق و ذكر. يقع القصر بين المدينة و جبل المقطم على صخرة منفصلة عنه. و لا يمكننا تحديد زمن تشييده على هذا الارتفاع و يقال إنه كان مأهولا بالسكان و يشكل جزءا من بابل مصر، التى كانت خاضعة آنذاك لحكم اليونان. يطلق بنيامين دوتودالا على القصر اسم الصوان؛ و يبدو أن يهود مصر، كانوا يعتقدون أن مدينة زوان، المذكورة فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۶

الكتاب المقدس، كانت تقع فى هذه المنطقة و اللافت للنظر أن موقع هذه الصخرة ملائم للغاية، حتى أن البعض يظن أن المسلمين وجدوها حصينة. لعام ۲۱۷ للهجرة. و لقد بنى الخليفة المأمون على جبل المقطم، قبالة القصر المذكور، قصر قبة الهوى، و لكنه مهجور تماما .

يتألف القصر من ۳ أقسام؛ جناح الباشا، جناح الانكشاريين، و جناح العفافرة. أما جناح الباشا، فمهدم كليا، و لا يليق بحكام مصر. و لما كان الباشاوات لا يطيلون البقاء فى منطقة واحدة، لم يحاول أى منهم بناء قصر جديد؛ و بالتالى فهم ينزلون فى أماكن لا تليق بهم. يتصل هذا الجناح بالجناحين الآخرين، عبر بابين منفصلين؛ و لكن الباشا لا يحتفظ بمفتاحيهما، بل بمفتاحى البابين اللذين يؤديان إلى الميدان، و الجبل و الحقول. و عملا بتقليد هذا البلد، تقفل الأبواب ليلا بواسطة أقفال خشبية. و نجد فى جناح الباشا، قسما لصك الأموال، تضرب فيه عملة سكين الذهبية، و البارة الفضية، و البورب النحاسية؛ و لكنها لا توازى الأموال التى تضرب فى القسطنطينية قيمة. يشبه جناح الانكشارى قلعة منيعة؛ فهو محاط بسور محصن بأبراج شاهقة على غرار القلعات التركية الأخرى. يتكفل السلطان

بدفع رواتب الانكشاريين؛ و لما كان معظم الضباط عبيدا عند علية القوم فى القاهرة، نراهم أكثر تعلقا بأسيادهم من السلطان. و هم يلجؤون إلى طرد الباشا، الذى يعينه المصريون، إن رفض الانسحاب خلال الفترة التى يحددها له البهاوات. لكن العرب لا يخشون الانكشاريين، لأنهم يسرقون الأماكن المجاورة للقصر، و المأهولة بالسكان. و يقع فى هذه المنطقة، ينبوع يوسف الشهير و الذى يزوره الرحالة كلهم. و مما لا شك فيه أن بناء هذا الينبوع يتطلب عناء و مالا وفيرا، لأنه عميق جدا و منحوت فى الصخر؛ و لكن الصخر حجارة من الكلس اللين و العمل عليها لا يتطلب عناء كبيرا، مقارنة بالمعالم التاريخية الأخرى، مثل الباغود فى الهند، المحفورة فى الصخور الصلبة. و رسم نوردن صورة واضحة جدا لينبوع يوسف. يعتبر قصر يوسف أكثر الأماكن جمالا فى جناح العفافرة؛ و تصنع فيه الأقمشة الفاخرة (الكسوة)، التى ترسل سنويا إلى مكة على حساب السلطان؛ و نرى اليوم فى هذا البناء، أنقاضا كثيرة تدل على عظمته السابقة. فقد زينت جدران جناح النساء بصور أشجار و منازل و خلافها و فسيفساء من عرق اللؤلؤ، و الحجارة الكريمة و الزجاج الملون. و نرى اليوم فى الغرفة التى كان يطرز فيها القماش، بعض النقوش على الجدران. و نشاهد فى غرفة ثالثة، رسومات جميلة على السقف. أما فوق هذا الجناح من القصر، حيث البناء مدعوم بسور ضخم فنصادف شرفة مغطاة تطل على الأهرام و الجيزة و مصر العتيقة و بولاق، و تشرف على منظر فاتن. و الملاحظ أننا نقع فى هذا المكان، على أسماء بعض حكام مصر القدامى، محفورة على الجدران. و يقال إن خلفاء مصر و سلاطينها أقاموا فى هذا القصر؛ و المدهش أن الحكام الأتراك لم يحذوهم، و لقد رآنى المشرف على العمال،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۷

الذين يصنعون القماش المذكور آنفا، و أنا أتأمل القصر، فدعانى لشرب القهوة فى منزله. فسألته عن يوسف الذى يحمل هذا البناء الجميل و الينبوع المذكور اسمه آنفا، فقال لى إنهما بنيا منذ ۶۰۰ سنة، على يد صلاح الدين. و هذا الأمر ليس خاليا من الصحة لأن الأمير المذكور بنى عدة أماكن عظيمة.

و كان يسمى يوسف والد المظفّر، ابن أيوب. أما الأسماء الأخرى التى حملها، مثل السلطان و الملك و النصر، و صلاح الدين، فهى ألقاب شرف، و نشاهد قرب قصر يوسف هذا حوالى الثلاثين عمودا من الغرانيت الأحمر؛ و لكنها لا تضاهى عمود بومبى، فى الإسكندرية، جمالا و عظمة. أما الطريق المؤدى إلى صف الأعمدة هذا فهو محفور فى الصخر؛ و نشاهد على سور أحد الأبنية صقرا منقوشا عليه، زالت ملامحه مع مرور الزمن.

لم تعد القرافة مأهولة بالسكان؛ لكننا نرى فيها جوامع جميلة مهدمة جزئيا، و أضرحة ملوك مصر القدامى. و فى هذا المكان بالذات، دفن الشافعى، مؤسس أحد المذاهب الأربعة التابعة لأهل السنة.

و كانت النساء المسلمات تزرن هذا المكان، خاصة نهار الجمعة، إما للعبادة أو للتنزه. فى الجهة الأخرى للقصر، بين جبل المقطم و المدينة، نشاهد عددا كبيرا من الجوامع المتداعية، و دور عبادة مجاورة لقبور المسلمين الأثرياء، و التى يبلغ طولها حوالى الميل .

و نجد أنفسنا أمام خيارين: إما اعتبار قاعد بيه نبيا، بين هؤلاء الأثرياء المدفونين أم إنه كان يدرك أن الآخرين لن يتلفوا جامعه؛ لأن المعبد الذى شيده فى هذا المكان هو فى حالة جيدة و قد بنيت حوله عدة منازل و باتت تشكل قرية كبيرة. يرقد اليزبك الذى شيد جامعا كبيرا بالقاهرة، فى الشارع الذى يحمل اسمه فى أحد جوامع قاعد بيه، فى الجهة الشمالية- الشرقية، و ضريحه محاط بعدد وافر من المنازل.

فيبدو جليا أن أسياد المسلمين فى مصر، أسرفوا فى بناء المعابد، شأنهم شأن سلاطين القسطنطينية؛ و لعلهم بالغوا أكثر منهم. سمعت أنه يوم كان ملك البلاد يقيم فى القاهرة، كان الشيوخ الفقراء ينتقلون من جامع إلى آخر، حيث يؤمنون لهم الطعام و المأوى مجانا.

يتميز حى طولون بجامعه الكبير، الذى يبلغ طوله ۲۰۰ قدم، و بقلعة الكبش القديمة. بنى هذه القلعة المدعو أحمد بن طولون، الذى ثار، عام ۲۶۵ للهجرة فى وجه خليفة بغداد. مما يعنى أن هذا القصر أقدم من مدينة القاهرة و من بين جوامع هذه المدينة كلها، يعد

جامع الأزهر أكثرها قدما و غنى و أكبرها مساحة. حيث يؤمن يوميا المأكل و المأوى لعدد كبير من الفقراء. و نجد هنا معهدا إسلاميا شهيرا، على

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۸

رأسه ۴ مفتين يمثلون المذاهب الأربعة: الشافعي، و الحنفي، و الحنبلي و المالكي. يتميز جامع السلطان حسن، الواقع على مقربة من الرميل، بجماله و ارتفاعه و صلابته. و لما كان يستعمل قديما كمربض للمدافع، أحيطت بوابات المعبد بالأسوار. و الجدير ذكره أن عدد الجوامع في القاهرة كبير جدا، و أظن أن تعدادها و ذكر أسمائها و الإشارة إلى موقعها على الخارطة قد يثير ملل القارىء. سأكتفي إذن بالقول: إن عددا كبيرا منها له أكثر من منارة، محاطة برواق أو أكثر، تستعمل لدعوة الناس إلى الصلاة. يقول المسلمون، إن رنين الأجراس خاص بالدواب؛ يعلقون أجراسا صغيرة بالجمال و البغال التي تستعمل في القوافل. و تقتصر زينة الجوامع على السجاد الفاخر أو الحصر البسيطة، و النقوش الذهبية على الجدران، التي تتضمن آيات قرآنية و قناديل غير جميلة معلقة أفقيا بسلسلة من الحلقات. و من الجهة المقابلة لمكة، نرى كوة من المرمر، تسمى القبلة، وضع أمامها شمعدانان كبيران فيهما شموع طويلة و خلال الصلاة يوجّه المسلمون كلهم وجوههم نحو القبلة. أما المارستان فهو مستشفى المجانين و المرضى و يقال إن مؤلفات العرب تتحدث تفصيليا عن عائدات المستشفى و الجوامع الكبيرة. و اللافت للنظر أن المشرفين على إدارة هذه الأموال يغتنون بسرعة، بينما تفتقر الجوامع شيئا فشيئا، إلا أن يظهر ورثة جدد يحاولون إصلاح الأضرار التي تسببها هذه العمليات. و مما لا شك فيه أن هذا المستشفى مجهز بكل ما يحتاجه المريض، حتى الموسيقى. و من المعروف أنه لسنوات خلت حرم المرضى من هذه التسلية؛ و لكن الفضل يعود لعبد الرحمن الكخيا في التمتع بها ثانية. و لم أر من هذا المبنى إلا جناح المرضى، الذين كانوا قلّة، مقارنة بكبر مساحة المدينة. و تكثر في القاهرة المباني الحجرية الصلبة المجهزة بغرف صغيرة و دكاكين للتجار. و من الملاحظ أيضا أن عدد الحمامات العامة مرتفع جدا؛ و رغم أن منظرها الخارجي ليس لائقا إلا أنها فسيحة و نظيفة من الداخل. فالأرض مغطاة بالمرمر الفاخر، و يسهر الخدم فيها على راحة الزوار. و الجدير ذكره أن الاحتفالات التي يقومون بها مع الذين يرتادون الحمام، تبدو في غاية الغرابة بالنسبة للأوروبي، حتى أنه يخالهم يسخرون منه. لكن هذا ليس من شيم الشرقيين. و من الأفضل أن يذعن الفرد لإرادتهم، و يحاول الاسترخاء، نجد في داخل المبنى غرفة صغيرة، وضع في وسطها عمود طوله حوالي قدمين و نصف القدم، يجلس عليه كل من يشاء انتزاع الشعر عن أعضائه التناسلية بواسطة مرهم يباع في الحمامات. و ما لفت انتباهي في هذا المكان، هو أنني رأيت بين رسومات القدامى، صورا لأشخاص عراة جالسين على هذا العمود. و هذا الأمر يدفعني للاستنتاج أن هذه العادة الرائجة اليوم في الحمامات، هي قديمة العهد. و من بين المباني العامة في القاهرة، نذكر أيضا المنازل التي يقدم أهلها يوميا الماء مجانا للمارة. و تتميز بعض هذه المنازل بمظهرها الجميل؛ و يحتفظ أهلها على الشرفات بكؤوس نحاسية نظيفة مملوءة بالمياه، تقدم للمارة.

و تكثر في القاهرة أيضا البرك التي هي عبارة عن أماكن منخفضة، تتحول في غضون ۱۲ شهرا إلى بحيرات صغيرة، لتصبح بعدها حدائق غنّاء و مروجا خضراء ثم لتمسي أخيرا صحراء. و يقيم في هذه المناطق، و خاصة في محيط بركة الفيل، أسياد المدينة. لكن المسلمين لا يظهرون أبدا عظمتهم على منازلهم؛ و لهذا السبب لا نرى من قصورهم إلا الأسوار الشاهقة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۹۹

تحدثت سابقا عن أنقاض هيليوبوليس، التي نراها على بعد فرسخين شمالي الشمال الشرقي للقاهرة.

و نجد على مقربة من هنا قرية مطاره، حيث نرى أشجار جميز يجله مسيحيو الشرق؛ إذ يزعم أنها فتحت أغصانها لتخبىء بينها العائلة المقدسة، خلال هروبها من مصر، إلى أن مر مضطهدوها. تحدث السيد بريتنباخ و الأمير رادزفيل، و غيرهما عن هذه الأعجوبة و لكن يجدر بنا ألا نتوقع العثور هنا على الشجرة نفسها التي يزيد عمرها على ۱۸۰۰ سنة. و يقول الأمير رادزفيل إنها شاهقة و كثيفة و مشقوقة؛ بينما يدّعي و يلد أنها منقسمة إلى ۳ أقسام و لا أذكر أنني شاهدت شجرة تحمل هذه المواصفات؛ مما يجعلني أشك بأن

الشجرة التى كانت تجل منذ ۲۰۰ سنة، لا تزال موجودة حتى اليوم. و لكن المسيحيين الذين يعبرون من هنا، يأخذون قطعة من هذه الشجرة التى يزعمون أنها مقدسة. و نرى بالقرب منها ينبوعا تدفقت منه المياه العذبة، عند مرور العائلة المقدسة بمحاذاته. فضلا عن شجر اللبان، الذى قضى عام ۱۶۱۵ بفعل فيضان مياه النيل، وفقا لكلام هنرى رانتزوف؛ و منذ خضوع مصر لحكم الأتراك، لم يتكبد أحد عناء زراعة نباتات جديدة من هذه الفصيلة من الأشجار.

و على بعد ۴ فراسخ شرقى القاهرة، تقع بركة الحاج، التى تصب فيها مياه النيل؛ و يتجمع سنويا حولها الحجاج قبيل انطلاقهم إلى مكة، و بعد عودتهم منها. و تكثر حول هذه البركة القرى و المنازل القروية المتداعية، التى تعود لسكان القاهرة، و بعض بساتين البلح؛ و هى تتميز بالبقعة الفسيحة التى يخيم فيها الحجاج. و بعد عودتى من دمياط، فى ۲۰ أيار/ مايو عام ۱۷۶۲، أى قبل يومين من انطلاق الحجاج، أسرعت لمشاهدة هذه القوافل الشهيرة قرب بركة الحاج و وصفت مشروع التخييم (راجعوا اللوحة ۱۴) بيد أننى لم أنقل بصورة صحيحة الفوضى التى كانت تعمّ المخيم؛ فكل مسافر ينصب خيمته حيثما يحلو له. لكن أمير الحج وحده هو الذى كان يملك خيما كثيرة، كان ينصبها بشكل منظم. و إليكم شرحا للأحرف المشار إليها على الخارطة المذكورة آنفا. أ- خيم أمير الحج، و فى وسطها خيمة صغيرة يوضع فيها القماش الفاخر، الذى سينقل إلى مكة، ب- مقر الأمير خلال النهار؛ نجد أمامها ۳ مدافع صغيرة؛ و أربعة أمام المقر (ج)، د- خيم بائعى المؤن. و تمثل الخطوط المستقيمة الحبال التى تربط فيها الخيول و الجمال، ه- قرية فقيرة، و- منازل قروية ملك أسياد القاهرة. تشير الأحرف المتبقية إلى خيم مستديرة و مستطيلة. و إننى لم أشاهد هذه القافلة و هى تغادر القاهرة؛ و لكن تناول بعض الكتاب هذا الموضوع بتفصيل دقيق. و ينضم إلى هذه القافلة المغربيون أو عرب الغرب، و يتابعون رحلتهم برفقتها؛ علما أن المغربيين الذين يمارسون الأعمال التجارية، يسافرون مع المصريين؛ أما الجزائريون و التونسيون، و أهالى طرابلس الغرب، فيسبقون الآخرين أو يحطون رحالهم بعدهم بيوم واحد؛ كما و أنهم لا يدفعون رسم العبور للحكومة المصرية.

يقام فى بولاق بازار كبير يعرف بالكيسارى(Kissarie) ؛ أخبرنى صديق لى مقيم فى القاهرة، أن الأباطرة الإغريق أو الرومان أطلقوا عليه هذه التسمية. و لكننا نجد فى مدن أخرى، كبيروت مثلا، أسواقا هائلة، تسمى كيسارى(Kissarie) ؛ فهذه التسمية مرادفة إذن للبزستان فى القسطنطينية، و عقال فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۱

القاهرة . و تعد بولاق اليوم مدينة مهمة، و مرفأ أساسيا من مرافىء القاهرة؛ إذ تمر فيها كل البضائع التى ترسل عبر النيل، من دمياط و رشيد إلى العاصمة، أو إلى المتوسط؛ مما يعنى أننا نجد فيها أهم مركز للجمارك. و تكثر فى بولاق مستودعات الأرزّ، و الملح، و البارود الأبيض و الخشب، و الزعفران، الذى ينمو فى مصر العليا، و لكن الزعفران الذى تنتجه مصر الوسطى يصدّر إلى القاهرة. و نجد أيضا فى بولاق مستودعا خاصا بالسلطان، يجمع فيه القمح الذى يرسل سنويا من مصر إلى مكة و المدينة و آخر قديما، يوضع فيه عتاد السفن العائدة إلى الحقبة التى كانوا يملكون فيها أسطولا فى السويس.

تعد الفسطاط أو مصر العتيقة- كما اعتاد الأوروبيون على تسميتها، مدينة بحد ذاتها- و لكنها صغيرة جدا مقارنة بمدينة الفسطاط القديمة، التى كانت عاصمة مصر. و نجد فيها مركزا للجمارك تدفع فيه رسوم عبور البضائع المرسلة من مصر العليا، فضلا عن مكان فسيح محاط بسور حصين تجمع فيه الحكومة القمح فى الهواء الطلق؛ و لقد شيّد هذا البناء فى عهد الخلفاء المسلمين. أما المؤلفون الذين يؤكدون أن يوسف بنى مستودع القمح هذا، فقد خدعهم بنيامين دوتولا، الذى يقول فى سير رحلته (ص ۱۰۴) إنه وجد فى مصر العتيق بقايا مستودعات قمح، بناها يوسف. و لكنه يتحدث عن ممفيس الواقعة على بعد فرسخين من مصر العتيق. و يقع الجامع الذى بناه القائد العربى، عمرو بن العاص، بين مصر العتيق و جبل المقطم. يزوره عليه القوم فى القاهرة مرة فى السنة احتفاء بذكرى بناء المسجد الأول فى المكان نفسه؛ و نرى فى الجوار بناء محاطا بسور قديم. (راجعوا الصورة على اللوحة ۱۲) و لعل حصن مدينة مصر، المذكورة فى حديث العرب عن غزو مصر، كانت مبنية فى هذا المكان؛ و الجدير ذكره أن هذا الحصن المتداعى مأهول اليوم

بالمسيحيين. و نجد فى هذا المكان أيضا عدة كنائس و مقابر إغريقية و قبطية و ديرا للنساء الأقباط، و مغارة مقدسة، إذ يقال إن العائلة المقدسة أقامت فيها لبعض الوقت. يحتفظ الإنكليز و الفرنسيون بمقبرة هنا، و كنيسة صغيرة، يقيم بقربها راهب فرانسيسكانى. تشتهر كنيسة القديس غريغوريوس الإغريقية بعجائبها الكثيرة، يقال إن المجانين من المسلمين و المسيحيين على حد سواء، يستعيدون رشدهم إن أوثقوا بغلا مربوطا بأحد أعمدة الكنيسة، و تليت الصلوات لراحة أنفسهم. و على مقربة من الكنيسة، شاهدت بئرا عميقا، يمتلىء سنويا بالمياه عند ارتفاع منسوب مياه النهر. و قيل لى، إن ضفة النيل، كانت قديما فى هذه البقعة؛ و هذا الأمر ليس بعار تماما من الصحة، إن أخذنا بعين الاعتبار تغير مجارى الأنهر مع مرور الزمن، خاصة فى النقاط التى تمر فيها أمام المدن. و بالتالى فالقناة الممتدة بين الفسطاط و جزيرة الروضة تبقى جافة عند انخفاض منسوب المياه. و لقد أشار الأمير رادزفيل، أنه منذ حوالى ۲۰۰ سنة كان الناس يعبرون من مصر العتيق إلى جزيرة الروضة مشيا على الأقدام، نظرا لانخفاض منسوب المياه. و لعل ضفة النيل الشرقية لم تشهد تغيرات ملحوظة منذ عدة قرون.

رسمت على الخارطة القناة التى تنقل بواسطتها مياه النيل إلى قصر القاهرة، و التى شيّدت حسب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۲

تقرير مارای على يد السلطان الغورى الذى استلم الحكم العام ۱۵۰۱ ميلادية، و نجد على الضفة الأخرى للقناة التى تجتاز القاهرة و على مقربة من النيل، صرح كفر العين الذى تعلوه قبة. و يشير الدراويش الذين يقطنون فيه حاليا- و يجنون منه مبالغ طائلة- إلى البقعة التى قتل فيها السلطان سليم. كما و أنهم يملكون طرائق أخرى معلقة فوق باب هذا الدير، و منها حذاء يبلغ طول نعله ۲۲ بوصة، قيل إن درويشا يدعى إبراهيم ارتداه فى عهد السلطان بيبرس؛ و غليون رأسه كبير، و غيرها من النوادر التى جمعتها هذه الأخوية خلال رحلاتها، و احتفظت بها للذكرى. و على مقربة من هذا الدير، اعتاد أسياد القاهرة و أفراد عائلتهم، التمرن بالبنادق و الأقواس، نهارى الأربعاء و السبت؛ إذ أقام بعض منهم فى هذا المكان حجارة تدل على بعد مرمى السهام.

تقع مدينة الجيزة على الضفة الغربية للنيل، قبالة مصر العتيق؛ إلّا أنى أجهل أصل هذه المدينة. و لكنها ليست بجديدة نظرا للمرتفعات المحيطة بها التى تشكلت بفعل القمامة التى تجمع من الطرقات و تنقل خارج المدينة. و أخالها برزت مع بروز مدينة الفسطاط، و انحلت مع انحلالها. أما سكانها فمعظهم من الحرفيين، الذين كانوا يعملون فى الفسطاط، و ارتأوا العودة إلى القاهرة، بعد انحلال الفسطاط. لم يلفت انتباهى فى الجيزة إلا المنازل القروية و بعض المصانع.

تقع جزيرة الروضة بين مصر العتيقة و الجيزة. و خلال القرون العشرة الأخيرة، لم يطرأ أى تغير على مساحة هذه الجزيرة؛ و إن شئنا وصف مساحتها و صورتها، علينا أن نقرأ كتاب الشريف الإدريسى. ففى زمن هذا المؤلف شهدت مصر العتيق ازدهارا ملموسا. بينما كانت تضم هذه الجزيرة حدائق غناء و منازل قروية جميلة، و نظرا لتكاثر أعمال سكان العاصمة على الضفة المقابلة للنيل، بنى جسر للسفن بين الفسطاط و الروضة و بين الروضة و الجيزة. لكن أصبحت القاهرة العاصمة، و هدم الجسر الذى يصل الفسطاط بهذه الجزيرة؛ إذ نقل سكان القاهرة منازلهم القروية إلى مصر العتيق و بولاق، و بركة الحاج.

و بالتالى، فقدت الروضة معالمها المميزة باستثناء سور كبير على الطرف الجنوبى، و بعض الصروح القديمة و منها الجامع الذى يحوى المقياس الشهير. رسم عدة رحالة هذا الصرح؛ و لكن نوردن وحده الذى أجاد رسمه. و الجدير ذكره أن الصورة أجمل من الأصل الذى نقلت عنه.

لست أدرى إن حاول أحدهم قياس عرض النيل؛ و لقد قسته بواسطة قاعدة طولها ۲۳۳ قدما و زاويتين متلاصقتين فوجدت أن عرض النيل قرب الجيزة يبلغ ۲۹۴۶ قدما بما فيها عرض جزيرة المقياس التى ظهرت منذ سنوات قليلة. لكن يبلغ عرض النيل قرب رشيد ۶۵۰ قدما و قرب دمياط ۱۰۰ قدم فى الواقع. و يرتفع منسوب النهر فى شهر حزيران/ يونيو لمدة ۴۰ أو ۵۰ يوما حتى يعود و ينخفض شيئا فشيئا؛ إذ إن السماء تمطر بغزارة خلال أشهر الصيف الحارة، فى الحبشة و الجهة الغربية لجبال اليمن، مما يؤدى إلى فيضان مياه النيل.

كما و أن أنهر اليمن تفيض فى الموسم نفسه، لتصب فى البحر أو تمتصها الرمال؛ بينما تتجمع الأنهر و الجداول فى الحبشة لتشكل نهرا واحدا يجتاز بلاد مصر كلها. و لما لم يسمح لى بقياس انخفاض منسوب المياه قرب المقياس، بحثت فى الجيزة على أحد الجدران الوعرة على دليل عن أعلى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۳

نسبة لفيضان مياه النيل الأخير، و وجدت أنه فى ۳۰ كانون الثانى/ يناير ۱۷۶۲، كانت على ارتفاع ۱۵ قدما، فوق سطح المياه، و انخفضت بمعدل ۲۴ قدما فى الأول من حزيران/ يونيو التالى. من المؤكد إذن أنه فى ضواحى القاهرة ترتفع مياه النيل بمعدل ۲۴ قدما. بينما أكدوا لى فى دمياط و القاهرة أن ارتفاع منسوب المياه لا يزيد على الأربعة أقدام، فإن تأملنا فى فيضان النيل، نر أنه فى البقعة التى يضيق فيها المجرى يرتفع منسوب المياه فى أكثر من جهة المتوسط و ذلك بعد أن يروى الحقول اليابسة المجاورة للقاهرة، و يملأ البرك أو البحيرات الصغيرة و ينقسم إلى فروع صغيرة. و لكن لا أحد يتوقع هذا الفرق فى ارتفاع منسوب المياه ضمن هذه المسافة الصغيرة. و عند ارتفاع منسوب النيل، تسد و تنظف القنوات التى اشتقت من النهر الكبير لدى الأرياف المجاورة؛ و لا تفتح إلا بعد أن يبلغ منسوب المياه ارتفاعا محددا. مقياس جزيرة الروضة وحده الذى يحدد هذا الارتفاع. و قد أوكلت لأحد الشيوخ مهمة الإعلان عن ارتفاع منسوب المياه. و يسارع الفقراء الذين يسمعون الخبر فى مصر العتيق و الفسطاط إلى القاهرة لنشره فى شوارعهم و أحيائهم. و يعودون بعدها إلى الفسطاط، ليصرح لهم الشيخ من جزيرة الروضة عن مقدار ارتفاع منسوب المياه. فينشر هذا الخبر أيضا، إلى أن يبلغ النيل الارتفاع المطلوب، لفتح القناة التى تجتاز القاهرة؛ و هذا يعنى أنه يتوجب دفع الضريبة للسلطان، و أنه لا داعى للخوف من الجفاف. و لكن لا أحد يعتمد على الأخبار التى تذاع حول فيضان النيل. الشيخ وحده يقترب من المقياس، و يعلن فى البداية عن ارتفاع بسيط لمنسوب المياه، ليخبرهم لاحقا عن تدفقها بشكل قوى؛ فإن لم يرتفع المنسوب كثيرا، فلا يخشى السكان من عدم بلوغه الارتفاع المطلوب قبل فتح القناة. شاهدت مصبها فى القاهرة، و حاولت مراقبة اختلاف ارتفاع منسوب المياه على سور وعر؛ و فى اليوم نفسه قيل فى البلدة إن منسوب المياه ارتفع ۳ مرات أكثر مما كنت أظن. و كنت أتمنى أن يشيد يوما ما، تاجر أوروبى من القاهرة، أو أحد رهبان هذه المدينة، أو رحالة أوروبى، مقياسا شبيها بمقياس المسلمين. و إليكم أفضل طريقة للقيام بذلك. فعند بلوغ منسوب المياه أدنى ارتفاع، يقاس علو السور المحاذى للنهر، و تحصى الحجارة التى تعلو سطح المياه، و يراقب ارتفاع منسوب المياه يوما بيوم. خلال ارتفاع منسوب المياه، نلاحظ أحيانا انخفاضه بشكل فجائى؛ و لعل ذلك عائد إلى صب المياه فى أحد القنوات. و هذا يؤدى إلى اختلاف واضح فى فيضان النيل. فى السنة التى قصدت فيها بلاد مصر، نشر للمرة الأولى فى ۲۹ كانون الثانى/ يناير أن منسوب مياه النيل بدأ بالارتفاع؛ و نشر فى ۸ آب/ أغسطس أن ارتفاعه بلغ ۱۶ ذراعا. عند ذلك شيّد سد القناة التى تجتاز القاهرة، فى ۹ آب/ أغسطس، و رافق ذلك احتفالات تقليدية تحدث عنها مطولا عدة مؤلفين.

انتظرنا طويلا لنشاهد تدفق المياه فى المدينة، و لكن انتظارنا ذهب سدىّ؛ لأن القناة لم تنظف جيدا تلك السنة، و لم نشاهد تدفق المياه إلا مساء العاشر من آب/ أغسطس. و أثار هذا الحادث الاستثنائى بلبلة بين سكان القاهرة؛ و قيل إنهم سينزلون العقاب بكل من أساء تنظيف القناة؛ و لكنه دفع مبلغا كبيرا للملك، و بنى على حسابه سدا جديدا للقناة، و وضع حجر الأساس له فى ۱۲ آب/ أغسطس، بعد حفر قناة القاهرة، فتحت القنوات الأخرى شيئا فشيئا؛ إذ لا يحق لكل منطقة بنزح ماء النيل عند ارتفاع منسوبها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۴

و لهذا السبب وضع المصريون قوانين خاصة بهم تنظم عملية سد القنوات الصغيرة. و تبقى مجارى البرك فى القاهرة و ضواحيها مسدودة ثلاثة أيام حتى تصب مياهها فى القناة التى تجتاز القاهرة. و فى تلك السنة، لم تصل المياه إلى بركة الیزبكى إلا فى ۱۸ آب/ أغسطس.

بين سد القناة التى تجتاز القاهرة و النيل شيّد عمود من التراب فى وسط القناة؛ و يطلق المصريون على هذه الحفنة من التراب اسم

العروس. و لقد علمت أن المصريين الوثنيين كانوا يقدمون سنويا عذراء كأضحية للنيل. لكن المسلمين أرادوا بناء مقياس للشعب من خلال عمود العروس هذا؛ قبل أن يبنى السد، فمجرى المياه ليس قويا كفاية إذا لم يصل لقلب العروس التى تدل على مدى ارتفاع منسوب مياه النيل. لكن بعد القيام ببناء السد أمكن التخلى عن خدمات العروس؛ و لما كان المجرى يقوى كثيرا فى القناة خاصة فى الأيام الأولى فالمياه ستقلبها حتما. و ذكر غابريال سيونيتا فى ملحق كتاب الشريف الإدريسى، أن المصريين يجرون اختبارات لتحديد ارتفاع منسوب مياه النيل مسبقا. و يقال فى بلاد مصر، إنه من مساء ۱۷ حزيران/ يونيو إلى ۱۸ منه، يبدأ منسوب مياه النيل بالارتفاع فى الحبشة، أو تسقط النقطة التى تسبب فيضان النيل. و فى الليلة المذكورة، تضع النساء عجينا على سطوح منازلهنّ؛ فإن زاد وزنه فذلك يشير إلى سقوط النقطة؛ و من خلال هذه التجربة، يحاول المصريون تحديد مدى ارتفاع منسوب مياه النيل و أسعار الفاكهة للسنة المقبلة. و لما كانت الحرارة فى بلاد مصر، معتدلة جدا، فقد يتساقط الندى ليلا فى ذلك الفصل و يؤدى إلى زيادة وزن العجين. و لما كانت النساء تعرضّن العجين للمرة الأولى فى الليلة المذكورة، فذلك يعزز إيمانهنّ بصحة اختبارهنّ. بيد أن النساء لم يتّفقن تلك السنة حول الليلة التى سقطت فيها النقطة؛ إذ إن بعضا منهنّ لم يحسنّ الترتيب الزمنى القبطى. من المؤكد إذن أنه تجرى كل سنة فى بلاد مصر، تجارب لتحديد زمن ارتفاع منسوب مياه النيل و التنبؤ بالجفاف أو بوفرة المياه. لكن علماء المسلمين يعتبرون هذا الأمر مجرد تسلية نسائية. و قال لى أحدهم إن علماء الفلك العرب يسمون النقطة دخول الشمس فى برج السرطان؛ و لعل هذه التسمية حثّت الناس على القيام بهذه التجارب التافهة. و أظن أن السيد فورسكال قام بنفسه ببعض التجارب؛ و إليكم شرحه لهذا الموضوع:

و فى ليلة ۱۷ حزيران/ يونيو ينتظر سكان القاهرة سقوط النقطة؛ و لما كانت أشهر المسلمين لا تصادف دوما فى الموسم نفسه فهم يتبعون الترتيب الزمنى القبطى. يظن المصريون أن النقاط تتساقط من السماء فى الليل فى النيل، و تؤدى إلى فيضان النهر بعد أسبوعين أو ثلاثة. و يتم التكهن حول فيضان النيل المقبل، و خصوبة السنة القادمة. فى هذه الليلة بالذات. و إليكم ما يفعلونه: يوضع رطل من الطين فى وعاء عميق، يضاف إليه رطل من ماء النيل و نتركه يرتاح طوال الليلة التى نتوقع فيها سقوط النقطة سواء داخل المنزل أو خارجه. فإن شرب الطين الماء كانت السنة جافة؛ لكن إن بقى بعض الماء كانت السنة غنية بالمياه.

قمت بنفسى بهذا الاختبار عدة مرات؛ و كانت المياه تبقى فى الوعاء دوما. غير أننى لا أظن أن تراب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۵

النيل، يمتص كمية كبيرة من المياه؛ و الدليل على ذلك فيضان نهر النيل سنويا. فالكمية المتبقية من المياه لا تعنى شيئا؛ غير أن كل إنسان يحاول التكهن بما يحلو له.

و إليكم طريقة أخرى للتنبؤ: تصنع ۱۲ علبة صغيرة من الورق، و يكتب على كل منها اسم شهر قبطى. و يوضع فى كل علبة حبة قمح من الوزن نفسه. لكن إن زاد وزن إحدى العلب، قيل إن مياه النيل ستفيض فى الشهر المدون على العلبة. بيد أننى أجد هذا الاختيار أكثر غرابة من الأول.

و يقال أيضا إن العجينة التى توضع فى الهواء الطلق عشية سقوط النقطة، تتحول إلى خميرة. و إن شاء أفراد العائلة أن يتسلوا وضع كل واحد منهم قطعة من العجين فى صحن منفرد؛ و من ترفخ عجينته أكثر سيسعد أكثر من سواه. أجريت هذا الاختيار عدة مرات. و فى الليلة التى سبقت ۱۷ حزيران/ يونيو، لم ترفخ العجينة؛ و لكن فى الليالى الثلاث التالية رفخت كثيرا. و مما لا شك فيه أن ارتفاع الحرارة هو الذى أدى إلى ذلك، و ليس النقطة العجائبية.

ذكرت لكم سابقا أنهم ينظفون قناة القاهرة سنويا؛ لتستعمل بعدها كشارع؛ غير أن ذلك لا يدوم طويلا، لأن السد سيخرق قريبا. خلال الأشهر التالية، و يستمتع أصحاب المنازل الواقعة على الضفاف بالمياه الجارية؛ و لكن سرعان ما تتكدس عليها أوساخ المدينة كلها باعثة رائحة كريهة للغاية.

لا تتوافر مياه الشفة فى القاهرة؛ و هى تنقل إليها يوميا من المناطق المجاورة، على ظهر الجمال و الحمير.

و نجد تحت المساجد الكبيرة خزانات عامة، تملأ بالمياه لتزود المدينة بها، عند ارتفاع منسوب مياه النيل، و تعكر صفوها. لكن إن فرك داخل الأوعية باللوز أصبحت المياه صافية و صالحة للشرب. و يقال إن مياه النيل تسبب طفحا جلديا، فى أحد فصول السنة؛ غير أنه ليس مزعجا و لا يضر بالصحة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۶

سكان مدينة القاهرة و شكل الحكم و التجارة فيها

إن غالبية سكان القاهرة من العرب و الأتراك و غيرهم من المسلمين من كافة الولايات التركية. و هناك المغربيون أو عرب بلاد البربر و الأفريقيون و التتر و الفارسيون. و المسلمون أبا عن جدهم من أهل السنة و ينتمون بغالبيتهم إلى المذهب الشافعى. و يعتبر الأقباط المسيحيون الأكثر عددا بعد المسلمين. و هم ينحدرون من المصريين القدامى و الأتراك يدعوهم بسخرية: خلف فرعون. و يسكن الأقباط فى الشوارع الكبيرة المجاورة لبركة اليزبكية(Birket el J چsbekie) و لقنطرة الشرق(Kantaret el Charq) و لباب شيخ رهان(B b Schech Rih n) و فى أماكن أخرى. لهم كنيستان فى القاهرة و عدة كنائس أخرى فى مصر العتيق(Masr el atik) و هى المدينة التى اتخذها البطريرك القبطى مسكنا له علما أن كافة الكهنة الأقباط فى مصر يخضعون له كما و يرسل إلى الحبشة رئيسا للإكليروس.

أما اليهود فيحتلون المرتبة الثالثة من حيث العدد بعد المسلمين و الأقباط. ينقسم اليهود إلى الفريسيين و التلموديين و أيضا القرائين(Karaites) و لهم كنيس خاص بهم بالرغم من صغر عددهم. يحتل التلموديين مركزا جيدا فى مصر، فلقد وضعوا يدهم منذ عدة سنوات على كافة الجمارك فى بولاق(Bul k) و مصر العتيقة و الإسكندرية و دمياط. و لهذا السبب، يمكنهم أن يحصلوا على الحماية و الدعم فى مصر أكثر من ولايات الإمبراطورية التركية حيث يكون رجال الجمارك من جماعة الباشاوات أو مدير عام الجمارك الذى يسكن فى القسطنطينية. و نذكر من أهم الأدلة على نفوذ اليهود فى الجمارك أن الدوائر الجمركية تقفل أيام السبت فى وجه كافة البضائع سواء كان أصحابها من المسلمين أو من المسيحيين و لليونانيين كنيستان فى القاهرة يستقر فى إحداها بطريركهم و فى الثانية مطران جبل سيناء. و يقل عدد الأرمن فى القاهرة لكن لديهم كنيسة صغيرة جميلة تابعة لكنيسة الأقباط فى قنطرة جديد. أما فيما يتعلق بالجاليات الأوروبية فهناك قنصلية فرنسية فى القاهرة و أخرى هولندية و ثالثة إيطالية. كما و نجد تجارا فرنسيين و إيطاليين، أما التاجر الهولندى الوحيد الذى كان قد استقر فى القاهرة قبل مجيئنا إليها بقليل فقد عاد إلى إزمير و نحن لا نزال فى القاهرة. و يكثر الكهنة فى هذه المدينة من يسوعيين و كبوشيين و آباء التبشير و آباء الأرض المقدسة و الفرنسيسكان يجدون للحصول على أتباع لهم و غالبا ما ينجحون فى هداية بعض مسيحيى الشرق إلى الكنيسة الرومانية. و مع أن هؤلاء المهتدين الجدد يسوء سلوكهم كمواطنين على حسب ظن المسلمين، إلا أن الحكومة لا تتدخل فى منع المبشرين الأوروبيين لأن الشجار غالبا ما يندلع بين المهتدين الجدد و المخلصين للكنيسة القديمة فيضطر الفريق المعتدى إلى دفع غرامة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۷

للباشاوت و أحيانا يضطر الرهبان أنفسهم إلى دفع مبالغ طائلة.

يلتزم زمام الحكم فى القاهرة باشا لكن سلطته ليست كبيرة مثل الباشاوات فى الولايات الأخرى، ذلك لأنه يخضع خضوعا شبه كامل للجمهورية أو لديوان الجمهورية أى للبهوات و لرؤساء الجيوش المصرية و لغيرهم من المديرين فى القاهرة. و لأن نمط تفكير المصريين يختلف عن نمط تفكير الباشا، يعتبره هؤلاء جائرا و يقصونه عن الحكم عند ما لا يكون سياسيا محنّكا يعرف كيف يحرّض الأحزاب بعضها على بعض. و عند ما كنت فى الإسكندرية، قام أهل القاهرة بطرد أحد الباشاوات. أما مصطفى باشا فقد عيّن مرتين وزيرا كبيرا ثم مرة ثالثة لا حقا. و كان قد تلقى الأمر بالتوجه إلى جدة لكنه ادّعى المرض و لم يذهب مع القافلة الكبيرة التى كانت

متجهة إليها بل أرسل مكانه وزيرا مفوضا مطلق الصلاحية و بقى فى مصر. ثم بعد ذلك اختاره المصريون باشا عليهم و تصرفوا بطريقة جعلت السلطان يعينه حاكما على مصر بالرغم من استيائه من مصطفى باشا و من المصريين. إلا أن هذا الأخير لم يشغل منصبه إلاـ لمدة سبعة أشهر إذ أرغم على التخلى عنه لصالح باشا آخر قادم من القسطنطينية إلى القاهرة. و تبع الاثنان كايجى باشى(Kapidsji B schi) لكن الباشا الجديد توفى فجأة أثناء الليلة التالية. و هكذا فقد توالى على الحكم ثلاثة رجال فى الفترة القصيرة التى مكثت فيها بمصر. كما و يستبدل قاضى القاهرة الأول كل سنة بقاض آخر من القسطنطينية. و لست أدرى إذا ما كان هناك مناصب أخرى فى القاهرة تخضع مباشرة لقرار السلطان أو المفتى الكبير.

بعد منصب الباشا أو حاكم السلطان، يأتى مباشرة منصب البهوات. و مع أن السلطان هو الآمر الناهى فى موضوع تعيينهم إلاـ أن المصريين هم الذين يقترحون أسماء المرشحين. و كثيرا ما يكون هؤلاء من المسيحيين الذين أحضروا فى سن مبكرة من جورجيا إلى القسطنطينية و منها إلى القاهرة فبيعوا بستين أو مئة قرش إلى البهوات و المسؤولين الكبار فى القاهرة فيعلمهم هؤلاء و كأنهم أبناؤهم تماما كما كان الأسياد المسلمون المحترمون يعاملون عبيدهم. ثم كانوا يدبرون لهم وظائف مدنية أو عسكرية فى فرقهم الخاصة إذا ما وجدوهم أهلا لهذه المناصب إذ كان لكل بيه حراسه الخلّص أو حتى جيش صغير خاص به كمؤشر على عظمته و كوسيلة لحفظ الأمن فى الولاية و المقاطعات التى يسيطر عليها. و لأن هؤلاء العبيد يدينون بكل ما لديهم لأسيادهم، نجدهم يخلصون لهم الإخلاص كله. و عند ما يلاحظ أحد الأسياد فى عبده قدرات واعدة و إخلاصا كبيرا، يسخو فى تنشئته و يصرف عليه أموالا تفوق الأموال التى يصرفها على نفسه لأنه يساهم بهذه الطريقة فى تعزيز شأنه فى الحكومة. و لقد عرفت أحد التجار الأغنياء و كان لديه خادم واحد و حمار واحد يمتطيه عند ما يخرج لإدارة أعماله. لكنه كان قد وضع بعض عبيده فى مناصب ضباط رفيعى المستوى فى الجيش المصرى و كانوا يظهرون بأبهة و جلال فى الشوارع لكن ذلك لم يحل دون تفانيهم فى الدفاع عمّن أحسن إليهم. يحكى عن رجل يدعى حسن الكخيا(Hassan

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۸ Kichja)

أوصل عبيده إلى مراكز رفيعة جدا. و من بين هؤلاء رجل هو عثمان الكخيا كان بدوره سيدا لعبد هو إبراهيم الكخيا. و قد دفع هذا الأخير أموالا طائلة لتنشئة عبيده و خدمه و وضعهم فى أرقى المناصب حتى استطاع فى السنوات الأخيرة أن يحكم تقريبا مصر بكاملها مع أن منصبه الشخصى كان متواضعا فقد كان (الكخيا) أى كان يشغل المنصب الأول بعد آغا الانكشاريين. فى الوقت الذى كنت فيه بمصر كان يحكم البلاد عبد الرحمن الكخيا ابن حسن الكخيا الآنف الذكر. و لم يكن لديه نفوذ كبير لكنه كان مسنودا من قبل عدد كبير من البهوات و الآغاوات لأنهم كانوا يدينون بثرواتهم لعائلته و لأنه كان غنيا و لديه فرق عسكرية عديدة و حائزا على احترام رجال الدين و الشعب. و يقال إن بهوات مصر كافة ينحدرون من أهل مسيحيين و إنهم بيعوا كعبيد فى سن مبكرة: لكن ثمة بهوات مسلمون أبا عن جد و لم يكونوا يوما عبيدا. و هذه قائمة بأسماء بهوات مصر كافة فى الوقت الذى مكثت فيها:

۱- خليل بيه، اشتراه إبراهيم الكخيا و ربّاه، و عام ۱۷۶۲ تولى منصب دفتردار مصر أى أمين الصندوق.

۲- حسنى بيه و كان فى العام نفسه «أمير الحج»(Emir Hadsj) أو قائد قافلة مصر و قد كان عبدا عند إبراهيم الكخيا.

۳- على بيه، من عبيد إبراهيم الكخيا، كان يحتل منصب شيخ البلد أو حاكم مدينة القاهرة. كان يطلق عليه اسم الصغير أو على بيه الصغير. فى السنة التالية قام هو و حزبه بإجبار الباشا أن يأمر عبد الرحمن الكخيا الذى كان يصحب رفاقه إلى بركة الحاج(Birket el Hadsji) فى طريقهم إلى مكة ألاـ يعود إلى القاهرة و أن يرحل هو و القافلة. و هكذا أصبح على بيه أكثر نفوذا من عبد الرحمن الكخيا. إلا أن سلطته لم تدم كثيرا إذ أخرج هو الآخر من مصر و أرسل إلى غزة. عام ۱۷۶۸ عاد إلى القاهرة و قتل أربعة بهوات فى ليلة واحدة و أرغم الباشا على عدم السماح لأربعة بهوات آخرين بالعودة إلى القاهرة بعد أن كانوا قد هربوا منها. و منذ ذلك الحين أصبح رئيسا لحزبه الذى لم يكن قد حلّ، و الآمر الناهى فى القاهرة. و لقد علمت من المجلدات أنه طرد الباشا و أعلن نفسه ضد

السلطان إلى أن جاء محمد أبو الذهب و طرده فلجأ إلى الضاهر عمر(D hher Omar) والى عكا. و لم أوفق فى معرفة المناصب التى كان يشغلها البهوات الآخرون لكن إليكم أسماء البهوات الثلاثة الذين ذكرتهم آنفا.

۴- عثمان بيه و كان من عبيد إبراهيم كخيا.

۵- حسن بيه و كان عبدا عند سليمان آغا.

۶- حسن بيه من عبيد عمر بيه الألكتار(Electe r) و كان يسمى حسن بيه رضوان لتمييزه عن حسن بيه السابق.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۰۹

۷- خليل بيه الملقّب بالبلفى(Belf ?ie) . كان والده يدعى إبراهيم بيه و بالتالى كان ينحدر من أصل مسلم. و لقد كان رجلا مميزا.

۸- حسن بيه الملقّب باسم داماد(Damچd) . كان عبدا عند سليمان آغا.

۹- صالح باشا و كان من عبيده مصطفى بيه الكرد(El Kerd) .

۱۰- عثمان بيه الملقب بأبى سيف لأنه يحسن استعمال السيف. كان تركى الأصل من القسطنطينية و لم يكن عبدا قط. كان فى خدمة إبراهيم كخيا الذى رقاه إلى أفضل المناصب فى الجيش ثم أعطاه لقب بيه.

۱۱- خليل بيه الملقب بالسكران، كان عبدا عند حسين بيه أمير الحج.

۱۲- أحمد بيه السكّرى، أبوه بائع سكر مسلم فى القاهرة. فهو لم يكن مسيحيا قط و لقد نشأ فى منزل إبراهيم كخيا، و فى أيامى كان حاكم السويس.

۱۳- إسماعيل بيه، من عبيد إبراهيم كخيا.

۱۴- محمود بيه، من عبيد عثمان كخيا.

۱۵- حمزة بيه ابن حسن بيه عباسة و هو مسلم الأصل.

۱۶- محمد بيه الملقب باسم حنفى. كان عبدا عند سليمان آغا.

۱۷- محمد بيه دالى(D li) . هو ابن إسماعيل بيه الدالى أى مسلم الأصل.

۱۸- على بيه الملقب بعلى بيه الكبير لتمييزه عن شيخ البلد، و لأنه كان واسع النفوذ فى القاهرة منذ بضع سنوات. عند ما كنا فى مصر، أرسل إلى غزة ثم عاد إلى القاهرة قبل رحيلنا منها و مات بعد ذلك بقليل، و يعزى موته إلى عباءة مبطنة بفرو مسموم أهداه إياها أحد أصدقائه البهوات.

على بيه كان من عبيد إبراهيم باشا، اشتراه هذا الأخير و أنشأه عنده. يقال إن والده كاهن من جيورجيا و إن أهله و أشقاءه و شقيقاته كانوا يأتون لزيارته فى القاهرة و قد بقيت عنده شقيقة و شقيقان من أشقائه و بعد أن تظاهر هذان الأخيران باعتناق الدين الإسلامى، عيّنهما على بيه حاكمين على مقاطعتين صغيرتين.

إن عدد البهوات فى مصر هو ۲۴ لكن هذا العدد لم يكتمل أبدا ربما لأن عائدات البلد لم تعد كافية كما فى السابق أو ربما لأن الباشاوات و البهوات يقتسمون فيما بينهم عائدات الآخرين و مداخيلهم. و إليكم أسماء الذين يتّبعون البهوات فى ديوان القاهرة:

۱- الآغا أو رئيس فوج المتفرقة(Metaf rraka) . أما الشخص الذى يشغل حاليا هذا المنصب فلقد كان عبدا عند إبراهيم كخيا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۰

۲-(Katschuda Tsjausch n) و كان عبدا عند عثمان كخيا.

۳- آغا فوج الغلمان(Dsjچml n) . كان عبدا عند إبراهيم كخيا.

۴- آغا فوج التفكشان(Teffeksch n) ، من عبيد إبراهيم كخيا.

۵- آغا فوج الشركس(Tsjaraksa) ، من عبيد عثمان كخيا.

۶- آغا الانكشاريين. إن الشخص الذى يشغل هذا المنصب كل سنة من عبيد إبراهيم كخيا.

۷- آغا فوج أصّب(Assab) ، من عبيد إبراهيم كخيا.

و بالإضافة إلى هؤلاء كلهم، هناك أشخاص آخرون يقيمون فى ديوان الباشا ككخيا الأفواج و عدد كبير من رجال القانون و رجال الدين ... و لأنى لا أعلم شيئا عن مهامهم، لن أستطيع أن أنقل أخبارهم.

كنت أتمنى لو أن السيد مايّيه(Maillet) دخل فى تفاصيل شكل الحكم فى مصر لأنه أمضى سنوات عديدة فى هذا البلد و تعرّف على أهم رجالاـته لذا فهو من سينقل أخباره. و يبدو أن شكل الدولة لاـ يزال حتى اليوم كما هو و كما وجده الأتراك و كما لم يستطيعوا تغييره بالرغم من كبريائهم و سلطتهم.

قد يظن البعض أن الأمن ينعدم فى القاهرة لأنها معقل عدد كبير من الطغاة المتناصرين فيما بينهم على السلطة. لكن الجدير بالذكر أن أخبار السرقات و جرائم القتل هى أقل بكثير فى القاهرة من غيرها من المدن الكبيرة فى أوروبا. فإلى جانب القاضى الكبير، هناك قضاة آخرون مجبرون على عقد جلسات يومية فى الشوارع التى تعيّن لهم و فى بعض المنازل لإحقاق الحق. و للانكشاريين وجود فى كافة الشوارع للحفاظ على الأـمن. و لكل مهنة خبير محلف يعرف كل الذين يعملون فيها و حتى فتيات الهوى و اللصوص لديهم مخاتيرهم فى بلاد الشرق، لكن لاـ يحق للصوص السرقة إلا أنه عند ما يشتكى أحد الناس من سرقة شىء ما و يتوجه إلى مختار اللصوص يمكنه غالبا أن يستعيد الشىء المسروق لقاء مبلغ ما . و يقوم مسؤولو العدالة و الشرطة بالتنقل ليلا و نهارا فى شوارع المدينة لمراقبة الكيل و القياسات و البضائع المتوجهة نحو السوق و للقبض على الأشخاص المشتبه بأمرهم لضربهم و لشنقهم حالا من دون أى محاكمة فى حال وجدوا متلبسين. و هكذا، فإن الخوف من القضاة و من هذه الإجراءات الصارمة يرمى الرعب فى قلوب المشاغبين. و لقد لاحظت الذعر بين المصريين عند ما يصادفون أحد هؤلاء المسؤولين فى الشارع و كان خادمى المسلم يتمنى أن يعود أدراجه فى كل مرة يصادف فيها أحد هؤلاء المسؤولين فى الشارع خوفا من أن يشاهدوه بصحبة غريب فى شوارع لا يمر بها الأوروبيون و لو لا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۱

إصرارى على الذهاب إليها لما وافق على مرافقتى. و يساهم عدد الأبواب الكبير فى المناطق المنفصلة و فى الشوارع الأساسية من المدينة فى زيادة اطمئنان سكانها لأنها تغلق كل ليلة ما عدا شهر رمضان. و أمام كل باب يقف بواب، و لقاء أجر زهيد يفتح الباب لكل من يأتى فى عمل ما إلى المدينة أثناء الليل حاملا بيده قنديلا، إلا أنه يغلق الباب فى وجه الأشخاص المشبوهين. و هكذا فإن اللصوص الذين يخرجون أثناء الليل للسرقة لا يمكنهم الابتعاد كثيرا. و على كل حال، هناك غرف بالقرب من هذه الأبواب تتسع لانكشارى أو اثنين. و لا أحد يعرف متى تنتهى نوبة حراستهم و هم لا يقدمون السلاح عند مرور أحد شخصيات المدينة و يمكن أن يشغلوا منصبهم هذا لمدة سنوات أحيانا فيمضون أيامهم فى التدخين و لعب الشطرنج ... و ينام أحدهم على الأقل فى الغرفة أثناء الليل. و إن واجب هؤلاء هو حفظ الأمن فى الأحياء مقابل أجر محدّد. و عند ما يهملون واجبهم يخسرون مورد رزقهم. و هم يلعبون دورا بارزا فى الشجارات التى تنشأ بين كبار شخصيات المدينة. فى هذه الحال، تغلق الأبواب لمنع الناس من التجمهر. و يقال إن البهوات يتعاركون دائما فى المدينة و فى الريف، من دون أن يؤدى عراكهم إلى أى شغب بين صفوف البورجوازيين.

كنت قد ذكرت فى «وصف شبه جزيرة العرب» أنه لا يسمح لليهود أو النصارى و حتى الأوروبيين بامتطاء دابة غير الحمار فى القاهرة و إنهم يجبرون على الترجل عن دابتهم عند ما يلتقون بأحد البهوات أو أعيان المدينة. و هؤلاء لا يظهرون فى الشارع إلّا على ظهر أحصنتهم و يتبعهم أحد خدمهم الوقحين حاملا بيده عصا غليظة فيقول لليهودى أو المسيحى الذى يصادفه فى الطريق «انزل» إذا لم ينزل من تلقاء نفسه.

و فى حال عصى أمره بادره الخادم بالضرب مباشرة دون أن يكلف نفسه عناء تحذيره مرة ثانية. و منذ سنوات، تسببت حادثة مماثلة

بعطب تاجر فرنسى لبقيّة حياته. كما و تعرض طبيبنا للشتم لأنه لم يترجل فى الوقت المناسب. لذا، لا يمكن لأى أوروبى أن يخرج على ظهر دابته إذا لم يرافقه رجل يعرف الأسياد كلهم الذين يفرضون على أبناء الديانات الأخرى أن يترجلوا لدى رؤياهم. و كنت أجعل انكشاريا يسبقنى و خادما يتبعنى و كانا كلاهما من المسلمين، فيبقيان على حماريهما بينما أترجّل و حدى. و لشدة ما كنت أشعر بالذل من هذا الأمر، قررت أن أخرج دائما مشيا على قدمى. و فاتنى أن أذكر أن اليهود و النصارى لا يتجرؤون على البقاء على ظهر مطيّهم أمام بيت القاضى الكبير و أمام ۲۴ بيتا آخر حيث يعمل القضاة، و قرب باب الانكشاريين و جامع الأزهر و المساجد الأخرى، و يسمح لهم بالمرور أمامها على أقدامهم. غير أنه لا يسمح لهم بالمرور سواء مترجلين أو غير مترجلين بالقرب من مسجد الست زينب بجوار قنطرة السبع(Kantaretes Sab) و بالقرب من مسجد مجاور لباب نصر و مساجد أخرى لحكام القاهرة السابقين، و لا حتى فى شارع القرافة(El Kar fe) بل يحتم عليهم تغيير وجهة سيرهم. و لقد لاحظت وجود مساجد كبيرة من جهتى هذه الشوارع. و لا بدّ أن عامة الشعب تعتبر المرور بين هذه المساجد مقدسا. و لست أكيدا من أنه يمنع على الأوروبيين امتطاء الخيل. فمنذ فترة غير بعيدة، عاش فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۲

المدينة قنصل إنكليزى ثرى و كان يرتدى زى سيد تركى و يمتطى الخيل. و كانت ثروته الكبيرة تسمح له بتقديم الهدايا و الولائم لكبار شخصيات القاهرة الذين كانوا يعاملونه بالمثل. عند ما كان يظهر فى الشوارع، كان يوزع الأموال على الناس فكان الشعب يحبّه. أما اليوم فما عاد القناصل يمتطون الخيل إلا يوم يذهبون للجلوس فى حضرة الباشا، فيرتدون الزى الأوروبى و يزينون أنفسهم بأبهى زينة. و لا أتفاجأ قط عند ما أجدهم يسمعون آلاف الشتائم تنهمر عليهم من قبل عامة الشعب إذ إن الشرقيين يعتبرون لباسنا القصير غير محتشم خاصة أن أهل القاهرة لا يزينون ثيابهم لا ذهبا و لا فضة. و فى الأيام العادية، يرتدى القناصل لباس الأتراك الطويل و عليهم- شأنهم شأن التجار الأوروبيين و النصارى الشرقيين و اليهود- أن يترجلوا عن حميرهم عند مرورهم فى المناطق الآنفة الذكر، أو عند مرورهم بسيد مسلم.

و مع أن كثافة السكان فى مصر قد انخفضت، إلا أن منتجات البلد لم تنقص، و لأنها العاصمة و لأنها تقع فى موقع استراتيجى بالنسبة للتجارة، فيها عدد كبير من التجار الأغنياء الذين يتعاطون التجارة مع أوروبا و آسيا و أفريقيا. تتلقى مصر عبر الخليج العربى كافة منتجات الهند و بلاد فارس و شبه الجزيرة العربية. و يسهل النيل التجارة مع السودان و من جهة البحر المتوسط مع سوريا و تركيا و بلاد البربر و أوروبا.

أما القوافل الكبيرة التى تأتى سنويا من الأقطار و التى تصل برا فهى تقايض بضائع بلادها الفاخرة بما ينقصها من بضائع أخرى. و مع أن أضخم عمليات التجارة فى بلادنا تجرى عن طريق المراسلة و أنه فى المدن الكبيرة يجتمع التجار بالسوق فى ساعة معينة من النهار إلا أن التجار الشرقيين بغالبيتهم يسافرون بنفسهم أو يرسلون عبيدهم و خدمهم. و كل الذين يأتون من القطر نفسه و الذين يحملون البضائع نفسها، ينزلون فى المكان نفسه كلّ على حدة كمسيحيى القاهرة الذين يقيمون فى الحى نفسه أو بجوار بعضهم البعض. و هكذا يعلم الناس مقرّ التجار الأجانب. و يكثر عدد السماسرة و بواسطتهم يكثّف الباعة معارفهم كما و يسهل على الزبائن إيجاد البضائع. و لا شك أن المسافرين يفضلون المكوث إلى جانب بعضهم لأنهم بذلك يؤدون بعض الخدمات لبعضهم.

لست مؤهلا للحديث على كافة تفاصيل التجارة عند المصريين، لكنى تعرفت عن كتب على الاستيراد و التصدير بفضل المعلومات التى أعطانى إياها تاجر فرنسى و سوف أنقلها إليكم لنعرف ما هى المنتجات التى تعزز فى هذه البلاد و تلك التى تستورد من الخارج.

يشكل الجلد الخام إنتاجا مهما تصدره البلاد. فى كل سنة، تصدر ۷۰ إلى ۸۰ ألف قطعة من الجلد منها عشرة آلاف قطعة من جلد الجاموس تذهب إلى مرسيليا. و تصدّر كميات أكبر من الجلود إلى إيطاليا منها جلود الجاموس و الثور و البقر و الجمل. تصدّر جلود

الجاموس إلى سوريا خاصة و تتميز هذه الجلود بأنها ليست كبيرة بل أكثر سماكة و وزنا من غيرها. و لعل أفضل جلود هى التى تأتى من مصر السفلى حيث المراعى الشاسعة، و يستحسن قتل الحيوانات فى أشهر كانون الثانى/ يناير و شباط/ فبراير و آذار/ مارس

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۳

و نيسان/ أبريل لأنها ترعى العشب فى هذه الآونة بينما تأكل من العلف فى الأشهر الباقية. يمكننا الحصول على الجلد الخام على مدار السنة و خاصة بعد عيد الأضحى عند ما يجتمع الحجاج فى مكة و على جبل عرفات. فى هذه الأيام تذبح كميات هائلة من المواشى فى مصر كما فى سائر الدول الإسلامية. و فى أيام إبراهيم كخيا الذى حكم مصر وحده لمدة عشر سنوات تقريبا، ترسّخت هذه التجارة ثم أنشأ المزارعون متجرا فى الإسكندرية لبيع الجلود بالمفرّق و صاروا يتحكمون بسعرها. و منذ سنوات، عادت هذه التجارة لتصبح حرة لكننا لم نعد نشعر أن الأسعار تختلف كثيرا.

يحصد الزعفران فى نهاية شهر أيار/ مايو و مطلع شهر حزيران/ يونيو. ينقل الزعفران الذى يحصد فى القاهرة إلى السوق لكن لا يستطيع التجار الحصول عليه إلا مع نهاية شهر حزيران/ يونيو و مطلع شهر تموز/ يوليو. و يثمر الحصاد عن ۱۵ إلى ۱۸ ألف قنطار من الزعفران تذهب كميته الكبرى و الأفضل نوعا إلى مرسيليا و ليفورن و البندقية أما الباقى فيتجه نحو إزمير و سوريا و جدة لأنه لا يستهلك فى مصر. و فى مصر أكثر من عشرة أصناف من الزعفران لكنه يصنف وفقا لتسميات أربع هى: البلدى و القبلاوى(Keblawi) و البحرى(Bahhari) و الصعيدى. يعتبر الصنف الأول الأفضل من حيث النوع و يزرع حول مدينة القاهرة، أما الصعيدى فهو الأسوأ.

يحصد الكتان فى شهر تموز/ يوليو و يعتبر الشتاء الفصل الأفضل لشرائه. تشتهر منطقة رشيد بتجارة الكتان و تنقل الكميات غير المستهلكة منه إلى تركيا و ليفورن، و تركيا و سوريا و جدة و حتى اليمن، و يكون نسيج الكتان على عدة أنواع. يزرع القطن فى مصر السفلى و يحصد فى شهر تموز/ يوليو، و يعتبر شهرا كانون الأول و الثانى/ ديسمبر و يناير الفترة الأكثر ملاءمة لشرائه. ينقل القطن الذى لا يستهلك فى مصر إلى مرسيليا و ليفورن. أما حصاد الأرز فيكون فى شهر تشرين الأول/ أكتوبر لكن الأرز الجديد لا يباع إلا فى شهر كانون الأول/ ديسمبر. و لا يسمح للأوروبيين اليوم بتحميل الأرز إلّا إلى دمياط و لقد توطدت تجارته منذ بضع سنوات. تختص مصر العليا بزراعة قصب السكر الذى يحصد فى شهر حزيران/ يونيو لكن سعر السكر لا ينخفض إلا فى شهرى تشرين الثانى/ نوفمبر و كانون الأول/ ديسمبر أى فى الوقت الذى ينقل فيه من الصعيد إلى القاهرة. و من غير المتفق عليه فى مصر كيفية تحضير السكر من القصب، و على كل حال يمكن للأوروبيين الحصول عليه بالسعر نفسه من أميركا. و يمكن شراء الملح بسعر أدنى من رشيد، خاصة فى فصل الشتاء. و يحمل ثلثا الملح إلى مرسيليا و ليفورن بينما يوزع الباقى على الولايات التركية. و لقد ارتفع سعر الملح كثيرا فى الآونة الأخيرة لأن تركيا طلبت كمية منه تفوق المعتاد.

يشكل الصمغ العربى إحدى البضائع التى تمر بمصر و التى يشترى منها الأوروبيون. و فى شهر تشرين الأول/ أكتوبر من كل سنة، تحمل قافلتان أو ثلاث قوافل مؤلفة من العرب القادمين من طور سيناء من ستمئة إلى سبعمئة قنطار من الصمغ إلى القاهرة. تنحصر هذه التجارة بالتجارة المسلمين و لا يدخل هؤلاء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۴

بضاعتهم إلى المدينة بل يقفون على بعد ربع ميل من القاهرة مما يضطر المصريين إلى الخروج لملاقاتهم. و لا يبيع هؤلاء التجار بضائعهم وفقا لوزن معين بل فى جلود صغيرة غير مخاطة. و قلما يسمحون للمشترى أن يفتح قطعة الجلد قبل إنهاء الصفقة و فى حال لم تعجبه البضاعة لا يقبلون أن يردّها إليهم. و بعض هؤلاء العرب يخلطون الصمغ بأحجار صغيرة أو بالرمل و الخشب. و هم عادة لا يقبلون بيع أحد بالدين بل يقايضون بضائعهم لقاء ثياب و أسلحة و أشياء أخرى يحتاجون إليها و يحملونها معهم إلى الصحراء.

و لست أدرى ما إذا كان كل ذلك يدل على أن العرب نصابون أم تجار تنقصهم الخبرة. و هم يحبون الحرية و يكرهون الخطابات

الطويلة. و الجدير بالذكر أنه يمكن تكرير صمغهم ثم بيعه بأسعار تفوق أسعار الشراء بكثير. يحمّل القسم الأكبر من هذه البضاعة إلى مرسيليا و ليفورن. فى أشهر نسيان/ أبريل و أيار/ مايو و حزيران/ يونيو من كل سنة، يصل عدد أكبر من القوافل الإفريقية التى تحمل معها أصنافا ثلاثة مختلفة من الصمغ بالإضافة إلى العاج و التمر الهندى و العبيد المخصيين و غير المخصيين، و طيور الببغاء و قراصنة الذهب و فى المقابل تحمل معها فى طريق العودة نسيج الكتان و اللآلىء المزيفة و أحجار المرجان و العنبر الأصفر و الخناجر و كافة أشكال الملابس التى يعدها المصريون خصيصا لتنال إعجاب الإفريقيين.

و لقد انخفض قبل بضع سنوات سعر الصمغ العربى أو قلّ الإفريقى كثيرا فلم تحمل القوافل معها منه إلا كميات قليلة. لكنه عاد و ارتفع فصارت تصل منه كميات تتراوح ما بين ۴ إلى ۵ آلاف قنطار. و حتى الآن تصل كميات الصمغ من الحبشة إلى جدة و منها عبر السويس إلى القاهرة إلا أنها ليست جيدة النوعية مثل التى تحضرها القوافل. كما و ينقل قسم منها إلى أوروبا.

أما السفن التى تبحر من جدة إلى السويس فهى تحمل معها سنويا بين ۲۲ و ۲۵ ألف طرد من البن اليمنى. و لأن القهوة هى الشراب المفضل عند الأتراك، يمنع استيراد البن من أميركا أو من أوروبا كما يقال فى الشرق كما و يمنع تصدير البن العربى إلى أوروبا. إلا أن هاتين التجارتين تمارسان و يكفى لتحقيق ذلك إرسال الهدايا إلى الحكومة و إلى مسؤولى الجمارك. و هكذا، تمرر ما بين ۴ إلى ۵ آلاف طرد من البن العربى سنويا من مصر إلى البندقية و ليفورن و مارسيليا. أما السفن القادمة من جدة و القوافل الآتية من مكة فتحمل معها كافة أنواع البهارات من الهند، و أوراق السنف من اليمن و الحبشة، و المرا ممكاوى، و ما يتراوح بين ألفى و ثلاثة آلاف فرد من البخور اليمنى و العربى. و فى هذه الأيام، انخفضت كمية البخور التى ترسل إلى مرسيليا و أصبحت من النوعية الأكثر تدنيا. و تأتى كميات أخرى إلى البندقية و ليفورن أما الباقى فيرسل إلى تركيا. و تأتى كميات كبيرة من السفى من مصر العليا و يرسل القسم الأكبر منها إلى أوروبا. إن هذه التجارة تعود على الحكومة سنويا بما يعادل ۶۰ بورصة علما أن كل بورصة تساوى ۵۰۰ قرش.

فى أيامنا هذه، يركز الفرنسيون تجارتهم فى المشرق على نسيج لانغدوك(Languedoc) الذى تحتاج

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۵

منه مصر كل سنة ما بين سبعمئة و ثمانمئة طرد. يشتد الطلب على هذا القماش فى شهر رمضان خاصة لأن الأغنياء و الفقراء فى هذه الفترة يرتدون ثيابا جديدة بمناسبة عيد الفطر. و القافلة التى تنطلق من القاهرة إلى مكة فى السابع و العشرين من شهر شوال من كل سنة تحتاج وحدها من ۶۰ إلى ۸۰ طردا من هذا القماش حيث يستخدم أمير الحج أو قائد العربة معظمه فى خياطة الثياب التى ينبغى إعطاؤها للعرب الذين يمرّون فى أراضيهم و لسكان مكة. و إن تجارة هذا القماش تدر أموالا طائلة على التجار الفرنسيين فى القاهرة الذين باتوا يمسكون بها. إلا أن هذه التجارة كانت حرة فى فرنسا أثناء الحرب الأخيرة مع الإنكليز و قد قام المسيحيون الشرقيون بشحن كمية كبيرة من أقمشة مرسيليا إلى ليفورن و منها إلى مصر. و لقد ساهم انقطاع تجارة الفرنسيين مع الهند الشرقية أثناء هذه الحرب بالتأثير على تجارتهم مع المصريين، ففى نهاية الحرب كانت تمرّ بجدّة من مئتى إلى ثلاثمئة طرد من القماش و كان أغلبها يصل إلى بلاد الهند. يستخدم أهل القاهرة كثيرا أقمشة الحرير المصنّعة فى أوروبا و خاصة منذ بدأت جزيرة سيوه(Sio) بصناعة أقمشة فاخرة من الذهب و الفضة. و من الملاحظ أن هذه الملابس تروق لأهل الشرق أكثر بكثير مما تروق للفرنسيين و الإيطاليين. لذا تحتاج مصر فى كل عام من ۶۰ إلى ۸۰ بر أميال من الشرانق، و أثناء الحرب الأخيرة كانت تصل إلى الهند حمولة ۲۰۰ بر ميل عبر مصر. و تحضر مصر من فرنسا كل سنة ۴۰۰ طرد من البهار يتألف الواحد من ۳۰۰ رطل. و منذ وقت غير بعيد، بات جزء من هذه البضائع يصل عن طريق جدة. و تصل إلى القاهرة من أوروبا كميات من كبش القرنفل و التوابل. و تستلم القاهرة كل عام من ۵۰ إلى ۶۰ بر أميال من القصدير، و كميات مماثلة من المطيلة و خيوط الحديد و الزنجفر و الزنجبيل و الإبر و اللآلىء الملونة و الخواتم الزجاجية و الزئبق و الرصاص بالإضافة إلى السكاكين. و من البندقية و مرسيليا يصل ما يقارب ۱۰۰ طرد من الورق يستهلك قسم منها فى القاهرة و القسم الآخر يرسل إلى جدة. و قبل استخدام الورق للكتابة، يجب صقله لأن أهل الشرق يستعملون ريشا من القصب مع

حبر شديد الكثافة. و تستخدم كميات هائلة من الورق فى مصانع السكر و المتاجر.

و يعلق الحرفيون الورق على النوافذ المشبكة بالخشب أو الحديد إذ قلّما نجد زجاجا على النوافذ فى هذه البلدان الحارة.

لقد زالت تجارة البن الأمير كى بين فرنسا و مصر أثناء الحرب الأخيرة. و بات المصريون يشترونه ليغشوا به البن العربى، لكن سعره فى السنوات الأخيرة ارتفع كثيرا حتى صار أغلى ثمنا من البن العربى. فى الماضى، كان بن المارتينيك(Martinique) وحده يستعمل فى مصر العليا: إلاـ أنه أصبح غاليا ثم فرض إبراهيم كخيا ضريبة كبيرة على البن القادم من شبه جزيرة العرب عبر السويس فبحث سكان مصر العليا عن سبيل أقصر للحصول على البن، و أصبحوا يحضرونه من قصير(Kossir) . و حاليا لديهم البن اليمنى و سعره قريب من سعر بن المارتينيك الفرنسى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۶

لست أعرف الكثير عن الكيل و الأوزان المستعملة فى مصر لكننى سأفيدكم بالقليل الذى أعرفه.

تتراوح الأوزان فى القاهرة بين الرطل و الأوقية و المثقال و الدرهم و القيراط. تعادل كل ۱۶ قيراطا درهما واحدا، و الدرهم و نصفه يساويان مثقالا واحدا، و كل ۱۲ درهما تساوى أوقية واحدة، و الاثنتا عشرة أوقية تساوى رطلا. ثم إن الأوزان الثقيلة تقاس بالقنطار لكن القنطار فى مصر يختلف باختلاف البضاعة فيرى بعض التجار أنه يساوى مئة رطل أما بالنسبة لغيرهم فهو يساوى ۱۰۲ أو ۱۰۵ أو ۱۱۰ و حتى ۱۵۰ رطلا. و من غير المجدى فى هذا الإطار ذكر البضائع التى تحول من القنطار إلى أرطال. إن هذا التحويل لا يهم إلا بعض التجار الذين يتاجرون فى مصر و يمكن أن يجدوه فى لائحة الأسعار للجوء إليه فى تجارتهم من مصر إلى البلدان الأخرى. و أنا لن أقدم لكم أسعار البضائع المستوردة و المصدرة لأنها كثيرة التقلب، فالتجار الشرقيون شأنهم شأن غيرهم يبحثون دائما عن مرسلين جدد للحصول على البضائع بأسعار رخيصة أو لإرسالها إلى بلاد أخرى بأسعار مربحة.

يسمى أكبر مقياس للحبوب رأيته عند تجار القمح فى بولاق «بالوهبة»(We ?hbeh) . و تساوى الوهبة الواحدة أربعة أرباع؛ و الربع يساوى أربعة أقداس(Kuddes) . و يبلغ القطر الواحد لكل وهبة ۱۸ بوصة دانماركية أما كثافة الخشب فتعادل ۷/ ۸ البوصة. و هكذا فإن قطر القياس يبلغ من الداخل ۱۷ بوصة و نصف. يبلغ قطر المقياس من الأعلى ۱۲ بوصة و من دون سماكة الخشب يبلغ ۱۱ بوصة و نصف. أما الارتفاع العمودى من الحافة العليا و حتى العمق فيبلغ ۸ بوصات. و عند القياس، تترك الحبوب التى تجاوزت حافة المقياس و تجمع حتى تؤلف مخروطا. يبلغ سعر ربع واحد من الحنطة فى القاهرة من ۵ إلى ۵، ۶ بريزة. و هكذا فإن الوهبة الواحدة تكلف من ۲۰ إلى ۲۶ بريزة، أو من ليرتين إلى ليرتين و ثمانية قروش بالعملة الدانماركية. إن ارتفاع الربع الذى قسته فى القاهرة يبلغ ۶/ ۸ ۶ بوصات.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۷

الآلات التى تعمل على الماء، الطواحين، معاصر الزيت، أدوات الفلاحة، فرن النشادر و آلات تفقيس البيض فى مصر

يجب أن نولى أهمية خاصة لآلة السقاية المستخدمة فى مصر بعد عودة النيل إلى حدوده. و يمكن سقاية الحقول بعدة طرق. و الآلة الأكثر استعمالا فى مصر هى الموجودة فى الصورةI من اللوحة(XV) الخامسة عشرة و تسمى ساقية الثور لأنها تحرّك بواسطة الثيران. تتألف العجلة الكبيرة (أ) من هذه الآلة من دائرتين (د، ه). الدائرة (ه) هى الأكثر متانة و تتصل بالمحور بواسطة عدد من الشعاعات. أما الدائرة الأولى (د) الموصولة إلى الدائرة الأولى بواسطة قضبان أفقية فدورها الإمساك بالجرار و حسب. فى الأسفل، داخل العجلة التى تعمل على الماء، يوضع الحوض (ز) الذى يستقبل الماء. يختلف عدد الجرار المربوطة إلى حبال من القش أو النخيل و المعلقة حول العجلات وفقا لعمق الماء و لقوة العجلة و الثور. و لقد لاحظت وجود ۲۲ جرة حول الآلة التى اتخذتها مرجعا لأقوم بهذا الرسم. الجزء (أ) هو عريش متحرك بالقرب من (ج) يعلق على رقبة الثور. من العريش (أ) تخرج حبال تعلّق بالعريش (ب) و هو أضخم من الأول و

يقال له العريش الأساسى لأنه يحرك العجلات (ج، ب، أ) و بالتالى. لجرّ الماء إلى الجزء المرتفع من البستان حيث تقع الآلة، نلجأ إلى رفع العجلات إلى أقصى الحدود حتى يكاد الثور يمر من تحتها، كما يظهر فى خريطة مصر السفلى فى كتاب الأسفار لشو(Shaw) . نجد فى البساتين المصرية عددا كبيرا من القنوات الصغيرة التى تساعد على رى أجزاء البساتين جزءا بعد آخر. و تتميز هذه القنوات بدقة صناعتها خاصة تلك التى تستخدم فى جرّ الماء إلى جذور النبات و حسب.

إليكم وصفا لآلة أخرى يستخدمها المصريون لسقاية الأرض و لعلها هى نفسها التى يتكلم عنها موسى فى الكتاب المقدس ۱۱- ۱۰، تدعى هذه الآلة «ساقية تدار بالرجل» أو آلة تعمل على الماء و يمكن تحريكها بواسطة الرجل. هذه الآلة أصغر حجما من السابقة لكنها تشبهها إلى حد بعيد. وجدت واحدة منها فقط فى مصر و بالتحديد فى بركة اليوزبكير فى القاهرة لكنى وجدت مثلها فى الهند. رأيت الأولى فى القاهرة و كانت تستعمل فى بستان صغير. تتألف هذه الآلة من عجلة واحدة فيها ثمانية شعاعات معلّقة بالمحور و أربعة آخرين أصغر حجما وضع كل اثنين منهما بجانب من جانبى العجلة. لاستعمال هذه الآلة نحفر بئرا نضع عليه رافدتين و يجلس عليها العامل. لا يحتاج العامل إلى مسند آخر لكنه يعمل بيديه و رجليه كما يظهر فى الصورة. و يكون الحوض محكم التثبيت تحت الجرار من داخل العجلة فتمنعها من التحرك.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۱۹

تستعمل الآلة(III) فى محيط دمياط لأن ارتفاع النيل لا يتغير كثيرا هناك و لأن العجلات التى يبلغ قطرها من ۱۰ إلى ۱۳ قدما يمكن أن تلمس الماء. تعتبر هذه الآلة الأغلى ثمنا لكنها قادرة على نقل كميات أكبر من الماء. تقسم حافة العجلة (د) إلى عدة أقسام فيها فتحات من جهة المحيط بالقرب منه، و هى محكمة الصناعة من الداخل، فبعد دخول الماء من الأسفل داخل المحيط و ارتفاعها إلى فوق، يمكن أن تسيل من إحدى الجهات لتصب فى حوض قريب من العجلة. و لخفض كمية المياه المهدورة، لا تكون هذه العجلة مسطحة بل مائلة قليلا إلى خارج إطارها. و لتحريك بعض الآلات، يدور الثور حول العجلة الكبيرة و لتحريك الآلات الأخرى ليمر بين العجلة الكبيرة و بين العجلة ذات الأسنان. فى الحالة الأخيرة، يمدّد العريش على العجلة الأفقية كما يبدو فى الآلة (ط) و أحيانا تربط ثلاثة ثيران على عدة عرائش لجرّ هذه الآلة.

أما السكان الذين يعيشون فى أطراف النيل و الذين لا يسقون إلا جزءا صغيرا من الأرض فيستعملون الآلة الرابعة. و لأن الخشب و الحجارة باهظا الثمن فى مصر، يستعمل الفلاحون أوتادا و ثقالة من الفخار.

عند ما ينخفض مستوى الماء فى النيل نرى أحيانا فى القاهرة أربع آلات تعمل معا مما يدل على أن سقاية الحقول بهذه الطريقة مزعجة و صعبة عند ما تقتصر مهمة المصريين على حمل المياه إلى ارتفاع بسيط، أو على تجفيف خندق، يستعمل هؤلاء سلة بأربعة حبال يقودها شخصان و ذلك بدلا من الرفش. تسمّى هذه السلة قفة و يمكن رؤيتها فى الصورة الخامسةV .

لم أر قط فى مصر طواحين تدور على الماء أو الهواء. أما طاحون القاهرة العام الذى يستعمل فى طحن القمح فموجود فى اللوحة السادسة عشرة(XVI) . تشير الصورة (أ) إلى الرسم البيانى و الصورة (ب) إلى ارتفاع هذه الآلة. أما الحرف (ج) فيشير إلى العريش الذى يربط إليه الحصان و حرف (د) يشير إلى عين الطاحون حيث يوضع القمح. و يستخدم هذا الطاحون أيضا فى طحن الحبوب التى يستخرج منها الزيت.

أما المصريون فيستعملون المطاحن اليدوية لطحن القمح و هى مصورة فى اللوحة السابعة عشرة(XVII) .

و يستعملونها أيضا فى جرش حبوت الفول التى تشكل طعام الحمير. تتألف الآلة (ب) من حجرة ممددة أفقيا و من مسنّ عمودى يديره الثور. و هى لا تستعمل فى طحن القمح بل فى عصر الزعفران. بعد ذلك تستخلص العصارة باليد. إن شعبية هذه الزهرة فى القاهرة قد تعود إلى طريقة تحضيرها إذ يكتفى سكان مصر العليا بتجفيفها بعد تقطيعها. و يختلف الطاحون (ج) عن الطاحون (ب) بمسنّه المنحنى قليلا و يستعمل فى طحن الجبس و كربونات الكلسيوم.

تحيط بالآلة حافة صغيرة لمنع الثور الذى يديرها من سحق الجبس الذى يتساقط منها. و تظهر فى الصورة (د) عصارة الزيت التى تستعمل فى مصر. يشير الرقم (۱) إلى صندوق كبير ملىء بالحجارة و الخشب. أما الرقم (۲) فيشير إلى إحدى نقاط ارتكاز الصندوق على الحافة و الرقم (۳) إلى حجر كبير يدور فيه اللولب الذى يرتكز عليه الطرف الآخر من الصندوق. يظهر فى الرقم (۴) أسطوانة من الحبوب المطحونة بواسطة الطاحون المصوّر فى اللوحة(XVII) ، و قد جمع على حجر على حصيرة مدورة مصنوعة من القش، و فى الرقم (۵)

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۰

نرى قدرا معدنية يجمع فيها الزيت المعصور. إذا أردنا أن نضع شيئا تحت هذه الآلة، يدير الثور المربوط إلى العريش رقم (۶) اللولب إلى أن يقوم الحبل الموصول بالصندوق بإيقاف الآلة فتصبح الأسطوانة (۴) فى الأسفل و يدار اللولب بالاتجاه المعاكس إلى أن يرتكز الصندوق على الأسطوانة و يرتفع الحجر (۳) عن الأرض فيساهم بذلك فى زيادة الضغط على الحبوب. بعد ذلك، تصبح نقطة ارتكاز الصندوق على الحافة (۲) أعلى من الأسطوانة (۴) فيوضع الخشب فوقها كما يظهر فى الصورة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۱

إن أدوات الفلاحة التى يستعملها المصريون سيئة جدا، و المحراث فيها ليس أفضل من تلك التى يستعملها العرب و التى ذكرتها فى وصفى لشبه الجزيرة العربية، بدلا من استعمال الأمشاط لتمهيد الأرض، يلجأ المصريون إلى شجرة أو خشبة سميكة يربطون على طرفيها حبلا- و يعلقونها بالثيران. يوضع النعّاف عادة على الشجرة أو الخشبة لأن فلاحى مصر لا يحبون السير خاصة عند ما تسنح الفرصة لجرّهم. و لا يزال المصريون حتى اليوم يستعملون الثيران لطحن القمح كما كان يفعل الإسرائيليون فى أيام موسى (الكتاب المقدس، الفصل ۲۴، ۴) إلا أن الآلة التى يستخدمونها ليست حجرا كالذى يستعمله العرب، كما و أنه ليس مصنوعا من الأخشاب المزودة من الأسفل بأحجار محدّدة كالذى يستعمله السوريون، و كما ذكرت فى وصف شبه جزيرة العرب، بل هو زلاجة تظهر فى اللوحة السابعة عشرة جانبا و من فوق؛ و يشار إليها بحرف (ه). تسمى هذه الآلة نورج و هى مزودة بثلاث لفيفات تدور حول محاورها و قد زوّدت كل واحدة بقطع حديد مستديرة و ملساء. و فى بداية شهر حزيران/ يونيو، شاهدت أنا و السيد فورسكال كيفية طحن القمح فى جوار الجيزة. كان كل فلاح يختار بقعة أرض موحدة يبلغ محيطها من ۸۰ إلى ۱۰۰ قدم. و كانوا يحضرون رزما من القمح يحملونها على ظهر الحمير و الجمال و يجمعونها على شكل دائرة يتراوح عرضها بين ستة و ثمانية أقدام و يبلغ ارتفاعها قدمين. و كان يجر المزلاج السابق ثوران. و المراقب يجلس على الكرسى الذى نراه على المزلاج و كان يسمح للثيران بالتبوّل على القش و الحنطة لكنه يسارع فى النزول من كرسيّه إذا أرادت أن تفعل شيئا آخر فيضع يديه على مؤخرتها و يتلقى ما يخرج منها ثم يستعملها لإيقاد النار بعد خلطها بالقش. تطحن كميتان مماثلتان من القمح كل يوم و تقلب كل واحدة ثمانى مرات إلى خمس بواسطة مذراة واحدة مصنوعة من الخشب.

ثم يرمى القش فى وسط الدائرة و يكدّس ثم يقلّب. و كلما أضفنا المزيد من القش فى وسط الدائرة قلّبناه من جديد حتى يصبح مفروما. ثم يلقى الكل بواسطة المذراة بالاتجاه المعاكس للهواء فيطير القش و يبقى القمح غير المطحون. ثم يأتى رجل و يجمع كتل الرمل التى علق بها القمح و يرميها داخل الغربال. ثم توزع الأكوام بشكل مستدير و تكون لا تزال تحتوى على عدد كبير من السنابل فيجىء الفلاحون بما يعادل عشرة ثيران و يمررونها عليها لمدة ۴ أو ۵ ساعات رابطين كل ثورين ببعضهما إلى أن تفصل حبوب القمح عن سنابلها فترمى فى الهواء بواسطة الرفش بغية فصلها عن الأقذار. أما إعداد الشعير فلا يتطلب الكثير من الوقت.

و إنى لم أر فى مصر أو فى شبه جزيرة العرب أية عربة أو طنبر. و عند ما جرت القناة إلى خارج القاهرة، ربط الفلاح ثورين بالآلة (و) المصورة فى اللوحة السابعة عشرة و جلس عليها فأخذ يمرّ بين الأراضى الجافة إلى أن ملأها ماء. و فى المدينة حيث لم تكن القناة قد جفّت بعد، نثر الغبار داخل الوحل ثم سكب فى السلال و نقل خارج المدينة على ظهر الحمير. و لا شك أن الأوروبيين سينفذون هذه

المهمة بكثير من الصعوبة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۳

يحصل المصريون على كميات كبيرة من الأمونياك من السخام المحروق. ذهبنا أنا و السيد فورسكال لزيارة معمل مماثل فى الجيزة و سألنا رئيسه عن كيفية استخلاص هذا الغاز ثم رسمت الفرن الذى يستعملونه فى اللوحة السابعة عشرة تحت الحرف (ز). يشير الرقم (۱) إلى فوهة الفرن. أما الحافة (۲) فقد بنيت بشكل قوس كما يظهر من خلال الارتفاع. يظهر الرقم (۳) حوجلات مصنوعة من الزجاج السميك الغامق اللون عنقها واسع و قصير. و كان لصاحب المعمل فرن خاص به لصناعة هذه الحوجلات.

و قبل استعمالها، تدهن من الخارج بالصلصال أو بوحل النيل الممزوج بالكتان و ذلك أربع مرات. و بعد كل مرة، تترك فى الهواء الطلق لتجفّ. و الجدير بالذكر أن هذا الدهان ضرورى جدا إذ بدونه لا يمكن للزجاج أن يقاوم الحرارة. بعد ذلك، تملأ الحوجلات بسخام الزبل المحروق. و بعد ملء الفرن بالزبل الجاف، توضع الحوجلات بالقرب منه على الفتحات الموجودة بين الأقواس من دون إقفالها. ثم توزع قطع من القرميد حولها و تملأ الفراغات بالتراب إلى أن يغطى ثلثى ارتفاع الحوجلات. بعدئذ، نشعل الزبل داخل الفرن و كلما أكلته النار أضفنا المزيد منه لمدة ثلاثة أيام و ثلاث ليال متتالية. و يجب أن تبقى درجة الحرارة هى هى خلال هذه الفترة أو أن تكون فى البداية أقوى مما هى فى النهاية. إن هذه العملية شديدة الدقة فإذا أهملنا النار لبضع ساعات أو نسينا سدّ الثغرات فى التراب حول الحوجلات يؤثر ذلك سلبا على الأمونياك، فيلاحظ صاحب المعمل ذلك عند ما يستخلص الملح من الحوجلات و يعاقب العمال على إهمالهم. بعد مضى ۱۸ ساعة، نجد أن الأمونياك الناتج عن السخام قد سدّ عنق الحوجلات. و بعد ثلاثة أيام تكسر الحوجلات فى مكانها من الفرن و يسحب منها الملح الذى يكون فى الأعلى. أما باقى محتوى الحوجلات فهو رماد أخضر لا ينفع لشىء. نسحب من كل حوجلة كمية تتراوح بين سبعة و اثنى عشر رطلا من الأمونياك. يباع القنطار الواحد المؤلف من ۱۰۰ رطل بستمئة بريزة. و الجدير بالذكر أن الحرارة المرتفعة تجعل الفخار حول الحوجلات أكثر صلابة من القرميد.

أما الزبل، مصدر الأمونياك، فقلما يهم إذا كان زبل جمال أو خيل أو ثيران أو خرفان أو أى حيوان آخر. و فى هذا البلد، غالبا ما يسافر الناس على ظهر الجمال و الحمير، فتقوم فتيات صغيرات بلملمة الزبل من الطرقات. و تضاف كميات من القش المهشّم إلى الزبل فتخلط به و تصنع لتجففها أشعة الشمس.

تكون سقوف غرف أهل الريف عادة مغطاة بالصلصال الذى لم يصبح بعد قرميدا آجرا. فيستعمل هؤلاء قوالب الزبل الجافة لتدفئة الغرف فى فصل الشتاء من خلال حرقها مع القش أو مع سيقان النباتات و ذلك فى أوان حجرية. إن السخام الذى ينتج عن الدخان يعلق تحت السقوف و يباع بأسعار متدنية لمعامل الأمونياك. كما و يستعمل السخام الناتج عن دخان الزبل فى أفران المعامل الآنفة الذكر. و كان صانعو السخام يتذوقونه لمعرفة كمية الملح فيه. و قيل لنا إن السخام الناتج عن دخان الخشب لا يحتوى على الأملاح و بالتالى لا يمكن أن يستخلص منه الأمونياك. و هناك مناطق فى أوروبا لا يتوافر فيها الخشب فيلجأ سكانها إلى حرق زبل الحيوانات و لربما استطاعوا أن يصنعوا منه الأمونياك لو أنهم يحاولون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۵

و لقد قام مسافرون آخرون بإعطاء معلومات دقيقة عن كيفية تفقيس البيض فى الأفران. إلا أن رسومهم تختلف قليلا عن الفرن الذى رأيته فى القاهرة بالقرب من باب الشريعة(B b es Scharie) و بركة الرطلى(Birket er Roteli) الذى بينته فى اللوحة الثامنة عشرة(XVIII) . و لقد كان هذا الفرن مبنيا بكامله داخل تلة. تشير المساحة (أ ب) إلى خريطة الأفران الداخلية و (ج د) إلى خريطة الأفران الخارجية و (ه و) إلى قطر المبنى من حيث الطول و (ز ح) إلى قطره جانبيا. تشير (أ) إلى المكان الذى يجلس فيه المسؤول عن تفقيس البيض و (ب) إلى الغرفة التى يحفظ فيها الرماد و النار و (ج) إلى غرفة البيض و (د) إلى مدخل الأفران: يقع الباب فوق الطابق الأرضى و هو باب صغير الحجم يغلق جيدا بعد إشعال النار. تشير الصورة (ه) إلى أفران الطابق السفلى و (و) إلى أفران الطابق العلوى.

فى هذين الطابقين يوجد ما يشبه القنوات الصغيرة من الأمام و من الخلف يشعل الزبل الجاف فيها. أما (ز) فتبين الفراغات الموجودة فى الحائط التى تخصص للإنارة. و كما يظهر فى الرسم، هناك ۱۲ فرنا فى كل طابق من المبنى و الكل موجود داخل التلة حتى أن المنافذ الأكثر علوا فوق الرواق (ح) و فوق الفرن (ط) تقع فى الأرض. و قد قيل لنا إن ذلك ضرورى للحفاظ على درجة الحرارة نفسها فى كافة الأرجاء. على سبيل الاستعداد لتفقيس البيض، تمدّد حصيرة على أرض الفرن و يفرش القشّ عليها.

توضع طبقة من البيض على القش ثم طبقة أخرى عليها بغية حشرها. لا تضرم النار إلا فى القنوات الواقعة أمام أفران الطابق العلوى و خلفها. فى المسافة الفاصلة بين الفرن الأعلى و الفرن الأسفل، و هناك فتحة مستديرة تخرج منها الحرارة اللازمة لتبلغ الطابق السفلى. لدى إضرام النار، تقفل الفتحات الخارجية كلها بواسطة الزبل أو الفخار أو الكتان لتسريع عملية تسخين الفرن، و إن القاعدة الوحيدة المتبعة لتحديد درجة الحرارة هى معادلتها مع حرارة الحمامات. و لا يهم أن تكون الحرارة مرتفعة جدا فى البداية، المهم تخفيضها تدريجيا عند ما يشرف البيض على التفقيس. و يحرّك البيض مرتين خلال النهار و أربع مرات خلال الليل لكن بخفة حتى أن عملية التحريك تقتصر على تمرير اليد على البيض.

و بعد مضى ثمانية أيام، تفحص كل بيضة على الضوء لمعرفة التى سيخرج منها صوص، ثم يرمى البيض المتبقى. فى اليوم الواحد و العشرين أو الثانى و العشرين، تخرج الصيصان وحدها فتخفض الحرارة و إلّا تموت. و على أرض الممر بين الأفران، هناك فواصل مرتفعة على شكل مربعات، تحشر فيها الصيصان جيدا حتى لا يبقى فيها أى مكان شاغر. حيث تشكل هذه المربعات الأماكن الأفضل لتربية الصيصان فتجد فيها هذه الأخيرة حرارة الأم.

ذهبت لرؤية هذا الفرن مع السيد فورسكال فى منتصف شهر حزيران/ يونيو. و كان العمل فيه متوقفا لأن تفقيس البيض لا يتم إلا فى الأشهر الستة الأكثر بردا لأن تفقيس البيض يمكن أن يفسد فى الأشهر الحارة. و مع أن النيران لم تكن مشتعلة فى الفرن إلا أن أشعة الشمس القوية التى كانت تصل إليه جعلتنا نتصبب عرقا. و قد علمنا أن مثل هذه الأفران لا توجد إلا فى القاهرة و أنها ملك للباشا. و عند ما يحضر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۶

الأجانب بيضهم لتفقيسه فى الفرن، يتفقون مع رئيسه على كمية المواد اللازمة للتفقيس. و يضع صاحب البيض اسمه على كل بيضة مما يجبر مسؤول التفقيس على الاحتفاظ بالبيض الذى لم ينجح. تباع الصيصان و هى صغيرة بثمن ۲۰ بريزة عن كل ۳۰ صوصا. يؤلف كل ثلاثين صوصا ما يسمى بالربع و هى التسمية التى تستعمل فى قياس الحبوب فى القاهرة. لذلك، كان الأمر يختلط على بعض الأجانب الذين قالوا إن الصيصان تباع بالمكيال فى مصر و هذا ما رواه لنا أصحاب الفرن.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۷

لباس أهل الشرق

يرتدى الأتراك و العرب و كل المسلمين ثيابا طويلة و فضفاضة: إلا أن كل أمّة تتميز منذ النظرة الأولى بنمط خاص فى الملبس. و يغير أهل الشرق الذين يقيمون فى المدن طريقة لبسهم تماما كالأوروبيين. فى عامى ۱۷۰۷ و ۱۷۰۸، أحضر السيد دو فاريول(De Ferriol) رسما للباس الشرقيين فنشر فى نورمبورغ(Nuremberg) تحت عنوان تصوير البلاط العثمانى. لعل هذه الصور قد نقلت بأمانة زى الشرقيين فى ذلك الوقت لكننا إذا ما قارناها مع اللوحتين ۱۴ و ۱۵ من كتاب روسال(Russel) و عنوانه وصف حلب، نجد أن طريقة الملبس قد تغيّرت كليا بغالبيتها. إن ثياب الشتاء الشائعة حاليا بين الباشاوات و آغاوات الانكشاريين و القضاة و الخدم الأتراك لم تتغير عن الصورة التى قدّمها الكتاب الآنف الذكر و كذلك بالنسبة إلى لباس عامة الشعب الأتراك و الدراويش و المسيحيين. إن لباس المديرين من أهل القاهرة يشبه لباس الأتراك إلى حد بعيد لأن الموضة فى البلاد الشرقية تخضع لذوق أسياد

عاصمة الأمبراطورية.

و لأننا نحن أيضا كنا نرتدى ثيابنا على الطريقة التركية، سوف أقوم بوصف لثيابى الشخصية.

إن القميص الذى يرتديه الأتراك يشبه قمصان النساء الأوروبيات إلا أن الأكمام تكون أكثر اتساعا و يرتدى أهل الشرق تحت القميص، لا فوقه، سراويل واسعة من نسيج الكتان الأبيض. و يغطون أرجلهم بواسطة خفيّن من نسيج الكتان و ينتعلون من فوقه بابوجا من جلد ناعم يسمى ترليق(Terliks) و من فوقه خف من الجلد يسمى مست(Mests) قد خيّط إلى سروال أحمر شديد الوسع يسمى شقشير(Schokschir) . أما نعال الترليق و المست فهى مصنوعة من جلد ناعم جدا و لأنها لا تستعمل إلا للمشى على السجاد و الحصر و على كل ما هو نظيف و حيث يمكن للمرء أن يجلس. أما لما تبقى، فينتعل الناس أحذية شبيهة بأحذيتنا فوق الترليق و المست، إلا أنها من دون كعب. و من فوق القميص و الشرشير، يرتدى الشرقيون ما يسمى أنطارى(Entari) ، و هو مبطن بنسيج الكتان و يتدلى كمه إلى تحت الركب.

و فوق الأنطارى يرتدى الناس القفطان الذى يجب أن يتدلى إلى ما فوق القدمين. يلفون فوقه حزاما على خصرهم يساعدهم على تثبيت القفطان و على المشى بحرية و يمكن أن يظهر من تحته كل من الأنطارى و الشقشير. إن ارتداء هذا القدر من الملابس يذكّر بالخادم الذى صوّره روسال فى اللوحة الخامسة عشرة من كتابه. حيث يحمل الأتراك فى حزامهم خنجرا يكون أحيانا مرصعا بالذهب و الفضة و بالأحجار الكريمة. من فوق القفطان، يرتدون عباءة محشوة فى الشتاء و غير محشوة فى الصيف. و يكون كماها قصيرين يصلان إلى الكوع. من فوق العباءة، يرتدون فروة تصل إلى الأرض. يمكن رؤية الفروة فى اللوحة ۱۵ من كتاب وصف حلب لروسال و البنيش(Benisch) الذى يمكن ارتداؤه بدلا منها فى اللوحة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۲۸

۱۶ من كتابى وصف شبه جزيرة العرب. إن أكمام الأنطارى و القفطان و البنيش ليست شديدة الوسع لكنها طويلة جدا تخرج عن حدود اليد، لذا، يلجأ الناس إلى لفها على ذراعيهم و أحيانا يربطون الأنطارى فوق يديهم فى أيام البرد. و لأن هذا القدر من الثياب مكلف بالنسبة للفقراء، يكتفى بعض الناس بارتداء السروال المصنوع من نسيج الكتان مع قميص و الأنطارى و البنيش، و تكتفى عامة الشعب بالسروال و القميص. لكن لا أحد يتجاهل الحزام. و لا يرتدى الأتراك الشقشير فى أسفارهم بل يفضلون عليه السروال و يكون لونه أزرق. و يغلف المسافرون الشرقيون أرجلهم بشرشف كبير من الصوف و ينتعلون فوقه جزمة كبيرة مما يزعجهم فى السير، إلا أن هذا الشرشف يحمى الأرجل من البرد أكثر من الجوارب العادية. و غالبا ما يرتدى الناس أثناء السفر ثيابهم الخارجية من تحت السروال و حينئذ يشبهون الفارس التركى المصوّر فى اللوحة الرابعة و الثلاثين من كتاب «مجموعة الرسوم المائة» أو من كتاب «وصف البلاط العثمانى». و غالبا ما يرتدى الانكشاريون الأنطارى و القفطان تحت السروال مع معطف من دون أكمام مع خفين أحمرين. و لا يسمح للمسيحيين و لا لليهود بارتداء الألوان الزاهية و يجبرون على ارتداء لون غامق عند ما يريدون تلويث منازلهم. و يمكن للمصريين أن يختاروا بحرية ألوان ثيابهم باستثناء اللون الأخضر، لأن المسلمين الخاضعين للنظام التركى يحتفظون بحق ارتدائه حصريا. و لا أظن أن هناك قانونا صريحا فيما يتعلق بهذا الموضوع. و إذا تجرأ أحد و ارتدى اللون الأخضر، فيمكن أن يتعرض للشتم من الشعب لذا فمن المستحسن عدم ارتدائه و يحق للأوروبيين أن ينتعلوا أخفافا صفراء و مست لكن ذلك يمنع على المسيحيين و اليهود الشرقيين باعتبارهم من رعايا السلطان و عليهم أن يكتفوا بالجلود الحمراء و الزرقاء و السوداء.

و لعل القطعة الأكثر تغيرا فى لباس الشرقيين هى التى تغطى رؤوسهم. هناك ثلاث فئات رئيسية تختلف كثيرا فيما بينها. فيعتمر بعضهم قلنسوة عالية مغلفة بغطاء و مبطنة بالقطن و يغطونها بقطعة كبيرة من نسيج الكتان الناعم. تسمى هذه القلنسوة قاووق(Kaouk) و هى تركية الأصل. و يعتمر البعض الآخر قلنسوات صغيرة ملفوفة بقطعة طويلة من نسيج الكتان و تسمّى الشاش(Sasch) أو العمامة و هى بالأحرى عربية الأصل. أما الفئة الثالثة فتتألف من قلنسوة عالية مبطنة بالقطن يغلفها القماش من فوق و من جلد الحمل من أسفل تدعى

قلبق(Kalp k) يرتديها المسيحيون و التتر الشرقيون. بالإضافة إلى ذلك يعتمر أسياد القسطنطينية أنواعا من القلنسوات الخاصة بأعمالهم: فضباط السلطان من جميع الفئات و جنود بعض القطع يعتمرون قلنسوات خاصة: و لو كان لدينا الوقت الكافي و الرغبة في مشاهدة كافة أشكال القلنسوات التي يعتمرها أهل الشرق لألّفنا منها مجلدا كاملا. و لأن هذه القطعة من اللباس تهدف إلى التمييز بين مختلف الشعوب الخاضعة للأتراك و بين الطبقات الاجتماعية و لأنها خاضعة دائما للتغيير، قررت أن أصفها كلها. إلا أن مجموعتي ليست كاملة. كما و لا يمكنني أن أؤكد أن القلنسوات التي رأيتها على رأس أهل طبقة معينة لا يمكن أن يرتديها غيرهم من الناس.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۳۰

يحلق الشرقيون رؤوسهم (ما عدا الدراويش و الأولياء في مصر) و يتركون خصلة صغيرة على قمة رأسهم كما يظهر في الرسوم. و لست أدري ما هي أهمية هذه الخصلة لكني دخلت يوما إلى دكان الحلاق فرأيته يربط خصلة شعر تركي عجوز بخيط بغية إحكام إمساك رأسه فوق المغسلة لغسله خاصة أن الشرقيين يجدون شيئا من اللذة و هم بين يدي الحلاق. و كل الناس يعتمرون مباشرة على رأسهم تحت القاووق أو العمامة أو القلبق قلنسوة حمراء تدعى الطربوش(F s) . في الماضي كان الأوروبيون في مصر يعتمرون عمامة بيضاء لا تختلف عن عمامة المسلمين إلا من الأعلى حيث كان عليها خط أحمر من جانب واحد. و كان التجار يسعدون بهذه العمامة لأنها يمكن أن تضلل شعب القاهرة الذين كانوا يظنون أنهم من المسلمين. أما اليوم فما عادوا يظهرون في الشوارع من دون القلبق الذي يظهر في الصورة الثالثة من اللوحة التاسعة عشرة. تلك هي العلامة الفارقة التي يتميز بها المترجمون الأوروبيون في القسطنطينية و يستعملونها ليحيّوا بها تماما كالقبعة. إن إلقاء التحية بهذه الطريقة هو أمر غريب بالنسبة للشرقيين الذين لا يكشفون عن رأسهم حتى أمام الباشا أو السلطان. يعتمر الأوروبيون في بيوتهم الفاس و يغلفونه بنسيج الكتان أو الشاش أو العمامة. على أن كل إنسان يحضّر عمامته على طريقته. إن بعض الإيطاليين الذين يعيشون منذ زمن بعيد في مصر لا يزالون يحتفظون بالعادة القديمة و يعتمرون في منازلهم و خارجها عمامة على شكل سفينة (الرسم رقم ۱). و لقد رأيت مسلمين يرتدون العمامة نفسها لكنها كانت بيضاء و عمامة الأوروبيين كانت سمراء. تشير الصورتان ۴ و ۵ إلى القاووق الذي كان يعتمره الأسياد الأتراك.

يكون القاووق مزينا بقماش أصفر و مغلفا بنسيج الكتان الناعم الأبيض إذ لم يكن مرتديه من الشرفاء لأن هؤلاء يحيطون القاووق أو العمامة دائما بقماش أخضر. و في الحقيقة قلما نرى أحد الشرفاء في القاهرة لأن غالبية البهوات و الأسياد الكبارهم مسيحيو الأصل و قد أحضروا إلى مصر و هم لا يزالون من العبيد.

تشير الصورة السادسة إلى القاووق الذي يعتمره الأسياد الأتراك الذين يخدمون الباشا، و تشير السابعة إلى قاووق الضباط التابعين للباشاوات و للبهوات المصريين. أما الثامنة فهي صورة القاووق الذي يعتمره كبار الضباط في القاهرة و طرفها مغلف بكتان ناعم. و يظهر في الصورة التاسعة القاووق الخاص بضباط قطعة الانكشاريين.

نجد في الصورة العاشرة عمامة الانكشاريين البسيطين في مصر. و أحيانا يبدلونها بعمامة من الحرير الأسود. أما الصورة ۱۱ فتمثل عمامة الانكشاريين في القسطنطينية. إن القلنسوة رقم ۱۲ هي التي يرتديها هؤلاء أثناء الاحتفالات في القسطنطنية و هم لا يعتمرونها إلا عند ما يذهب السلطان إلى المسجد أو إلى الاحتفالات. و في هذه الحال، يعتمر ضباط هذه القطعة قلنسوات مزينة بالريش مطوية من أمام و من خلف كما يظهر في صورة اللوحة الثلاثين في «وصف البلاط العثماني» بقلم السيد فريول. القلنسوة رقم ۳ هي قلنسوة البستنجي و هي مغطاة بقماش أحمر سميك. و البستنجيون هم حرس السلطان و في الماضي كانوا مسؤولين عن بيوت أسيادهم الريفية و عن العناية بحدائقها و لا شك أن سبب تسميتهم يعود

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۳۲

إلى مهمتهم السابقة. و يقول البعض إن طباخي السلطان كانوا يعتمرون قلنسوات مماثلة إلا أنهم استبدلوا بها لاحقا قلنسوات من اللبد تظهر في الصورة الرابعة عشرة. و يتميز بعض ضباط السلطان و الباشاوات بقلنسواتهم التي هي بمثابة لباس موحد. و تمثل الصورة

الخامسة عشرة القلبق الخاص ببعض ضباط الباشا.

إن رأس هذا القلبق مزين كثيرا و مغطى بالقماش. أما السادسة عشرة فهى قلبق البرطولى(Kolp k des Bar toli) و هم فريق المشاة الخاضع لباشا بغداد. و لقد رأيت القلنسوات نفسها فى ولايات أخرى مما جعلنى أظن أنها العلامة الفارقة التى يتميز بها بعض الضباط. يشير الرقم السابع عشر إلى بعض الفرق الخيالة التى هى فى خدمة باشاوات بغداد و الموصل و ديار بكر التى تسمّى لفند(Lavend) . و يعتمر الأتراك المتسكعون فى سوريا القاووق نفسه. فى الصورة ۱۸ نرى القلبق الخاص بفرق الخيالة فى حلب التى تسمى دلى(Deli) . أما الصورة ۱۹ فهى عمامة بحارة أسطول السلطان. تكون ثياب هؤلاء قصيرة كعامة الشعب اليونانى فى جزر الأرخبيل. الرقم ۲۰ يبين قلبق التتر. و يشبه ما تبقى من ثيابهم ثياب البولونيين و الفرس أكثر من ثياب الأتراك.

إن الصورة ۲۱ تشبه عمامة المفتى فى المدن التركية. أما الصورة ۲۲ فهى قاووق كبير مضرّب بالقطن ترتديه فى القسطنطينية طبقة معينة من رجال القانون الذين يعقدون جلساتهم فى الديوان. و الصورة ۲۳ تشير إلى عمامة رجال القانون فى القاهرة. أما الصورة ۲۴ فهى قاووق رجال الدين الرئيسيين فى تركية كلها. و القاووق رقم ۲۵ هو ما يرتديه الشيوخ أو رجال الدين المميزون فى القاهرة. أما القاووق رقم ۲۶ فهو ما يرتديه بعض رجال الدين فى الأناضول. و فيما تبقى فإن لباس رجال الدين الأتراك يشبه لباس العلمانيين إلا أن ثيابهم الخارجية هى واسعة الأكمام كثياب العرب. و لن نتجرأ على وضع الأولياء المزعومين فى عداد رجال الدين فى مصر. إن هؤلاء الخرقى يرتدون ما شاؤوا من اللباس و بعضهم لا يرتدى ثيابا على الإطلاق. تظهر فى الصورة ۲۷ قلنسوة شتى مراتب الدراويش و تكون عادة من اللبلد الرمادى. انظروا إلى الصورة ۲۸. إن مسيحيى قيصر يعتمرون القلنسوة نفسها. لكن عند ما يغلفونها بقماش أبيض يجبرون على وضع علامة زرقاء عليها حتى يميّزهم جباة الخراج. و نرى فى الصورة ۲۹ قلنسوة عالية و مسننة من اللبد الرمادى مغلفة بقطعة قماش كبيرة و هى تهدف إلى تمييز الأكراد الذين يسكنون فى سوريا.

تشير الصورة ۳۰ فى اللوحة ۲۲ إلى قاووق من اللبد يرتديه الناس فى محيط قطيّة(Ku t hja) . أما الصورة ۳۱ فهى عمامة هندى مسلم شاب و هى العمامة الوحيدة التى كانت مغلفة بهذا الشكل.

العمامة ۳۲ هى عمامة أقباط القاهرة و القاووق ۳۳ هو قاووق باقى أفراد الأمة نفسها. إن غالبية مسيحيى القاهرة الأقباط يعتمرون العمامة أو القاووق بعد أن يغلفوها بنسيج الكتان المقلم باللونين الأبيض و الأزرق. أما اليسوعيون و دعاة المسيحية فى مصر فيعتمرون القاووق نفسه و يرتدون ثيابا مماثلة لمسيحيى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۳۵

البلد. إلا أن الفرنسيسكان و الكبوشيين يحافظون على لباس إخوتهم فى الأمبراطورية العثمانية بكاملها و عادة تكون أيديهم و أرجلهم شديدة الاتساخ. و بما أن النظافة تعتبر واجبا دينيا شديد الأهمية بالنسبة إلى المسلمين، نرى هؤلاء يشمئزون كثيرا من هذه الوساخة؛ و من هنا ينظرون إلى هؤلاء الآباء الطيبين نظرة الأوروبيين إلى أولياء مصر المزعومين. نرى فى الصورة ۳۴ قلنسوة رجال الدين اليونانيين التى تكون عادة من اللبد الأسود. يترك هؤلاء شعرهم ينمو و يطول لكن الأرمن و غيرهم من الكهنة الشرقيين يحلقون رؤوسهم باستمرار. العمامة ۳۵ هى التى يرتديها بعض التجار اليونانيين من جزر الأرخبيل الذين رأيتهم فى مصر. أما العمامة رقم ۳۶ فهى التى يعتمرها بعض المسيحيين السوريين فى القاهرة. إن عمامة أو قاووق اليهود المصريين لا تختلف عن عمامة المسيحيين فى القاهرة لكن بدلا من اللون الأبيض المقلم باللون الأزرق، يلف اليهود عمامتهم بقماش أسمر اللون يميل إلى النبى. و لقد أشرت فى «وصف شبه جزيرة العرب» أن اليهود الشرقيين يشيرون إلى أنهم من سلالة إبراهيم من خلال الشعر الذى يتركونه ينمو فى القسم الأعلى من ذقنهم. القلبق رقم ۳۷ هو قلبق اليونانيين و رقم ۳۸ هو قلبق الأمن. يكون قلبق اليونان و الأرمن مزينا بالفراء و يختلف حجمه باختلاف الموضة فى عواصمهم.

إن القلنسوة التى تظهر فى الصورة ۳۹ من اللوحة ۲۳ هى قلبق الأرمن فى قره حصار(Karahissar) فى الأناضول. أما القلبق رقم ۴۰

فهو قلبق خدم المسيحيين. الصورة ۴۱ هى قلنسوة من قماش أحمر و حافة من المخمل الأسود يتميز بها أرمن بلاد فارس الذين سكنوا الأناضول. أما القاووقان ۴۲ و ۴۴ فهما يخصان مسيحيى حلب و دمشق و قد صنعا من القماش الأحمر المغلف من الأسفل بنسج الكتان المقلّم.

و القاووق رقم ۴۳ هو الذى يرتديه عامة الشعب من مسيحيى الأناضول.

و يختلف ملبس النساء و يتنوع فى مختلف بقاع الشرق: فى ديار بكر تعتمر نساء النصارى و اليهود قبعة من الشبهان أو القماش المطبع بالفضة كما يظهر فى الصورة ۴۵ التى تمثل القلنسوة التى ترتديها نساء الدروز و هى أيضا من الشبهان أو القماش المطبع بالفضة. أما القرويات فيرتدين قبعات من الكرتون.

و بالنسبة إلى زينة الرأس الظاهرة فى الصورة ۴۷ فهى تناسب ذوق الأوروبيات و هى مصنوعة من الشبهان أو من الفضة. و لقد رأيت النساء اليونانيات يعتمرن القبعات نفسها فى الأناضول لكن داخل بيوتهن فقط إذ يغطين رأسهن بكامله عند ما يخرجن إلى الشارع و يشبهن بالتالى نساء المسلمين و الدروز و النصارى فى ديار بكر. أما الصورة ۴۸ فتشير إلى زينة الرأس الخاصة بزوجة شيخ فى وادى فران(Far n) بالقرب من جبل سيناء و هى تشبه ثياب النساء فى مصر. حيث كانت هذه المرأة تضع على رأسها منديلا كبيرا أسود اللون شأنها شأن سائر نساء القاهرة و بعض المدن الألمانية. و كانت تلف جبينها بضفائرها التى رصعتها بحجارة من المرجان. و كسائر النساء المصريات تغطى وجهها بقطعة قماش طويلة و ضيقة معلقة من ثلاثة مواضع إلى شريط اى من الطرفين و من فوق الأنف فلا يظهر من المرأة سوى عينيها. و كانت الأقراط فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۳۷

أذنيها مصنوعة من الفضة على شكل دائرة كبيرة القطر حتى أنك لتخالها سوارا. و كانت تلف عنقها بعقد غليظ من الفضة و تصنع حول قدميها خلاخل من الفضة. بالإضافة إلى ذلك كانت تلف حول عنقها شريطا من الحرير الملون و من جانبى رأسها أشرطة صغيرة مماثلة يتدلى منها حجر من المرجان.

و تضع فى خنصريها خاتمين من الفضة مرصعين بالأحجار الشعبية. و لقد رأيت أن زينة ذراعيها تعيق الحركة تماما كزينة قدميها. إذ تلف ذراعها بسوار من العظام المشغولة (كانت بعض النساء تضع سوارا من الكهرمان) بالإضافة إلى سلسلة من الفضة و سلسلة أخرى. أما ذراعها الأيسر فقد لفت عليه سوارا من الشبهان و آخر من عظام بشكل دائرة بالإضافة إلى سوار من زجاج ملون و سلسلة من الفضة. أما فيما يتعلق بلباسها فلا أستطيع وصفه لأنى لم أعلّق عليه منذ البداية.

إن نساء المشرق كلهن يرتدين على أجسادهن العارية سراويل شديدة الاتساع. و ترتدى القرويات المصريات و النساء من عامة الشعب فى القاهرة فوقه قميصا واسعا أزرق اللون يتميز بكميه الواسعين الطويلين اللذين يتدليان من الكتفين إلى الوركين. و غالبا ما يزيّن شعرهن المجدول بأجراس صغيرة و كانت الفتيات الصغيرات يعلقن مثل هذه الأجراس على أقدامهن. و تلف الفتيات حول رؤوسهن صفوفا من النقود الذهبية إلا أنهن لا يظهرن هذه الزينة و هنّ فى الشارع و لا يظهر من وجوههن إلا ما نراه فى الصورة رقم ۴۸ . و تضع النساء من عامة الشعب أقراطا فى آذانهن و أحيانا فى الأنف بينما تضع أخريات أساور حول الذراع و خلاخل حول الأقدام. و تضع بعض النساء زينة سوداء أو حمراء على شفاههن و ذقنهن و صدورهن تماما كما تفعل بعض المسيحيات اللواتى طبعن بعض العلامات على أذرعتهن عند ما كنّ فى القدس. كما و تصبغ النساء أيديهن و أرجلهن باللون الأصفر و أظافرهن باللون الأحمر.

إن القطعة الأكثر أهمية فى لباس النساء الشرقيات هى البرقع الذى يغطين به وجوههن فى حضور الرجال. و يحكى عن إنكليزى أنه رأى يوما مصادفة امرأة تستحم فى الفرات بالقرب من البصرة. و عند ما تنبهت المرأة إلى وجوده سارعت إلى إخفاء وجهها و لم تهتم بستر جسدها العارى أمام الغريب . فى الحمامات الشعبية تلف النساء قماشا قطنيا حول الوركين يسمّى الإحرام(Ihhram) و قد ذكرته فى «وصف شبه جزيرة العرب». و أخبرتنى فتاة من القسطنطينية أنها كانت يوما جالسة فى غرفة الانتظار التابعة للحمام و كانت

إحدى خادمات الحمام- و هى تركية- تقف معى فدخل علينا رجل بغتة فما كان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۳۸

من التركية الّا أن سارعت إلى تغطية وجهها بالإحرام. و قلما يعطى الفلاحون المصريون فتياتهم قمصانا قبل بلوغهن السابعة أو الثامنة من عمرهن إلا- أنهن يرتدين قماشا قطنيا طويلا- و ضيقا يربط حول الرأس حتى يسدل على الوجه فتغطيه الفتيات إذا مررن برجل غريب. و لقد رأيت بنفسى القرويات الشابات يسارعن إلى رؤيتنا و هن عاريات لم يحجبن إلا وجوههن.

إن الذين يودون معرفة لباس نساء الطبقات الراقية فى الشرق عليهم أن يعودوا إلى رسائل مايلادى مونتاغو(Miladay Montagu) . فلقد دخلت المرأة الإنكليزية هذه إلى حريم أحد الأسياد الأتراك و قد حاولت أنا الدخول لكنهم لم يسمحوا لى لأنى رجل. و وفقا لسلوك المسلمين، من غير اللائق أبدا تأمل أى امرأة فى الطريق مهما كان لباسها ساترا. و أنا لم أستطع مشاهدة المسلمات من الطبقات الراقية إلا- عن طريق استراق النظر إليهن. و مع أن بعض الناس يشككون فى مضمون الرسائل الآنفة الذكر حول روعة الحمامات و الحريم فى الشرق إلا- أنى أرى أنها غير مبالغ فيها قط و أستند بذلك إلى ما رأيته بعينى فى بيوت طبقة معينة من المسيحيين و المسلمين. لكننى أظن أن الكاتبة قد اكتفت بنقل محاسن الأتراك و أنها قد غضت الطرف عن سيئاتهم. و تصور الرسوم رقم (ب) من اللوحة رقم ۲۸ اللباس الذى تخرج فيه نساء القسطنطينية إلى الشارع. فهن يغطين رأسهن و وجههن و عنقهن بأقمشة قطنية كبيرة و لا يظهر منهن إلا عيونهن. و يغطين أجسادهن بفستان خارجى ضيق ينزل من عنقهن حتى أخمص القدم. و فى القاهرة ترتدى ذوات النسب من النساء فستانا واسعا من نسيج الكتان الشعبى فوق ثيابهن الفاخرة و يغطين رؤوسهن بحجاب كبير و وجههن بقطعة من القماش القطنى الطويل الضيق كما رأينا آنفا. لكن لدى وصول النساء إلى الحمام أو إلى بيت صديقة ما، يخلعن هذه الثياب ليعرضن ما يلبسن من حلى و من ثياب فاخرة.

إن عددا كبيرا من أوروبيى المشرق ينزوج من نساء يونانيات أو من أصل يونانى لذا فلا يصعب على المرء مجالستهن. و هناك فرق بسيط جدا بين لباس هؤلاء و لباس النساء التركيات. سوف أصف لباسهن تماما كما رأيته و سوف أزوّد القراء بصورة للباس النساء اليونانيات كان السيد بورنفايند(Baurenfenid) قد رسمها فى الإسكندرية. أحيلكم إذا إلى اللوحة الرابعة و العشرين. كما و يمكن مراجعة اللوحة ۱۶ من كتاب روسل «وصف حلب» لمشاهدة زى النساء التركيات. و جميعهن يرتدين سراويل طويلة تصل إلى أقدامهن. ينتعلن فى أرجلهن خفين من الجلد الناعم و من فوقهما حذاء من دون كعب. و من فوق السروال يرتدين قميصا من نسج الكتان الناعم و من فوقه سترة طويلة الكمين و من فوقها حزام عريض.

تقفل سترة اليونانيات من الأمام أما سترة التركيات فتفتح على عرض اليد. و يرتدين فوق السترة فروة مزودة بكمين يتألف طولها من عرضى اليد. إن قصّة هذه الثياب معرضة دائما للتغيير لكن التغيير الأكبر هو الذى يطرأ على لباس الرأس و هو يشغل النساء الشرقيات و الأوروبيات، على حد سواء. و لا بد أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۰

أعترف أن لباس الشرقيات أجمل بكثير من لباس الباقيات و أنا شخصيا أفضل لباس رأسهن على لباس رأس الأوروبيات لكن يجب ألا نراهن إلا و هن يجلسن على ارائكهنّ إذ طريقتهن فى السير بشعة جدا كيف لا و هن يجلسن متربعات فى غالبية الأوقات و ينتعلن خفا من الجلد داخل أحذيتهن الواسعة. هناك بعض النساء الأوروبيات الأصل فى القسطنطينية و هن يرتدين الزى اليونانى و ينتعلن أحذية أوروبية. لكن يمكننا أن نعرف من خلال طريقة سيرهن إذا ما كن يجلسن على الطريقة الأوروبية أو الشرقية.

يمكن أن تتجول ذوات النسب من نساء القسطنطينية فى عربات إلا- أنهن لا- يستعملنها إلا نادرا فى القاهرة حيث يقل عدد العربات قليلا- مما يجبر النساء الرفيعات المستوى على امتطاء الحمير بدلا من السير على الأقدام. و الجدير بالذكر أن النساء المسيحيات و اليهوديات لسن مجبرات على الترجل عن الحمير عند ما يلتقين بأسياد القاهرة. و العربات التركيات تشبه العربات الأوروبيات إلى حد

بعيد: و لأن الأتراك يتربعون فى عرباتهم، نجد فيها اريكة كبيرة و تغيب عنها الأبواب العالية. و يمكن الصعود إلى هذه العربات بواسطة سلم صغير يتدلى عادة من خلف العربة. و بدلا من مرايانا الجميلة، يستبدل بها الأتراك مشربية. و خلال سفر ذوات النسب من النساء، يستعملن محملا يحمله بغلان أو جملان.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۱

التمارين و التسليات التى يقوم بها الشرقيون فى أوقات فراغهم

ليس من المهم معرفة كيف يمضى الشرقيون أوقات فراغهم. إن الألعاب الأكثر شعبية ما بين عامة الشعب هى بغالبيتها قديمة الأصل. و بما أن هذا الموضوع يمكن أن يلقى الضوء على بعض العبارات التى استعملها الكتّاب القدامى، سوف أذكر فى هذا الإطار ما علمته عن التسليات التى يلجأ إليها أهل الشرق. و إنى أعترف أننى لم أبذل أى جهد للتبصّر فى هذا الموضوع.

إن «العثمليين» أى كبار الشخصيات التركية يمضون أفضل أوقاتهم على ظهر الخيل كما و يشكل ركوب الخيل أهم تمرين من تمريناتهم العسكرية. يجتمع كبار القوم فى القاهرة مرتين فى الأسبوع فى ساحة كبيرة تسمى مصطبة. و أحليكم هنا إلى خريطة القاهرة. و يتبع هؤلاء القوم مجموعة كبيرة من العبيد و الخدم و يكونون جميعا على ظهر الخيل. فيتجه بعضهم إلى التمرين «بالجريد»(Dsjerid) فينقسمون إلى جماعتين تتألف الواحدة منهما من شخصين و يمسكون بيدهم قضيبا من النخيل يصل طوله إلى أربعة أقدام (إن هذا المشهد يذكّر بالتركيين اللذين كانا يلاحقان بعضهما بالرمح، راجع اللوحة السادسة) فيرمونه أفقيا على بعضهم. و إذا لم يكن الذى يتلقى القضيب مستعدا يمكن أن يقع عن حصانه و أن تكسر عظامه. و لقد عرفت سيدا كسرت يده و رجله فى هذه اللعبة عند ما كان شابا و يتسلى بعضهم بوضع إناء يسمى بردك(Bardak) على الرمل و يصوبون عليه أهدافا و هم يسيرون بسرعة على ظهر الخيل. و مع أن المصريين لديهم قربينات مزودة بلولب إلا أنهم يستعملون سلاحا بفتيل عند ما يمارسون هذا التمرين لأن الهواء الذى يهب فجأة يعيق شرارات صوّانة البندقية فيمنعها من الوصول إلى البارود.

و لا يزال ذو الشأن من الناس يتدربون على القوس و النشاب و قد شيّدت بعض الدعامات على شرف أمهر الناس فى هذا التمرين. و عند ما يرتفع مستوى الماء فى النيل يتسلّى أبناء القاهرة فى الإبحار بمراكبهم الفاخرة على مياه البرك الكبيرة و يشعلون حينئذ الألعاب النارية و لا ينسون الموسيقى. و بعد ذلك يمضى كل سيّد ليلته فى حريمه فلا يستطع المسافرون الأوروبيون معرفة ما يفعل هناك. و قد أخبرنى أحد سكان طرابلس أن باشا المدينة كان ينصب اسقالتين مرة فى السنة و كان يضع بينهما سفنا صغيرة تحمل مدافع ضخمة جدا و كان يمكن سحب السفن بواسطة الحبال. و كانت هذه السفن المعلقة فى الهواء تجعل الناظر إليها يعتقد أنه يشاهد حربا بحرية. و كان يجلس بالقرب من كل اسقاله قبطان يدير مناورات سفينته، أما الرابح فكان الذى يصيب سفينة غيره بالأضرار. لقد قيل لى إن هذه المعارك ليست إلا على سبيل التسلية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۲

لكن لا بد من القول إنها كانت أحيانا سببا لخلافات تنشب بين الضباط. إلا أن هذه التسلية قد ألغيت بعد أن افتعل رئيسا سفينتين معركة حقيقية.

شاهدت خدم بعض الأسياد المصريين يتمرنون على رمى قضيب يبلغ طوله من خمسة إلى ستة أقدام فى اتجاه أفقى. (راجع الصورة (أ) من اللوحة (۱۵). إن هذا التمرين هو الذى يعدّهم لرمى الجريد على ظهر الخيل. كما و أن عامة الشعب و الفلاحين يتسابقون باللعب بالوحى وفقا لبعض القواعد. (راجع الصورة ب) و تجرى العادة على أن يقوم المتبارون ببعض الحركات بالعصا قبل بداية اللعبة و بعد ذلك يحاول كل واحد أن يضرب رأس خصمه بالعصا فيسارع الثانى إلى رد الضربة بعصاه. و نرى فى الصورة (ج) مصارعين مصريين آخرين، يمسك كل منهما بعصا بيده اليمنى و أريكة بكم فى اليد اليسرى و يوجه كل منهما ضرباته على ذراعى خصمه. و

تسمى هذه اللعبة لعب الحكم(L b El H kkem) . و لقد رأيت فى الشوارع محاربين يرتدون سراويل ضيقة و لا شىء غيرها، و كانوا قد دهنوا أجسادهم بالزيت. و الحق أنهم ليسوا ماهرين و لا يتجرّؤون على عرض لعبهم فى بلاد فارس. كما رأيت فى شيراز بيتا يتجمّع فيه الناس و منهم أشخاص بارزون للتمرن على القتال و لممارسة تمرينات أخرى للمحافظة على صحة جيدة. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر ؛ ج ۱ ؛ ص ۱۴۲

سوف أدرج الرسم فى الجزء الثانى من كتاب «رحلتى».

و حكى مسافرون آخرون عن التسليات الشعبية التى تجرى فى القاهرة عند رحيل الحجاج إلى مكة و عند جرّ مياه النهر عبر المدينة. كما و لكل مؤسس مسجد عيده السنوى فيتجه بعض الشيوخ بصحبة جماهير من الناس إلى المسجد و يتسلى الشعب فى ساحة مجاورة. عند ما تبدأ المسيرة عند المساء، يحمل المصريون بيدهم مشواة موصولة إلى قضبان و يحرقون بها قطعا من الخشب بدلا من المشاعل. و كان بعضهم يحمل أداة على شكل سكاكر القاهرة تكون من الخشب الخفيف المغطى بالورق و المثبت على قضيب يوجد فى أسفل هذه الأداة ما يقارب العشرين قنديلا زجاجيا و تكون مزدانة عادة، و فى هذه الحالة تحوى عددا أكبر من القناديل.

أثناء الاحتفالات الكبرى الخاصة بالمسلمين و الأقباط يرفع الناس فى الساحات العامة الأدوات (د، ه، و) فيديرها بعض الرجال و الأطفال لقاء أجر زهيد. يشير الحرف (د) إلى أرجوحة عادية بثلاثة حبال يتألف مقعدها من خشبة مثلثة الشكل و هى أكثر راحة و أمانا من أرجوحاتنا ذات الحبلين. أما الأرجوحة (ه) فهى مشابهة للأرجوحة السابقة و يجلس عليها ولدان أو ثلاثة فى آن معا. أما الحرف (و) فيشير إلى أرجوحة مؤلفة من عارضات أفقية تتدلى من أطرافها صناديق صغيرة تدار كما تدار الأحصنة الخشبية التى نراها فى أوروبا. و يمكن رؤية الآلة (ز) فى قرى الأتراك بأوروبا.

إن ألعاب الأطفال فى القرى تكون مشتركة عند كافة الشعوب و إنى أذكر أنى رأيت على ضفاف نهر الفرات بين البصرة و الحلّة(Helle) أطفالا يلعبون بخمس حجارات فيرمون واحدة فى الهواء ثم يلتقطونها بعد أن يكونوا قد لموا حجرة أو أكثر أو الأربع التى كانت على الأرض. يطلق العرب على هذه اللعبة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۱۴۴

اسم اللقوط(La Kچd) . و هناك ألعاب أخرى منها اللعبة التى تسمى «تختين و خمسة»(Tachtejn u Kamse) و التى يركض فيها الأولاد ثم يقفزون فى الهواء. و فى بلاد فارس، رأيت القرويين يلعبون لعبة الراضية (ضرب من ألعاب كرة المضرب). و يتسلى العرب و الأتراك بلعبة القسوم و الإفرادى. و يلعب الشرقيون لعبة طاولة النرد التى يسمونها «طاولة» و لعبة الداما علما أن داما هو اسمها العربى. و يتسلمون بالشطرنج و يمضى بعض الناس نهارهم بكامله فى هذه اللعبة. أما أحجار الشطرنج فتكون عادية جدا ليس لأن المسلمين يبتعدون عن كل ما يشبه الأصنام بل لأن حرفييهم لا يجيدون نحتها أو لأنهم لا يتقاضون لقاء ذلك أجرا كبيرا. و بدلا من طاولات الداما و الشطرنج خاصتنا المصنوعة من خشب فاخر، يستعملون قماشا قطنيا طرزت عليه مربعات من مختلف الألوان و تلف به الأحجار عند نهاية اللعبة. أما الصورة (ح) من اللوحة ۲۵ فهى تصور ما يسمى بالعربية «المنقلة». تتألف المنقلة من خشبتين فى كل منها ستة ثقوب.

يمكن لشخصين أن يلعبا هذه اللعبة و إليكم الطريقة: يضع اللاعبان فى كل من الثقوب ستة أحجار أو ست صدفات. بعد ذلك، يأخذ أحدهما كافة البيادق الموجودة فى ثقب ما و يضع فى كل ثقب بيدقا واحدا مبتدئا من اليمين إلى أن تنفد كلها. لكن إذا صادف أن لقى اللاعب الأرقام ۲ أو ۴ أو ۶ فى أحد الثقوب التى وضع فيها بيدقه الأخير، يربحها كلها بالإضافة إلى كافة البيادق الموجودة فى الثقوب المجاورة. و عند ما تنفد البيادق فى اللعبة، يعدّ كل لاعب مجموعه و يربح الحائز على العدد الأكبر. و هناك لعبة أخرى تدعى «أدريس تلاتة» صوّرتها فى الصورة (ك). تلعب هذه اللعبة بواسطة أوان ملونة. تحمل اللعبة (ل) أو (م) اسم إدريس تيسا. أما اللعبة المسماة لعب ألقاب(Laib El K b) فتلعب بعظام مستخلصة من ركب الخراف و الماعز بشرط اتباع بعض القواعد التى تحدد

قيمة الجهات الأربع الموجودة فى الأعلى. و لعل هذه اللعبة هى التى أدّت إلى اختراع النرد. و يشتهر الشرقيون بلعبة «طاب ودك» التى حكى عنها العالم هايد(Hyde) و التى تمارس بواسطة أوان من كافة الألوان يبلغ عددها ۲۱ فى سوريا و ۱۷ أو ۱۹ فى مصر أو بأى عدد إفرادى توضع جميعها فى الصف الخارجى عند ابتداء اللعبة. لقد رأيت هذه اللعبة عند الموارنة فى القاهرة و كانت تتألف من خشبة فيها أربعة صفوف و فى كل صف ۲۱ مربعا كما يظهر فى الصورة (ص). يضاف إلى ذلك أربعة قضبان مسطحة سوداء من طرف و بيضاء من الطرف الآخر. أثناء اللعب فى الهواء الطلق ترمى القضبان على سكين مثبت فى الأرض أو على إبرة مغروزة فى كنبة. و عند ما يمارس اللعبة بعض التجار فى بيوتهم، يبدأ اللاعب الأول من جهة اليمين و الثانى من جهة اليسار حتى تلتقى البيادق ببعضها. عند ما يحصل الأول على طاب أى ثلاثة بيض و واحد أسود يقدّم أحد البيادق من الصف الأول إلى الخانة المجاورة فى الصف الثانى. و إذا لم يحصل على

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۵

طاب، يقوم اللاعب الثانى بهذه العملية شرط أن يحصل هو أيضا على طاب. إذا، لا يمكن تحريك أى بيدق من الصف الأمامى إلا عند الحصول على طاب. و إليكم ما يمكن الحصول عليه أيضا:

۱- دوق و نجم أى ۲ من اللون الأسود ۲ من اللون الأبيض عند الحصول على ذلك، نتقدّم بالبيدق خانتين.

۲- دوق و طلعة أى ۳ من اللون الأسود ۱ من اللون الأبيض. حينئذ يمكن أن نتقدم بالبيدق ثلاث خانات.

۳- أربعة أو أربعة سود فيتقدم البيدق أربع خانات.

۴- ستة أى عند ما نحصل على ۴ بيض فيتقدم البيدق ست خانات و عند ما يحصل اللاعب على طاب أو أربعة أو ستة، يمكنه أن يحتفظ بالدور. و يمكن للاعب الذى يوصل بيادقه إلى الصف الثالث دون أن يأخذها منه خصمه، يمكنه أن ينتقل إلى الصف الرابع طالما يوجد عليها بيدق من بيادق الآخر و إلا يتقهقر من الصف الثالث إلى الثانى و ذلك إلى أن يفقد أحدهما بيادقه كافة. و رأيت فى القاهرة بعض المسيحيين و قد غرزوا نقودا فى الأرض ثم يرمون طابة للمسها. و هناك قواعد لتنظيم هذه اللعبة كما يجب أن يحصل عند ما تصطدم طابة لاعب بطابة لاعب آخر. و لن أستفيض فى ذكر تفاصيل الألعاب كلها لأن القارىء و لا شك سيملّ منها.

و لم أجد المسلمين يلعبون قط بالورق على عكس يونانيى القاهرة و قونية(Ko ?nie) . و يعتبر العرب لعب الورق قمارا. و لقد رأيت فى بومباى تجارا عربا يلعبون بالورق الصينى السميك و غير المريح فى اللعب، و أذكر أنى رأيت أربعة أشخاص يلعبون بالورق الصينى و يمسكونه بصعوبة بكلتا يديهم. و يمنع القرآن المسلمين من اللعب فى سبيل تحقيق المال، لذا لا يلعبون إلا على سبيل التسلية. إلا أن بعضهم لا يمتثل لأحكام القرآن. ففى يوم ذهبت لزيارة معارفى من المسلمين فى بومباى فوجدتهم مشغولين باللعب بالورق. و عند ما أخبرهم الخادم عن قدوم غريب إليهم، هرعوا يخفون المال خوفا من أن يكون هذا الغريب أحد المسلمين المسنين. و لم تمض دقائق على وجودى معهم حتى استأنفوا اللعب. لكن المال الذى طرح فى اللعبة كان زهيدا جدا لدرجة أن الخسارة كانت تنحصر بدرهم واحد فى النهار كله.

و لعل تمضية الوقت المفضلة عند أهل مصر و سوريا و العرب على حد سواء هى السهر فى القهوة لتدخين الغليون و للإصغاء إلى الحكواتى و الموسيقيين و المغنين الذى يقصدون هذه الأماكن لقاء أجر زهيد. و كنت قد ذكرت فى كتاب «وصف شبه جزيرة العرب» أن أهل الشرق يحبون الجلوس فى القهوة و يمضون ساعات كاملة فيها من دون التحدث إلى جيرانهم. و فى مصر يستعمل الناس غليونا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۶

طويلا- خشبى القصبة و تكون هذه أحيانا مغلفة بالحرير أو بالقماش الناعم. فى أيام الحر الشديد، يرطب بالماء لجعل الدخان أقل حرارة. و عادة تكون قصبة الغليون مصنوعة من القصب الرقيق الشائع، أما محرق التبغ فيكون عادة من الفخار. و يستعمل الناس أيضا

الغليون الفارسى الذى يمر فيه الدخان من خلال الماء. أما الغليون الذى يستعمله عامة الشعب فهو بسيط جدا: يتألف من جوزة هند مع محرق تبغ من الفخار علقت على طرفه قصبة من الخشب و أخرى من القصب السميك، و يمكن مشاهدته فى الصورة (ص) من اللوحة ۲۵. أما طريقة استخدامها فهى سهلة. بعد ترطيب التبغ يحشى فى المحرق (أ). فى كل مرة نود فيها تدخين نفس جديد، يعبّا نصف جوزة الهند بالماء إلى أن يصل الماء إلى الطرف السفلى من القصبة (ب). و عند ما تضخ القصبة (ج) الهواء من فوق الماء، يطرد الهواء الخارجى الدخان من خلال القصبة (ب) و الماء ليملأ الفراغ. و لا يلجأ الشعب إلى مثل هذا الغليون للتسلية و حسب بل بسبب الحرارة التى يؤمنها. و أثناء الرحلة التى قمت بها فى فصل الشتاء عبر نهر الفرات كان البحارة مجبرين على النزول فى الماء مرارا و لم يكونوا يتجرؤون على شرب الكحول فكنت أقدم لهم خدمة العمر كلما أعطيتهم غليونا ليدخنوه لأنهم بهذه الطريقة يدخلون الهواء الساخن إلى زواياهم. نرى فى الصورة (ع) شكلا آخر من الغليون لا- يزال موجودا فى بلاد فارس. الفرق الوحيد بينه و بين الغليون السابق هو أنه يوجد فى أسفل جوزة الهند رأس من الفضة أو الشبهان. و بما أنه لا يمكن وضع هذا الغليون على الأرض إذا لم نشأ مسكه بيدنا، يمكن أن نستعين بأثفية خاصة نحملها معنا لوضعه عليها. نرى فى الصورة (ق) الغليون الشائع حاليا فى بلاد فارس. و هو عملى جدا أثناء الأسفار و المفضل عند الحاكم كريم خان. يسمّى هذا الغليون «كريم خانى». إن غليون ذوى الشأن من الفارسيين يكون أحيانا كله من الفضة لكنه عادة يكون من التنك المرصّع بالفضة أو الزجاج مع قصبتين من خشب. و فى الهند، تكون أدوات التدخين أقصر و أعرض من الأسفل كى لا تصبح عرضة للوقوع بسهولة لأن الهنود المميزين لا يمسكونها بيدهم. أما القصبة فتكون من الجلد الناعم. إن كل هذه الأنواع من أدوات التدخين لا تختلف أبدا بين بعضها من الداخل. شكلها الخارجى وحده الذى يختلف باختلاف الأذواق. و يمكن أن نرى فى اللوحة ۱۵ من كتاب روسل «وصف حلب» الغليون الأكثر رواجا بين كبار الأتراك. إن هذا الغليون و غليون كريم خانى يصنعان من الزجاج فى شيراز و غالبا ما يكونان مرصعين بأزهار من كل الألوان تكون ملصقة من الداخل. يعتقد ذوو الشأن من الأتراك أن تعلم الموسيقى و الرقص يقلل من شأنهم. إن كبار القوم فى الشرق ليسوا من خبراء الموسيقى و الذين يعزفونها لا يحصلون على أجور جيدة، لذلك ليس غريبا أن يسبقهم الأوروبيون فى هذا المجال. و لم أعثر فى مصر و شبه جزيرة العرب و بلاد الهند على أى عازف يجيد وضع لحن ما. و مع أنى سمعت عن عازفين ماهرين فى القسطنطينية، إلا أنى لم ألتق بأحد يعرف النوتات و ذلك حتى فى صفوف الدراويش المولوبين و هم من أهم الموسيقيين فى تركيا. و مع كل ذلك، لا يمكن أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۴۸

نقول إن موسيقيى الشرق و مغنيه ليسوا ماهرين و لقد سمعت بعض الشيوخ يرتل القرآن و كنت أعجب بترتيلهم فهم لا يصرخون أبدا فى محاولة رفع صوتهم. كما و حضرت بعض الحفلات الموسيقية التركية فى بغداد و القسطنطينية، و مع أنها لا تشبه حفلاتنا إلا أنى أكيد أنها ستعجب أى أوروبى لا يطلب المستحيل. إن أكثر ما يسمعه المسافر الأوروبى فى البلدان المشرقية هو الموسيقى السيئة التى تعزف فى الشوارع. قبيل سفرنا من القاهرة إلى دمياط، غنّى لنا البحارة أغنيات حب شبهوا فيها حبيباتهم بخيار دمشق و عيونهن بعيون الغزال و تغنّوا بجمال أيديهن الصفراء و أظافرهن الحمراء ... و كان أحدهم يبدأ بغناء مقطع فيكرر الباقون الكلمات نفسها و اللحن نفسه ثلاث أو أربع أو خمس مرات كل مرة بطبقة موسيقية مختلفة. و بدلا من الطبلة كانوا يصفقون معا. و لن يعجب أى أوروبى بالزغاريد التى تطلقها الراقصات المصريات كما أن موسيقانا لا تعجب الأتراك و العرب. و تكون ألحان الشرقيين عادة بسيطة و هم يحبذون أن يفهم السامع كل كلمات الأغنية. عند ما يعزف اللحن بعدة آلات موسيقية مع مرافقة غنائية، نسمعهم جميعا يؤدون النغم نفسه. و سأذكر لكم مثلا على أن موسيقانا ليست من ذوق الشرقيين كما أن موسيقاهم ليست من ذوقنا. أقمنا حفلا موسيقيا فى القاهرة تألف عازفوه من بعض التجار و الرهبان و السيد بورنفايند و أنا. و فى أثناء عودتنا إلى المنزل، كنا أكيدين من أن عزفنا قد لاقى إعجابا شديدا فى هذا البلد فالتقينا فى الظلام برجل مصرى يغنى و بآخر يصحبه على الناى. و لشدة ما أعجب أحد خدامنا بهذه الموسيقى صرخ: بارك الله، هذه موسيقى جميلة. عجبنا من قول الخادم و سألناه عن رأيه فى موسيقانا فأجاب أنها تشبه الضجيج

الصاخب الـذى لا يمكن أن يتلـذذ فيه المرء. و لقد عزفنا أحيانا أنا و السـيد بورنفايند لبعض العرب من الطبقات الرفيعة، و مع أنهم لم يبدوا عدم إعجابهم بموسيقانا مباشرة إلا أنهم اعتبروا أن موسيقاهم فيها رجولة أكثر من موسيقانا و أنها أجمل منها.

و لأنى عازف سيىء لم أجـد الوقت أو الفرصة لتعلم موسـيقى الشـرقيين و وجدت أن خير سبيل لأعطى الأوروبيين فكرة عنها هو عن طريق رسم آلاتهم الموسيقية. و سأحيلكم فى هذا الإطار إلى اللوحة ۲۶.

الآلـة (أ) هى التى يسـتعملها اليونانيون الآتون إلى مصـر من جزر الأرخبيل. تسـمى هـذه الآلـة «طمبورة» باللغـة العربيـة. فيها و تران من الفولاذ. يسمى اليونانيون الآلة (ب) سووری(Sewچri) و هى تتألف من أربعة أوتار من الفولاذ و من وتر مزدوج من الشبهان. يسمى اليونانيون الآلة (ج) بقلاما(Baglam) و طمبورة(Tambچra) . و ربما يطلق اليونانيون على الآلات الموسـيقية الوترية كافة الاسـم الأول و العرب يطلقون عليها الاسم الثانى. لا تختلف هذه الآلة عن سابقتها إلا بالحجم و هى تتألف من ثلاثة أوتار واحد من الفولاذ و اثنان من الشـبهان. تلف حول مقبض هذه الآلات حبال من معى الحيوان لجعل الأنغام أكثر ارتفاعا بتلمس هذه الأوتار بواسطة ريشة و غالبا ما يرافق الموسـيقى الغناء. و يتألف هيكل هذه الآلات من الخشب الرقيق و لا يكون خوانها مقوسا و لا الملوى قريبا من المقبض.

الصورة (د) هى صورة آلة بكمان (مقوس) يسميها اليونانيون ليرا(Lyra) . فيها ثلاثة أوتار من معى الحيوان لا تلمس من الأعلى بل

من الطرف و بواسطة الأظـافر كمـا نلمس أوتـار القيثـارة بواسـطة المرعشـة، و أظن أننا أحيانا كنا نمرّر القوس على الأوتار الثلاثـة معا للحصول على نغم عميق و خفيض. ليست هذه الآلة مرتفعة لكن للعزف عليها نقف فى الوضـعيّة نفسـها كما لو كنا نعزفّ على الأوتار الغليظـة فى الكمـان الأوسـط و يكون القوس فيهـا سـيئا شـأنه شأن كافـة الآلات التى تكون أوتارها من معى الحيوان و التى تشـيع بين العرب. إن هذه الآلات تتألف من خشـبة صـغيرة أخذت مباشـرة من الشـجرة. يتكون هيكل الليرا من الخشب الصلب. و هناك نافذتان صوتيتـان فى الـداخل و مشط مركز فى النافـذتين هاتين. ثم إن الرسم (ه) هو لآلـة بقوس يسـميها اليونانيون رباب(Rep b) و العرب كمنجة(Seme ?ndje) . قيـل لى إنهـا كانت تتألف فى السابق من ثلاثـة أوتار من معى الحيوان لكن التى رأيتها فى القاهرة كانت تحتوى على وترين كما وقوسـها سـيىء مثل قوس الليرا. أما قـدمها فهى من الحديـد. يتألف هيكلها عادة من جوزة هند أو من خشـب قاس. و خوانها من جلـد مشـدود كجلـد طبولنا. تلك هى الآلة التى يسـتعملها العازفون السـيئون الذين يرافقون الراقصات المصـريات. يمكن أن نجـد النوتات الموسـيقية بالقرب من هـذه الآلة. و نرى فى اللوحة ۲۷ أن العازفين المصـريين يتخذون أثناء عزفهم على هذه الآلة الوضـعية نفسها التى يتخذها موسيقيونا عند ما يعزفون على الأوتار الغليظة فى الكمان الأوسط. إن الصورة (و) من اللوحة ۲۶ تبين آلـة بقوس شائعـة الاسـتعمال بين العرب تسـمّى مرابا(Mar bba) قيـل لى إن لهـا وترين لكن الآلـة الـتى حملتهـا معى إلى الفنـدق لأرسـمها كانت وحيـدة الوتر. لا تتجاوز سـماكة هـذه الآلـة الأصـبعين و هى مغلفـة من فوق و من تحت بجلـد مشـدود و هناك نافذة صوتيـة بالقرب من المقبض. و هكـذا يمكن القول إن هـذه الآلـة هى فى الوقت نفسه كمان و طبل. و كان الموسـيقى الذى يسـتعملها مـاهرا فيتعامل معها مرة على أنها كمان و يضـرب الخوان مرة أخرى كأنها طبل. و جـدير بالـذكر أن ألحان المرايا تنسـجم مع أصوات العازفين العاديين. الآلـة (ز) هى أيضا آلة بقوس فيها وتر و جلد مشدود يحل محل الخوان و قد رسـمت صورتها فى البصـرة. شاهدت آلات موسـيقية أخرى فى بلاد الهند و بغداد و القسطنطينية لكنى كنت منشغلا بأمور أخرى غير تصوير رسومها. و الحق أننى كنت قد اعتدت على آلات الشرقيين فما عادت تلفت انتباهى كالسابق.

يحب المصـريون الآلات الموسـيقية الصاخبة إلا أن سـكان المناطق الإفريقية الجنوبية يفضلون الموسيقى الهادئة. و قد رأيت بين يدى البربر آلة موسيقية تشبه القيثار (الصورة (ج)) كانوا يسمونها قثير(Kussir) بينما يسميها العرب طمبورة و هو الاسم الذى يطلقونه على كافة الآلات شديدة الصـخب. يتألف هيكلها من صـحن خشبى فى أسـفله نافذة موسيقية. و هى مغطاة من الأعلى بجلد رقيق أكثر علوا فى الوسط من الجوانب. هناك قضـيبان معلقان بثالث أعلى منهما يمرّان منحرفين من خلال الجلـد الذى يحمل خسـمة أوتار من معى

الحيوان المثبتة بمشط. و لا نجد أى ملوى فى هذه الآلة و يعلّق كل وتر حول القضيب بواسطة حزقة صغيرة من نسيج الكتان. و تشير النوتات المصورة قرب الصورة إلى النغم الذى يجب أن تضبط عليه. و يمكن العزف على هذه الآلة بطريقتين فإما أن ننقرها أو أن نمرّر قطعة جلد على

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۰

الأوتار و كان البربرى الذى يعزف عليها يرقص فى الآن نفسه. و لقد كان هناك شريط خلف الآلة يمكن استعماله لتركيز اليد أو الأصابع على الأوتار. و كأن هذه الآلة تشبه قيثار داود؟

و من بين المزامير كافة الموجودة فى تركيا، تعتبر الآلة التى يسميها المصريون صرم(Surme) الأكثر صخبا. و يتألف الصرم من سبعة أجزاء و يشبه بوقنا إلى حد بعيد. (راجع الصورة ن). و يطلق المصريون اسم صرم أيضا على الآلة (ك). و يشبه الصرم المزمار و فيه سبعة ثقوب و ثقب ثامن الإبهام. ثم إن هناك مزمارا آخر يشبه السابق و يبلغ طوله ۲۱ بوصة. أما النغمات الصادرة عنه فهى عميقة و منخفضة. و إن الآلات الموسيقية الثلاث المستعملة لعزف الموسيقى العسكرية هى الطبل على أنواعه و البوق و المزمار و جميعها تصدر أصواتا لا تعجب الأوروبيين. و تساهم هذه الآلات فى الدلالة على الرتب. الصورة (ل) هى صورة السلمانية(Salamanie) أو الناى التركى المصنوع من القصب و المزوّد بحلقة من الفولاذ من جهته العليا إلا أنه يكون أحيانا مصنوعا بكامله من الخشب الجيّد. ثم إن وضعية العزف عليه هى نفسها التى يتخذها عازفو الناى الأوروبى الهادىء. أما فم هذا الناى فهو صعب لأنه خال من أى لسان و مفتوح بكامله من الأعلى. و لقد رأيت هذه الآلة بين يدى رعاة الغنم الأتراك فى بلاد فارس. فالأتراك إذا قد حصلوا عليها من أسلافهم فى تركستان. و يبرع الدراويش المولويون الذين يسميهم الأوروبيون الدراويش الراقصين فى العزف على هذا الناى. لأن هؤلاء أدخلوا الموسيقى إلى عقيدتهم فأصبحوا من أهم الموسيقيين الأتراك و هم يفضلون الناى على سائر الآلات الأخرى. ثم إن الحرف (م) يشير إلى مزمار يسمى زمّارة(Sum ra) يتألف من قصبتين واحدة قصيرة و أخرى طويلة و من فتحتين. و يمكن تقصير القصبة الطويلة أو تطويلها بواسطة بعض القطع الصغيرة المعلّقة عليها و ذلك وفقا للنغم المعروف. أما الصورة (ن) فهى لمزمار القربة الذى يسمّى زمارة القربة(Sum ra El Kچrbe) و يستعمل فى مصر.

الجزء الأعلى من هذين المزمارين مكوّن من الخشب السميك. أما الفتحات الكبيرة السفلى فهى كالبوق.

ليست هذه الآلة عظيمة الشأن إذا ما قارناها بمزمار القربة البلغارى فأنا لم أبتهج لسماعى أى آلة من آلات الشرقيين كما ابتهجت عند سماعى المزمار البلغارى، و لست أدرى إذا ما كان السبب يعود إلى براعة العازفين أو إلى النغمات البلغارية التى هى أقرب إلى أذن الأوروبيين منها إلى أذن العرب و الأتراك.

تختلف أشكال طبول أهل الشرق و قياساتها. و تشير الصورة (س) إلى ما يسميه العرب بالطبل الذى يمسك أفقيا و يضرب عليه من جهة بقضيب من الخشب صنع خصيصا لهذه الغاية، و من الجهة الأخرى بعود صغير. يشكل هذا الطبل جزءا من الآلات المستعملة لعزف الموسيقى العسكرية و فى حفلات الزفاف فى القاهرة. فالصورة (ع) هى صورة دائرة واسعة مغلفة من جهة بجلد طرى. تكون حافته عادة مزينة بصفائح معدنية رقيقة و مستديرة تزيد من صوته. و يمسك هذا الطبل بيد من الأسفل بينما تستعمل اليد الأخرى للضرب عليه. إن هذه الآلة هى الأكثر شيوعا فى تركيا و تستعمل فى الحفلات التى تقيمها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۲

النساء داخل الحريم، أما الاسم الذى يطلق عليها فهو «الدف»(Do ?ff) . يشير الحرف (ك) إلى نوع آخر من الطبول يكون قعره أحيانا من الخشب و أحيانا أخرى من النحاس. أما الطبل (ص) فيتألف من آنية من الفخار مغطاة بجلد مشدود. يحمل تحت الذراع و يضرب عليه باليد الأخرى و يسمى دربكّة. يلجأ بعض الشحاذين فى اليمن إلى غناء بعض الأناشيد للإعلان عن حضورهم و يرافقون غناءهم بضرب على الطبل. و بما أنه من غير المريح مسك الآلة بيد و الضرب عليها باليد الأخرى، يصنعون طبلا صوّرته فى الصورة

(ث) و يعلقون عليه من الجهتين كرة. و هكذا، عند ما يديرون الطبل بسرعة تضرب الكرات حافته و يصل الشحاذون إلى مبتغاهم من دون غلبة. و أذكر أني رأيت بعض الدراويش الكلندريين أو القرندليين ينفخون في بوق كبير أمام منازل المسلمين ليعلموهم بوجودهم و ليحصلوا على الصدقة. و من الآلات الموسيقية الأخرى الشائعة في الشرق نذكر الصناجات التي تحملها الراقصات فتضع الواحدة منهن اثنتين في كل يد واحدة حول الإبهام و أخرى حول إصبع آخر. ثم لعزف الموسيقى العسكرية تستعمل صحون معدنية على شكل الصناجات. أما المزمار الذي رأيته بين يدي فلاح في القاهرة فكان مصنوعا من القصب. و لقد رأيت السنطور في بغداد و طريقة العزف عليه تشبه طريقتنا. إذ كانت العازفة امرأة من الإسكندرية و كانت تلمس أوتاره بأصابعها بعد أن سلحتها بأظافر من فضة بدلا من لمسها بقضبان صغيرة.

إنه من غير المحتشم أن يرقص المسلمون الذكور لكن ذلك لا يطبّق على النساء. و هن لا يتدربن على الرقص لإرضاء أزواجهن و حسب بل للتبارز فيما بينهن أيضا. و لقد أخبرني أحد سكان طرابلس في كوبنهاغن عن طريقة رقص سيدات مدينته أثناء الأعراس و أظنها لا تتغير في تركيا و شبه جزيرة العرب.

و مع أن هذا الرجل لم يشاهدهن بأم عينه إلا أن زوجته كانت قد نقلت له كل شيء بالتفصيل. و قال لي إنه ما من امرأة تتجرأ على الظهور في هذا الجمع الغفير لو لم تكن جميلة أو تظن نفسها جميلة و ترتدي ثيابا فاخرة. و في أعراس الأشخاص البارزين، نجد عادة أكثر من ۵۰ امرأة شديدة الجمال يرتدين أفضل ما لديهن من ملابس. و تحضر كل واحدة منها أجمل خادماتها أو جارياتها اللواتي يجلسن في قاعة مجاورة إلى جانب صناديق مليئة بالثياب. بعد تقديم المرطبات للسيدات، تدخل خادماتهن الجميلات فيبد أن بالرقص و الغناء لتسلية الحضور. ثم تبدأ أكثر السيدات تميزا بعرض مواهبها في الرقص لكن بعد برهة تذهب إلى القاعة المجاورة و تبدل ثيابها كلها، حتى حذاءها الجميل المقصّب ذهبا أو فضة. إلا أنها تحافظ على زينة رأسها و أساورها المرصعة بالجواهر الثمينة. في هذه الفترة ترقص أخريات ثم يتركن الجمع لتبديل ملابسهن. و هكذا، فإن كل سيدة تبدل ثيابها من ۸ إلى ۱۰ مرات تقريبا في الأمسية الواحدة. و تحاول كل سيدة أن تحظى بإعجاب الجمع مما يجعل الباقيات يتركن الحفل مستاءات و حتى اليونانيات يبدلن ثيابهن أثناء الاحتفالات. و لقد أخبرني أوروبي في القسطنطنية ذهب يوما لزيارة صديقه اليوناني أن زوجة هذا الأخير بدلت ثيابها أكثر من خمس مرات في مدة ساعتين. أما الأوروبيون الذين يتذمرون من كون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۳

نسائهم يصرفن أموالا كثيرة على ملبسهن فيمكن تعزيتهن بأن الشرقيات أكثر إفراطا في الإنفاق من نسائهن بكثير.

و يحلو للرجال مشاهدة الراقصات أثناء الأعراس أو في المجتمعات، و تسمى الراقصات في القسطنطينية تسيغان(Tschingane) و المصريات في القاهرة غازيات. تعيش هؤلاء بعيدا عن المسلمين و نادرا ما يتزوجن من غرباء. يمارس أزواجهن عادة مهنة المشير و يسمحون لنسائهن و بناتهن بالرقص و الغناء في الاحتفالات لقاء أجر ما. يصحب هؤلاء رجل واحد يعزف على الكمنجة بالإضافة إلى نساء مسنّات يراقبن سلوكهن. و من المعروف أن هؤلاء النساء لسن الأكثر عفة بين المسلمات. و بالرغم من ذلك، يمكن لأي مسلم أن يحضرهن إلى منزله من دون أن يعترض أحد. و يمكن لمسيحيي الشرق و للأوروبيين المتزوجين أن يحضروا هؤلاء النساء للرقص في منازلهم، لكن ذلك محظور على الأوروبيين غير المتزوجين و على التجار الفرنسيين لأن الملك يمنعهم من الزواج في الشرق. لذلك كنا نكتفي بمشاهدتهن في الطرقات أو في منازل أصدقائنا المتزوجين أو حتى في بعض المواخير خارج المدينة. و لأن منازل بعض التجار الأوروبيين الذين يسكنون القاهرة تقع على إحدى ضفاف القناة التي تمر بالمدينة، فإن الغازيات يستفدن كثيرا منهم في أيام تنظيف القناة قبل أن يصل النيل إلى الارتفاع المطلوب ليصبّ ماءه في القناة. لقد شاهدت هذه الأيام مباشرة قبل ذهابي إلى الصحراء لشدة ما كنا خائفين من سفرنا المقبل، كنا نحاول تمضية الوقت من خلال مشاهدة الغازيات يرقصن و يغنين في القناة الجافة التي كانت تستعمل كطريق. في بادىء الأمر لم تكن مشاهدتهن تسلّينا فقد كانت موسيقاهن تعتمد على الآلات أكثر من الصوت و

كانت سيئة جدا، و كانت النساء يتخذن أوضاعا جسدية غير محتشمة. و لقد وجدناهن قبيحات و أصابنا الاشمئزاز من أيديهن المطلاة باللون الأصفر و من أظافرهن المطلاة بالأحمر و من الزينة السوداء و الزرقاء على وجوههن و أذرعتهن و صدورهن و من خلاخيلهن و أقراطهن و الكميات الهائلة من الدهون على شعرهن التى كنا نشمّ رائحتها حتى من بعيد ... و مع أن أصواتهن كانت جدّ قبيحة، صرنا نظن فى النهاية أنها جميلة و أنهن و سيمات و صرنا نشاهدهن و نسمعهن بفرح كما لو كنا نشاهد و نسمع أمهر الراقصات و المغنين فى أوروبا. لقد رسم السيد بورنفايند إحدى هذه الفرق فى اللوحة ۲۷. فيلاحظ أنه لا تختلف ثيابهن الخارجية عن ثياب عامة الشعب من المصريات. و أثناء الرقص يرفعن القماش السميك و الضيق الذى يغطى وجوههن ثم يرمينه من الخلف. ثم يخلعن ثيابهن الخارجية و يبقين فى ثيابهن الداخلية التى تشبه ثياب النساء التركيات أى قميص أبيض و تحته سروال طويل و واسع بالإضافة إلى تنورة تكون دائما مفتوحة من الأمام و من فوقها حزام بزرين كبيرين يكونان غالبا من الفضة. و وفقا للوصف الذى سمعته عن التسيقان فى القسطنطينية، رأيت أن هؤلاء يرقصن تماما كالغازيات فى مصر فى بعض الملاهى الليلية اليونانية فى غلطه(Galata) ، تلك الملاهى التى يرتادها الأتراك العاطلون عن العمل، و رأيت صبيانا يرقصون بثياب خاصة. إن تجارة بعض المسيحيين بغيرهم من أبناء دينهم بغية تسلية المسلمين يجب أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۴

تحتقر أكثر من ممارسات المصريات التى تكلمت عليها آنفا.

لكل من الشعوب المسيحية المقيمة فى الشرق موسيقاها و رقصها الخاصان بها كالإنكليز و الفرنسيين و الألمان و البولونيين ... أذكر أنى رأيت يوما فى الموصل دائرة مغلقة يرقص فيها اليعقوبيون و النسطوريون و يرقص اليونانيون فى حلقة مفتوحة فيمسك ببعضهم بعضا و يقود الرقص واحد منهم. إن أكثر الناس حبا للرقص هم اليونانيون و رقصاتهم جميلة جدا خاصة حين تقود جميلاتهن الفرقة. و للبلغاريين أيضا رقصهم الخاص إلا أنه ليس أجمل من رقص اليونايين. و أنا لم أر أى روسى يرقص لكن البولونيين يقولون إن الرقص الروسى ملىء بالقفزات و يتألف عدد الراقصين من اثنين.

و لأن الأتراك لا يرقصون أبدا، قد يظن البعض أن الأوروبيين فى القسطنطينية يحذون حذوهم إلا أن هؤلاء يدّعون أن المسلمين يقبلون بكافة عاداتنا و تقاليدنا. و الحقيقة أنه لا يوجد فى بيرا(Pe ?ra) لا اوبرا و لا كوميديا، لكن هناك حفلات تنكرية و حفلات رقص. و أظن أن الأحرى بالأوروبيين أن يمتنعوا عن ملذاتهم فى هذه البلاد لأن طبقات المسلمين الدنيا هى التى ترقص فيها، لذا فليس، عجيبا أن يقارنونا بهم.

و قد سمعتهم مرارا يقولون أشياء سيئة عن الأوروبيين و عن الحرية التى تتمتع بها نساؤهم. و لا شك أنهم كانوا سيحترمون نساء الأوروبيين أكثر لو أنهم لم يسمعوا أنهن يرقصن فى الشارع مع الغرباء. أما عن الحفلات التنكرية، فإليكم هذه الحادثة التى رويت لى فى الشرق: لدى عودة أحد الأتراك من أوروبا سئل عن الأشياء الغريبة التى رآها فى البندقية فقال إنه فى فترة من السنة، يصيب الجنون الناس كافة فيركضون فى الشارع مقنعين مما يجعل رجال الدين و من بينهم بعض السحرة يقودونهم إلى الكنيسة (أربعاء الرماد) فيضعون بعض الرماد على رأسهم فيهدأ الناس و يعود كل واحد إلى عمله.

نرى فى اللوحة ۲۶ حفل عرس على طريقة مسلمى القاهرة و لقد صور الحفل السيد بورنفايند. يشير الحرف(A) إلى العروس المغطاة من رأسها حتى أخمص قدميها و أمام وجهها هناك كمية من النقود الذهبية. يشير الحرف(B) إلى الجوارى و الخادمات بالزى القسطنطينى. تقود هؤلاء العروس و تمسك واحدة منهن بمذبّة و تضرب الأخريات على الطبل. يشير الحرف(C) إلى لباس عامة الشعب من النساء فى القاهرة، و الحرف(D) إلى بعض الموسيقيين الجالسين على الحمير. أما الحرف(E) فيظهر عامة الشعب من سكان القاهرة، عمل منهم أربعة ما يشبه الظلة فوق رأس العروس بينما يرشها آخر بالعطور. يشير الحرف(F) إلى رجال يقومون بألعاب الخفة. و هناك النساء اللواتى يزغردن احتفالا بالعرس. و لقد رأينا خارج الإسكندرية عروسا عربية على ظهر الجمل يتبعها كل

ما تلقت من هدايا الزفاف من دواب و أثاث ... و كان الموكب يسير ببطء و يتوقف أحيانا. و كان العرب يعزفون الموسيقى و يطلقون الرصاص و النساء تزغردن.

يقوم أهل زوجة المسلم المتوفى باستئجار نساء لندب الفقيد إذا رأوا أنه يصعب عليهم بكاؤه و ندبه مطولا. فتقوم هؤلاء بالصراخ منذ وفاة الرجل و حتى دفنه. و إن عادة تغطية الوجه مفيدة لبعض النساء لأنه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۶

لا تسمح بمعرفة ما إذا كنّ يذرفن الدمع أم يكتفين بالعويل. و فى الشرق هناك عدد معين من الأيام و فترة معينة من كل يوم على النساء أن يبكين فيها أمواتهن إما فى منازلهن أو فى المساجد أو على القبور. فمن غير العجب إذا، فى هذه البلاد أن نرى النساء، يمررن سعيدات فى الشارع فى ساعة معينة من النهار ثم يتوجهن فى ساعة أخرى إلى قبور أمواتهن أو إلى المسجد، ثم يبكين لساعة كاملة بعد ذلك، ثم يرحلن من دون أن يبدو عليهن أى أثر للحزن. و النساء وحدهن يقمن بهذه الطقوس. فالرجال أقل خبثا منهن و أحيانا يهدئون من روع النساء اللواتى يستفضن بالصراخ. و لا تنحصر عادة البكاء على الموتى بالنساء المسلمات و حسب بل إن زوجات المسيحيين الشرقيين يمارسن الطقوس نفسها و يستأجرن أحيانا بعض النساء لهذه الغاية.

و قد نعتقد أنه لا وجود للحفلات المسرحية فى مصر إلا أن فى القاهرة فرقة كبيرة من الممثلين مؤلفة من مسلمين و نصارى و يهود. من مظهر هؤلاء نعرف أنهم لا يحصلون على أجور جيدة. و هم يقبلون بالتمثيل أمام أى كان مهما كان الأجر زهيدا. يستعملون باحة المنزل كمسرح أو يمثلون فى الهواء الطلق.

و فى جزء من مكان التمثيل، هناك ستار يغيرون ثيابهم خلفه. و لأن عددا كبيرا من الأوروبيين لم يكن قد شاهد أى مسرحية عربية، اتفقنا مع هؤلاء الممثلين أن يعرضوا لنا تمثيلهم فى منزل تاجر إيطالى متزوج. إلا أننا لم نعجب لا بالموسيقى و لا بالممثلين. و لم أكن بعد أجيد اللغة العربية لأفهم كلامهم و لم أجد ضرورة فى طلب التفسير لأن التمثيلية بكاملها كانت سيئة. و جل ما فهمت أن الممثل الأساسى كان امرأة (بل رجل فى ثياب امرأة فشل فى إخفاء لحيته) و كانت تدعو المسافرين إلى الدخول إلى خيمتها حيث تسلبهم مالهم بطريقة فائقة التهذيب ثم تطردهم منها. كانت قد سرقت عددا كبيرا منهم و بدا أن آخرين كانوا سيحظون بالمصير نفسه. إلا أن أحد التجار الشبان ملّ من رؤية هذه السخافات فأيده بعض المشاهدين و طلبوا من الممثلين إنهاء المسرحية التى لم تكن قد بلغت منتصفها.

الدمى المتحركة هى الأكثر شيوعا فى القاهرة. لقد شاهدت عرضها مرارا فى الشارع. فيمكن لشخص واحد أن يحمل المسرح المصور تحت الحرف (خ) من اللوحة ۲۶. لكن لا شك أن المسرح الحقيقى أكبر منه بكثير. يقف الممثل وراء المسرح أو قل عليه حتى يتمكن من رؤية المشهد و المشاهدين من خلال الثقوب فى اللوحة (أ) دون أن يراه أحد. ثم بعد ذلك، يمرّر دماه من خلال الثقوب (ب) و يحركها إلى الأمام و الخلف و كيفما شاء من خلال خيط من الحديد يمسكه بيده. و لتغيير صوته، يستعمل الممثل آلة صغيرة يضعها فى فمه و لو أن مضمون عرضه كان أفضل لكانت المسرحية رائعة. فى بداية العرض تبدأ الدمى بإطراء بعضها ثم تتشاجر و ينتهى العرض بالضرب. و لعله فى ذلك يجارى ذوق مشاهديه إذ بدا الحضور معجبا بالمسرحية. و من الشائع أيضا فى مدن الشرق القيام بعروض على الحائط بواسطة الظلال. إلا أنى لم أحب حضور مثل هذه العروض لأنها تسخر من ثياب الأوروبيين و من عاداتهم و تقاليدهم.

من بين المشعوذين الذين يؤمون القاهرة، رأيت واحدا لديه منبع متقطع من الحجارة كالذى يحمله

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۷

الدجالون. يسيل الماء منه لفترة ثم ينقطع ثم يستأنف السيلان. و لأنه يعرف طريقة عمل هذه الآلة، يدعى أنه يأمر الماء بالسيلان ثم بالانقطاع حسب الظروف و كان الناس يعطونه قروشا معدودة لقاء شعوذته.

و كان آخر يرمى الغبار فى وعاء ثم يسحبه جافا. و كان لثالث كأس مزودة بقعرين و بغطاء. فى الجزء الأعلى هناك بيضة و فى الجزء السفلى هناك صوصان. بعد حديث طويل و خطابات على أنواعها، كان ينفخ على صدفة كبيرة و يسحب الغطاء ثم يظهر البيضة. و فى مرحلة ثانية و بعد خطابات مماثلة، كان يسحب الكأس الثانية مع الغطاء و يبيّن تحوّل البيضة إلى صوصين. و كان يعيد الكرة بواسطة كأسين آخريين و فى الجزء الأعلى رمل و فى الجزء الأسفل منها علف للدجاج علما أن هؤلاء لا يسألون أحدا عن أجر لقاء ألعابهم. فعند نهاية العرض يتركون للحضور حرية إعطائهم شيئا.

كما و يعتاش بعض المصريين من قرودهم و هى غالبا ما تكون من النوع المتوحش الذى يعيش جماعات جماعات فى غابات اليمن. إن مالك هذا الحيوان غالبا ما يكون لديه حيوانات أخرى كالحمار و العنزة و الكلب. بعض الناس يرقّصون الثعابين. قد يعجب البعض من ذلك خاصة إذا كان لا يعلم شيئا عن غرائز هذه الزواحف لكن هناك أنواع من الثعابين تحب الموسيقى فعند ما تسمع صوت الطبل ترفع رأسها و الجزء الأعلى من جسمها فيقال إنها ترقص. كما و من السهل تعليم القرود الرقص. و قد أكد لى قبطان من الشركة الإنكليزية لبلاد الهند أنه رأى على شاطىء كورومنديل(Coromandel) هياكل قديمة تسكنها القرود من دون الخوف من سكانها الوثنيين و أنه أدخل الطبول عدة مرات إلى هذه الهياكل المهجورة فما كان من القرود حتى الأمهات منها إلا أن خرجت للرقص على إيقاعها و كانت الأمهات تحمل أطفالها بيدها و ترقص وسط قرود أخرى. و لأن الثياب الشرقية الطويلة لا تناسب هذه الحيوانات التى تسير على أربع قوائم، غالبا ما يلبس الناس قرودهم الزى الأوروبى. إن من شأن ذلك أن يجعل المسلمين يقارنون بيننا و بين القرود. و هذا ما يحصل دائما عند ما يرون أوروبيين مكشوفى الرأس يحملون سيفهم أفقيا فيخرج من ثيابهم من الخلف و كأنه ذيل القرد.

و كما يقوم بعض البحارة الذين احتجزوا لبضع سنوات فى بلاد البربر بإعطاء الشعب الأوروبى أفكارا مشينة عن سلوك المسلمين تجاه المسيحيين عامة، كذلك يقوم بعض أهل مصر بسرد أخبار كثيرة عن قسوة الأوروبيين. سأكتفى بالتكلم على ذلك الرجل الذى صادفته مرارا فى القاهرة. كان يجلس فى وسط الطريق و يظهر للناس القيود الضخمة التى كانت تكبله عند ما كان محتجزا فى مالطا و يحكى لهم عن الآلام التى عانى منها أثناء فترة عبوديته كإجباره مثلا على رعاية الخنازير أثناء النهار و على النوم فى حظيرتها أثناء الليل. و لشدة ما كان المسلمون يتعاطفون مع هذا الشحاذ كانوا لا يمطرونه بالحسنات و حسب بل بشتى أنواع السباب التى يوجهونها إلى الشعب الأوروبى الهمجى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۸

آثار مصر

ما من آثار مصرية تاريخية تسترعى الانتباه بقدر الأهرام، و قد بنيت الأولى منها على خط منحرف قبالة القاهرة، أى من الجهة الغربية للنيل، و على التلة الأولى من جهة هذا النهر. عند ما يصل أوروبى إلى القاهرة، لا يغادر مصر قبل رؤية هذه الآثار المذهلة عن كثب، لذا وصلنا أكثر من وصف مفصل لها، لكن لا أظن أن ملاحظاتى حول هذه الأهرام و دراستى لها ستكون من دون جدوى بالنسبة للقراء.

و فى أول مرة أردت فيها رؤية الأهرام، شاركت فى رحلة صيد مع الأوروبيين المقيمين فى القاهرة الذين يملكون بيتا ريفيا فى الجيزة، فاجتزنا جسرا يعلو ساعدا عظيما من النهر، فى الطريق بين الجيزة و الأهرام. و عند ما وصلنا إلى هذا المكان، عادت البعثة، و لم يرافقنى إلى الأهرام سوى السيد فورسكال، و أخذنا معنا بدويين التقينا بهما لتوّنا عند الجسر المذكور أعلاه، ليكونا دليلينا. كانا يمتطيان جوادين فى حين ركبنا نحن حمارين، و كنت قد حملت معى اسطرلابا (آلة قديمة لقياس ارتفاع الشمس أو النجوم) لاستخدامه إذا ما تسنت لى الفرصة. و عند ما وصلنا سفح التلة التى تقوم عليها الأهرام، شكّلت قاعدة أ، ب من ۲۰۳ قدم (راجعوا اللوحة الخامسة، الصورة د). فى المحطة الأولى، وجدت أن الزاوية الأفقية د، أ، ب الواقعة بين القاهرة و زاوية الهرم من الشمال الشرقى هى ۳۷؟، ۲۰؟،

و أن الزاوية العمودية د، أ، ج هى ۴۱، ۳۴؟ فى المحطة الثانية، وجدت أن الزاوية د، ب، أ هى ۱۴۱؟، ۳۰؟ و الزاوية د، ب، ج هى ۴۱، ۳۶؟ و عند البحث عن الضلع أ، د للمثلث د، أ، ب، و الضلع د، ج للمثلث د، أ، ج، تبين أن ارتفاع قاعدة الهرم الأول فوق أفق الآلة بلغ ۱۷۰ قدما. و بما أن الآلة كانت على ارتفاع ۳۰ قدما بالنسبة للنيل، نستنتج أن قاعدة الهرم الأول أعلى من ضفة النيل بحوالى ۲۰۰ قدم.

و كان من السهل علىّ تحديد ارتفاع الهرم لو استطعنا اختيار موقع لقياس ارتفاع رأسه، لكن رأينا عربيا يعدو نحونا، و لأننا لم نكن قد اعتدنا بعد على البدو، سارعنا إلى إخفاء الآلة. كان هذا البدوى ابن أحد الشيوخ، و يبدو أكثر تميّزا من مرافقينا، فسألنا بأدب و احترام عن سبب تواجدنا وحدنا فى هذا المكان المعزول و عند ما سمع جوابنا، عرض علينا مرافقتنا حتى الأهرام و إلى أين ما شئنا. رفضنا عرضه لأننا لم نكن بحاجة إلى دليل ثالث، لكنه أراد البقاء معنا، فأجبناه بطريقة جافة أننا لن نمنعه من مرافقتنا فأكد لنا أنه لن يزعجنا. و اقتربنا من الأهرام، و حين وصلنا وراء تلّة صغيرة، رمى الشاب رمحه أمام السيد فورسكال و منعه من التقدم أكثر إن لم يعطه مالا، لكن هذا الأخير رفض إعطاءه أو وعده بشىء. و كنّا عزلا نمتطى حمارين و بالتالى غير قادرين على مقاومة الشاب لا سيّما و أننا لا نستطيع الوثوق بالدليلين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۵۹

و أسرعت نحو التلة، و لم أكد أصرخ لصديقى فورسكال أن هناك أناسا فى السهل يعملون حتى استعاد الشيخ هيئته المجاملة و اللطيفة. و لم نشأ التقدم أكثر، فعدنا إلى قرية تبعد عن الجيزة حوالى نصف ميل، وعدنا العرب بإيصالنا إليها. خلال الطريق، تصرّف الشيخ معنا بطريقة وقحة للغاية، و حاول إفقادنا صبرنا، و عند ما افترقنا، طالبنا بالنقود، و كان ليكتفى بمبلغ لا يذكر لكن السيد فورسكال قرر عدم إعطائه المال. و حين رأى أنه لن يحصل على مبتغاه بالحسنى، نزع عن رأس صديقى عمامته، فما كان من هذا الأخير إلّا أن توجه إلى مرافقينا قائلا: «أيها البدويون، يظنون فى بلادنا أن الإفرنج فى مأمن حين يكونون تحت حمايتكم، و أنا الآن تحت حمايتكم. لكن إن كنتم ترضون أن يسلبنى صديقكم، سأروى لمواطنىّ ما يحصل، و أعلمهم أنكم غير صادقين و غير أمينين». أثارت هذه الكلمات حمية العربيين فأجبرا الثالث على ردّ العمامة، لكننا لم نتخلص منه، فتحوّل نحوى، و لم أشأ إعطاءه المال، فأراد الاستيلاء على أسطرلابى الذى وضعته أمامى على ظهر الحمار. و لم أضبط أعصابى كصديقى، بل أمسكته بقطعة القماش الكبيرة التى تلف خصره، و بما أنه لم يكن ممسكا بلجام جواده، انطلق هذا الأخير و وقع الأعرابى أرضا. و اعتبر الشاب أنه تعرض لإهانة كبرى، إذ رماه أرضا مسيحى، فأخذ مسدسه وصوّبه نحو صدرى، و لا أنكر أنى أحسست بأن نهايتى اقتربت، لكن المسدس لم يكن محشوا. و حاول الأعرابيان الآخران تهدئة الشيخ، و نجحت كليا فى ذلك حين منحته المال. و حين عدنا إلى الجيزة، سخر الآخرون منا، فقد أعلمونا بعدم الوثوق بالبدو و بأننا سنتعرض للنهب و السلب، لكنى أعتبر أننا لو وعدنا الأعرابى الثالث منذ البدء بالمال، لجلنا فى الأهرام بأمان. و لا يشكل العرب خطرا كبيرا بقدر ما يتصوّر الأوروبيون قبل اكتشاف طريقة تفكيرهم و تعلم لغتهم.

يعلو ذراع النيل الذى ذكرته و الذى يجرى بين الجيزة و الأهرام جسران جميلان للغاية، يبلغ طول الأول ۶۰ قدما مزدوجة و الثانية ۵۰ قدما مزدوجة. ينقسم كل جسر إلى ۱۰ قناطر. ۹ منها مسدودة بالتراب أو بسور مرتفع بعض الشىء. كى لا تمر مياه النيل بسرعة عند ارتفاع المنسوب أو تتراجع بسرعة عند انخفاضه. و نجد من كل جهة، و بين الجسور سدا مبنيا من الآجر و من الحجارة المقصوبة، و يبلغ طوله حوالى ۱۵۰۰ قدم مزدوجة. يبدو لى أن المسلمين قاموا ببنائه، أو على الأقل عملوا على ترميمه، لأن الجسور تحمل كتابات عربية حديثة. و شاهدت فى محيط الجيزة جسرين آخرين يقوم الأول على خمس قناطر و الثانى على ثلاث قناطر، و يحملون كتابات عربية .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۱

و بعد فترة، توجهنا مجددا إلى الأهرام يرافقنا عدد من التجار، و قاد البعثة السيد مينار، و هو تاجر فرنسى، أقام لسنوات عديدة فى مصر و قصد الأهرام مرارا. و قد حاول حمايتنا قدر المستطاع، لكن إيطاليا حديث الوصول إلى البلاد تعرّض للسلب، بالرغم من عددنا

الكبير. فحين وصلنا الأهرام، كان عدد كبير من سكان القرى المجاورة و بعض البدو قد اختلطوا بخدمنا العرب و بسائقى حميرنا. و خلعنا ثيابنا لدخول الأهرام، و سلّم كل منا ثيابه إلى خادمه الخاص أو إلى خادم يعرفه، باستثناء الإيطالى الذى سلّمها لأوّل عربى تقدم لأخذها، فما كان من هذا الأخير إلّا أن أخذها و رحل. و عند ما خرجنا، فقد كلّ منا بعض الأغراض، ففقد هذا مسدسه و الآخر حذاءه الخ. لكنى أرفض نعت العرب باللصوص كما يفعل غيرى من المسافرين، فهم لم يفعلوا إلّا ما يحصل فى أوروبا عند ما تكثر الجموع. و فى هذا اليوم، رسم السيد بورنفايند لباس العرب فى هذه المنطقة على اللوحة ۲۹.

و كان هدفى الرئيسى، من هذه الرحلة، هو تحديد ارتفاع الهرمين الكبيرين، و استنادا إلى البوصلة الصغيرة، تقابل جهات الهرم الأربع الغرب، و الشرق و الجنوب و الشمال، و نجد من كل جانب أكواما من الأنقاض و الرمال التى تجمعت بفعل الزمان أو الرياح. و نرى عند زوايا الأهرام الصخرة التى قامت عليها، لأن الهواء يعصف بشدة فيحمل ارمال و الأنقاض التى تساقطت من الأهرام شيئا فشيئا. و لتحديد ارتفاع أحد الأهرام، يكفى أن نقيس الزاوية التى تشكلها قمته فى إحدى الزوايا مع الأفق (أو فى الزاوية الممتدة،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۲

لأننا لا نرى القمة من أسفل الزاوية)، و أن نقيس الجوانب على مسافة متوازية. و عند ما نفتقر للوقت فى دراسة هذه الأصرحة الهائلة، و نكون محاطين بأناس نعتقدهم لصوصا، لا نختار السبيل الأسهل و الأدق، لذا أظن أن قياسى ليس بالدقة التى كنت أرجوها. و لم أقس جوانب الأهرام إلا بالقدم، و افترضت أن الخط أ، ب (راجع اللوحة الخامسة، الصورة ه) بين الزاويتين الأقرب بين الهرمين تشكل خطا مستقيما مع الخط الممتد بين الزاوية و وسط قاعدة هذين الصرحين مع انحراف بسيط. بالرغم من ذلك، يمكن أن يكون لقياسى فائدة ما، لذا قررت نشره بواسطة حبل لمسح الأراضى، كنت قد قسته و وضعته مسبقا، و تبين لى أن الخط أ، ب أو المسافة بين الزاويتين الأقرب بين الهرمين الكبيرين، تبلغ ۵۶۵ قدما. و تبلغ الزاوية العمودية ب، أ، ج ۳؟، ۱۰؟، و ارتفاع الآلة ۳ أقدام، لكن عند قياس الخط ب، ج للمثلث ب، أ، ج، تبين أنّ طوله ۳۴ قدما أى إن قاعدة الهرم الثانى ترتفع ۳۴ قدما أكثر من قاعدة الهرم الأول.

و يبلغ عرض الجهة الشمالية للهرم الثانى أو الخط ب، ك ۱۴۱ قدما مزدوجة، مما يعطينا طول الخط ب، ل أو المسافة بين زاوية الهرم و وسطه، إذا ما افترضنا أن جهات الهرم الأربع متساوية من حيث الطول. و يمكن تحديد ارتفاع الهرم الثانى، عند قياس ارتفاع قمة الأول من إحدى الزوايا. و وفقا لتقديرى، يبلغ طول ب، ك ۷۰۵ قدم، و ب، ل ۴۹۸ قدما، و أ، ج أى القاعدة المصغّرة أ، ب ۵۶۲ قدما، و الزاوية د، أ، ج ۲۴؟، ۶؟، و أ، ل ۱۰۶۰ قدما، و د، ن أو ارتفاع قمة الهرم الثانى فوق أفق الأول ۴۷۷ قدما.

و لا حظت أن قاعدة الهرم الثانى ترتفع ۳۴ قدما أكثر من قاعدة الأول، أى إن ارتفاع الهرم الثانى يبلغ، بحسب تقديرى، ۴۴۳ قدما.

و يبلغ عرض الجهة الجنوبية للهرم الأول أو الخط أ، ط ۱۴۲ خطوة مزدوجة، أو حوالى ۷۱۰ أقدام.

إذا، يبلغ عرض أ، م ۵۰۲ قدم، أو حوالى ۶۰۰ نظرا إلى أن هذا الهرم لا يملك قمة. أما عرض أ، ج فيبلغ ۵۶۱ قدما، لأنى لم أستطع وضع الإسطرلاب قرب الزاوية ب، و تبلغ الزاوية «ه، ب، و» ۲۰؟، ۴۸؟. و يرتفع «ه، و» أو ارتفاع قمة الهرم الأول ۴۰۳ أقدام بالنسبة لأفق الآلة، لكن بما أن الخط ب، ج أو الآلة ترتفع عن قاعدة الهرم الأول ۳۷ قدما، يبلغ ارتفاع هذا الصرح ۴۴۰ قدما. و قد لاحظت أن التلة التى يقوم عليها هذا الهرم، تقع على ارتفاع ۲۰۰ قدم، و بالتالى، نستنتج أن قمة هذا الهرم أعلى من ضفة النيل بحوالى ۶۴۰ قدما. و ورد ارتفاع الهرم الأول فى الأعمال التى وصفت مصر، لكن أحدا لم يعتقد أنها منخفضة كما ذكرت، و كادت ملاحظات العلماء الآخرين المشهورين تدفعنى إلى عدم ذكر ملاحظاتى. لكن فضّلت أن أنشرها، و إن لم تكن غاية فى الدقة، بدلا من أن أنسخ ما ذكره الآخرون حول ارتفاع الأهرام .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۳

و تغطى الرمال أبا الهول جزئيا، و تبين لى أن ارتفاع الذقن يبلغ ۱۰ أقدام و ۶ بوصات، أما طول الرأس فسبعة عشر قدما، أىّ إن ارتفاع الرأس و الرقبة فوق الرمال يبلغ ۲۷ قدما و ۶ بوصات.

و قد بنى الهرمان الكبيران من نوعية حجارة الصخرة التى يقومان عليها نفسها، و هى أحجار كلسية ليّنة، إذن، لا بد أنهم جمعوا الحجارة من المحيط و من حول تمثال أبى الهول، لأن هذا الأخير يبدو و كأنه حفر فى الصخر، أما ذاك الذى يسند الهرم الثانى فهو مسطّح و يشكل جزءا لا يتجزأ من هذا النصب.

و بالغ بعض المسافرين فى وصف الأعمال الضخمة و الكلفة العظيمة لهذه الكتل أو الجبال الحجرية، و أشاروا إلى أنها كانت مغطاة بالرخام، و يؤكد بول لوكا(Paul Lucas) أنها كانت مطلية بالإسمنت، لكن هذه الأقوال عارية عن الصحة، على الأقل بالنسبة للهرم الثانى. و نرى فى أعلى هذا الصرح، حول قمته، جزءا كبيرا من الرأس : و بالرغم من أنه يبدو متماسكا من بعيد، و من حجارة صلبة، لا سيّما حين يقع عليه ضوء الشمس، فهو مبنى من الحجر الكلسى اللين نفسه الذى بنى منه الهرم. و لدراسة هذا الأمر، تسلقت الهرم حتى قمته، و جلبت قطعة منه، و أعتقد أنه ليس من أوروبى تكبّد هذا العناء، إذ لا يتسلق المسافرون إلّا الهرم الأول و لا يسترعى الثانى انتباههم لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى القمة.

و يبدو أن عمل مهندس هذا الصرح الأخير قضى بقصّ الحجارة الناتئة، و تسوية الجهات الأربع من القمة و حتى القاعدة، و هكذا يتصدى للعوامل الطبيعية و للزمان أكثر مما لو كانت الأحجار متدرجة. و مع ذلك، وقع قسم كبير من سقف هذا الهرم، و حملته الرياح، و نستنتج من ذلك أن الأهرام نفسها ستضمحل يوما تحت تأثير عوامل الزمن، لكن ينبغى انتظار آلاف السنين. و لماذا يتكبد المصريون عناء إحضار الحجارة من قمة الأهرام الكبيرة، فى حين أنهم يستطيعون الحصول عليها بسهولة أكبر من جبل المقطّم أو من التلة التى تقوم عليها الأهرامات؟ لم أجد دليلا على وجود رأس فى أعلى الهرم الأول، و لعل الأمر يعود لقدمه أو لأنه مبنى من أحجار ليّنة و بالتالى معرّض للهواء أكثر من الجزء الأعلى للهرم الثانى. و لا أظن أن بانيها يسعى إلى أن يتسلق الناس الهرم الأول، لأن ارتفاع درجاته غير متساوية كما فى الهرم الثانى، و الذى يحاول صعوده من أمكنة عدة، لن يجد عدد الدرجات نفسه.

و نجد قرب الهرم الثالث، المبنى من حجارة كلسية، عددا من أحجار الغرانيت، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه كان مغطى فيما مضى بهذه الحجارة، كما يؤكد المؤرخون القدامى. لكنى لم أكتشف، فى الوقت القليل الذى تبقى لى لدراسة هذا الهرم، ما يؤكد أن الطبقة الخارجية كانت من الغرانيت. و تجدر الإشارة إلى أنى وجدت بين الحجارة الكلسية أحجارا كبيرا من الغرانيت غير مقطعة موازية كأحجار سقف الهرم الثانى، لكنى أجهل إذا ما كانت تحمل كتابات مصرية قديمة. و لم أر هذه الحجارة عند دراستى للهرمين الكبيرين، كما لم أتوقع ذلك، لأن الحجارة الخارجية المغروسة فى الأرض لم تعد موجودة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۴

و تسلقت الهرم الأول للاستمتاع بالمشهد الذى وصفه العديد من المسافرين، كما دخلت هذا الهرم و رأيت ما ذكره العديدون. لكن لم يحالفنى الحظ لأكتشف الغرفة التى كانت لا تزال مجهولة و التى اكتشفها بعد رحيلنا السيد دافيسون(Davison) الذى زار مصر مع السيد مونتاغى(Montagu) . و بما أن السيد مايه(Maillet) الذى يفاخر بأنه دخل هذا الهرم أكثر من ۴۰ مرة ، لم يلاحظ هذه الغرفة، سيسامحنى القراء و العلماء لأننى لم أقم بأبحاث من هذا النوع و اكتفيت بدراسات أخرى. و استنادا إلى وصف السيد مينار(Meynard) ، تقع هذه الغرفة فوق الغرفة الكبيرة المعروفة التى تحوى الصندوق، و هى تحتل المساحة نفسها، لكنها أقل علوا، و يعلو مدخلها المنحدر الذى يؤدى إلى الغرفة الكبرى بثلاثين قدما.

و نجد فى الحجارة الكلسية للأهرام، و على الصخرة القائمة عليها، أشياء متحجرة بحجم الدوكا إنما أسمك، و يطلق عليها العرب اسم فضة أبى الهول، كما نجد أشياء متحجرة أخرى على شكل العدس، من نوع الحلزونيات التى جمعتها فى «أبو قير»، على الشاطىء المصرى. و قيل لسترابون إنّ هذه المتحجرات الصغيرة تكوّنت فى الفتات الذى أوقعه الذين بنوا الأهرام . لكن نجد كميات منها فى صخور جبل المقطم قرب القاهرة. و يشير غرانجر(Granger) إلى أن الصخور قرب شيخ حارى(Schech Harre) ? فى مصر العليا مليئة بهذه المتحجرات على شكل العدس. إذا، يحتمل أن تكون كافة الصخور فى مصر الواقعة تحت خط عرض معين، مكوّنة

من هذه المتحجرات، لأننا نعلم أن صخور القسم الأعلى للبلاد مكوّنة من الغرانيت. و يدفعنا هذا إلى التفكير حول قدم مصر، كم من السنوات مرّت، قبل أن يولد هذا الكمّ الكبير من الحلزون الصغير و يموت، كى تبلغ هذه الجبال علوها هذا؟ كم من سنوات مرّت، قبل أن تجف مصر لا سيّما إذا ما تراجعت المياه فيما مضى عن الشاطىء بالبطء الذى تراجعت فيه فى القرون العشرة الأخيرة؟ كم سنة مضت قبل أن يكثر السكّان فى مصر، و قبل أن يفكروا ببناء الهرم الأول؟ كم سنة مضت قبل أن تبنى هذه الأهرام التى نراها حاليا فى مصر؟ و لا نعرف حاليا بدقة فى أى قرن و بأمر ممن بنى الهرم الأخير.

و لقد كان من الممكن أن نعرف تاريخ هذا البلد القديم، لو تمكنّا من قراءة كتابات سكّانه القدامى، لأننا لا نجد فى أىّ بلد فى العالم صروحا تكثر عليها الكتابات القديمة بقدر ما نجد فى مصر. لكن لن نستفيد من جهد السكّان القدامى الذين حاولوا تخليد كتاباتهم بحفرها على حجارة صلبة لأننا لا نفقه منها شيئا. و لا نجد سوى القليل من العلماء بين المجموعة الكبيرة الموجودة فى أوروبا، الذين يتمتعون بالصبر و الذكاء الكافيين لدراسة الآثار، و لا تسنح لهم الفرصة عادة لرؤية هذه الآثار إلّا فى مكتباتهم، و لعلهم لم يحصلوا حتى اليوم على نسخ عن الكتابات المصرية القديمة. و إنى على ثقة بأنهم سيفسرون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۵

العديد من الأمور، إن زودهم المسافرون بنسخ كثيرة، لا سيّما إذا كانوا على معرفة بلغة الأقباط التى كانت منتشرة فى مصر قبل وصول اليونانيين، لأن معرفة هذه اللغة ضرورية لتفسير الحروف الهيروغليفية.

و لقد حافظ الأقباط الأوائل، على الأرجح، على كتابات أسلافهم الوثنيين، كما حافظ العرب المسلمون على الكتابة الكوفية. و يبدو أن مصر لم تلق مصير البلاد الأخرى التى قهرتها أمم أجنبية، فأدخلت إليها دينها و لغتها، و قد اختبرت مصر هذا لاحقا، و لم يكن أحد ليهتم بكتابة السكّان القدامى، و خاصة و أن الأغلبية كانوا يعتقدون بحقهم المستمد من السماء لاستئصال الديانة القديمة بالحديد و النار. و قد أشاد بعض اليونان المطلعين الذين زاروا مصر، بحكمة سكّان البلاد القدامى، و لا زالت الكتابات المتعددة و الأصرحة الرائعة التى خلّفها هؤلاء تثير إعجابنا و استغرابنا. و إلا لجعلناهم فى عداد الشعوب الوثنية الأخرى، و اعتبرنا أنهم لم يعرفوا الكتابة كما لم يعرفوا الله.

و ينبغى تشكيل مجموعة كتابات هيروغليفية كاملة إلى حدّ ما، كى يقوم بتفسيرها العلماء، لذا يجب أن يقيم أحد المسافرين بعض الوقت فى مصر العليا، و أن ينسخ كافة الكتابات الكاملة (غير الناقصة) التى تملأ على ما أعتقد جدران المعابد القديمة، كما سيجد الكثير منها فى مدافن المومياء قرب سقارة. و لعلنا سنجد فى مساكن الموتى الجافة هذه، آثارا و غرائب جديدة و حتى كتبا فضلا عن المومياء و الأوانى المغطاة بالكتابات؟ من هو الأوروبى الذى تكبّد عناء كسب محبة عامة الشعب ليدرس كل هذا معهم كيفما شاء؟ نسارع عادة بالعودة إلى القاهرة ما إن نحصل على ما نريد لقاء بعض المال. و يبدو أن المسافرين يكتفون بنقل موقع الحجارة و شكلها و لا يهتمون بنسخ الكتابات المحفورة عليها. و يشتكى البعض منهم من الملل الذى أحسوا به لرسمهم البقايا و حسب، مع أن هذا الأمر لا يتطلب الكثير من الوقت، كرسم الكتابات الهيروغليفية التى لا ينبغى إهمال أىّ خط منها إذا ما أردنا الحصول على نسخ دقيقة ليفسرّها العلماء. إذا، إن المشقات و المصاعب التى يتوقع أن يلاقيها المرء فى مصر، عند الاهتمام بهذه الأمور، كادت أن تثنينى عن عزمى، لا سيّما و أن القاهرة ليست بالمكان الذى تكثر فيه الكتابات الهيروغليفية، و أنى لم أكن مكلفا بالأبحاث حول الآثار. لكن، حين كنت أرسم خارطة القاهرة، وقعت على كتابات هيروغليفية، فقررت نسخها لإرضاء نفسى، و تطلب نسخ الكتابات الأولى الكثير من الجهد لأننى كنت أجهل كافة الرموز، لكن نسخ الثانية بات أسهل، و فى النهاية، أصبحت الرموز الهيروغليفية مألوفة لدى، فاستطعت نسخها بالسهولة التى أنقل بها الحروف اليونانية أو الكوفية. و سأورد هنا الكتابات التى نسختها فى مصر، و لا أشك فى أن بعض الرموز ستساعد فى تفسير و فهم الكتّاب القدامى.

إن أعظم كتابات رأيتها فى مصر هى تلك الموجودة على صندوق كبير من الغرانيت الأسود، قرب مسجد طولون(nچTeil) ، بالقرب

من قلعة القبش(Kall el K bsch) ، راجعوا اللوحة ۳۰ رسم بوكوك هذا الصندوق الذى أطلق عليه اسم «نبع الكنز»(The Fountain of Treasura) ، على اللوحة الثانية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۷

«لوصف الشرق»(Description of the East) ، كما رسم بيرى صندوقا مماثلا و الحروف الهيروغليفية المنقوشة عليه على اللوحة ۳۳ من «رؤية للمشرق»(View of the Levant) . و يبلغ طول هذا الصندوق حوالى ۷ أقدام، و هو أعرض من الأعلى منه فى الأسفل، لذا من الطبيعى أن نستنتج أنه تابوت لمصرى ما كريم النسب. و قد وضع الصندوق فى مشكاة ، و بالتالى لا يمكن أن نرى سوى الكتابات المنقوشة على الجهة الأمامية، و يحمل الصندوق على الأرجح كتابات من الجهات الأخرى. كما نجد رموزا هيروغليفية داخل الصندوق، لكنها مغطاة بالكلس لأنه يستعمل حاليا كمسقى. يفترض مايه(Maillet) أن هذا الصندوق الذى يسميه نبع العشّاق، أخذ من أحد الأهرامات و نقل إلى القاهرة، لكن الصندوق الذى نراه فى الهرم الكبير غير مستدير من الأعلى. و لا يحمل كتابات هيروغليفية. و أظن أن بعض الأشخاص الكريمى النسب فى مصر، و الذين لا يتحملون نفقة بناء أهرام، أو الذين توفوا بعد أن ولّت عادة بنائها، دفنوا فى هذه الصناديق الفخمة.

سجّل بعض اليونانيين، الذين كانوا فى مصر فى زمن كان المثقفون يجيدون قراءة الحروف الهيروغليفية، معنى بعض الرموز، لكنى أشك فى أن تفيد هذه التفسيرات لفهم الكتابة الهيروغليفية بحد ذاتها. و قد تصرفوا كما يتصرف المسافرون حاليا، إذ اكتفوا بالرموز الكبيرة التى تلفت الأنظار للوهلة الأولى. لكنى أعتقد أن هذه الرسوم لا تمت لكتابة المصريين القدامى بصلة، و يبدو أنها رموز تدل على أشخاص معينين أو أحداث معينة، و تثبت معظم الكتابات التى نجدها اليوم ما تقدمت به دون أدنى شك.

نرى ثلاثة من هذه الرسوم و بعض الرموز الصغيرة ضمن الكتابات المحفورة على الصندوق قرب قلعة القبش و الذى أتيت على ذكره آنفا. و تشكّل الرموز الصغيرة ما أسميه الكتابة الهيروغليفية، و أظن أنها نقشت لتفسير الرسوم الكبيرة، و يبدو من هذه اللوحة أن المصريين كانوا يرسمون الصور بشكل مستقيم و بالمقلوب، كالطيور على سبيل المثال التى تدير وجهها يمنة فى أحد الجوانب و يسرة فى جانب آخر.

و تجدر الإشارة إلى أن بعض الخطوط العمودية متساوية تقريبا فيما بينها، و الصور وحدها تأتى معكوسة كما ذكرت سابقا، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن المصريين نقشوا كتابات مختلفة تحمل الفحوى نفسها على حجر واحد فإذا ما تلفت إحداها بقيت الأخرى واضحة. و بالرغم مما تقدم، سأنقل للعلماء الكتابات الموجودة على جانب الصندوق و أترك لهم مهمة تفسيرها.

و لأكشف الحقيقة للذين سيتوهمون أنى لم ألاق صعوبات فى نقل هذه الكتابات الهيروغليفية، سآتى على ذكر المصاعب التى واجهتنى و أنا أرسم هذه اللوحة. ظننت أنه من الأفضل القيام بهذا العمل بحضور مسلم مثقف، فقصدت المكان بصحبة شيخ. و بما أن الصندوق فى شارع يكثر فيه مرور الناس، كثر من حولى المتفرجون، و لم يوجّه إلى أحد أية إهانة، لكنهم تفاجؤوا من حشرية الأوروبيين، و أعجبوا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۶۹

بقدرتى على نسخ الرموز كما هى على الصندوق و ذلك بواسطة عود (قلم) لا أغطه فى الحبر. و ما إن نسخت ربع الكتابات حتى وصل سراج و هو حارس فى خدمة البهاوات، يحاول أن يعطى لنفسه أهمية أمام عامة الشعب، و لا سيّما حين يستطيع شتم و إهانة يهودى أو مسيحى ما، لأن هذين الأخيرين لا يتجرآن على إهانة المسلم أو ضربه حتى و لو أسيئت معاملتهما. و لا أعلم إن كان مكلفا الحفاظ على الهدوء و الأمن فى المنطقة، و لم يتحمل رؤية هذا الحشد أو أنه أراد إظهار سلطته فى حضور هذا العدد من المشاهدين، لكنه تلفظ بكلام جارح، و رأى الشيخ الذى يرافقنى ضرورة الرحيل إلا إذا أردت التعرض للضرب. ركبنا حمارينا، وعدنا، لكنى كنت غاضبا من السراج، و أردت الاستعلام عن سيّده لأرفع إليه شكواى، لكن صديقى الذى يعرفهم أحسن منى، لم ينصحنى بذلك و

حاول تهدئتى راويا لى حالات مماثلة لم تفض الشكوى إلى شىء. و قال لى: هل يمكنك منع كلبك من النباح ضدك، أو حين يرفسك حمارك هل تضربه بدورك؟ يمكنك أن تعود لا حقا و تنسخ ما تشاء على مهل. و بعد أيام، عدت و صديقى إلى قلعة القبش، و منحت أحد حراس الحىّ بعض المال ليحمينى من أصدقائه، و تجمّع حولى الناس و من بينهم سراج سألنى عمن أعطانى الإذن لنقل الحروف الهيروغليفية عن الصندوق، فأجابه سراجى إن الإذن صدر عن معلمه، فرد الأول إن معلمه يرفض السماح لى بذلك. و هكذا غادرنا المكان، و بعد أيام عدت للمرة الثالثة، و لم أكن قد انتهيت من عملى كليا، حين أخذ أحد الأئمة الذى رآنى من منزل مجاور للمسجد يحدث ضجة، و لم أجد داعيا لأن أتعرض لمشاكل جديدة، فجمعت أغراضى و غادرت المكان.

و نسخت بهذه الطريقة الكتابات شبه كاملة، من دون أن أتكلّف الكثير من المال. و لو أنى توجهت إلى إمام المسجد أو إلى بعض الباهاوات، لكلفنى الحصول على الإذن هدية قيّمة، أو لعلهم منعونى من نسخ أىّ حرف. و لا ينبغى أن يطلب الأوروبى، الذى يسافر إلى البلاد الشرقية، حماية الأشخاص النافذين بين المسلمين إذا ما أراد إرضاء فضوله. و أعترف أن الأمر يتطلب شجاعة و برودة أعصاب، فلو أنى سمحت للسراج الأول بإخافتى، لما نسخت إلا القليل من الكتابات الهيروغليفية و الرموز. و باختصار، يجب توقّع المصاعب حين نسعى لرسم الآثار فى بلاد الشرق، لكننا لا نتعرض لمخاطر جسام، و يبقى الأهم أن ينال المرء مبتغاه.

يدّعى البعض أن باحات المساجد فى القاهرة تضم العديد من الصناديق التى نقشت عليها حروف هيروغليفية و التى تستخدم حاليا كأحواض. و منذ حوالى ۲۰ عاما اكتشف عثمان كخيا صندوقا، و نقله فى النيل لوضعه قرب مسجد، لكنه كسر عند وصوله إلى بولاق، فوضعت أجزاؤه حول شجرة لتغطية جذورها بالتراب بسهولة أكبر. تحمل اللوحات(XXXII, XXXIII, XXXIV XXXV, XXXI) ، الكتابات الهيروغليفية المنقوشة على أجزاء هذا الصندوق، و نجد بينها رموزا، لكن السطر الأعلى لا يعدو كونه للزينة، كما يمكن أن يكون للرسوم التى تتكرر معنى معين و كتبت حروف اللوحات الثلاث الأولى بشكل مستقيم، أما الأخريات فبالمقلوب. و نجد الصورة الكبيرة نفسها المحفورة على اللوحة(XXXIII) ،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۷۱

۳۳ لبيرى(Perrey) ، لكن الحروف الصغيرة التى ترافقها و التى تفسرها تختلف كليا عن تلك التى ترافق صورتى الكبيرة، و ينبغى مقارنة حروف لوحة بيرى الهيروغليفية مع حروف لوحتى التى ذكرتها، و نجد قطع هذا الصندوق فى ساحة كبرى أمام منزل الحاكم، و أمضيت هناك ساعتين رسمت خلالهما الرموز بحضور الكثير من المشاهدين و من دون أن أتعرض للإساءة. لكن حين عدت مرة أخرى، و بعد أن عملت لبعض الوقت، حضر سراج و طلب منى مرافقته لرؤية سيده الحاكم، و سألنى هذا الأخير عن سبب نقلى للكتابات الفرعونية، و عرضت عليه و رقتى، التى أعطاها لكبار القوم الحاضرين، فضحكوا من حشرية الأوروبيين التى بدت لهم غير مجدية. و أخيرا، أخذ السراج أوراقى و خرج من الغرفة، فرجوت الحاكم أن يردّها لى، فأجابنى بأن أطلبها من حارسه، مما يعنى أنه يسمح لهذا الأخير بأخذ الأوراق. و اضطررت إلى منحه بعض المال، فأعاد لى الورقة، و سمح لى برسم رموز هذا الصندوق المكسور.

و تحمل اللوحة(XXXVI) قسما من الكتابات الفرعونية المنقوشة على المسلتين الصغيرتين المكسورتين.

و استخدمت القطعة أ، و هى من الرخام الأسود كعتبة لمسجد قصر القاهرة، و بين الصور التى أوردتها، فإن التى أشرت إليها بنجمة تستحق اهتماما خاصا، لأنها كانت ناتئة و بارزة فى إحدى التجويفات. أما القطعة ب و هى من الغرانيت فاستعملت كدرجة أمام أحد المنازل قرب القنطرة الجديدة(K ntared Sjedid) ، و يبلغ عرضها ۵ أقدام و ربع، و يمكن أن نستنتج من هنا أنّ الصور المنقوشة كبيرة، و قد حفرت الصورتان المشار إليهما بنجمة بشكل عميق إنما ظاهر فى الوسط.

تعتبر الأوانى الصغيرة و جرار المرمر من بين الآثار المحفوظة جيدا و التى تحمل كتابات هيروغليفية، و قد رسمها نوردن بشكل جيد على اللوحة ۵۵، لذا اكتفيت بنقل الكتابات الهيروغليفية التى رأيتها فى مصر على خمس جرار و ذلك على اللوحة ۳۷ و ۳۸. و نقش رأس امرأة على غطاء الإناء الذى يحمل الحرف أ، و رأس كلب على الذى يحمل حرف ج، و رأس عصفور على ذلك الذى يحمل

حرف د، فيما فقد غطاء الإناءين الآخرين. و يبلغ ارتفاع الحرف أ، ۶ بوصات و نصف، أما ج، و د فسبع بوصات و ربع.

و يندر أن نجد فى بلاد أخرى كتابات قديمة محفورة فى الصخور الصلبة كهذه، كما نجد فى مصر رسوما و كتابات مرسومة على الخشب و على القماش و هى قديمة جدا و قد حافظت على رونقها. و رأيت هذه الكتابات عند قنصل فرنسا فى القاهرة على غطاء صندوق مومياء من الخشب، و نقلتها على اللوحة ۳۹. و وجدت هذه القطعة غريبة للغاية، لأنها تبرهن أن الكتابة الهيروغليفية المنقوشة فى الوسط من الرأس و حتى القدمين مؤلفة من حروف تشكّل كتابة المصريين، لكن الرسوم التى تغطى باقى الغطاء من الجهتين و التى ينبغى أن تكون أكبر مقارنة مع الكتابات الهيروغليفية و التى لم أرسمها، لا بد أنها رموز مستوحاة من الأساطير. و تحمل اللوحة(XI) العديد من الكتابات القديمة، و قد نسخت الصف أ عن تمثال خشبى للمومياء، و الصف ب عن غطاء صندوق مومياء، أما الكتابات الصغيرة ج فنقلتها عن جرّة صغيرة، يحمل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۷۳

غطاؤها رأس عصفور، و الصفوف الثلاثة ج نقلتها عن تماثيل خشبية صغيرة لمومياء، يبلغ طولها ۱۰ بوصات، و هى مرسومة بشكل سيىء. و نسخت الكتابات حبا بالصورتين الموجودتين فى الأسفل و يبدو أنهما رمزان، و لم تكونا مرسومتين إنما محفورتين فى حجر كلسى ليّن استخرج من مدافن المومياء فى سقارة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۷۴

و يبدو أنّ الذين يهتمون بتفسير الكتابات الهيروغليفية، لم يعملوا إلا على الرسومات الكبيرة أو الرموز، لكن أود أن ينتبه العلماء للحروف التى تشكّل الكتابات الهيروغليفية. أما الذين يودون التعمق بالكتابة الهيروغليفية، فعليهم الحصول على الحروف و الرسوم المختلفة التى تشكل هذه الكتابة. و بما أن النقوشات التى نسختها غير محفوظة كلها بشكل جيد، جمعت على اللوحة(XLI) كافة الحروف الظاهرة بوضوح فى رسوماتى، و من السهل إضافتها إلى الكتابات الهيروغليفية الأخرى المرسومة بشكل جيد، و إذا ما عمل المسافرون الذين يزورون مصر العليا على نسخ هذا النوع من الكتابات الأثرية، سنتمكن من معرفة كافة الحروف التى تشكّل الكتابة الهيروغليفية. و سنكشف أن بعض الحروف ترد أكثر على المسلات، و أن غيرها ينقش أكثر على أحجار الأضرحة، الخ. و ستساعد هذه الأمور على توجيه العالم الذى سيعمل على تفسير الهيروغليفية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۱

أخيرا، تحمل اللوحة(XLII) ، بعض الأشكال التى نقلتها من مصر: الشكل أ مصنوع من النحاس، و قد صبّ فى قالب، يبلغ طوله ۵ بوصات و ۳/ ۴ من أخمص القدمين و حتى أعلى القلنسوة، و نستنتج من هذا حجم الأشكال الأخرى الكبيرة. ثم الشكل ب، من النحاس أيضا، و قد قولبت جيدا، له كالأول دسار تحت القدمين، و قد نحتت المرأة و هى جالسة، لكن المقعد من مادة أخرى فلا أثر له، و هى تلبس أساور و حلقات حول القدمين كما يفعل الشرقيون حاليا، و لا ترتدى سروالا كما هى العادة عند النساء فى الشرق، إنما تلف قماشا قطنيا حول وركيها كما تفعل الغسالات عند ضفاف الأنهر و شواطىء البحار. و قد تزين الولد، الذى تضعه فى حضنها بعقد يحمل قلادة تصل حتى صدره، و نرى من الجهة اليمنى للرأس جديلة طويلة تصل حتى أكتافه، و يبدو أن للأم و للولد خصلة شعر مجدلة على الجبين، كالمرأة فى وادى فاران. و قد لحق الأذى بأعلى زينة رأس هذا التمثال، كما يفتقد الشكل ج إلى ما كان يحمله بين يديه و إلا فهو من النحاس المقولب، و يبدو قديما للغاية. أما الشكل د فمن النحاس، و قد وجد فى مصر، لكنه يبدو أنه صنع على يد فنان يونانى و لعله كيوبيد (إله الحب) يحمل حمامة فى كل يد، و هى حمامة بأجنحة مزدوجة أو مطوية من الأسفل. صنع الشكلان «ه» و «و» من الفخار المشوى، و لهما حلقة على الرأس، و قد استخدما على الأرجح كزينة، أما الشكل «و» فمغطى بطلاء أخضر اللون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۴

سير الرحلة من القاهرة إلى السويس و إلى طور سيناء

تشكل شبه الجزيرة العربية، و خاصة القسم الجنوبى منها، موضوع رحلتنا الأساسى. و لما كان يحظر على المسيحيين السفر برا من القاهرة إلى مكة برفقة الحجاج، اضطررنا لانتظار الفصل الملائم للسفر برا من السويس إلى جدة. كما أننا لم نستطع القيام برحلتنا إلى طور سيناء، لاكتشاف جبل المقطم أو جبل النقوش، الذى شغل الأوروبيين فى السنوات الأخيرة. خلال فصل الصيف، كان سكان القاهرة يحاربون القبيلة العربية الصغيرة المقيمة فى ضواحى الطور(To ?r) و إليكم سبب اندلاع هذه الحرب: وصلت إحدى السفن التى يرسلها سنويا سكان القاهرة من السويس إلى جدة، محمّلة بالقمح إلى المرفأ المذكور، بغية التزود بالمياه، لأنها عذبة و مجانية، على عكس مياه السويس. فلم يستطع العرب الرحل المقيمون فى جوار الطور، رؤية سفينة محملة بالقمح دون أن تخالجهم الرغبة بالسطو عليها. فأخذوا الربان و البحارة و الركاب أسرى لديهم، بعد أن غادر معظمهم السفينة للتزود بالمياه و لرؤية أصدقائهم، علما أن الأتراك يرفضون رفضا قاطعا منحهم جزءا من حمولة سفنهم. و استعانوا بزوارق الإنقاذ و مراكب الصيد الخاصة بسكان الطور لنهب السفينة. فأثارت هذه الحادثة بلبلة كبيرة فى القاهرة، و لم يعد يتجرأ عرب هذه القبيلة الصغيرة التى كانت تنقل بمساعدة عرب المنطقة البضائع من الطور إلى السويس، الذهاب إلى مصر حيث سيحاسبون على لصوصيتهم فى البداية، لم يكترثوا للأمر. لكن بعد أن نفدت الغنيمة راحوا يسعون للتصالح. فكانوا يزعجون كل القوافل المسافرة من السويس إلى القاهرة و يقتلون الجمال غير المحمّلة، أو يسرقونها. و أعلموا سكان القاهرة، أنهم صمّموا على سرقة القوافل كلها، إن لم يستعيدوا حق مشاركة العرب الآخرين فى نقل البضائع بغية كسب رزقهم. كانت هذه نقطة ضعف الحكومة المصرية، و حاكم هذا البلد المكتظ بالسكان، و سلطانها الذى يعتبر نفسه سيدا على شبه الجزيرة العربية. فهذه القبيلة العربية الصغيرة، كانت تجرؤ على غزو المدن، الواحدة تلو الأخرى، دون أن تهاب أحدا. أجبرتنا هذه الأحداث على التوقف فى مصر سنة تقريبا. كانت الحكومة المصرية عاجزة عن معاقبة عرب الصحراء، و تخشى أن ينهبوا القمح الذى ترسله إلى مكة؛ كما و أن التجار كانوا قلقين على بضائعهم، و العرب الذين يهتمون بنقلها غير مستعدين لخسارة جمالهم؛ و بعبارة أخرى، كان الجميع يسعى لإحلال الأمن. و لقد استشرنا تجار البلاد بشأن التدابير التى يجب اتخاذها لرحلتنا المقبلة؛ فرأوا أنه من الأفضل انتظار عودة القافلة الكبيرة من مكة، للتأكد من سلامة الطريق غير أنهم علموا أن أمير الحج قد تلقى الأمر بالتصالح مع العرب خلال الرحلة. فأرجىء سفر القوافل إلى ذلك الحين، مما دفعنا لتأجيل رحلتنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۵

يستحسن أن يعرف كل أوروبى يسافر إلى الشرق، لغة البلاد معرفة سطحية كما و أن السفر بصورة مريحة يتطلّب استخدام خدم، جابوا البلاد من قبل. و عند انطلاقنا من القاهرة، لم نكن نعى جيدا هذا الأمر. فخادمنا الأوروبى، المولود فى السويد، و الذى رافقنا من كوبنهاغن، لم يسبق له أن زار الشرق.

و طباخنا اليونانى، المولود فى إحدى جزر الأرخبيل، لم يحب الصحراء من قبل علما أنه عمل عند تجار أوروبيين فى القاهرة. و علاوة عنهما، كان يعمل فى خدمتنا يهودى من صنعاء، عمره ۲۶ سنة، قام برحلة مماثلة إلى بلاد مصر، فضلا عن بلاد الهند و بلاد فارس؛ و لكن المسلمين المسافرين برفقتنا احتقروه أشد احتقار. كان الطبيب غرامر ملزما بالتحدث مع مرافقينا المسلمين؛ و كم سرّ باصطحاب مترجم معنا؛ و هو يونانى الأصل، اضطر لاعتناق الإسلام بسبب سلوكه الشائن. تزودنا بكل ما يلزمنا للرحلة من مؤن و خيام و أسرّة. و الجدير ذكره أن عددا كبيرا من الرحالة، قدّموا لنا شرحا تفصيليا عن الأشياء اللازمة للرحلة فى هذه البلاد، و هى بمعظمها مريحة للغاية، حتى أن الجيوش الأوروبية تستطيع استعمالها. كنا نحمل أوانى مطبخية نحاسية، مقصدرة من الداخل و الخارج. أما الزبدة، فكانت موضوعة فى ظرف من الجلد السميك، و استبدلنا بالطاولة قطعة جلدية مستديرة، زيّن طرفها بحلقات من حديد، نعلق فيها الطاولة بالحمل.

و وضعنا فنجاين القهوة فى علبة خشبية مغطاة بالجلد و أخرى شبيهة بها، تحوى الشموع؛ و كان غطاؤنا مزودا بقسطل يوضع عليه الشمعدان. و كنا نحمل معنا علبة خشبية أخرى لها عدة أغطية و تضم و تحوى الملح و البهار و التوابل. و استبدلنا بالأوانى الزجاجية أخرى نحاسية مقصدرة من الداخل و الخارج.

و كانت القناديل المصنوعة من النسيج الكتانى تطوى كالقناديل الورقية الصغيرة، التى يصنعها الأطفال فى أوروبا. و كان كل واحد منا يملك إبريق ماء من الجلد السميك، يستعمله للشرب، و لم نكن نتوقع أن نصادف ينبوع ماء قبل بضعة أيام، فحرصنا بالتالى على ملء المطرات المصنوعة من جلد الماعز، و إضافتها إلى المؤن؛ حتى أننا أخذنا معنا و عاءين من الحجارة، للتزود بالمياه خلال رحلتنا من السويس إلى جدة.

و وضعنا النبيذ فى قوارير زجاجية، تتسع كل واحدة منها ل ۲۰ قنينة؛ و لكنها تتكسر بسرعة إذا ما وقع الجمل، أو اصطدم بغيره. توضع جلود الحيوانات المخصصة لنقل المياه، فى الخارج، بينما توضع تلك المخصصة لنقل النبيذ فى الداخل؛ و هى مطلية جيدا بالزفت حتى لا يلتقط الكحول طعما سيئا. فإن كانت تبدو هذه الطريقة لحفظ المشروبات مقرفة، إلا أنها تحول دون تسرب النبيذ على الطريق، كما حصل معنا فى بداية الرحلة. و نادرا ما يتزود الرحالة بالحطب أو الفحم؛ ففى الأماكن التى اعتادت القوافل أن تحط رحالها فيها، يكثر زبل الدواب التى تستعمل للتدفئة خاصة إن لم يتوافر الحطب أو الأشواك.

فى ۲۷ آب/ أغسطس ۱۷۶۲، سمعنا طلقة مدفع من قصر القاهرة؛ هذا يعنى أن القافلة الكبيرة قد بعثت رسولا لتحديد الوقت الذى سيعود فيه الحجاج إلى بركة الحاج، حتى يتمكن كل من يريد مقابلة أصدقائه أن يوافيهم إلى هناك. و يمكننا الاستنتاج بالتالى أن عرب الطور كانوا مطمئنين إلى أن قافلتنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۶

ستجوب البلاد فى أمان. و فى اليوم نفسه قصدنا مخيم الشيخ الذى حط رحاله قرب قرية سرياغوس، ليبيت فيها أهل بيته و خدامه. و كنا نرى قصر القاهرة فى الجهة الجنوبية- الغربية و بعض البقايا فى الجهة الشمالية على بعد ساعتين. يسمى العرب هذه البقايا تل اليهود أو تربة اليهود. لم نصادف أى قافلة فى طريقنا على عكس ما كنا نتوقعه؛ و لكن العرب و كل من استأجر جمالا نقلوا حمولهم إلى ديارهم، و تفرقوا كل فى طريقه.

و فى صباح الثامن و العشرين، لم نكن قد تأكدنا بعد إن كانت القافلة ستجتمع اليوم أم لا و لكن عند اقتراب بعد الظهر، بدأنا نشاهد بعض الجماعات، فبدأنا الاستعداد للرحيل. انطلقنا من سيرياغوس، و مررنا بقرية حانقى، المجاورة لبركة الحاج و عند سلوكنا طريق السويس، كنا نتقدم شرقا مع انحراف بسيط نحو الجنوب. و لم نشاهد فى الطريق منازل أو ينابيع مياه، أو حتى مساحات خضراء. كان الطريق معبدا و معظم الدروب الضيقة ممهدة بواسطة الجمال التى تنتقل على حريتها، حتى و إن كانت محملة بالأغراض. شاهدنا على بعد فرسخين و ۱۰ دقائق من بركة الحاج، أرضا منبسطة و تسمى المصطبة؛ يستقبل فيها أسياد القاهرة أمير الحاج عند عودته من مكة. و يسمى العرب المكان الذى يبعد ۵ فرسخات عن البقعة التى حططنا فيها، فرن البهاد(El Furn Beh d) .

غالبا ما تكون القافلة الأخيرة التى تنطلق قبل البواخر إلى السويس كبيرة جدا. و لما كنا نريد مغادرة القاهرة بأقصى سرعة، كانت قافلتنا تتألف من ۴۰۰ جمل، محملة كلها بالقمح، و معدات بناء السفن، و التى تصنع فى السويس؛ و كان يلزمنا جملان أو ۴ لحمل المراسى. لم أشاهد فى مصر أو شبه الجزيرة العربية عربات نقل أبدا. يترأس القافلات الكبرى المسافرة إلى مكة، أو التى تنتقل بين البصرة و حلب، أو تجتاز صحارى أخرى شاسعة، و بالتالى أراضى العرب المستقلين، كروان باشا أو سائق يدفع الضرائب اللازمة، ليجمعها لاحقا من الرحالة. و لكن القوافل الأخرى التى تقوم برحلات صغيرة لا يعين على رأسها شخص مماثل. يقتدى المسافرون بكبار التجار أو بالعرب الذين يتحملون كافة الأعباء. فحين يحط هؤلاء رحالهم، يحذو الجميع حذوهم؛ و حين يستعدون للرحيل يسارع المسافرون إلى حزم أمتعتهم دون الإعلان عن ساعة الانطلاق؛ فلا أحد يحب البقاء وحيدا علما أنه قد يتعذر عليه اللحاق بالقافلة. لم

نكن نخشى أبدا أن تتعرض قافلتنا للاعتداء؛ و لكن بعض الرحالة الذين يسبقون سواهم، أو يتأخرون عن القافلة يخاطرون بالتعرض للسلب؛ لهذا السبب، حرصنا على البقاء فى وسط القافلة. أما فى الأماكن الآمنة، فكنت أسبق التجار للاستراحة قرب أحد الينابيع و تناول الطعام. لم يسافر فى قافلتنا إلا عدد قليل من الجمالين، الذين كانوا يحملون بنادق دون أسياخ أو قوارير فارغة أو سيوف صدئة. أما الشيوخ الذين يملك معظمهم جمال القافلة فركبوا وحيد السنام، مزودين بالحراب و السيوف و البنادق. و لكننا لم نحاول الاتكال عليهم؛ لأن العربى لا يخاطر بحياته فى سبيل إنقاذ أموال التجار الأتراك. و الجدير ذكره أن معظم التجار يتسلحون جيدا فى سبيل الدفاع بيأس عن بضائعهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۷

و لقد اختار رفاقى الأربعة القيام بهذه الرحلة على الحصان، بينما فضلت ركوب وحيد السنام بدافع الفضول فحسب رغم أنى كنت أخشى فى البداية الوقوع من على ظهر هذه الدابة الضخمة. يبرك وحيد السنام أرضا حتى يركبه الفارس؛ و حين يريد النهوض يرفع مؤخرته أولا و على الفارس، أن يتمسك جيدا كى لا يقع من الأمام؛ و هو يمشى الهوينا شأنه شأن أى جمل بينما تسرع الأحصنة تارة فى سيرها و تتهادى طورا حتى تبقى قرب القافلة و لا حاجة لإيقاف وحيد السنام لركوبه؛ فهو معتاد على الانخفاض أرضا، حتى يضع الفارس رجله على عنقه؛ يمتاز سرج الجمل بالجزم المتدلية من الجنبين كى لا تضغط على سنامه و لا يختلف سرج الجمل أو وحيد السنام عن سرج الحصان؛ مددت عليه مرتبتى و جلست عليها بارتياح، خاصة و أننى كنت أبدل وضعيتى حسب ما يحلو لى. بينما أجبر رفاقى المسافرون على الحصان على الحفاظ على الوضعية نفسها؛ و عند حلول المساء، لم أكن أشعر بالتعب إطلاقا و كأننى أمضيت النهار كله جالسا على كرسى. مما لا شك فيه أن سير هذا الحيوان الضخم يثير الإزعاج؛ و لكن الجمال تخطو خطوات كبيرة و تمشى الهوينا حتى لا يشعر راكبها بالهدهدة. عند الساعة الرابعة من صباح ۲۹ آب/ أغسطس رفعنا الخيام من جديد؛ و بعد أن سرنا خمس ساعات و نصف حططنا الرحال فى مكان يسميه العرب يسرا(Dsjasra) و كنا ننوى الاستراحة فيها عدة ساعات؛ و لكن لم يتسنّ لنا الوقت حتى نتناول الطعام، فحملنا الجمال ثانية و قطعنا فرسخين و نصف، حتى بلغنا جبل وهبة(Webbe) الواقع جنوبى الطريق. و مع حلول بعد الظهر كنا قد قطعنا خمسة فراسخ فحططنا على مقربة من جبل طاجا(Taja) ؛ و كانت القافلة العائدة من مكة قد حطت فى هذه البقعة فى الليلة السابقة. و كنت أرغب برؤية مسيرتها، بيد أنها اتجهت جنوبا. و فى هذه المنطقة بالذات، كان العرب يثيرون خوف القوافل الصغيرة، عشية ذاك النهار أكّد لهم أمير الحاج، على لسان حكومة البلاد، أنهم يستطيعون العودة مع جمالهم دون أن يخشوا شيئا.

و فى ۳۰ آب/ أغسطس، غادرنا طاجا عند الساعة الواحدة صباحا و بعد أن سرنا ۴ ساعات ثم بلغنا قصرا تركيا مهدما، يسمى الأجرود، قربه ينبوع مياه عذبة؛ و يمكننا القول إنه يقع عند طرف الصحراء.

بالنسبة للقادمين من القاهرة (سفر الأعداد، الفصل ۳۳) و عند مدخل الصحراء بالنسبة للقادمين من السويس (سفر الخروج الفصل ۱۳) تمر القوافل المسافرة من القاهرة إلى جبل سيناء أو إلى مكة شرقا، عند طرف البحر الأحمر؛ و لكننا انعطفنا جنوبا (سفر الخروج الفصل ۴) حتى بلغنا بئر السويس، حيث

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۸

تستخرج المياه يدويا، بواسطة أوان أو أكياس جلدية، و لكن هذه المياه ملوّثة و غير صالحة للشرب. يحاط هذا البئر بسور شاهق مزود بباب حديدى يقفل من الداخل لتجنب العرب الأعداء. و بعد أن قطعنا الأجرود كان الخليج العربى يقع شرقا حتى أننا لم نتمكن من العبور إلى الضفة الأخرى دون المرور به أو التوجه شمالا لندور حوله. و يتطلب الانتقال من بئر السويس إلى مدينة السويس حوالى الساعة. و تشير حساباتى إلى ما يلى:

من القاهرة إلى بركة الحاج ۴ فراسخ

من برکة الحاج إلى المصطبة فرسخان و ۱۰ دقائق

من المصطبة إلى فرن البهاد ۵ فراسخ

من فرن البهاد إلى جفرا ۵ فراسخ و ۳۰ دقيقة

من جفرا إلى وهبة فرسخان و ۱۵ دقيقة

من وهبة إلى طاجا ۵ فراسخ

من طاجا إلى أجرود ۴ فراسخ و ۴۵ دقيقة

من أجرود إلى السويس ۴ فراسخ

و بالتالى تبعد القاهرة عن السويس ۳۲ فرسخا و ۴۰ دقيقة .

فإن كان الفرسخ يوازى ثلاثة أرباع الميل فذلك يعنى أن المسافة بين هاتين البلدتين تقدر ب ۲۳ ميلا.

و تقع السويس على بعد ميل و نصف جنوبى القاهرة، أى على خط العرض ۲۹؟ و ۵۷؟. و يختلف خط الطول بين هاتين المدينتين بفارق ۸ دقائق و ۳۰ استنادا للرصد الجوى.

فى الأيام الغابرة يوم كانت السفن تمر شمالا فى الخليج العربى، كنا نشاهد فى هذا المكان الذى بنيت عليه لا حقا مدينة السويس، مدينة كلثوم الشهيرة جدا فى كتب المؤلفين العرب. و لم يتبق منها اليوم سوى بعض الأنقاض و الآثار التذكارية التى لا تلفت الانتباه؛ أما اسم هذه المدينة فظل متداولا لأن أنقاضها تسمى اليوم أنقاض كلثوم. و لعل هذه المدينة نفسها حملت اسم كليسما و كليوباترا و أرسينواه؛ لأن الاسم اليونانى كليسما، يتألف من الأحرف الصامتة نفسها التى يتألف منها الاسم العربى كلثوم و لعل اليونانيين أطلقوا على هذه المدينة تسميات مختلفة فى صحفهم؛ إلا أن سكانها حافظوا على اسمها القديم. يطلق اليونانيون مثلا على مدينة بتولومى اسم عكون(Acon) ؛ غير أنها تعرف اليوم باسم عكّا(Acca) ، الذى يتداوله سكانها منذ زمن طويل. تبدو السويس مدينة حديثة. لم يأت السيد دو بريتنباح الذى عبر العام ۱۴۸۳ الجهة الشرقية للخليج قرب موقع هذه المدينة على ذكرها إطلاقا؛ و فى تلك الحقبة كانت تور المرفأ الأساسى بين القاهرة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۸۹

وجدة. يقول أندريه كورسال، إنه العام ۱۵۰۹ الذى بدؤوا فيه ببناء السفن الشراعية؛ و استنادا لتقرير مؤلف كتاب «رحلة سليمان باشا»، بدؤوا بناء السفن فى السويس العام ۱۵۳۸.

لا تزال صناعة السفن فى هذه المدينة مزدهرة للغاية، علما أن الخشب و الحديد و خلافه، ينقل من القاهرة على الجمال، و يؤدى إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا ملحوظا. و لا تسافر هذه السفن أبعد من جدة؛ و هى تسمى سفن القاهرة لأنها ملك سكان هذه المدينة. نسيت أن أعد بنفسى المراكب التى فى السويس و المرافىء الأخرى و أكدوا لى أن أربع أو خمس سفن تنقل سنويا القمح من السويس و قصير إلى جامبو وجدة، ليوزع بعدها فى مكة و المدينة فضلا عن أن أربع عشرة سفينة تجارية محملة بالبضائع و الركاب تبحر من السويس إلى جدة، و لفتت انتباهى الرادفة الكبيرة تحت دفة السفينة (راجعوا مركب المدينة تور اللوحة ل أ)، و تلك التى تمتد من أمام غرفة الربان، حيث علقت أسلاك طويلة، و تجتاز رادفة الدفة حتى تتحكم بها. و رغم أن هذه الأسلاك معلقة فوق الماء، غالبا ما تلامس سطح البحر نظرا لثقلها معيقة بذلك سير السفن، لذا غيّر الأتراك و الهنود دفات سفنهم، و جعلوها مشابهة لدفات السفن الأوروبية؛ و لكن ربابنة هذه المناطق شديد و التعلق بعاداتهم القديمة حتى أنهم بدلوا دفة إحدى السفن المبنية فى السدرات و المباعة لأحد سكان القاهرة، حتى تتلاءم مع أهوائهم . لم أر على متن هذه السفن مضخات للمياه؛ و لكن المياه المالحة كانت تستخرج بواسطة الأكياس الجلدية و للاستعاضة عن البراميل، كانت هذه السفن تحمل على متنها خزانا كبيرا للمياه موضوعا قرب صارى السفينة؛ و هو لا يأخذ مكانا كبيرا على خلاف البراميل الأخرى، و لكن إن تسربت المياه منه، تتبلل البضائع الموضوعة فى جواره؛ كما

أن المياه العذبة ستنفد من السفينة خاصة بعد ابتعادها عن المرفأ. تعرفت على رحالة إنكليزى عاش هذه التجربة بين سورات وجدة.

تقع مدينة السويس على الضفة الشرقية للخليج العربى، و ليس عند طرفه. و الجدير ذكره أن هذه المدينة ليست محاطة بالأسوار؛ و لكن منازلها محصنة جيدا، ضد هجومات العرب المفاجئة، و جدرانها متلاصقة جدا حتى أننا لا نستطيع الدخول إلى البلدة إلا من خلال شارعين فقط: واحد مفتوح يمر بمحاذاة البحر غربا، و آخر رئيسى يغلق بواسطة بوابة غير ثابتة. أما بقايا القصر الذى بناه الأتراك على أنقاض مدينة كلثوم فلم يعد له أثر. لا نجد فى المدينة منازل، أو فنادق كثيرة (شمس و عقال) و كما أن عدد سكانها ليس كبيرا؛ و نجد بينهم عائلات يونانية و قبطية. و لا تعج هذه المدينة بالناس إلا عند انطلاق البواخر إلى جدة أو العودة منها. تحيط بالمدينة سهول صخرية مغطاة بالرمل و الحجارة؛ و هى أرض قاحلة و جافة و لا نرى فيها أثرا للنبات، باستثناء بعض الأشجار و الحدائق و الحقول . يشترى سكان هذه المدينة سلعهم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۰

الغذائية الأساسية من مصر، على بعد ثلاثة أيام، أو من جبل سيناء على بعد خمسة أو ستة أيام أو من غزة، على بعد سبعة و ثمانية أيام؛ الأسماك و الأصداف فقط هى التى تكثر فى هذه المدينة. علما أنها تشكل الغذاء الأساسى للمسيحيين المقيمين فيها، خاصة زمن الصوم. تفتقر هذه المنطقة للمياه العذبة الصالحة للشرب؛ ذكرت لكم آنفا أن مياه بئر السويس ملوثة، غير أنها الأقرب لمتناولهم؛ لذلك يقصد السكان بئر السويس يوميا ليوردوا جزءا من القطيع، و يجلبوا المياه لما تبقى منه. و الجدير ذكره أن مياه أفضل بئر من آبار موسى ملوثة أيضا؛ زد على ذلك أنها بعيدة جدا عن البلدة و تقع على الضفة الأخرى للخليج. تستخرج المياه الصالحة للشرب فى السويس من بئر نبا(Naba) ؛ و يبلغ سعر جلد الماعز الملىء بهذه المياه ۳ أو ۴ قطع نقدية من عملة لوبيك.

يقع البئر المذكور على بعد فرسخين شرقى البلدة على الضفة المقابلة للخليج.

خلال إقامتنا فى السويس، كان يحكمها بيه أو سنجق من القاهرة؛ و رغم أن عدد أفراد حاشيته كبير جدا لم يكن العرب يولونه اهتماما بالغا. فإن استاؤوا من الحاكم التركى أو من سكان المدينة، توقفوا عن تزويدهم بالمياه، و منعوهم من الوصول إلى الآبار التى أتيت على ذكرها آنفا حتى لا يستخرجوا المياه منها بأنفسهم. و من السهل عليهم تدمير المدينة برمتها، فى الوقت الذى لا تعج فيه بالرحالة، خاصة إن كانوا لا يكترثون لجمع المال من نقل البضائع بين السويس و القاهرة على جمالهم و من تزويد المدينة بالمياه. و لما تخلّف العرب الذين رافقونا إلى جبل سيناء عن الإيفاء بوعودهم رفضنا أن ندفع لهم المبلغ الذى طلبوه معرّضين أنفسنا لفظاظتهم. و فى كل مرة كنا نغادر فيها المدينة كانوا يهددوننا بقتلنا رميا بالرصاص، إن التقوا بنا فى الريف. و فى المقابل، عرضنا أمامهم أسلحتنا التى كانت تضاهى خناجرهم و حرابهم و بنادقهم قوة.

و هددنا أحد وجهاء هؤلاء العرب بمنعنا من استخراج مياه بئر بيا حتى نموت عطشا إن تجرأنا على المرور بقربه. فرد السيد هافن على الشيخ قائلا له إن الأوروبيين ليسوا من شاربى الماء، و يفضلون احتساء النبيذ و بالتالى فتهديده ليس فى محله. أثار هذا الجواب غير المتوقع ضحك الأتراك و المسيحيين. بينما أحدث بلبلة كبيرة بين العرب و فى اليوم التالى تمنى علينا بعض المسلمين الكريمى النسب أن نتصالح مع العرب. فى أسرع وقت ممكن. و قال لنا الحاكم إنهم هددوا بحرمان المدينة من المياه بغية الانتقام منا؛ ففضلنا أن ندفع لهم ما يطلبونه حتى لا تتفاقم الأمور أكثر.

وفور وصولنا إلى السويس سألنا اليونانيين الذين زاروا طور سيناء من قبل عن جبل المقطم المشهور فى أوروبا؛ فأجابونا جميعا أنهم لم يسمعوا أبدا بهذا الاسم. و أحضروا لنا شيخا من قبيلة سعيد، يدعى أنه قضى حياته بين السويس و طور سيناء؛ و هو لم يسمع أبدا عن اسم الجبل المذكور. لكن بعد أن علم أننا سنمنح جائزة قيمة لمن يدلنا عليه، عاد فى اليوم التالى برفقة شيخ من قبيلة صويلحة يزعم أنه يعرف جيدا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۱

الجبل المذكور و المناطق الصحراوية التى تكثر فيها النقوش. لكن بعد أن طرحنا عليه بعض الأسئلة، اتضح لنا أنه لا يعرف المكان الذى نريد زيارته. و فى نهاية الأمر، أحضروا لنا شيخا من قبيلة لغات، استطاع أن يقنعنا من خلال حديثه أنه رأى حجارة نقشت عليها أحرف غريبة. و بعد أن أدرك أن الجبل الذى يثير فضولنا هو جبل المقطم أطلق على جبله الاسم نفسه، بعد أن أكد لنا أن العرب الذى يعرفونه يطلقون عليه التسمية نفسها.

و لقد شعرنا بالارتياح بعد أن عثرنا على مواطن واحد من الصحراء قادر على إرشادنا على المكان الذى تكثر فيه النقوش القديمة. فأردنا أن ننطلق على الفور؛ لكن رسامنا السيد بورنفايند أصيب بألم فى رأسه قبيل وصولنا إلى السويس زادت حدّته بعد بضعة أيام حتى أننا فقدنا الأمل فى شفائه. بيد أنه كان علينا الذهاب إلى جبل المقطم و العودة منه إلى السويس، قبل انطلاق السفن الأولى، أى فى غضون شهر؛ علما أن الإبحار فى أواخر أيلول/ سبتمبر أو فى أوائل تشرين الثانى/ نوفمبر، أكثر أمانا. فالسفر من السويس إلى جدة فى شهرى تشرين الثانى/ نوفمبر و كانون الأول/ ديسمبر، محفوف بالمخاطر لأن الهواء الشمالى يهب فى ذلك الوقت من السنة . و لما طال مرض الرسام، غادرنا السويس، تاركين برفقته الطبيب كرامير فضلا عن السيد فورسكال، الذى ارتأى أن لا يترك صديقنا المريض وحده خاصة و أننا نستعين به لرسم نوادر الطبيعة. فقصدت جبل النقوش إذا برفقة السيد دوهافن.

و كان الشيخ قد أخبرنا أن الجبل يقع قرب منزله؛ فحسبنا أنه علينا الاتفاق معه وحده ليأخذنا لمشاهدته. و لكن الشيوخ الآخرين الذين أحضروه إلينا، اعترضوا على ذلك و أيّدهم سكان السويس الرأى، بعد أن أكّد لنا معظم القبائل العربية، المقيمة بين السويس و العقبة و الطور خاصة قبائل سعيد و صوالحة و لغاث، تحتل الطريق المؤدى إلى جبل سيناء؛ و علينا بالتالى أن نأخذ غفيرا من القبائل الثلاثة حتى نتنقل بأمان فى هذه المنطقة و قيل لى إن هذا الغفير ضرورى للغاية فى هذه البلاد، و إن البحارة المسلمين و الذين يسافرون من السويس إلى جدة، و البحارة اليونانيين المقيمين فى السويس يختارون حاميا مماثلا لهم.

و يقدمون لهم هدية صغيرة بعد انتهاء الرحلة على خير و إن غرقت إحدى السفن بين السويس و رأس محمد و أنقذت البضائع المحمّلة فيها، يحاول كل واحد الاستعلام عن غفيره؛ و غالبا ما نجد هذا الأخير بين العرب الذين يسارعون لنهب السفينة؛ و تعود البضائع إلى السويس أو إلى القاهرة، دون أن يعترض أى عربى غريب على ذلك. و إن تغيب الغفير توضع البضائع على حدة و ترسم حولها دائرة على الرمل، و يحظر عليهم لمسها إلى أن يعلم الغفير بالأمر. لكن إن ارتأى أحد الرحالة عدم استخدام غفير لديه، تعرض حتما للسلب مسيحيا كان أم مسلما. و لا نجد بين المسافرين بحرا عددا كبيرا من المرشدين العرب؛ إما لأنهم يطلبون هدايا ثمينة، لأن التجار الأتراك يرفضون توطيد صداقتهم بشيوخ العرب؛ لأن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۲

هذه الرحلات القصيرة ليست محفوفة بالمخاطر؛ فالعرب المقيمون بين الخليج العربى وجدة لا يكترثون إطلاقا لأمر الغفراء بين رأس محمد و السويس. أما نحن فكنا بحاجة إليهم. اتفقنا مع شيوخ القبائل الثلاثة على الذهاب إلى جبل المقطّم و طور سيناء. فأجّرونا جمالا لنا و لخدمنا، و من بينهم اليهودى و البحار اليونانى الذى عمل كطباخ لنا خلال هذه الرحلة علما أن طباخنا الأساسى بقى قرب صديقنا المريض.

شهد القاضى و حاكم السويس على الاتفاق الذى تمّ بيننا و بين العرب، و كان سنجق مصر هذا منفيا من القاهرة، كما سبق و ذكرت، و هو يكنّ احتراما كبيرا لأسرار العالم التى يدعى الشرقيون التنبؤ من خلالها بالمستقبل. فطلب منى الفحص فى النقوش الغريبة، التى نتوقع العثور عليها فى الصحراء لتحديد مدة نفيه. فأردت أن أشرح له رأى الأوروبيين فى هذا النوع من التنبؤات؛ و لكنه أكّد لى أن عالما مسلما حدّد له موعد عودته، و هو يريد أن يطابق تكهنات نقوش الصحراء بهذه النبوءة. و أعترف بأننى لم أتوقع أن يؤمن هذا الرجل الرفيع المستوى بالخرافات إلى هذا الحد. و لكن مهمتى فى هذه البلاد لا تقضى بتحرير الناس من هذه الآراء السخيفة؛ لذلك اعتذرت منه لأننى لم أكن ملما بهذا العلم العظيم.

و فى السادس من أيلول/ سبتمبر، عبرت و السيد دوهافن الخليج الغربى فى زورق صغير؛ و نمنا فى المساء التالى فى الهواء الطلق على الضفة الشرقية للخليج المذكور قبالة السويس حيث اجتمع مرافقونا العرب الجدد. صباح السابع من أيلول/ سبتمبر، بدأنا رحلتنا إلى جبل المقطم برفقة الشيوخ الثلاثة المذكورين آنفا، و عدد من أصدقائهم و خدمهم الذين أوكلت إليهم مهمة نقل المياه من بئر نبا إلى السويس منذ فترة طويلة، و وجدوا هذه الفرصة مناسبة لزيارة أهلهم فى الصحراء خاصة و أننا نتكفل بمصاريف الرحلة كلها.

فحين يسافر رجل عربى كريم النسب، يؤمن الطعام لمرافقيه كلهم؛ و لما كنا ندفع أموالا طائلة، لمشاهدة بعض النقوش القديمة فى الصحراء ظنوا أننا غاية فى الثراء. يمتد الطريق نحو الجهة الجنوبية- الشرقية؛ ليتحول بعدها نحو الجهة الجنوبية- جنوبية- شرقية، وصولا إلى عيون موسى حيث حططنا الرحال، تحت أشجار النخيل. و تقع السويس فى الجهة الشمالية الغربية على بعد ۳۰ درجة، و الخليج الفارسى فى الجهة الغربية على بعد نصف فرسخ و يبدو أن عرض الخليج فى هذه البقعة يفوق عرضه فى المنطقة الممتدة من السويس إلى جبل عتقة؛ و تكثر آبار المياه فى هذا المكان على عمق قدم فحسب؛ كما و أن عيون موسى التى يبلغ عددها ۵ ليست أكثر عمقا. و هى تمتلىء أولا- بالتراب و الأوساخ كما و أن الرمال تمتص الكمية الأكبر من مياهها. و قال لنا العرب، إن مياه عين واحدة منها صالحة للشرب؛ أما ما تبقى منها فهو ملوث. و لما كانت تحمل اسم موسى ظن العرب أن أولاد إسرائيل عبروا الخليج الفارسى فى هذه البقعة فحملت بالتالى هذه العيون اسم زعيم الشعب اليهودى. و تكثر فى هذه البقعة الأصداف التى تدل على تراجع مياه البحر بشكل ملحوظ.

و بعد أن غادرنا عيون موسى، عبرنا سهول الطواريق و وردان و الطى فى الجهة الجنوبية- شرقية و الجهة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۳

الجنوبية- جنوبية- شرقية؛ يسمى العرب هذه السهول أودية، لأن المياه تتجمع فيها بعد هطول الأمطار بغزارة. و بعد أن قطعنا خمسة أميال حططنا الرحال فى السهل الأخير، على الرمال و فى الليل هبت رياح قوية و حملت معها الرمال؛ و الجدير ذكره أننا لم نشعر بانزعاج كبير منها رغم أننا كنا سنعانى أكثر لو واجهنا ظرفا مماثلا فى أوروبا.

تعد المنطقة التى عبرنا فيها الأكثر تميزا فى الشرق لأنها الطريق التى مر بها أولاد إسرائيل و رسمها لنا موسى. و حرصت على قياس الطريق الذى قطعناه، و دراسة كل ما يمكنه مساعدتى على تصحيح الخرائط و على توضيح بعض المقاطع فى الكتاب المقدس. أما الصعوبة الأكبر فكانت تكمن فى حفظ الأسماء الصحيحة للأودية و الجبال لأن العرب حرصوا على إعطائنا أسماء خاطئة، بعد أن عجزوا عن فهم سبب فضولنا هذا. و لكننى نجحت فى كسب ثقة عربى من جماعتنا سواء بتقديم الهدايا له أو بالسماح له بالركوب خلفى على الجمل؛ و كنت أستجوبه فى طريق الذهاب و الإياب علّه يعطينى الأسماء نفسها. لم يشأ رفيقى فى الرحلة أن يوطد علاقاته بهؤلاء البدو الذين كانوا يعطونه تارة أجوبة خاطئة و طورا غير سارة. استطعت تحديد وجهة الطريق بواسطة بوصلة صغيرة دون أن يلاحظ العرب الأمر أو يثير استياءهم؛ و رغم أن العلماء المسلمين يستعينون ببوصلة لوضع القبلة فى جوامعهم، لا يحسن العرب البدو استعمالها بتاتا. و لا- يمكننا بالتالى الاعتماد على كافة الكتب التى تناولت وصف شبه الجزيرة العربية، و خاصة تلك التى تزعم أن القوافل كانت تحدد مسارها بواسطة البوصلات. و مما لا شك فيه أن سير القوافل منتظم للغاية. كنت أعد يوميا، عدد الأقدام التى أقطعها سيرا على الأقدام صبحا و مساء، و عند حر الظهيرة؛ فوجدت أننى كنت أقطع ۱۵۸۰ قدما فى الحر، و ۱۶۲۰ فى الطراوة؛ أى بمعدل ۱۶۰۰ قدم فى ظرف نصف ساعة إن كانت الطريق معبدة. و كان على بالتالى أن أدرس وجهة هذه أو تلك المنطقة و الوقت الذى تأخذه للوصول إليها. و انطلاقا من هذه المبادىء، قست طول الطريق بالأقدام و الأميال؛ فحسبت أن ۱۱۸۰ قدما توازى ربع ميل. فى وصفى لشبه الجزيرة العربية لم أذكر إلا القياس الأخير؛ و لما كنت أخشى الدخول فى تفاصيل مملة لبعض القراء، أطلب منكم مراجعة اللوحة ۲۳ من وصف رحلتى حيث يمكنكم إلقاء نظرة على رحلتى إلى طور سيناء. و أذكركم أن الأماكن التى تحمل إشارة تضم ينابيع مياه.

لا تدخل خطوات الجمال ضمن حساباتي؛ و لكنني أعرتها اهتماما خاصا بغية إعطاء القراء فكرة عن سرعة سير هذه الدابة. تقطع جمال قافلتنا الصغيرة ۱۴۰۰ قدم في ظرف نصف ساعة؛ و الملاحظ أن خطوات الجمال ليست كلها متساوية. أما جمال الصحراء فهي الأسوأ بين كافة الجمال التي رأيتها خلال رحلتي.

انطلقنا في الثامن من أيلول/ سبتمبر، قبل شروق الشمس، و عبرنا سهل عيزدان الواقع في الجهة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۴

الجنوبية- الشرقية، و بعد أن قطعنا ثلاثة أميال بلغنا حجر الرقبة؛ و هو عبارة عن كتلة حجرية، وقعت من أعلى الصخرة و اعتاد العرب على الاستراحة في جوارها و ارتشاف القهوة. في منتصف الطريق تسلقت هضبة مرتفعة، لا تطل على الخليج العربي. و سلكنا بعدها الطريق الجنوبي- الشرقي- الجنوبي لنبلغ وادي غيراندیل على بعد ميل تقريبا(Girandel) ؛ و اتجهنا لاحقا جنوبا- جنوبا- غربا، لنصل إلى جبل حمام فرعون. قطعنا في ذلك النهار خمسة أميال و نصف الميل و كنا نبعد عن السويس عشرة أميال و نصف الميل. خلال فصل الشتاء تسيل المياه الغزيرة في هذا الوادي لتصب بعدها في الخليج العربي. بيد أنه كان جافا في ذلك الوقت مع أننا عثرنا على ينبوع مياه عذبة؛ و لكننا اضطررنا للحفر في الرمال، على عمق قدم و نصف القدم أو على عمق قدمين، لأنها لم تمطر منذ فترة طويلة. و لما كانت المياه لا تنضب في هذا الوادي كثرت فيه الأشجار المثمرة التي يحبها المسافر من القاهرة. ذكرت في كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية» ص ۳۴۸، أنها قد تكون أشجار إيليم(Elim) المذكورة في الكتاب المقدس . يقطن عدد كبير من العرب الرحل في هذه المنطقة علما أنهم لا يحطون رحالهم قرب الطريق. لم أسمع أحدا يتحدث في هذه المنطقة عن جبل مراح، الذي أتى على ذكره الرحالة الآخرون؛ و لم أحاول الاستعلام من العرب المرافقين لنا عن أسماء الجبال و الينابيع، بعد أن لا حظت أنهم يجيبون بالإيجاب على هذا النوع من الأسئلة، و يسارعون لإرشادنا إلى الأماكن التي يخالونها تحمل الأسماء المذكورة. و الجدير ذكره أن الحجارة التي شاهدنا ذاك النهار، تبدو كلسية، مع أنها بيضاء و مصقولة.

و في صباح التاسع من أيلول/ سبتمبر أرسلنا خدمنا و المؤن إلى طور سيناء، لأدخل برفقة السيد دوهافن و اثنين من الشيوخ وادي غيروندل؛ فسلكنا الطريق الجنوبي- الغربي، عبر غابة صغيرة، لنصل إلى حمام فرعون، بعد أن قطعنا ربع ميل.

يمتاز هذا الحمام، الواقع على ارتفاع ۱۰ أقدام عن مستوى المياه بفتحتيه المحفورتين في الصخر، فضلا عن بخار الكبريت و المياه اللذين يتصاعدان منه. و يقال إن المرضى يؤمون هذا الحمام حيث ينزلون في الفتحتين المذكورتين بواسطة الحبال فيستحمون ۴۰ يوما في المياه الحارة؛ و خلال هذه الفترة لا يأكلون سوى فاكهة اللسفة(Lassafa) التي تكثر في هذه المنطقة. لا أعرف ما هي نتائج هذا العلاج غير أنني شاهدت مقبرة كبيرة في الجوار. قال لنا العرب أنفسهم الذين ادعوا من قبل أن أولاد إسرائيل عبروا البحر الأحمر قرب عيون موسى، إن ذلك حصل قرب وادي غيراندیل. فعلى حد قولهم يرقد الملك فرعون الذي قضى في البحر الأحمر، خلال مطاردته الإسرائيليين في الفوهة التي يتصاعد منها البخار و الكبريت و المياه الحارة؛ و لهذا السبب لا يحمل الحمام وحده اسم هذا الأمير بل أيضا جزءا من الخليج العربي المعروف اليوم ببركة فرعون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۵

إنه مما لا شك فيه أن الضفة الغربية للخليج العربي، بدءا من السويس وصولا إلى جبل حمام فرعون كلها أرض سوية، باستثناء بعض الهضاب الصغيرة التي نراها على الجهة الأخرى؛ أما الضفة الشرقية فهي جبال شاهقة يفصل فيما بينها و اديان يقع الأول قبالة العطى و الثاني قبالة غيراندیل. يظن بعض العلماء أن أبناء إسرائيل اجتازوا الوادي الأول؛ بينما يؤكد بعضهم الآخر أنهم اجتازوا الوادي الثاني، ليعبروا بعدها البحر الأحمر. و لقد ذكرت في وصفي لشبه الجزيرة العربية أن النظريتين غير صحيحتين؛ فرغم أن البحر الأحمر يبدو ضيقا جدا شمالي بركة فرعون، إلا أنه واسع و عميق للغاية حتى يتمكن موسى عبوره مع الإسرائيليين.

و لقد كان أحد الشيوخ مستاء للغاية خلال الرحلة و لم يشأ إعطاءنا أجوبة مرضية فاصطحبه السيد دوهافن خلف أحد الجبال حتى

أتمكن من قياس عرض البحر. فأسرعت لنصب الإسطرلاب و غرز حربة فى الأرض و قياس طول القاعدة و تحديد الزوايا اللازمة، قبل أن يعود العربى و يأخذ الحربة. و من خلال عملية القياس هذه التى ليست صحيحة تماما، اتضح لى أن بركة فرعون المجاورة لحمام فرعون، تبعد خمسة أميال عن هذا الأخير. كانت القاعدة صغيرة جدا بالنسبة إلى هذه المسافة الكبيرة علما أن الظروف لم تسمح لى باستعمال واحدة أكبر. و تجدون ملاحظاتى حول المد و الجزر فى هذا المكان، فى وصفى لشبه الجزيرة العربية، و لم يشأ العرب منحى المزيد من الوقت لدرس هذه الأمور بدقة؛ فأسرعوا للحاق بالقافلة، و كان على أن أحذو حذوهم.

ثم مررنا فى واد ضيق و عميق حفر فى الصخر بفعل الأمطار الغزيرة. و كنا نسلك تارة الطريق الشمالى و طورا الشرقى أو الجنوبى أو الغربى؛ و ضربنا الخيام فى عصيتو(Usaite) ، حيث كان الخدم و مرافقونا العرب فى انتظارنا. يقع وادى عصيتو فى الجهة الجنوبية- الشرقية على بعد ميل تقريبا من البقعة التى حططنا فيها رحالنا آخر مرة. مع حلول بعد الظهر قطعنا أميالا جنوبا و نصف الميل شرقا، حتى بلغنا جبل تعل(T l) ، حيث وجدنا ينبوع مياه. و تابعنا طريقنا و قطعنا نصف ميل جنوبا و أربعة أميال شرقا و نصف ميل غربا لنحط بعدها الرحال فى سهل الحمر قرب جبل العطى. و كان هذا المأوى يبعد عن المأوى السابق أربعة أميال و ربع الميل و عن السويس أربعة عشر ميلا و نصف.

و قبل ساعة من نصب الخيام اتجه بعض المسافرين شمالا للحصول على الملح. كنا نرغب بمرافقتهم، بيد أننا اكتفينا بالاستعلام عن الجبل الذى يستخرج منه الملح، علما أننا نعتمد كليا على شيوخنا، الذين لم يسمحوا لنا بالقيام بجولات صغيرة. و تتميز الجبال الممتدة من السويس إلى الحمر بحجارتها الكلسية.

و شاهدت شرقا سلسلة جبال مغطاة بحجارة من البارود و بأصداف متحجرة تكثر اليوم فى الخليج العربى؛ و إن ابتعدنا أكثر رأينا صخرة قاسية و سوداء و عروقا من الغرانيت التى يزداد عددها مع اقترابنا من طور سيناء.

و فى العاشر من أيلول/ سبتمبر ارتأى العرب رفع الخيام عند الساعة الخامسة صباحا قبل شروق الشمس. فاعتمدت على النجوم لتحدد و جهة الطريق و وجدت أننا نتجه شرقا- جنوبا- شرقا. و بعد شروق الشمس، حططنا رحالنا فى سهل ورسان، تحت صخرة صغيرة حفر عليها اليونانيون، الذين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۷

يحجون إلى طور سيناء، أسماءهم. فى طريق العودة أطلقت اسما على هذه الصخرة نظرا لغرابتها (راجعوا اللوحة(XLIII . نصبة هى مكان إقامة بعض العرب الرحل؛ أرسلنا خدمنا إليهم لطلب الماء، إلا أن غفيرنا من قبيلة لغات، أرسل هؤلاء الخدم لإعلام العرب بوصولنا، بغية زيارة أصدقائه؛ و لم نستطع مغادرة المكان إلا عند الواحدة ظهرا لأنه اضطر لارتشاف القهوة مع الجميع. كما و أن نهارنا لم يشهد أى أحداث مهمة، لأننا تحولنا عدة مرات عن الطريق الرئيسى و ضربنا الخيام جنوبا قرب مقر إقامة شيخ بنى لغات المجاور للجبل الذى يطلق عليه العرب اسم جبل المقطم. و كان هذا المكان يبعد ثلاثة أميال عن مأوانا الأخير و ثمانى عشرة ميلا عن السويس.

و لقد كنت فى غاية السرور لأننى سأرى اليوم أخيرا النقوش الشهيرة التى تشكل موضوع رحلتنا فى الصحراء حتى أننى كنت أخال الجبال مغطاة بها من جميع الجهات. لكن حديث العربى جعلنى أظن أن رحلتنا كانت سدىّ. قال لنا إن النقوش الوحيدة التى شاهدها تقع على قمة جبل شاهق و وعر لا يستطيع اصطحابنا لرؤيته إلا فى الغد لأنه يتوقع زيارة صديق له؛ كما و أن عرب نصبة، يريدون تهنئتنا على عودتنا من الصحراء. فبدت لنا هذه الاحتفالات غير ملائمة فى ذلك النهار، و غير متوقعة من البدو، و رغم أن العرب يعيشون فى أماكن مختلفة، إلا أنهم غاية فى التهذيب فحين يلتقى صديقان لم يتقابلا منذ فترة طويلة يتصافحان بشدة و تتلاصق خدودهما عدة مرات و لا يكفّان عن السؤال: كيف حالك؟ هل الأمور على ما يرام؟ و عند دخول الشيخ تقضى اللياقة بالوقوف له؛ بينما يصافح الأجنبى أفراد الجماعة كلهم و يقبلهم. يدعى بعض الأوروبيين الذين تكلموا عن عادات العرب أنهم يسألون بعضهم

بعضا: كيف حال جمالكم؟ و لما أراد السيد دو هافن أن يقوم باختبار صغير، قالوا له إن هذه الأسئلة لا تطرح للمجاملة . و بما أن العرب لا يصدرون الجرائد، لا تشكل السياسة محور كلامهم، خلافا للأوروبيين؛ و بما أن حالة الجو عندهم أقل تقلبا من الجو عندنا، فهم لا يتناولونه أيضا في أحاديثهم. و تدور أحاديث العرب البدو حول أعمالهم فإن حدث و سأل بدوى صديقه عن حال جماله أو حيواناته الأخرى، فهو يحذو حذو الفلاحين الأوروبيين الذين يسألون بعضهم عن القمح، و الماشية و خلافه.

اجتمع حوالى ۱۰ أو ۱۲ شخصا يحمل معظمهم لقب شيخ و يرتدون ثيابا أنيقة؛ فاستنتجت بالتالى أن هذا اللقب، يوازى لقب سيد فى بلادنا. و استمتع الضيوف كلهم بارتشاف القهوة و تناول الطعام؛ و فى الليلة نفسها، ذبح جدى و التهم على الفور. و فى اليوم التالى ذبح جديان آخران و بعد أن تناول شيخ قبيلة سعيد الطعام مع الشيخين الآخرين فى بستان وادى فران، دعى الجميع للالتقاء عند عودتنا من طور سيناء، فى مكان ما قرب الطريق، بغية ذبح جدى و التهامه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۱۹۸

لا يختلف نمط حياة هؤلاء العرب عن نمط حياة العرب الرحل و الأكراد و الأتراك؛ فخيمهم مشابهة لخيم عرب مصر كما يبدو جليا فى لوحة نوردن رقم ۶۵. ترتكز الخيمة على سبع أو تسع عصى، ثلاث منها أعلى من سواها، و الوسطى هى الأكثر ارتفاعا. يتألف الفسطاط من قماش كتانى سميك أسود اللون، أو مقلم بالأبيض تحيكه نساء الصحراء بأنفسهن. تقسم الخيمة إلى جناحين أو ثلاثة واحد للنساء و آخر للرجال، و ثالث للحيوانات، أما الذين لا يملكون ثمن خيمة فيضعون القماش على ۴ أو ۶ أوتاد، ليقيهم من الحرارة و الأمطار؛ فالهواء العليل الذى ينسم تحت الأشجار ينعشهم و يمنحهم شعورا لطيفا فى هذه البلاد الحارة. و يقتصر أثاث الخيم على الحصر التى تستعمل كطاولة و مقعد و سرير. و يحتفظ العرب بثيابهم فى أكياس مغلقة موضوعة فى شق القماش؛ كما و أن نقل الأدوات المطبخية سهل للغاية: فالأوانى و الصحون مصنوعة كلها من النحاس المبيّض، و بعد نصب الخيام، توضع الأوانى على الحجارة أو فى حفرة فى الأرض و لا يستعملون الملاعق و الشوك و السكاكين. و تحل رقعة جلدية مستديرة محل غطاء الطاولة، يحتفظون فيها ببقايا الطعام. أما الزبدة التى تذوب فى البلاد الحارة، فتنقل فى أوعية من الجلد.

و أما المياه فتوضع فى جلد الماعز لتسكب بعدها فى طاسات من النحاس المبيّض من الداخل و الخارج. و من المؤكد أن سكان هذه البلاد لم يسمعوا بطواحين الهواء أو المياه؛ و لكنهم يطحنون القمح بواسطة مطحنة يدوية صغيرة. و لا نجد فى الصحراء أفرانا للطهو؛ و بعد أن يعد العرب قالب حلوى مسطّحا يخبزونه على صفيحة معدنية مستديرة؛ و إن لم تتوافر هذه الصفيحة، أعدوا كبيسات من العجين و وضعوها فوق الجمر، و غطوها حتى تنضج جيدا. و يشكل الخبز الطازج غذاء الشرقيين الأساسى؛ فيتزودون بالتالى بكميات كبيرة من الطحين خلال تنقلهم فى الصحراء.

و رغم أنه كانت تجتاحنى رغبة شديدة فى رؤية نموذج من تلك النقوش القديمة، لم أستطع إقناع أى عربى بمرافقتى فى ذلك النهار. و لما كانت أرض غفيرى غير محفوفة بالمخاطر جبت وحدى الوديان المجاورة و تسلقت الهضاب الوعرة. و لكننى عدت عند المساء منهكا من دون أن أعثر على أى أثر للنقوش.

و خلال نزهتى شاهدت خلف إحدى الهضاب خيمة صغيرة منعزلة أكبت فيها زوجة الشيخ و أخته على طحن القمح و طهو الخبز. و لا تحرص نساء عامة الناس عند العرب على حجب وجوههن عند اقتراب رجل غريب منهنّ؛ خرجت إحداهن من الخيمة من دون أن تضع النقاب على وجهها و قدمت لى الصمغ و أظنها كانت تتوقع هدية فى المقابل، لأنها قبلت المال الذى قدمته لها. و أعتقد أن العرب اعتادوا على تقديم الهدايا للأجانب. و لقد قابلت فى مكان آخر ابن الشيخ قرب قطيع الماعز. و كان يعلم أن والده يرافقنى فى رحلتى بالصحراء. و بعد أن تحدثت إليه طويلا أعجبت بثقته بنفسه، التى ظهرت من خلال رده على أسئلتى. و رغم أننى لم أكن أحسن اللغة العربية جيدا، و أنه لم يتحدث من قبل مع رجل أجنبى لم يشعر أبدا بالخوف الذى ينتاب أولاد الفلاحين فى وضع مماثل. و دعانى إلى منزله لشرب المياه العذبة.

و كان ودودا معى للغاية، حتى أننى لم أستطع رفض دعوته رغم أن الوقت كان متأخرا. و لقد لا حظت أن عرب هذه المنطقة يسمون خيمهم بالبيت أو الدار.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۰۰

ركبت صباح ۱۱ أيلول/ سبتمبر، و السيد دو هافن الجمال، و انطلقنا برفقة العرب المزودين بالأسلحة، باتجاه جبل المقطم المزعوم، و كان هذا الجبل شاهقا و وعرا للغاية حتى أننا اضطررنا إلى ترك الجمال عند سفحه؛ و بعد أن سرنا ساعة و نصف تقريبا بلغنا القمة، فخلنا أننا سنعثر على النقوش محفورة فى الصخر خاصة و أننا بذلنا عناء كبيرا للوصول إلى تلك البقعة. و كم كانت دهشتنا عظيمة حين رأينا مقبرة مصرية فى وسط الصحراء و على قمة جبل و عر؛ و أقول إنها مقبرة مصرية لأن الأوروبيين يطلقون عليها هذه التسمية، رغم أنهم لم يشاهدوا شيئا مماثلا فى مصر، حيث دفن الزمن معظم الآثار القديمة فى الرمل.

و شاهدنا فى هذه البقعة عددا كبيرا من الحجارة التى يبلغ طولها خمس أو سبع أقدام و عرضها حوالى القدمين؛ و هى مغطاة برسوم هيروغليفية مصرية؛ و هذا الأمر جعلنى أؤكد أنها حجارة ضريح. و نستطيع أن نرى فى اللوحة(XLIV) ، صورة صرح قديم، لم يتبق منه إلا أسواره؛ و يبدو أن داخله أكثر عمقا من الأرض المحيطة به. يحوى هذا الصرح عددا من الحجارة المغطاة بالصور الهيروغليفية. و نرى فى الجهة العريضة منه غرفة صغيرة مدعومة بركيزة مربعة مغطاة أيضا بالرسوم الهيروغليفية. و نجد أيضا فى هذا الصرح تماثيل نصفية تتلاءم مع أذواق المصريين القدامى، و نصبا قديمة تدل على فن الهندسة المعمارية، مشابهة لتلك التى رسمها نوردن فى مصر العليا، و عمودا مربعا له أربعة تيجان. و اللافت للنظر أن هذه الآثار كلها من الحجارة الرقيقة الصلبة علما أن النصب المصرية القديمة المغطاة بالرسوم الهيروغليفية مصنوعة كلها من الغرانيت الصلب.

و لقد سمح لنا العرب بفحص المكان كله و تدوين الملاحظات اللازمة. لكننى أردت نقل بعض هذه النقوش، حتى أتمكن من إثبات انتمائها للهيروغليفية المصرية عند عودتى إلى أوروبا و اتضح أن العرب كانوا ينتظرون هذه اللحظة، إذ أسرعوا جميعا لمنعى من نقل أى شىء من دون موافقة شيخ هذا الجبل.

و لما كان الغفراء يعلمون أننا لم نأت لمشاهدة النقوش فحسب، بل نرغب بنقلها أيضا، اتفقوا على العشاء أن يعطوا أحد أصدقائهم الشيوخ، لقب شيخ جبل المقطم، حتى يقبض منا مبلغا من المال. و عند وصولنا إلى قمة الجبل، وجدناه فى انتظارنا و لم يمنعنا من تفحص كل شىء بدقة. و لكنه قال إنه لن يسمح لنا بنقل النقوش عن الحجارة إلا مقابل مئة ريال، مدّعيا أنه لا يستطيع الموافقة على أن يضع الأجانب أيديهم على الكنوز المطمورة تحت التراب. و يظن هؤلاء العرب أن الأوروبيين و المغتربين أو عرب الغرب، قادرون على اكتشاف الكنوز المخبأة تحت الأرض، و على نقلها إلى بلادهم، للحصول على النقوش. و لكننى أعتقد أنهم يختلقون هذه الأعذار للحصول على المال؛ كما و أن العربى لن يتوانى عن المطالبة بحقه فى الكنوز التى لا يأمل يوما الحصول على جزء بسيط منها. و فى سبيل بلوغ هدفنا علينا إتقان لغتهم، و فهم طريقة تفكيرهم، و معاملتهم بطريقة حسنة؛ و بعد أن يقروا بالكنوز المخبأة نحاول إقناعهم بخطئهم. اقترحوا على عدة عروض حتى أعد شيخ الجبل بإعطائه ربع الكنز الذى سأعثر عليه و ربعه الآخر للغفراء، فى حال رفضت دفع مئة ريال للشيخ أو احتفظت بالكنز كله لنفسى. و بذلت قصارى جهدى لإعطائهم ردا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۰۱

ملائما. فرحت أهزأ من اقتراحاتهم، مؤكدا لهم أننى لا أعرف شيئا عن الكنوز المدفونة، و أننى أريد نقل النقوش فحسب، و أنهم يستطيعون الاحتفاظ بالكنز لأنفسهم. و بعد أن لاحظت أننى لن أتمكن من العمل ذاك النهار، اتفقت سرا مع الغفير أن يحضرنى وحدى إلى هذا المكان بعد عودتنا من طور سيناء و أن يمنحنى الوقت اللازم لنقل النقوش، على أن أعطيه فى المقابل أربعة ريالات. و لعل شيخ الجبل كان سيكتفى بهذا المبلغ؛ و لكننى لم أكن أرغب بإعطائه شيئا حتى لا يذهب تسلق هذا الجبل الشاهق و الوعر هباء؛ و جلّ ما جنيته من هذه المسألة هو تكبد عناء تسلق هذا الجبل ثانية. و فى طريق العودة و فى الغفير بوعده، و نقلت أكبر عدد من

الصور الهيروغليفية. (راجعوا اللوحتين XLV) و(XLVI . و مما لا شك فيه أن هـذه الصور هيروغليفيـة حقا. لأننا شاهدنا معظمها على النصب القديمـة فى مصـر. و لفت نظرى فى هـذه المنطقة، التى تكثر فيها الماعز، بروز صورة هذه الحيوانات على كل الحجارة تقريبا؛ بينما تقع غالبا فى مصر، على صور الأبقار محفورة على النصب التذكارية نظرا لكثرة الحيوانات القرنية فى هذه المنطقة.

و لئن أثارت هـذه النصب التذكاريـة فضول الرحالـة الآخرين، أتمنى عليهم أن يحفروا الأرض فى هذه البقعة، علهم يعثرون على بقايا جثث قديمة. و من الصـعب أن يقنع أوروبى العرب بهذا الأمر، و لكن الخدم الشـرقيين و خاصة إن كان الغفير شـيخا مسـتقيما من بنى لغات، قد ينجحون فى إتمام هذه المهمة فى المنطقة المجاورة للجبل.

إن جبل المقطم هذا، لا يشـبه الجبل الذى وصـفه رؤساء الأديرة الفرنسيسـكانية فى القاهرة؛ و لكن يبدو لى أكثر تميزا، خاصة بعد أن تأكـدنا من أن النقوش التى تكثر على الجبال ليست قديمة أو جميلة بل هى من فعل الرحالة السابقين؛ غير أن الرسوم الهيروغليفية التى أتحـدث عنها، توازى رسوم مصـر الهيروغليفية جمالا. و هذا يثبت أن الفنون ازدهرت فى هذه المنطقة التى كانت تحوى مدينة قديمة غنية بالثروات؛ و يقال إن بعض سكان مصر الذين لم يحنّطوا موتاهم، كانوا يقدسون هذه الصحراء و ينقلون إليها جثث الموتى. و لقد لاحظت أن المياه ليست نادرة فى الصحراء، كما و أن هذه المناطق الجبلية مأهولة بالسكان، خلافا لما كان يظنه الرحالة؛ إذ يصطحبهم العرب دوما إلى أماكن خاليـة من الخيم. و لعل هـذه البلاد، كانت قديما مكتظة بالسـكان، و كانت تشـهد عمليات تجارية برية مكثفة بين شبه الجزيرة العربية و مصر، ساهمت فى ازدهار مدن هذه البلاد.

ثم ألا تقع فى هذه المنطقة ضـرائح الطمع (قبروت هتأوة)، المذكورة فى سـفر العدد الفصل ۱۱، أو جبل هور المذكور فى سـفر العدد الفصل ۳۳؟ و سواء كانت مقبرة للإسـرائيليين أم لسـكان هـذه البلاد القـدامى فهى تشـكل موضوع دراسـة للعلماء. إنه لم يكن محظرا على الإسـرائيليين اسـتعمال الرسوم الهيروغليفيـة أو صور الإنسـان و الحيوانـات؛ و لكن لم يسـمح لهم عبادتها. و لا يزال الإسـرائيليون، حتى اليوم يحفرون صورا و رسومات على ضرائحهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۰۳

و عند نزولنا من الجبل المذكور، شاهدت حجرا مغطى ببعض الصور التى تسلى برسمها أحد الرعاة.

(راجعوا اللوحة(Le و لكننا لا نتوقع أن يعطى السكان المقيمون فى هذه المنطقة منذ ۱۰۰ سنة أو أكثر نتاجا أفضل.

تتطابق الأوصاف التى أعطيت لجبل آخر، يحمل اسم جبل المقطم و يقع فى هـذه المنطقـة مع أوصاف الجبل الذى نبحث عنه؛ و تبين لنـا أننـا نحتـاج إلى شـهر على الأقـل لنقـل النقوش التى يزعم أنه مغطى بهـا؛ بيـد أنه كـان يلزمنا يوم واحـد لإرضاء فضولنا حول هـذا الموضوع. فقررنـا متابعـة طريقنا إلى جبل سـيناء، علما أن السـفن لن تنطلق قريبا من السويس. فمررنا فى ۱۲ أيلول/ سبتمبر، من الجهة الشـمالية للجبل الـذى قرأنا أوصافه. و بعد أن سـرنا ساعتين، شاهدنا طور سـيناء او جبل موسـى فى الجهة الجنوبية- الشـرقية؛ بنيت فى هـذه البقعـة، مقبرة للعرب، كانت تنقل إليها الجثث من أماكن بعيـدة و مررنا بعـد ذلك، بوادى شامل الـذى تحـدّه من الجهتين جبال صخريـة فيهـا عروق من الغرانيت؛ مع حلول بعـد الظهر، عبرنـا واديى ديبور وبراك، حيث أخـذنا قسطا من الراحـة قرب جبل طمعان. شاهـدنا فى هـذا المكان مقبرتين مبنيتين من الحجارة المتراصة منذ عدة قرون. و احتجزنا فى وقت لاحق احد الجبال، لنصل إلى وادى عصريت(Asraite) ، حيث وجـدنا ينبوع مياه عذبة. عند المساء، حططنا رحالنا فى وادى الجن حيث عثرنا على ينبوع مياه لذيذة على بعد نصف ساعة منه. و الجدير ذكره أننا قطعنا، بعد ظهر ذلك اليوم ميلين و نصف، و كنا نبعد ۲۳ أميلا عن السويس.

قلما يهم العلماء مشاهدة الجبال و الوديان و لكننى رسمت فى طريق العودة منظر وادى عصريت، لأثبت لهم أننا نستمتع أحيانا بالمناظر الخلابة التى تقدمها لنا الصـحراء. (راجعوا اللوحة(XLIII . و صادفنا فى هـذا الوادى، امرأة عربيـة برفقة خادمها؛ و لكنها بدلت وجهة سيرها، و ترجلت عن جملها، و مرت أمامنا سيرا على الأقدام، احتراما للشيوخ الذين كانوا يرافقوننا . و التقينا بامرأة أخرى، محجبة كليا فى وادى الجنى؛ فجلست على حافـة الطريق، و أدارت لنا ظهرها حتى نسـتطيع المرور. و تـذكرت فى هـذه المناسـبة قصـة ثمار. و لما

لاحظ العرب جهلى التام لعاداتهم قالوا لى إنها أدارت لنا ظهرها احتراما للأجانب، و أنه ما كان يجدر بى أبدا إلقاء التحية عليها.

يقع منزل غفير بنى سعيد فى وادى فران، بمحاذاة الطريق المؤدية إلى جبل سيناء؛ و عند اقترابنا من تلك المنطقة ركب الغفير وحيد السنام، و تقدمنا جميعا، ليلقى التحية على أهله فلحقنا به جميعا، فى ۱۳ أيلول/ سبتمبر، و عبرنا وادى عرتيم(Ertame) ؛ و كانت هذه المنطقة تبعد ۲۴ ميلا عن السويس. و انحرفنا عن الطريق المؤدية إلى جبل سيناء، و سرنا شمالا قرابة النصف ساعة، مرورا بجبل سيربال حيث مقر قبيلة شيخنا. نصب العرب خيمتنا قرب الأشجار و طلبوا منا أن نرتاح قليلا بينما يذهبون للقاء أصدقائهم فى حدائق البلح المحيطة بالمكان. علمت أن فى هذه المنطقة بقايا مدينة قديمة، و شعرت برغبة شديدة برؤيتها؛

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۰۴

و بعد أن لاحظ العرب الأمر، تركونى من دون أن يزودونى بأية معلومات حول الموضوع. يتألف مخيم شيخنا من تسع أو عشر خيم تكثر حولها الماعز، و الجمال و الحمير و الدجاج و الكلاب.

بلغنا إذن وادى فران الشهير؛ و لم يتغير اسم هذه المنطقة منذ أيام موسى. قال لنا العرب إن هذا الوادى يمتد نحو الجهة الشرقية- الشمالية على بعد نصف نهار من البقعة التى خيمنا فيها و نحو الجهة الغربية- الجنوبية على بعد نهار من الخليج العربى. و تحد هذا الوادى جبال و عرة من الحجارة الكبيرة الممزوجة بالغرانيت و المبقعة بالأحمر و الأسود. كان الوادى جافا فى ذلك الوقت؛ و لكن بعد هطول الأمطار بغزارة، تغمره مياه الجبال المجاورة، إلى حد أن العرب يضطرون لرفع خيمهم من عدة بقع و الهرب إلى المرتفعات. شاهدنا جزءا صغيرا من هذا الوادى، مكسوا ببساط أخضر؛ و أكد لنا العرب أنه تكثر فى الجوار بساتين البلح التى تطعم عددا كبيرا من الناس. كما و أن عرب هذه المنطقة و أولئك المقيمين غربى جبل موسى، ينقلون سنويا إلى القاهرة و السويس كميات وافرة من البلح و العنب و التفاح و الإجاص و غيرها من الفواكه. و يبيع العرب الآخرون فى المدينتين المذكورتين الماعز و الصمغ و الفحم الخشبى و مسنات المطاحن اليدوية؛ و هم يشترون منها فى المقابل المواد الغذائية و الملابس التى يحملونها معهم إلى الصحراء.

إننا نعلم جيدا أن العربى يستطيع أن يتزوج أربع نساء فى آن واحد. لكن يكتفى معظمهم باتخاذ زوجة واحدة له، و يبقى مخلصا لها طوال حياته، شرط أن تخضع لإرادة زوجها. كان شيخ بنى سعيد متزوجا من امرأتين، واحدة منهما تقيم قرب خيمتنا، و تراقب الخدم الذين يحرسون الماشية؛ أما الثانية فتقيم فى مكان آخر، و تهتم ببستان البلح. تقوم إذن هاتان المرأتان بالأعمال المنزلية، حين يذهب الزوج لمقابلة أصدقائه أو حين يقصد السويس لجمع المال من نقل الماء، أو حين ينقل البضائع إلى السويس و القاهرة. و قامت سيدة المخيم الأولى، بزيارتنا بعد الظهر، برفقة أربع نساء عربيات أخريات، و قدمت لنا دجاجة و بيضا، و رغم أننى أقمت فترة طويلة فى البلاد الشرقية إلا- أنها المرة الأولى التى أتحدث فيها مع امرأة مسلمة، باستثناء الراقصات فى القاهرة. و لقد رفضت النساء العربيات الدخول إلى خيمتنا و فضلن الجلوس فى الخارج، فى الظل، حتى نتمكن من محادثتهنّ بسهولة. و كم أعجبن بالقانون الذى يحظر على المسيحى اتخاذ أكثر من زوجة له، من بين كل ما أخبرناهنّ عن العادات الأوروبية، و تذمرت زوجة شيخنا من ضرتها التى يحبها زوجها أكثر منها، رغم أنها الزوجة الأولى. و تركت لرفيقى فى السفر حرية التحدث مع هذه السيدة، فأخبرته أن زوجها يقضى معظم أيام السنة متنقلا بين السويس و القاهرة و يطلق على مصر اسم الريف، الذى ليس المقصود به مصر العليا و الدلتا فحسب، كما ظن بعض العلماء. و لقد قال دون كافترو و الأب لوبو إن مصر العليا تحمل الاسم نفسه. بينما كان السيد دوهافن مسترسلا فى الحديث مع هذه السيدة العربية، رحت أرسم لباسها، كما صورته على اللوحة(۴۸ ، (XL VIII. تلفت هذه الملابس و خاصة أقراط الأذن و عقد الرقبة و أساور اليد و الرجل انتباه العلماء، خاصة و أن الإسرائيليين أقاموا فى هذه المنطقة، و أن الأزياء لم تتبدل كثيرا بين نساء العرب الرحل.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۰۵

سأصف لكم ملابس عرب هذه المنطقة: فمن يمارس الأعمال التجارية فى المدينة يتبع صيحات الموضة؛ فهم يعتمرون عمامة و يرتدون قمصانا فضفاضة، و سراويل مريحة، تعلوها أثواب مريحة، تضم على الردفين بحزام عريض. و لفتت انتباهى أحذية هؤلاء العرب التى نراها فى اللوحة(II) ؛ فهى ليست مشغولة بمهارة، كما تشير إليه صور الرسامين الأوروبيين؛ بل مصنوعة من الجلد الخام. و لم أشاهد فى هذه المنطقة العباءة التى يرتديها عرب شبه الجزيرة العربية، و يستبدل بها عرب مصر ثوبا كتانيا طويلا، يلتفون به، كما هو ظاهر فى اللوحة(XXIX) . و يفتخر العربى بسرجه الذى نراه فى اللوحة نفسها المصنوع من الحديد الثقيل؛ و هو يحمل دوما على خصره خنجرا مستدق الرأس، يسمى الجمبة؛ كما و أنه يحمل أسلحة أخرى عند تنقله فى الصحراء؛ و نذكر منها السيف الذى يتدلى فى حزام جلدى يعقده حول كتفه الأيسر؛ إن كان العربى معتادا على استعمال يده اليمنى، أما الأعسر منهم، فيضعه حول كتفه الأيمن. و يحمل العربى عادة بندقية لها فتيل واحد و يعلق جعبة الرصاص حول خصره. و رغم أن العرب يملكون أسلحة نارية. إلا أنه غالبا ما تنقصهم الذخيرة اللازمة لها. و هم يحملون دوما الحراب، عند امتطائهم الجمال أو الأحصنة؛ و من يفضّل منهم السير على الأقدام يحمل حرابا أقصر من الأخرى. و لم أشاهد لدى العرب أقواسا أو سهاما أو نقافات.

استقبلنا فى اليوم نفسه عددا كبيرا من الرجال الذين أحضروا لنا بلحا أصفر طازجا. عاد الغفير عند المساء فانطلقنا صباح ۱۴ أيلول/ سبتمبر، و قطعنا نصف فرسخ من الطريق نفسها التى سلكناها سابقا، وصولا إلى جبل سيناء. و بعد أن اجتزنا جنوبى- شرقى وادى فران، بلغنا سفح جبل موسى. و بعد أن قطعنا ميلا و ربع الميل باتجاه الجنوب- الشرقى، عبر دروب و عرة، حططنا رحالنا مساء على بعد ۲۷ ميلا عن السويس قرب صخرة قطرها ۱۶ قدما تقريبا. لاحظت أن الصخرة المذكورة مشقوقة فى الوسط؛ و لكن العرب قالوا لنا إن موسى شقها بواسطة سيفه. تكثر على هذه الجبال ينابيع المياه العذبة المنعشة التى استمتعت بشربها أكثر من النبيذ؛ و لا داعى للعجب لأنى لم أشرب مياها لذيذة إلى هذا الحد لا فى مصر و لا فى المناطق المجاورة للسويس.

و لقد شاهدت فى ذلك النهار نقوشا غريبة نقلت بعضا منها فى طريق العودة (راجعوا اللوحةXLIX) ، أ، ب، ج، د). و تكثر على حافة الطريق الصخور الوعرة التى جوفت معظمها مياه الأمطار المتدفقة من أعلى.

و عند حلول الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر كان علينا قطع فرسخ و ربع الفرسخ، نحو الجهة الجنوبية الغربية لجبل موسى وصولا إلى دير القديسة كاثرين. و أظن أن الدير المذكور يقع على بعد ۲۸ فرسخا و ربع الفرسخ من السويس راجعوا اللوحة(XLIV) . و تتميز الأرض التى بنى عليها الدير بانحدارها أى إنها أكثر ارتفاعا من الجهة الجنوبية- الغربية منه من الجهة الشرقية، و يبلغ طول الدير ۱۲۰ قدما و عرضه ۵۵ قدما و هو مبنى من الحجارة المنحوتة، التى يتطلب العمل فيها مالا وجهدا كبيرين. و نرى أمام هذا

الصرح صرحا آخر، أصغر منه، و أقل منه جمالا. و لا يملك الدير إلا بوابة واحدة مسورة؛ فترفع بواسطة حبل يمر فى بكرة. نرى أمام الدير بستانا مملوءا بالأشجار المثمرة؛ و لقد أكد لى العرب أن الكهنة يستعملون سردابا للدخول إلى الدير و الخروج منه.

يحظر استقبال الغرباء فى الدير أو الأوروبيين، إلا إذا كانوا يحملون رسالة من أسقف طور سيناء، المقيم فى القاهرة. و علمنا بالأمر فى مصر، و حاولنا مقابلة الأسقف المذكور؛ و لكنه كان يقوم بزيارة القسطنطينية؛ فلم نستطع الحصول على رسالة من قبله لكهنة الدير. غير أن سفير إنكلترا فى القسطنطينية سلمنا رسالة من البطريرك المعزول الذى أمضى أكثر من ثلاث سنوات فى هذا الدير و عاد إليه منذ فترة قصيرة. و لم يخطر فى بالنا أبدا أنهم لن يسمحوا لنا بالدخول بناء على توصيته. و انتظرنا وقتا طويلا قبل أن يرسل لنا الكهنة موفدا عنهم. و لما علم أننا أوروبيون، طلب منا رسالة الأسقف، فشرحنا له ما حصل و حاولنا أن نعرض عليه رسالة البطريرك المعزول. و لكن طلبوا منا الانتظار قليلا قبل أن يقترحوا علينا إدخالها من خلال حفرة فى السور.

فى تلك الأثناء، تجمع العرب الذين رأوا من الجبال المجاورة، وصول أجانب إلى الدير. و يقال إنهم كانوا يطلقون النار على الدير من أعالى الجبال و يختطفون الزوّار عند خروجهم من الدير، و يطلبون فدية مقابل إطلاق سراحهم. كما و أنهم يطلبون مبلغا محددا

من كل حاج يحمل الإذن بالدخول إلى الدير، و خلال زيارة الأسقف تبقى بوابة الدير مفتوحة، و يقدم الطعام لكافة العرب الذين يؤمون الدير خلال هذه الفترة؛ و هذا الأمر يكلف الكهنة أموالا طائلة، خاصة و أنهم يعيشون من الصدقات؛ علما أنهم يجلبون مؤنهم من مصر، و تتعرض قوافلهم للسلب فى الطريق. و شاهدنا نموذجا عن معاملة العرب للكهنة. و احتد واحد من الذين أتوا بدافع الفضول لمقابلة الأجانب لحث الكهنة على إعطائه خبزا. و لما حاولت تهدئته نعتهم بالوحوش، لأنهم رفضوا إعطاء الخبز لكائن حى دق بابهم جائعا.

خلال انتظارنا أمام بوابة الدير، اغتنمت الفرصة لرسم الصرح و جزء من الجبال التى يطلق اليونانيون على واحد منها اسم جبل سيناء راجعوا اللوحة(XLVIII) . و رسمت لا حقا الدير من زاوية أخرى، و من على مسافة بعيدة (راجعوا اللوحة(XLVIII)) .

و بعد أن درس الكهنة أمرنا مطولا، أعيدت الرسالة دون أن تفض. و اعتذروا عن استقبالنا فى الدير، رغم أن الرسالة موجهة من البطريرك؛ فهم لا يستطيعون فضها، لأنها ليست مرفقة برسالة من الأسقف الذى يحق له وحده منح الإذن بالدخول. عدنا إذن أدراجنا حتى نحول دون تجمع المزيد من الناس حول

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۱۰

الدير، و نعرض الكهنة للإزعاج فأرسلوا لنا على الفور هدية عناقيد عنب مقطوفة من بستانهم؛ و مما لا شك فيه أنها كانت لذيذة، خاصة و أننا أمضينا وقتا طويلا فى التنقل فى أراض قاحلة.

و لما تعذر علينا الدخول إلى الدير أردت تسلق جبل سيناء. و علمنا أننا تقدمنا كثيرا فى الصحراء.

و كنت أتمنى أن يرافقنى أشخاص يعرفون البلاد حق المعرفة حتى يعرضوا على الأماكن المميزة فيها؛ و لما كنت محاطا بمجموعة من العرب المنتمين إلى هذه المنطقة، كان على أن أختار الشخص الملائم ليصطحبنى اليوم بالذات إلى ذلك الجبل الشهير. و لكن عرض على الغفراء اصطحابى فى الغد، حتى أشبع فضولى. و لاحظ العرب الذين اجتمعوا حول قافلتنا أننى أنوى اختيار واحد منهم لمرافقتى إلى جبل سيناء؛ فتشاجروا حول هذا الموضوع مع الغفراء، ظنا منهم أنهم سيجنون بعض المال. و لكننى لم أكن أعرفهم جيدا، و لا أريد أن أتخاصم مع مرافقينا؛ لذلك فضلت الإذعان لمشيئة هؤلاء المرافقين.

و فى صباح السادس عشر من شهر أيلول/ سبتمبر، أحضر لى الغفراء شيخ جبال سيناء؛ الذى انضم إلينا على مقربة من المكان. و قد وقع عليه الاختيار لمرافقتى إلى الجبل مقابل مكافأة جيدة. و فضلت عدم الاعتراض على ذلك، حتى لا أضيع المزيد من الوقت. فعدت إلى الدير مع الشيخ العتيد و أحد الغفراء.

و فضل السيد دو هافن، الذى جرح رجله فى السويس، و ذاق الأمرين خلال تسلّق الجبال، حيث وجدنا نقوشا غريبة، فضل العودة مع العرب الآخرين، مسافة ربع ساعة على طريق السويس لأن المكان الذى أمضينا فيه الليل، ليس آمنا على حد قول العرب.

قلت إن طور سيناء يقع جنوبى الدير؛ و هو وعر للغاية و لا يعقل أن يكون موسى قد تسلقه من هذه الجهة. و لكن اليونانيين، شقوا درجات فى الأماكن الوعرة حتى يسهلوا على الناس تسلق الجبل. و على بعد مئة قدم من الدير شاهدنا ينبوع ماء لا ينضب أبدا؛ فهو مغطى بصخرة كبيرة تقيه أشعة الشمس و مياه الأمطار. تعلو هذا الينبوع كنيسة صغيرة ركع أمامها الشيخ و المرافق العربيين و راحا يصليان بورع؛ و عند دخولنا إليها قبلا صورة السيد المسيح و العذراء مريم، رغم أنهما مسلمان. و لعلهما رأيا الحجاج اليونانيين يفعلون ذلك فحذوا حذوهم إرضاء لى و بذلت عناء كبيرا لإقناع العربيين بمتابعة الطريق. و بعد أن لاحظا إصرارى على الذهاب وحدى، ارتأيا مرافقتى. فاجتزنا بوابتين صغيرتين، تؤديان إلى سهل واسع، فيه مصلى للمسلمين و كنيسة صغيرة لليونانيين. فصلى العربيان أمام الصور و قبلاها كلها بيد أنهما لم يعرفا لمن خصصت هاتان الكنيستان أو أنهما لم يشاءا إخبارى بذلك. و كانا يصران على أننا بلغنا قمة جبل سيناء؛ غير أن السيد بوكوك يقول: إن هناك ۵۰۰ درجة من الدير إلى الينبوع المذكور آنفا و ۱۰۰۰ درجة من الينبوع إلى كنيسة السيدة العذراء و ۵۰۰ أخرى إلى السهل، حيث شاهدنا الكنيسة المبنية تكريما للنبى إيليا. و يعد بوكوك ۱۰۰۰ درجة أخرى

لبلوغ قمة طور سيناء التى لم أصل إليها بعد. رأيت فى السهل المذكور، شجرتين كبيرتين اعتاد العرب على ذبح المواشى تحتهما خلال الأعياد و التهامها على

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۱۱

حساب اليونانيين. و أثناء تسلق الجبل رأيت بعض النقوش العربية على الحجارة و خلتها أسماء فحسب؛ و كان جبل القديسة كاثرين يقع فى الجهة الجنوبية- الغربية؛ أما من الطور، فكنا نشاهده فى الجهة الشمالية- الشرقية. و استنادا إلى ملاحظاتى الفلكية تقع تور على خط العرض ۲۸ و ۱۲؟؟؟، علما أنها تبعد ستة أو سبعة أميال عن جبلى القديسة كاثرين و سيناء. و تقع حال و عقبة و عيلا فى الجهة الشرقية- الجنوبية على بعد خمسة أو سبعة أيام من الطريق، و ذلك استنادا إلى أقوال الشيوخ؛ و لكننى لا أستطيع الاعتماد على كلامهم لأنهم لم يقوموا بهذه الرحلة، من طور سيناء. و لقد أشرت فى كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية»، إلى أن خليج العقبة ليس بالعرض الذى كما يظهر فيه على الخرائط.

لم أستطع إقناع الشيخ و المرافق بمتابعة الطريق أو بمرافقتى إلى جبل القديسة كاثرين؛ فعدنا أدراجنا و انضممنا إلى القافلة. و فى ذلك النهار، غادرنا جبل موسى و ضربنا الخيام فى وادى فران.

استنادا إلى ما تقدم، لا يقع الجبل الذى يسميه اليونانيون جبل سيناء، فى سهل شاسع كما يظن بعض الناس. كما و أن سيناء اليونانيين يختلف عن سيناء الحقيقى؛ لأن العرب يطلقون على سلسلة الجبال الممتدة من وادى فاران، إلى طور سيناء، حيث يقع الدير، اسم جبل موسى. و يظن العلماء الأوروبيون الذين عاينوا هذه المنطقة بدقة، أن موسى تلقى الشريعة فوق هذا الجبل. و لكننا لا نجد من هذه الجهة، قرب طور سيناء مكانا ليحط فيه شعب إسرائيل- الكثير العدد- رحاله؛ و لعلنا نقع فى الجهة الأخرى على سهول فسيحة أو أنهم ضربوا خيمهم قرب جبل موسى و بالتالى فى وادى فاران.

و فى ۱۷ أيلول/ سبتمبر قطعنا ثلاثة فراسخ فحسب، أى إننا بلغنا مضرب خيام شيخ بنى سعيد. تركنا الغفراء وحدنا ليقصدوا بساتين البلح فى وادى فاران. و فى ذلك النهار انضم إلى قافلتنا شاب عربى ثمل يركب جملا وحيد السنام. و لما علم أننا مسيحيون، امتحن صبرنا، و راح يسخر منا، كما سخر الأوروبى الثمل من اليهود. و يبدو أن العرب البدو يصنعون النبيذ بأنفسهم. و إننى أشكر السماء لأن محمدا حظّر على أتباع القرآن احتساء الكحول المركزة؛ و رغم أن المسلمين يثملون فى المدن، فهم يخفون ذلك حتى لا يعاقبوا، أو لأنهم يخجلون من خرق القانون. و لا أذكر أننى شاهدت خلال رحلتى عربيا ثملا و فظا، باستثناء هذا الأخير.

و لقد عاد الغفراء مساء يوم ۱۹ أيلول/ سبتمبر، و تابعنا سيرنا فى العشرين منه سالكين الطريق نفسه الذى أتينا منه صباح ۲۱ منه. و سبقت الآخرين، لأتسلق مرة أخرى الجبل الشاهق، الذى أسماه العرب جبل المقطم، و لأنقل بعض النقوش كما أشرت سابقا و انضممت بعد الظهر إلى القافلة قرب سهل وردان المذكور سابقا.

و فى ۲۲ أيلول/ سبتمبر اجتزنا نهارا المنطقة التى عبرناها ليلا فى طريق الذهاب و لا حظت أن الصخور الوعرة المغطاة بالنقوش الغربية، تحد الطريق من الجهتين؛ و أظنها مشابهة لتلك التى نقلتها من جبل المقطم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۱۳

فترجلت سريعا عن وحيد السنام، لتفحّصها عن كثب و نقلها؛ غير أن العرب اعتبروا ذلك مضيعة للوقت؛ فبذل السيد دوهافن جهده لإقناعهم بالانتظار قليلا؛ فنقلت النقوش ه، و، ز، ط، ى، ك، ل، م، ن، خلال هذا الوقت القصير (راجعوا اللوحات ش، أXLIV). قال لنا تاجر يونانى فى القاهرة، إنه على حافة الطريق المؤدية إلى جبل سيناء، نجد ممرا ضيقا يعرف بأم الرجلين تكثر فيه النقوش المنحوتة على الصخر. لست أدرى لماذا ادّعى العرب أنهم لا يعرفون اسم هذا المكان و لا سمعوا عن النقوش الموجودة فعلا. و الواقع أنه قلما أثارت هذه النقوش اهتمام الغفراء، و إلا لأطلقوا على أم الرجلين اسم جبل المقطم أيضا أو على أى صخرة أخرى مغطاة بالنقوش؛ و لو فعلوا ذلك لما اكتشفنا المقبرة، المصرية القديمة، التى تحدثت عنها سابقا.

و حين نشر أسقف كلوغر، كتاب «رحلة قس فرانسيسكانى من القاهرة إلى طور سيناء»، كان أول شخص يلفت انتباه العلماء إلى نقوش الصحراء و لكن نيتشه أتى على ذكرها فى كتابه Sieben Y ?johrige Weltbeschaug ص ۱۴۵، ۱۴۹، ۱۵۳، ۱۵۸، ۱۶۷. كما نجد صورا عدة فى كتاب مونكونيس «رحلات» ص ۴۴۹، و فى مؤلف بوكوك (راجعوا اللوحتين ۵۴ و ۵۵). استنادا إلى تقرير مدير دروس الآباء الفرانسيسكانيين، و لا أظن أن الجبال المغطاة بالنقوش التى شاهدها، تبعد كثيرا عن المكان الذى قصدناه. علاوة على ذلك لا أخالها مثيرة للاهتمام أكثر من تلك التى نقلتها أنا و بوكوك؛ كما و أنها لا تستحق أن يتكبد علماء أوروبا عناء فك رموزها؛ فهى لم تحفر يدويا على الصخر بل بواسطة خنجر مستدق الرأس على السطح الخشبى منها. فضلا عن أن خطوطها ليست متساوية و لا مستقيمة. و لا أظنها تدل على شىء باستثناء أسماء الرحالة الذى حذوا حذو اليونانيين الذين يحفرون أسماءهم على جبل سهل و رسان، المذكور آنفا. و النصب التذكارية فقط هى التى تدل على الذرية و هى التى تثير اهتمامى؛ و أظن أن الحجارة القبرية التى عثرنا عليها على الجبل، كما أشرت سابقا، و النقوش التى شاهدتها على صخرة برسيبوليس تنتمى إلى هذا النوع. فصخرة برسيبوليس تمتاز بصلابتها و استوائها، أما الخطوط التى تغطيها فهى مستقيمة، و حروفها واضحة.

و نقل السيد دوناتى، النقوش س، من الصحراء و أعطى نسخة عنها لأسقف طور سيناء. و خطر لى أن أدرجها فى هذا الفصل، لأن حروفها تختلف عن تلك التى عثرت عليها فى هذه المنطقة و لأنه لم تسنح لهذا العالم الإيطالى فرصة العودة إلى أوروبا، و قد لا تطبع أوراقه أبدا.

و فى سبيل قياس عرض الخليج العربى ابتعدت فى ۲۴ أيلول/ سبتمبر عن القافلة، حوالى ۵ أميال جنوبى السويس، باتجاه سهل العطى أو الطواريق، كما يقول العرب. و استنادا لملاحظاتى و حساباتى، كانت تبعد حوالى ثلاثة أميال. و لكننى لم أستطع هذه المرة أيضا بناء قاعدة طويلة لأقيس العرض بدقة.

و فى ۲۵ منه عدنا إلى السويس، و وجدنا أن السيد بورانفيد قد تماثل للشفاء. و أكد لنا الغفراء أننا قد

نضطر لحط رحالنا بضع ساعات قبالة المدينة، نظرا لحركات مياه البحر، إلا إن كنا نفضل أن ندور حول الخليج أو اجتيازه فى زوارق صغيرة. و عند وصولنا، لم يكن منسوب المياه قد ارتفع كثيرا، فعبرنا ساعد النيل الشمالى و بلغنا أنقاض كلثوم الواقعة غربى الخليج.

لا أذكر أننى قرأت يوما أن أوروبيا اجتاز البحر الأحمر قرب السويس مشيا على الأقدام. و لعل منسوب المياه كان مرتفعا عند عودتنا من طور سيناء، فارتأوا اجتياز الخليج فى الزوارق بدلا من البقاء فى الصحراء. فعند ارتفاع منسوب المياه، تكثر الزوارق الصغيرة، التى يسارع أصحابها إلى الضفة عند مشاهدتهم الرحالة العائدين من جبل سيناء، أو العرب الذين ينقلون المياه من بئر نبا. غير أننا لم نشاهد أى زورق على الضفة الشرقية للخليج، عند وصولنا .

و لقد قست قرب السويس عرض الخليج بدقة بالغة؛ فوضعت الإسطرلاب على الضفة الشرقية للبحر؛ و كان عرض القاعدة يبلغ ۸۳ قدما مزدوجة؛ و وجدت أن الزاوية بين قاعدتى و الطرف الجنوبى- الشرقى للمدينة تبلغ ۷۶، ۵؟؟؟؛ و يمكننا الاستنتاج بالتالى أن عرض ساعد البحر الأحمر يبلغ ۷۵۷ قدما مزدوجة أو ۳۴۵۰ قدما. يغطى المد الجزر المجاورة للسويس؛ أما بعضها الآخر فمرتفع جدا عن سطح المياه حتى أننا نستطيع مشاهدتها خلال المد العالى.

و مما لا شك فيه أن عبور الإسرائيليين من هذا المكان، زاده شهرة؛ و كان على بالتالى أن أرسمه بدقة متناهية. غير أننى وضعت هذه اللوحات فى كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية»، و لم أشأ إعادة نشرها من جديد. و تمثل اللوحة ۲۰ فى هذا الكتاب رحلتنا من القاهرة إلى السويس، و اللوحة ۳۳ رحلتنا إلى جبل سيناء، و اللوحة ۳۴، رسم طرف الخليج العربى، و مدينة السويس. رسمت اللوحتين الأوليين، بناء على الملاحظات التى دونتها خلال رحلتى مع القافلة. و لكنى اضطررت للمخاطرة و الابتعاد وحدى عن المدينة، بغية رسم اللوحة الأخيرة؛ و كانت مخاطرة فإن صادفنا فى هذه المنطقة عربا رحلا، تعرضنا للسطو، أكثر من احتمال ذلك فى الصحراء. إذ

لم يتجرأ أى عربى على مرافقتى فى هذه النزهة، باستثناء شاب شجاع؛ فغادرنا السويس سالكين الخط؛ كما ورد فى اللوحة ۳۴، و اتجهنا غربا على طول الضفة، بغية الوصول إلى سفح جبل عتقة؛ لكننى وجدت الدرب طويلة جدا؛ فاتجهت شمالا نحو بئر السويس، لنعود بعدها إلى البلدة. و خرجنا من السويس فى اليوم التالى، و درنا حول طرف الخليج، وعدنا إلى البلدة فى القارب برفقة العرب المحملين بمياه بئر نبا. و ما إن شاهد مرافقى العرب من بعيد حتى راح يرتجف

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۱۷

خوفا؛ غير أن من حسبناهم أعداء كانوا يخافون منا أيضا؛ و كان أحد رجال العرب الذين رأيناهم من بعيد يمتطى جمله، و يتأرجح فى الهواء؛ فخلته فى البداية شبحا غريبا؛ و لكن اتضح لى لا حقا أنه تأثير انكسار الأشعة فحسب. و خلاصة الكلام قمت بالدراسات اللازمة لوضع خارطة طرف الخليج الغربى؛ و أظن أننى استطعت معاينة هذه المنطقة أكثر من أى أوروبى آخر. و تجدون فى اللوحة(LI) منظرا عاما لمدينة السويس، كما رسمه السيد بورانفيد.

و لقد بدا لى ساعد الخليج المجاور للسويس ضيقا للغاية حتى يطوى فى جوفه الفرعون و جيشه؛ كما و أنه لم يخطر فى بالى خلال إقامتى فى السويس أن الإسرائيليين قد عبروا البحر الأحمر قرب كلثوم؛ و ذلك لأننى لم أحدد الساعة التى عبرنا فيها البحر فى هذه النقطة، خلال عودتنا من جبل سيناء. و لكن بعد أن عاينت الخرائط التى رسمتها لهذه المنطقة، و قرأت كتب المؤلفين الآخرين الذين تحدثوا عن هذه الحادثة، تأكدت من أن الإسرائيليين عبروا من هنا، كما سبق لى أن أشرت فى كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية». و أتمنى على الرحالة اللاحقين أن يعاينوا أنقاض كلثوم بدقة أكبر.

و لم أستطع جمع معلومات وافية عن القناة المتصلة بالنيل، و تلك التى تصل البحر الأبيض المتوسط بالخليج العربى؛ كما و أننى لم أنجح فى إقناع العرب بمرافقتى فى نزهة فى الجوار، إذ زعموا أن أعداءهم يقطنون فى هذه البقعة. و لم أشاهد فى المناطق المجاورة للسويس إلا وادى مصيحة، الواقع بين بئر السويس و المدينة. فبعد هطول الأمطار بغزارة تتجمع المياه فى الوادى بكثرة فينقل السكان بعضا منها؛ و بعد أن تجف ينبت العشب مكانها.

***

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۱۸

الرحلة من السويس إلى جدة

خلال رحلتنا إلى طور سيناء، وصلت إلى السويس قوافل عديدة صغيرة، فمعظم التجار و الحجاج الذين يريدون الذهاب إلى جدة بحرا، لا يغادرون القاهرة إلا قبل إبحار السفن بقليل و يشكّلون قافلة كبيرة.

و وصلت هذه القافلة فى ۲۹ أيلول/ سبتمبر، و أصبحت مدينة السويس فجأة أكثر ازدحاما من القاهرة مقارنة مع حجمها. و إن لم نسمع بقراصنة فى الخليج العربى. يفضّل السفر ضمن قوافل، و كان ينبغى أن تبحر أربع سفن فى آن واحد، ربما كى تعظم القوافل الآتية من القاهرة إلى السويس فتتمكن من مواجهة العرب، و ربما خوفا من البدو فى محيط طور الذين نهبوا مركبا رسا وحيدا فى المرفأ، كما ذكرت آنفا.

لكن المسافرين كلهم حجزوا أماكن معينة لهم على المراكب، و كان بعض تجار القاهرة قد زودونا برسائل توصية لرئيسين، فتفحصنا مركبيهما، و حجزنا لنا وحدنا الغرفة العليا فى المركب الأكبر، كى نتبعد عن المسلمين حين نود البقاء فى معزل عنهم. و بالرغم من أننا سافرنا من قبل مع مسلمين بحرا و برا، و بالتالى اعتدنا عليهم، لم نشعر قط بخوف كخوفنا من هذه الرحلة بين السويس وجدة، لأننا كنا لا نزال نعتقد أن المسلمين يعتبرون المسيحيين غير جديرين بالقيام بهذه الرحلة التى يعتبرونها مقدسة. و أكد لنا اليونان أننا سنمنع من انتعال الأحذية على المركب للسبب نفسه، و هذا بالفعل ما تمّ إعلامنا به ما إن غادرنا غرفتنا. و لا أظن أن السبب يعود إلى أن

المسلمين يعتبرون الرحلة مقدسة بل لأنهم ينظرون إلى سطح السفينة كله كشقة لذا يخلع الجميع حذاءه. و نجد على المركب العديد من الحجاج البسطاء الذين ينظرون شزرا إلى المسيحيين، شأنهم فى ذلك شأن راهب من الفرنسيسكان يصادف فى طريقه إلى القدس ملحدين أو مشككين. و حين لا حظ بعض المسلمين خوفنا، استفادوا من الوضع على حسابنا، كما يفعل المسيحيون مع اليهود، و هم يعلمون أن هؤلاء لن يتجرؤوا على الرد، و نادرا ما يدافع عنهم العقلاء من المسيحيين، طالما أن الأمر لا يتعدى السخرية. إذا، لم نكن مرتاحين خلال الرحلة، لكن لحسن الحظ كان لدينا غرفتنا الخاصة التى لا يدخلها أحد من دون إذننا، و استطعت أن أقوم فيها بدراساتى الفلكية من دون أن أتعرض للإزعاج. و بالرغم من أن وجهتنا هى الجنوب، كنا نبحر معظم الوقت نحو الشرق إذ تمكنت من رؤية الشمس فى الهاجرة بسهولة من على متن السفينة، و عند ما ترسو كانت مؤخرة السفينة تتجه نحو الجنوب بسبب الرياح الشمالية المستمرة.

و لقد كانت سفينتنا محمّلة للغاية، و كان هناك فى الغرفة السفلى و الأكبر من غرفتنا ما يفوق الأربعين امرأة و جارية مع أولادهن. و أقام قبالة غرفتنا خصى أسود ثرى، كان متجها إلى المدينة، و كان يملك كالأسياد الأتراك حريمه الخاص. و أحاط كل تاجر المكان الذى حجزه على ظهر السفينة بالصناديق و الطرود، فلم يبق له سوى مكان ضيق يغلى فيه قهوته و يحضّر نرجيلته، و ينام فيه. و لم يكن سطح

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۱۹

السفينة محملا بالأشخاص و البضائع فقط، إنما علّق العديد من الطرود الخفيفة على جوانب السفينة الخارجية. و لا تقوم هذه السفن إلا برحلة واحدة سنويا بين السويس وجدة، لذا أظهر البحارة عدم مهارة، و افتقروا إلى المساحة اللازمة للعمل، فعند ما ينبغى طوى الأشرعة، كانوا ينزلون السارية، و كان البحّارة، و هم بغالبيتهم من اليونان، يضطرون أحيانا إلى الدوس على بضائع التجار، فتنشب الخلافات بين الطرفين. و لقد كان ريس سفينتنا،- و يدعى شريب(Schoreibe) - تاجرا من القاهرة، و غير خبير بقيادة السفن لذا أوكل الأمر لربانيه اللذين بقيا على مقدمة السفينة للتنبه بنفسهما للصخور الناتئة فى المحيط.

و أظن أنهما أكثر مهارة و انتباها من الربابنة الأوروبيين الذين يبحرون دوما فى عرض البحر، لأنهما تمكنا من الانتقال من السويس إلى جدة قرابة الشاطىء و عبر الأرصفة البحرية المتعددة. أما مراكب الإنقاذ فغير موضوعة على سطح السفينة كما فى أوروبا بل معلقة وراءها، و كان مركبنا الذى يتسع لأربعين أو خمسة و أربعين مدفعا، يحمل أربعة مراكب، يرفع أكبرها شراعا. أما المراكب الباقية فتجرها السفينة، و نجد فيها كلها باستثناء أصغرها، مسافرين و جيادا و خرافا، و نساء من العامة يقصدن مكة لنيل لقب حاجة أو للبحث عن الثروة خلال الرحلة. و لحسن الحظ، يهب الهواء باستمرار على الخليج العربى، و إلا لما أبحر فيه أحد، بعد كل ما ذكرته.

و لو أننا أبحرنا على متن مركب أوروبى، لما اضطررنا إلى الصعود إليه أولا، لكن بما أننا كنا نعرف أن سطح سفينتنا كان سيمتلىء بالصناديق و الطرود، ركبنا فى ۵ تشرين الأول/ أكتوبر، كى لا نحتك بالمسلمين الذين سنمر أمامهم محملين بمتاعنا. و كنا قد دفعنا كلفة السفر من السويس إلى جدة سلفا، ما إن اتفقنا مع قائد السفينة، كما أعطينا البحارة بعض المال قبل أن ينقلوا أغراضنا إلى متن السفينة، و فاجأنا ذلك، فاضطررنا للخضوع لعادات البلاد. و نجد فى الشرق، كما فى أوروبا، مسافرين يعدون البحارة بمكافآت عظيمة، و لا يعطونهم شيئا فى نهاية المطاف، لذا يطالب بحارة السويس بالدفع سلفا، و حين يصلون إلى جدة، يغادر المسافرون السفينة من دون أن يسألوهم مزيدا من المال.

فى ۶ و ۷ من الشهر نفسه، صعد التجار إلى متن السفينة. و فى ذاك اليوم، و عند الظهر، قست ارتفاع الشمس، و وجدت أن سفينتنا فى مرسى السويس تقع على خط عرض ۲۹؟، ۵۵؟، و يبلغ ارتفاع المياه أربع باعات و نصف الباع. و لم يركب الريّس إلا فى ۸ تشرين الأول/ أكتوبر، أما الأمر الوحيد الذى بقى يؤخر إبحارنا فهو عادة حاكم السويس بتفحص كافة السفن التى توشك على الإبحار للتأكد من أنها غير محمّلة كثيرا، أو على الأرجح ليجمع المال بفضل هذه المهمة الموكلة إليه، و هذا ما فعله فى التاسع من الشهر نفسه

قبل الظهر. و ما إن غادر حتى أبحرت قافلتنا المؤلفة من أربعة مراكب، و دارت ساعة و نصف للتأكد من أنها محملة كما يجب، بعدها، رسونا فى مكان يبلغ عمق المياه فيه ۱۴ باعا، و تم نقل البضائع من جهة إلى أخرى فى كل مركب، استنادا إلى رأى الريّس بغية تسهيل الملاحة.

و بغياب الصخور البارزة بين السويس و جيروندل(Girondel) ، أبحرت السفن الأربع فى ۱۰ تشرين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۰

الأول/ أكتوبر بعد منتصف الليل بنصف ساعة، و وصلنا قرب جيروندل قبل الظهر، و بما أن السفن لم تعتمد الذهاب أبعد من ذلك فى اليوم الأول، رسونا قرب الشاطىء فى مياه يبلغ عمقها ۱۳ باعا، و على خط عرض ۲۹؟، ۱۰؟. و نزل كل من السيد فورسكال و السيد كرامر إلى اليابسة لرؤية حمّام فرعون الواقع إلى الجنوب، لكنهما وجدا الطريق طويلة فعادا. إن هذا الجزء فى الخليج العربى، المسمى بركة فرعون، و الذى سنمرّ فيه أعرض بكثير من الدرب بين السويس و جيروندل، لكنه ليس خطيرا بالنسبة للسفن المبحرة نحو الجنوب. و أبحرنا فى الساعة التاسعة مساء، و فى الحادى عشر رأينا الكثير من الأرصفة المرجانية التى لم نكن لنمر من بينها من دون أن يحدق بنا الخطر إذا ما هبّت رياح معاكسة. لكن الرياح كانت مؤاتية، فوصلنا فى الثالثة من بعد الظهر قرب الطور(To ?r) ، خلف رصيف مرجانى تكاد لا تخفيه المياه أثناء الجزر، و رسونا فى مياه يبلغ عمقها ۵ باعات و ۲/ ۳ الباع. و ينتصب تمثال حجرى على الطرف الأكثر ارتفاعا لهذه الصخرة، ينبّه البحارة إلى وجوب توخى الحذر، علما أن الأرصفة المرجانية تكثر على هذا الشاطىء. و نظريا، يبلغ عرض البحر هنا أكثر من خمسة إلى ستة أميال، و تشير البوصلة من السويس إلى طور تقريبا إلى الجنوب و الجنوب الشرقى أو الجنوب الشرقى الجنوب، و تميل سلسلة الجبال، التى تمتد من حمّام فرعون على طول الشاطىء إلى داخل البلاد على بعد حوالى فرسخ و نصف إلى الشمال من تور، ثم تتجه نحو الجنوب، و تشكل على الشاطىء سهولا واسعة ترتفع فيها التلال حتى رأس محمد.

و تبين لى من دراستين دقيقتين أننا كنا على خط عرض ۲۸؟، ۱۲؟، كما يقع جبل القديسة كاثرين، و هو أعلى من الجبال الأخرى المحيطة به و بالتالى أعلى من جبل سيناء إلى الشمال الشرقى، و قد رسم السيد بورنفايند هذا المنظر على اللوحةLI .

يحيط بمرفأ طور العديد من القرى الصغيرة، و كانت قلعة الطور فيما مضى حصنا، لكنه تداعى و لم تقم فيه حامية منذ مدة طويلة. و يعيش فى البلاد النصارى الروم، و يملك الرهبان ديرا فى المكان الذى قامت فيه إيليم(Elim) على ما يدّعون. و يقيم المسلمون فى قرية شاذلى قرب بلاد النصارى، و يعيش سكان هذه المنطقة من الصيد، و يقع البئر الذى يؤمن حاجاتهم من مياه عذبة قرب المكان الذى رسونا فيه، و هى مياه أفضل من مياه آبار نابه(Naba) قرب السويس، لكنها ليست بأعذب من المياه التى يزود بها العرب السفن حين ترسو فى هذا المكان و التى يحملونها على الجمال من المناطق الجبلية. و تثير قرية الجبل الاهتمام، إذ يقيم فيها كافة الربابنة الذين يقودون السفن من السويس إلى جدة و يعيدونها من جدة إلى السويس. و يتلقى كل ربّان ۵۰۰ ريال مقابل كل رحلة، فضلا عن الأرباح التى يجنيها و الأموال التى يقبضها من أولئك الذين يعلّمهم مهنته، لأننا عادة ما نجد على متن السفينة فتيانا أتوا لتعلم هذه المهنة أو على الأرجح لتعلّم كيفية التنبه للأرصفة الرملية و الأرصفة المرجانية و اكتشافها.

رسمت على اللوحة(LII) خارطة محيط طور، استنادا إلى نظرى و إلى روايات الربابنة لا استنادا إلى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۲

دراسات هندسية كانت لتعرضنى للخطر. و كان السيد فورسكال الوحيد الذى ابتعد أكثر من بئر طور، و لم يجد فى بلاد النصارى سوى كاهن واحد، أكرمه فى منزله و أرسل معه مرافقين حتى اليم المزعومة حيث رأى العديد من الحدائق المزروعة بالنخيل و التى يملك جزءا منها الروم و الجزء الأخير المسلمون. و قد أثار غيابه الطويل تساؤل العرب، و أعلموا بعض الانكشاريين من القاهرة، فقرروا البحث عن الإفرنجى الذى نزل إلى البرّ لرسم جبالهم، و سارعوا إلى بلاد النصارى، و صادفوا السيد فورسكال و هو عائد من

الحدائق فأعادوه إلى السفينة على الفور و بكل أمان. هل نجد الكثير من المسيحيين الذين يتكبدون مشقة قطع نصف فرسخ لإنقاذ يهودى لا ـ يعرفونه من خطر محدق؟ لم أكن أتوقع هذه الشهامة و هذا الكرم من المسلمين بشكل عام و من الانكشاريين بشكل خاص. لكن هؤلاء كانوا من التجار الذين اعتادوا التعامل مع الأمم الأجنبية، فظنوا أن من واجبهم حمايتنا، كأجانب نبحث عن أمننا بينهم.

و فى الرابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، خرجنا من مرفأ طور بعد أن هبّت رياح رملية، و توجهنا نحو الجنوب أولا، ثم نحو الجنوب الشرقى و ذلك بين أرصفة المرجان. و بعد الظهر رسونا قرب رأس محمد أو رأس محمود كما يقول البعض، على عمق ۱۰ باعات. و بعد قياس ارتفاع نجمتين، تبين لى أننا على خط عرض ۲۷؟، ۵۴؟، تقريبا، علما أن الأفق لم يكن صافيا كليا، لكن هذه الملاحظة دقيقة بما يكفى لتصحيح الخرائط البحرية. لا حظت أن البحر أعرض هنا منه قرب طور، و يمتد الشاطىء أبعد نحو الجنوب ثم نحو الشرق حيث نجد الخليج الثانى للبحر الأحمر و الذى يمتد حتى العقبة. و حتى الآن، لم نبحر سوى قرب اليابسة، و رسونا كل ليلة، لكن بين رأس محمد و شاطىء شبه الجزيرة العربية، اضطررنا للإبحار فى عرض البحر لأيام و ليال عدة. و سيعتبر كل أوروبى هذه الطريق آمن من الطريق بين السويس و جدة فى غياب الأرصفة المرجانية و الصخور، لكن المسلمين، الذين لم يعد باستطاعتهم رؤية اليابسة، اعتبروها خطرة، و كانوا يفضلون على الأرجح لو مررنا من رأس محمد إلى جزيرة تيران(Tyr n) و منها إلى شواطىء شبه الجزيرة العربية، لكن الرياح كانت مؤاتية لنا للسفر فى طريق مستقيم. و بقيت الرياح شمالية إلى شمالية غربية فتمكنا من التوجه نحو المرفأ الذى نصبو إليه.

فى ۱۵ تشرين الأول/ أكتوبر و عند الظهر، كنا على خط عرض ۲۷؟، ۲۹؟، و كنا قد مررنا صباحا أمام جزيرة سفن البحر(Saf ni el Bahhr) ، و كانت جزيرة شدوان(Schedu n) مباشرة إلى الغرب على بعد ۴ أميال، و بالتالى على خط العرض نفسه. و كانت جزيرة تيران الواقعة أمام بحر العقبة إلى الشمال الشرقى على بعد حوالى ۵ أميال (استنتجت ذلك من تغييرات البوصلة) و على خط عرض ۲۷؟، ۴۳؟.

و عند غياب الشمس، كانت الشواطىء المصرية لا تزال بادية أما شبه الجزيرة العربية فغابت عن أنظارنا.

ثم فى ۱۶ من الشهر نفسه، و عند الظهر، كنا على خط عرض ۲۶؟، ۹؟، أما عند المغيب فأصبحنا على خط عرض ۲۵؟، ۵۴؟، و شاهدنا على الشاطىء المصرى جبال الزمرد التى تحدث عنها الكتّاب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۳

القدامى من يونان و عرب. إذا ما احتسبنا وسط كافة الاتجاهات التى سلكناها، و استنادا إلى بوصلتنا الخاصة نجد أننا أبحرنا باتجاه الجنوب و الجنوب الشرقى منذ رأس محمد. و لم يتبع ربابنة السفن الاتجاه نفسه حتى و إن كانت الرياح مؤاتية للغاية. و وضع الريس بين بوصلتيه- حيث يضع الأوروبيون عادة الضوء- قطعة كبيرة من المغنطيس، ظنا منه أنه يحافظ على مزاياهما، لأنه قيل له إن المغنطيس يعيد المزايا لمن فقدها. و نستنتج من ذلك، جهل البحارة فى هذه البلاد لذا لم نلاق صعوبة فى إقناع الريس بنزع المغنطيس من مكانه لأنه يضلل البوصلة.

و فى ۱۷، تحضرت فى الجانب الصغير وراء غرفتنا لمراقبة كسوف الشمس، و سجلت نهايته عند الثانية عشرة و ۲۸ ثانية ظهرا بواسطة منظار كبير بأربع قوائم. و منعتنى حركة السفينة، و إن كانت خفيفة، من تحديد خط الطول، لا سيما و أنه كان يتوجب علىّ تحديد ارتفاع القطب، و استخدام ثمن الدائرة حينا و المنظار حينا آخر. و كنا على خط عرض ۲۵؟، ۳۳؟، و بعيدين عن شاطىء شبه الجزيرة، فبالكاد نرى جبل الغراب. و أبحرنا خلال ال ۲۴ ساعة الأخيرة تقريبا نحو الجنوب و الجنوب الشرقى.

و حدّث السيد فورسكال ريسنا مسبقا عن الكسوف الذى سيحدث فى ذاك اليوم، و لإسعاده و القيام بتجاربى من دون التعرض للإزعاج، قمت بتسويد بعض العدسات التى استخدمها السيد فورسكال ليشاهد الريّس و بعض التجار هذه الظاهرة و قد أعربوا جميعا

عن رضاهم. و يعتبر الذين يستطيعون التنبؤ بالكسوف بين المسلمين أطباء ماهرين، عالمين بالقوانين الدينية و المدنية، فاقتنع المسلمون أن السيد فورسكال طبيب عظيم لأن الواقع أظهر صحة تنبوئه، فكثر المرضى بينهم. و طلب كل منهم دواء لمرضه المزعوم، و أشار إليهم الطبيب الجديد بالعلاج الأفضل، فنصح العديد منهم بالنوم و باتباع حمية غذائية أفضل. و أخيرا، تقدم منه حاج اشتكى من أنه لا يرى شيئا أثناء الليل، فنصحه السيد فورسكال بإشعال شمعة فأثارت هذه النصيحة موجة من الضحك، و بدا أن جميع المرضى السابقين أضحوا أصحّاء. و لا يكسب العلم الأوروبى عطف المسلمين و احترامهم دوما، بل ينجح فى كسبهما إذا ما اتّبع عاداتهم و احترمها، و هكذا كسب السيد فورسكال، مع القليل الذى يعرفه عن الطب، محبة العرب أكثر من أىّ طبيب عظيم.

و فى ۱۸ تشرين الأول/ أكتوبر، كنّا على خط عرض ۲۵؟، ۴؟، كان جبل هوان(Hawa Y ?ne) ، الذى يقع على شاطىء شبه الجزيرة العربية، على بعد خمسة أميال إلى الشمال الشرقى، أى إنه يقع على خط عرض ۲۵؟، ۵؟. و خلال الأربع و عشرين ساعة الأخيرة، أبحرنا تقريبا نحو الجنوب الشرقى و الجنوب، و كذلك الأمر بالنسبة للأربع و عشرين ساعة اللاحقة. فى ۱۹ تشرين الأول، ظهرا، كنا على خط عرض ۲۴؟، ۱۰؟، و كانت أكبر جزيرتى حسّانى و أكثرهما إلى الجنوب إلى شمال مركبنا، على بعد حوالى ثلاثة أميال و نصف. و ترسو المراكب الآتية من رأس محمد عادة قرب هذه الجزيرة، و هى تقع على خط

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۴

عرض ۲۴؟، ۲۴؟. و بعد الظهر دنونا من الشاطىء بعد أن درنا حول رصيف مرجانى كبير، و رسونا قرب مهار(Mahar) . فأرسل الريّس بطلب عربيا كان يمشى على الشاطىء ليسأله إن كانت القبائل المختلفة فى حالة حرب أم فى حالة سلم. و وصل أحد المراكب التى أبحرت معنا من رأس محمد فى اليوم نفسه أما المركبان الأخيران فلم يتمكنا من اللحاق بنا.

و بما أن الرياح كانت مؤاتية للغاية، نجونا من الخطر المحدق بنا، فاثنان من المراكب الثلاثة التى انطلقت متأخرة قليلا من السويس فى السنة الماضية، غرقت فى هذه المنطقة. و كان على متن سفينتنا، بعض الأشخاص الذين مرّوا بهذه التجربة، ورووا لنا أن عاصفة فاجأتهم قرب حسّانى، فسادت الفوضى فى السفينة، و سارع الركاب و البحارة إلى مراكب الإنقاذ و توجهوا نحو اليابسة، ورأوا من هناك المركب الأول يتكسّر على الصخور. و عند المساء، هدأت الرياح، و شاهدوا فى اليوم التالى المركب الثانى يطوف على سطح الماء، مما دفع بالريس و بحارته إلى العودة نحوه، لكنه عاد و غرق قبل أن يغادروا اليابسة. و قام الريّس الثالث بعمله بشكل أفضل، إذ خشى أن يلوذ البحارة بالفرار ففكّ الحبال التى تربط مراكب الإنقاذ بالسفينة ما إن عمّت الفوضى بين الركاب، و عرّض نفسه بالتالى لغضبهم. لكن حين عرض لهم المخاطر التى تتعرض لها سفينة من دون قبطان، و حين ادّعى قدرته على إنقاذهم و بضائعهم، إذا ما أفسحوا له و لرجاله المجال ليعملوا، هدؤوا و ساهموا فى العمل، و استطاعوا النجاة، فأكملوا طريقهم و وصلوا بأمان.

و كادت تحلّ بمركبنا كارثة غير الغرق بين رأس محمد و حسّانى، و ذلك بسبب طيش النساء اللواتى يسكنّ الغرفة السفلى و التى يزعجننا دائما بصراخهن و نقاشهن، فقد شبّ حريق مرتين بسبب قطع من القماش، و كاد هذا الحادث أن يؤدى بنا إلى كارثة لو لم يصرخن طلبا للنجدة. و حين شبّت النيران للمرة الثانية، خاف المسلمون، مما اضطر الريس إلى إرسال أحد البحارة إلى الحريم، فأخذت النساء أولا بإصدار أصوات مزعجة تمّ حلّ صمت عميق دام ۲۴ ساعة من دون انقطاع.

بعد اجتيازنا الدرب المهلكة بين رأس محمد و حسّانى، عمّت السعادة، و أطلق المدفع طلقات عدة.

و عند المساء، تمّ إشعال كافة القناديل و المصابيح، و أطلقت النار ابتهاجا، و تعالت الزغاريد الشائعة بين الشرقيين من الجهات كلها. و توقّع الربان مكافأة جيدة من المسافرين لقاء الخدمات العظام التى قدّمها، كما طلب البحارة بعض المكافآت الصغيرة لقاء تعبهم و سهرهم طوال الليل. و استخدم هؤلاء مركبا صغيرا، كما يصنع الأولاد فى أوروبا، لجمع المكافآت، ثم رموه فى البحر، و لم يجمعوا الكثير لأن لكل واحد من الركاب الحرية فى إعطاء ما يشاء.

و فى ۲۰ تشرين الأول/ أكتوبر، و عند شروق الشمس، أبحرنا من جديد، و كان الهدوء سائدا، و كنا عند الظهر لا نزال على خط

عرض ۲۴؟، ۳۲؟. و كانت مهار(Mahar) تبعد عنّا حوالى فرسخ و نصف إلى الشمال و الشمال الشرقى، إذا، نستنتج أننا رسونا على خط عرض ۲۴؟، ۳۷؟، و بعد الظهر، رسونا إلى الجنوب فى أبى دبى(Abu D bea) و هى على خط عرض ۲۸؟، ۲۸؟، و يصل ارتفاع المياه فيها إلى عشرة باعات، و تمتد أرصفة المرجان على طول ۲۰۰ قدم. فى ۲۱ من الشهر نفسه، و منذ الصباح،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۵

كانت الرياح معاكسة تماما، لكنها ما لبثت أن تغيرت، و تقدمنا نحو الجنوب و الجنوب الشرقى.

و عند الظهر، كنا على خط عرض ۲۴؟، ۲۴؟ و كانت جبال النبط(Nabat) مباشرة إلى الشرق أمام جبال رضوى(Radwa) الكبيرة. و عند المساء، درنا حول جمم أو السبعة رؤوس و الخطر يحيق بنا لأن الصخور تكثر فى هذا المكان، و كان الظلام قد حلّ، و ريسنا قد ثمل. فما إن وصلنا إلى متن السفينة حتى طلب منا الكحول بحجة أنه لا يمكنه التعرف على الشواطىء و الجبال ما لم يشرب القليل من الخمر، فرفضنا إعطاءه لأنه مسلم و لكى لا نقع فى متاعب مع المسافرين الآخرين فى حال ثمل، و كان يطلب منا كل صباح ربع زجاجة عن طريق خدمه، و لعل التجار اليونانيين اعتادوا إعطاءه الكحول. ثم فى وقت متأخر من تلك الليلة، رسونا قرب قبة ينبع(Kubbet Yanbo) ، و هى جزيرة صغيرة تحوى رفات قديس مزعوم.

فى ۲۲، لم نتمكن من التقدم بسبب الرياح المعاكسة، التى هبّت من الشرق نحو الجنوب و إلى الغرب، و سجلت ظهرا، ارتفاع القطب، و وجدت أن قمة ينبع تقع على خط عرض ۲۴؟، ۱۴؟. و فى اليوم التالى ۲۳، أبحرنا نحو الجنوب الشرقى و الجنوب، و عند الظهر كنا على خط عرض ۲۴؟، ۱۰؟، و صادفنا رصيف مرجانى إلى الغرب، و القسم الجنوبى لجبال رضوى الشاهقة فى الشمال الشرقى. و كانت السماء ملبّدة بالغيوم، أثناء هذين اليومين، ثم مررنا بعد الظهر أمام مرسى جيد، يطلق عليه اسم شرم، و رسونا قرب مدينة ينبع. إننا لم نر منزلا واحدا منذ غادرنا طور. و الآن ظهرت مدينة ينبع تحيط بها الأسوار، و يبدو منظرها العام جيدا من جهة البحر، أما مدخل المرفأ فضيق للغاية، لكن المرفأ بحد ذاته آمن حتى أننا لا نحتاج لإنزال المرساة، لذا اكتفينا بربط حبل من سفينتنا بحجر من رصيف المرجان الذى تغطيه المياه بالكاد أثناء الجزر.

و لقد غادر المسافرون الذين ينوون التوجه إلى المدينة مباشرة و من ضمنهم الخصى الذى ذكرته سابقا. و تمّ تحضير مركب الريس الخاص له و لبعض المسافرين ذوى الشأن، و لوّث أحد أعضاء بعثتنا هذا المركب إذ لم ينتبه إلى أنه تحت غرفتنا، مما أغضب البحارة الذين نظفوه و غطوه بالسجاد. و لحسن حظنا، لم ينس أحد طيش النساء اللواتى يسافرن فى الطبقة السفلى، فاتهمن بهذه الفعلة بالرغم من إنكارهن لذلك. و كانت غرفهن ملاصقة لغرفتنا، و هى غرف واسعة يمكن أن يقيم فى كل واحدة منها أربعة إلى خمسة أشخاص، لكن النزول إلى غرفتنا يتطلب استخدام السلالم. و لم أفاجأ بسماع أصوات نساء بالقرب منى، و دفعتنى حشريتى إلى البحث عن فتحة، و وجدت واحدة صغيرة. و منذ رحيلى من السويس، و بصعوبة رأيت وجه مسلمة مكشوفا، لكن فى أثناء هذه الرحلة كنت أرى أحيانا و عند الصباح ۳ أو ۴ نساء عاريات يغتسلن.

و بقيت على متن السفينة، لأقوم بدراسات فلكية، و لأحدد موقع ينبع التقريبى، راجعوا اللوحة(LVIII) ، و قد رسم السيد بورنفيد منظر هذه المدينة على اللوحة(LIII) . و نزل إلى اليابسة ثلاثة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۶

أشخاص من بعثتنا، و حمل كل منهم سيفه كباقى المسافرين و لم يكونوا يعلمون أن ذلك سيجلب لهم المشاكل. إذ رمى أحد سكان المدينة عليهم السلام، بعد أن ظنهم مسلمين بسبب اللباس التركى الذى يرتدونه، و حين علم أنهم إفرنج، استشاط غيظا، بسبب الخطأ الذى ارتكبه بإلقاء السلام عليهم، و راح يشتم الكافرين الذين وصلت فيهم الجرأة حدّ النزول إلى الشاطىء مسلحين. و من حسن حظهم أن العرب الحاضرين المسالمين أكثر لذلك لم يمنعوهم من العودة إلى السفينة.

و سرّنى أنى رأيت بعض النجوم فى الهاجرة، لكن الانتظار أتعبنى. و فى ۲۴، تبددت الغيوم قبل إبحارنا، و تمكنت من قياس ارتفاع

القطب، فوجدت أن ينبع تقع على خط عرض ۲۴؟، ۵؟ و عند الظهر، كنا لا نزال على خط عرض ۲۳؟، ۵۷؟، و كانت مدينة ينبع إلى الشمال و على ۱۸؟، إلى الشرق، على بعد ميلين و نصف، و لأننى كنت على ارتفاع ۱۸ قدما فوق مستوى المياه أمكننى رؤية منازل المدينة بوضوح. و بعد الظهر، شاهدنا الكثير من أشجار النخيل على الشاطىء، و عند المساء، رسونا قرب ديار(Dsjar) ، على خط عرض ۲۳؟، ۳۶؟، و فى مياه يبلغ عمقها ۱۴ باعا.

فى ۲۵ ظهرا، كنا على خط عرض ۲۳؟، ۲۹؟، و إلى الغرب من وسط جبال صفرا(Safra) ، و كنا نبحر على بعد ميل و نصف من الشاطىء، و تحيط بنا صخور مرجانية كبيرة. و عند المساء، رسونا قرب أبو أعين(Abu Aij n) على خط عرض ۲۳؟، ۱۶؟. و فى ۲۶، أبحرنا نحو الجنوب و الجنوب الشرقى كما فعلنا خلال معظم الرحلة، و مررنا بين الأرصفة المرجانية، كما شاهدنا قناة على صخرة كبيرة من المرجان، يطلق عليها اسم جيبراد (جيب رعد)(Dsjebr d) . و عند الظهر، كنا فى الجنوب الغربى، على بعد ميل و نصف من مدينة مستورة(Mastچra) الواقعة على سفح جبل يحمل الاسم نفسه، و بعد الظهر اجتزنا رأس وردان(Ward n) ، و رسونا مساء قرب رابوخ(Rabogh) على خط عرض ۲۲؟، ۴۵؟، بين بعض الجزر الصغيرة، و هى قرية أو مسكن ثابت للبدو، و قيل لنا مسبقا إن عرب الرابوخ يحملون الماء و الزاد إلى الشاطىء لبيعه، و وجدنا الكثير منها بالفعل.

و لقد كنت قد ذكرت سابقا فى وصفى لشبه الجزيرة العربية، أن على المسلمين، الذين يحجّون للمرة الأولى، أن يرتدوا لباس الإحرام، إذا ما سمحت صحتهم بذلك. و هذا ما يجب أن يفعله القادمون من السويس بحرا، لدى وصولهم إلى رأس وردان الذى اجتزناه فى هذا اليوم. و لباس الإحرام هو قطعة من القماش تربط حول الخصر كما فى الحمّامات، و هو اللباس الذى يسمح للحاج الجديد بارتدائه حتى يزور الكعبة فى مكة. كما يمكنه ارتداء قطعة أخرى من القماش فوق كتفه، كذاك التركى الذى رسمه السيد بورنفاند على اللوحة(LIV) . و حافظ العديد من المسافرين الحجاج على ثيابهم العادية، إما لأنهم مرضى و إما لأنهم يدّعون ذلك، فى حين ارتدى العديد من المسلمين المتدينين لباس الإحرام من دون أن يلزمهم القانون بذلك بما أنهم زاروا مكة من قبل. و هكذا، رأينا عند المساء، العديد من المسافرين على متن سفينتنا يرتدون ملابس مغايرة لتلك التى كانوا يرتدونها عند الصباح.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۲۹

قد نستغرب أن يأمر محمد أتباعه بزيارة الكعبة للمرة الأولى حاسرى الرأس و شبه عراة. و لعله يقصد عامة الشعب من عرب الحجاز و اليمن و عمان و مكة بهذا الزىّ. و لعله لم يسع إلّا إلى جعل الحجاج يدخلون أرض مكة خاشعين متواضعين، أى مرتدين اللباس نفسه كعامة الشعب. و أعتقد أنه لم يكن ليضع قانونا كهذا، لو علم أن حجاجا من البلاد الباردة سيقصدون مكة يوما ما، فالإحرام غير مريح للأتراك، و قد يؤذى صحتهم لأنهم اعتادوا الإكثار من الثياب حتى فى الصيف و يناسب لباس الإحرام عربيا أحرقته الشمس، لكنه لا يناسب تركيا حاسر الرأس، و ملتحيا ذا بشرة بيضاء كليا.

و منذ انطلقنا من السويس، أبحرنا نحو الشرق، فتمكنت من رؤية الشمس فى الهاجرة، و أنا فى المقصورة. فى ۲۷ تشرين الأول/ أكتوبر، و قبل الظهر بدقائق، توجهنا نحو الجنوب مباشرة، مما منعنى من تحديد ارتفاع القطب بدقة، لكن لا أظننى أخطىء كثيرا إن اعتبرت أن جبل قليع(Kleia) الذى لم نكن بعيدين عنه يقع على خط عرض ۲۲؟، ۲۳؟، استنادا إلى ارتفاع الشمس الأخير. و بعد الظهر، أبحرنا نحو الجنوب و الجنوب الغربى، و يمتد شاطىء شبه الجزيرة جنوبا حتى جدة. و عند الساعة الواحدة، مررنا أمام أم المسك، و هى جزيرة صغيرة قرب الشاطىء، و بعد الساعة الثانية، كانت جزيرة حرام، و هى جزيرة صغيرة أخرى، إلى الغرب منا. ثم بعد ذلك، أبحرنا فى قناة ضيقة للغاية بين أرصفة المرجان، و يحاول أى بحّار أوروبى التوجه إلى عرض البحر، لكن ريس سفينتنا ارتأى عدم الابتعاد عن الشاطىء حتى يتمكن و الركاب من الهرب إلى اليابسة إن غرقت السفينة. و عند المساء، رسونا قرب رأس الحطبة(R s el Hatba) فى مياه يبلغ عمقها ۱۵ ذراعا. و يقع كل من جبل قليع و هذا المرسى تحت خط الهاجرة نفسه تقريبا، لكن الشاطىء الذى يمتد بينهما يشكل انحناء كبيرا نحو الشرق. و لم أتمكن طوال الليل من مراقبة نجمة واحدة ثابتة، و يقع رأس الحطبة،

وفقا لدراستى، على خط العرض ۲۲؟، ۳۳؟.

و فى ۲۸ ظهرا، وصلنا قبالة جبل و كر(Wakr) ، و أمضينا الليلة أمام أبحر(Obh r) ، حيث يدخل الخليج عميقا فى اليابسة حتى ليظنه المرء نهرا. إن مدخل هذا المرسى ضيق للغاية، لكنه آمن حتى أننا لم ننزل المرساة، و اكتفينا بربط السفينة من الجهتين بحجارة كبيرة فى أرصفة مرجانية. و تقع أبهر على خط عرض ۲۱؟، ۱۰؟، إلّا فى حال وجود شاطىء مستقيم بعيد يقع قرب الهاجرة، جعلنى أخطىء فى تقديرى.

و فى ال ۲۹ منه صباحا، غادرنا أبحر بعد هبوب رياح رملية، و وصلنا عند الثانية من بعد الظهر إلى جدة، و رسونا على بعد نصف ميل إلى غرب المدينة، على خط عرض ۲۱؟، ۲۷؟ بين أرصفة المرجان.

و فيما يلى، حددت موقع جدة على خط العرض بدقة بواسطة ربع الدائرة. و بقينا فى السفينة ليومين بعد مغادرة كافة المسافرين المسلمين للسبب نفسه الذى دفعنا إلى الصعود على متنها قبلهم (كى لا نزعج المسلمين). و دخل العديد منهم المدينة إما لزيارة الأصدقاء و الأهل و إما لاستقاء الأخبار، و إما لإدخال

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۰

أموالهم على دفعات و سرا، لأن رسم الدخول يبلغ ۲ إلى ۲ و نصف بالمئة. و تمكن البعض من دخول المدينة من دون أن يدفع المال، أما الذى تكثر الأغراض معه، فتم توقيفه و إجباره على دفع الموجبات.

و يبدو أنهم لا يعرفون معنى لحجز الأغراض و معاقبة المخالف، و قيل لنا إنهم يكتفون بالسخرية ممن يحاول خداع الجمارك و لا يفلح فى ذلك. و أذكر أنى سمعت فى مناطق أخرى تركية، أن من يحاول إدخال بضاعة ما خلسة يدفع المبلغ المستحق مضاعفا. و تعرّض أحد أصدقائنا، الذى حاول إدخال ماله من دون أن يدفع، لعقاب أكثر صرامة، فحين نزل من السفينة، انفتح كيس ماله، الذى ربطه حول خصره، و وقع منه حوالى ۱۰۰ درهم فى البحر.

و بما أن الذين، عادوا من المدينة اشتكوا من أن الجمارك صارمة هذه السنة أكثر من المعتاد، اتخذنا كافة التدابير الممكنة كى لا نتعرض للمشاكل. و لم نكن ننقل بضائع و بالتالى ما من شىء نخشاه من هذه الناحية، لكن المسلمين لا يستخدمون الكمبيالات، لذا اضطررنا إلى إبدالها بالمال فى القاهرة، و سعينا إلى إخفاء الأمر عن العرب كى لا تسوّل لهم أنفسهم القيام بأمر ما. و لم نكن نحمل سوى نقود البندقية التى تستخدم فى جدة أكثر من النقود الذهبية التى ضربت فى تركيا، و كان يمكن لكل منا أن يخفى حصته لو لم نخش التعرض للتفتيش. فقررنا إخفاء مالنا فى جرار الأدوية، و هى أفضل طريقة لإخفائه عن عيون العرب الذين لا يتوقعون أن يحمل طبيب ما المال، و بالرغم من أن المسلمين لا يحبون أن يدفعوا المال لأطبائهم، يرحبون بهم أينما حلّوا.

و لم يتمكن من اللحاق بنا سوى مركب واحد من المراكب الثلاثة التى انطلقت معنا من السويس ثم من رأس محمد، و قد وصل إلى جدة حين وصل مركبنا، فيما وصل الثانى فى ۲ تشرين الثانى/ نوفمبر، بعد أن فقد أحد مراكب الإنقاذ و عانى الأمرّين للحفاظ على المراكب الأخرى، و لم يصل الثالث إلا فى ۱۲ تشرين الثانى/ نوفمبر صباحا. و عند المساء، ما بين الساعة الثامنة و الساعة التاسعة، سمعنا فجأة صوت دوى مدفع، و هى الإشارة إلى حصول كارثة ما لأحد المراكب الراسية. و خشى أن تكون النيران قد اندلعت فى إحداها، فأرسلت كافة المراكب الصغيرة النجدة، و بعد حين عاد بعض منها لإخبارنا أنّ المركب الذى وصل متأخرا قد انقلب، و أن كمية من البضائع وقعت فى الماء لأن البحارة أثقلوا الحمل و أكثروا من البضائع و الصناديق بعد أن رجاهم التجّار إذ أرادوا الحصول على بضائعهم فى اليوم التالى.

و أرادت القلة التى بقيت على متن المركب إرسال إشارة إلى الضباط و البحارة الذين نزلوا إلى البرّ كى يرجعوا و يساعدوا فى إعادة المركب إلى وضعه الصحيح. هؤلاء هم الناس الذين تسلّم لهم حياتك بين السويس و جدة، فشكرنا الرب و حمدناه لأننا أنهينا رحلتنا بخير و سلام، هذه الرحلة التى تجدون خارطة لها على اللوحة ۲۰ فى وصف شبه الجزيرة العربية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۱

ملاحظات فى جدة

لم يساورنا الشعور بالخوف قط من سكّان مدينة بقدر ما خفنا من سكان جدة قبل أن ندخلها، و ذلك بعد أن رأينا الازدراء الذى يعامل به الأوروبيون فى مصر، إذ ظننا أن عداوة المسلمين للمسيحيين ستزداد مع اقترابنا من المدن التى يعتبرونها مقدسة، و قد زادتنا طريقة تصرف سكّان ينبع مع رفاقى اقتناعا بهذا المنطق، لكن تبين لنا أننا على خطأ. إذ لم يعتد أهالى جدة إلا على رؤية الأوروبيين القادمين من الهند للتجارة، و هم يرتدون الملابس الأوروبية، و بما أننا قادمون من منطقة أخرى، و قد لبسنا الثياب الشرقية، ساور أهالى المدينة الشك تجاهنا فى البداية، لكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا خطأهم. و قد عرفنا من قبل العديد من المسافرين الذين وصلوا حديثا، و لم يعد سكان المدينة يعيروننا اهتماما لأنهم لم يجدوا فى لباسنا ما يريب. فزرنا المقاهى و الأسواق، و تنزهنا قرب البحر و فى المدينة و محيطها دون أن يتعرّض لنا أحد. و الأمر الوحيد الذى لا يسمح به أهالى المدينة لغير المسلمين هو الاقتراب من الباب الواقع من جهة مكة، و قد أعلمنا بالأمر، فالتزمنا به.

و ساعدتنا رسائل التوصية التى حملناها، فقد أوصى بنا السيد دى غابلر الباشا حاكم جدة و الذى يعرفه معرفة شخصية من القسطنطينية. و كنا نحمل رسالتى توصية من تاجرين فى القاهرة إلى أكبر تجار جدة، و أخرى من شيخ إلى كخيا المدينة، و هذا الشيخ هو كاتب أحد أكبر علماء جامع الأزهر فى القاهرة. و لم نكن نتوقع الكثير من رسالة التوصية التى زودنا بها الشيخ، لكنها أفادتنا أكثر من الأخريات.

و هذا الأخير هو من من أصل تركى، و بالتحديد من الجزء الأوروبى منها، و قد سمع فى موطنه و فى القسطنطينية الكثير عن تفوق الأوروبيين على المسلمين فى مجال العلوم، و لم يكن بإمكانه قراءة كتبنا، و لم يصادف علماء أوروبيين من قبل، فاعتاد زيارتنا. و بالرغم من كونه مسلما مؤمنا، و متطيّرا للغاية، و متفاخرا حيال أتباع الديانات الأخرى، إلا أنه رجل شريف و صديق و فىّ لغيره من الرجال. و علّمه السيد فورسكال كيفية استخدام المجهر، و أعطاه معلومات عامة عن النباتات، أما أنا فعلّمته الرسم، و دللته على توابع الزّهرة، و حلقات زحل و غيرها من الأمور التى لم يسمع بها من قبل، و قد شهد ليال طوالا معى و أنا أقوم بدراساتى الفلكية. و استفدنا من وجوده إذ تمرّنا على اللغة العربية، و اطلعنا على أمور ما كنّا لنعلم بها لولاه. و كان هذا الشيخ قد علّم الكخيا(Kichja) فى جدة كيفية استخدام الكرة، و كتب له يوصيه بنا و بعث برسالته مع آخر قافلة من دون أن يعلمنا، ثم أعطانا رسالة موجهة إلى الكخيا يطلب منه الاهتمام بنا، و سألنا أن نعلّم هذا الأخير ما أطلعناه عليه.

و قررنا تسليم الرسائل الموجهة للباشا و الكخيا شخصيا، فأرسلنا خادمنا اليونانى إلى المدينة و هو يحمل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۲

الرسالتين المبعوثتين للتاجرين و رجوناهما أن يجدا منزلا- لكن، حين علما بكثرة عددنا، و علما منهما بأن الأوروبيين لا يستطيعون العيش كالعرب بسهولة، اعتذرا عن تقديم هذه الخدمة لنا. و أحسسنا بسيئات كثرة العدد مرارا، فلو كنا قلائل لتمكنا من استئجار بعض الغرف فى فندق عام. و حين لم يجد لنا خادمنا منزلا مع رسائل التوصية التى نحملها، توجّه إلى أحد مواطنيه، و هو صائغ شريف مكة و يحظى بمكانة جيدة عند الباشا و الكخيا، فأعلمه أن هذا الأخير على علم بوصولنا و قد طلب منه مساعدتنا على النزول إلى اليابسة، و عرض علينا منزله لليلة و أكدّ لنا أنه سيستأجر لنا منزلا آخر. أسعدنا هذا الخبر، و فى ۳۱ تشرين الأول/ نوفمبر نزلنا إلى البرّ، و استقبلنا الصائغ بتهذيب عميق.

و سارعنا بتسليم الكخيا رسالة الشيخ، و استقبلنا الأول بالترحاب، و سألنا عن أحوال الشيخ و غيره من الأصدقاء فى القاهرة. و اعتدنا بعد ذلك زيارته، و كان يطرح علينا أحيانا أسئلة حول الدين و العادات و التقاليد عند الأوروبيين، و استفدنا من الفرصة لإعطائه و

الحضور فكرة أفضل من تلك التى يملكونها عن بلدنا. أما فكرتهم عن الأوروبيين فشبيهة بفكرتنا عن الصينيين. و يعتبرون أنفسهم أكثر حكمة من الأمم الأخرى، بالرغم من أنهم لا ينكرون جهلهم للعلوم أكثر من الشعوب الأخرى. و أريت الكخيا الكواكب من خلال المقراب، و كان يحلو له التحدث عن علم الفلك. و دفعه السيد فورسكال، الذى اعتاد التردد عليه أكثر من غيره، إلى إنشاء حديقة قرب منزله، خلال إقامتنا فى جدة، و استقدام بعض النباتات و الشجيرات التى تنتج بلسم مكة من محيط المدينة. و استغرب العرب كيف لم يفكروا بالموضوع، علما أنهم يلاقون صعوبة فى الحصول على هذا البلسم.

و بعد أيام، سلّمنا الباشا رسالة السيد دى غابلر. و كان الباشا يميل نحو علم الفلك. و أراد منى أن أحضر ساعتى الشمسية و أقيس ارتفاع الشمس أمامه، و طلب منى إعطاءه وصفا مفصلا للآلة، و أجبر أحد العلماء على احتساب خط عرض جدة استنادا إلى ارتفاع الشمس الذى راقبته. و أعطيت الأفضلية لآلتى على حساب الساعات الخشبية الصغيرة التى يستخدمها علماء الفلك المسلمون، و بما أن حساباتى اختلفت قليلا عن حسابات الشيخ، أعطيت الأفضلية للوائح علماء الفلك الأوروبيين. و لا يتكلم الباشا و الشيخ سوى التركية، لكنى كنت محاطا بالمترجمين، فخادمنا اليونانى يتكلم التركية، فضلا عن ثلاثة مرتدين يعملون لدى الباشا، أحدهم فرنسى و الآخرين إيطاليين، لكن أيّا منهم لم يكن ضليعا بمصطلحات علم الفلك، فاضطررت لشرح الأمور للكخيا بالعربية مما تطلب منى جهدا كبيرا لأنى قلما أتحدث مع العرب فى مواضيع كهذه.

وزرنا منازل عدة منذ اليوم الأول، و استأجرنا واحدا كبيرا، يقع على البحر. فى ۱ تشرين الثانى/ نوفمبر، نقلنا متاعنا إلى اليابسة، و كان الكخيا حاضرا فى الجمارك، و لم يبق فى غرفة منفردة كما يفعل الأوروبيون، بل جلس مع بعض الموظفين فى مكان مرتفع تمرّ به كافة البضائع. و تبين لنا أن هناك من يسهل لنا أمورنا، فلم يكتف الموظفون بفتح صناديق التجّار، بل قاموا بعدّها و تفتيشها بدقة، و بما أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۳

الكخيا مقتنع بأننا لم نقصد البلاد بهدف التجارة، و أراد مساعدتنا اكتفى الموظفون بفتح صناديقنا. و لم يقوموا بتفتيش صندوق الأدوية لشدة حاجتهم إليها، و بهذه الطريقة، لم يعثروا سوى على ۲۰۰ دوكا كنا قد وضعناها لهذا الهدف فى مكان بارز لنظهر أننا لا نحمل سوى هذا القدر من المال الكافى لإقامتنا فى هذه المدينة. و حين يتعامل موظفو الجمارك العرب بأمان و صدق مع المسافرين يتوقعون الحصول على مكافأة شأنهم فى ذلك شأن موظفى الجمارك فى أوروبا، لكن تعطى المكافأة خفية لهؤلاء الأخيرين، فلقد قام الصائغ اليونانى المكلّف بالاهتمام بمصاريفنا، بمكافأة موظفى جمارك جدة بحضور الجميع.

و انتشر خبر وصول أوروبيين، و بينهم عالم فلك بين الناس حتى وصل إلى مكة. و كان أخو الشريف الحاكم قد جمع جيشا عظيما، و هدد بمهاجمة المدينة، فأرسل الشريف الصائغ اليونانى، الذى ذكرته مرارا، ليسألنى ما إذا كان سيحافظ على الحكم أم سيضطر للتنازل عنه لأخيه. و اعتذرت عن الرد على موضوع كهذا، متحججا بجهلى لكيفية التنبؤ بالمستقبل، و أضفت أن الأوروبيين طوروا علم الفلك لتحسين الملاحة، و هو الرد الذى أعطيه كلما استشارنى أحدهم بصفتى عالم فلك. و ترضى هذه الإجابة المسلمين دوما، لأنهم يعلمون أن الأوروبيين يقطعون أشواطا كبيرة بحرا، اعتادوا خلالها على قياس ارتفاع الشمس. و أجاب السيد دى هافن، الذى كان حاضرا حين طرح علىّ السؤال، أن النصر سيكون حليف من يشبه الحسن بن على الذى يتحدر من سلالته الشرفاء كلهم. و أرسل الصائغ هذا الجواب إلى مكة و أظن أنه لاقى استحسانا، و بقى الشريف فى الحكم، و لعله تخيّل أنه يشبه الحسن تمام الشبه. و فى يوم آخر، أعلمنى أحد وجهاء جدة أن ۲۰۰ دوكا سرقت منه، و تمنى علىّ اكتشاف اللص، فاعتذرت قائلا إنى أترك هذا العلم العظيم لعلماء المسلمين، من بعدها أظهر أحد كبار الشيوخ جهله للأمر، فقد صفّ الخدم كلهم صفا واحدا، و صلى طويلا، ثم وضع فى فم كل منهم ورقة صغيرة، و أمرهم بابتلاعها بعد أن أكد لهم أنها لن تضرّ البرىء و أن قصاص السماء سيحلّ على المذنب. بعدها، تفحص فمّ كل منهم، و اعترف أحدهم، إذ لم يبتلع الورقة، بأنه سرق المال. لكن لا يسهل إخافة لصوص المسلمين كلهم، إذ علمت

من تاجر من بغداد، أن خادمه لم يأبه لأى رقية، بالرغم من أن معظم الشكوك كانت تحوم حوله، و أسف التاجر على العشرة قروش التى دفعها للشيوخ أكثر من أسفه على المال الذى سرق منه.

و استنادا إلى روايات العرب. لم تتراجع مياه البحر المحيطة بشواطىء هذه البلاد أبدا أو بشكل لا يذكر، منذ تكوّن العالم و حتى اليوم، و يدلونك على ضريح حوّاء قرب جدة . لكن هذا الشاطىء،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۴

برأيى، تعرّض لتغييرات عدة، و نجد فى شمال غرب المدينة، و على مسافة قريبة من الضريح المذكور، تلالا عالية، تكثر فيها الأصداف و أحجار المرجان المتحجرة أو المدفونة فى الرمال، و يكفى أن نراها و أن نقارنها مع صخور المرجان الموجودة بكثرة تدريجيا فى هذا المكان. و لا أظن أن مدينة جدة تقوم حاليا فى المكان نفسه الذى قامت فيه المدينة التى تحمل الاسم نفسه و المذكورة فى سيرة محمد . و تتوسع جدة أكثر و أكثر نحو الغرب، أما مستوى مياه المرفأ فمنخفض للغاية، حتى أن المراكب الصغيرة تضطر لانتظار المدّ لتنقل البضائع إلى اليابسة أو لتحمّلها.

و لا تحافظ مياه البحر التى تغطى هذه الشواطىء على الارتفاع نفسه طوال فصول السنة، إنما ترتفع تدريجيا من شهر تشرين الثانى/ نوفمبر و حتى شهر نيسان/ إبريل، حين تهبّ الرياح الجنوبية، ثم تنخفض أثناء الأشهر الستة الأخرى، حين تهب الرياح من الشمال . و لا يظهر الفرق شاسعا بشكل عام، لكن، حين وصلت إلى جدة، رأيت المسافة بين المرفأ الكبير و مرفأ السفن الشراعية جافة خلال الجزر، و عند ما حان موعد رحيلنا، وجدت المياه تغطى المكان باستمرار. كما تغطى المياه، حين يرتفع مستواها، سهلا، يقع فى الجنوب خارج المدينة، و بعد أن تتبخر بفعل حرارة الشمس المرتفعة تترك وراءها ترسبات من الملح.

زد على ذلك أن ضواحى جدة رملية و غير صالحة للزراعة.

رسمت خارطة هذه المدينة و محيطها على اللوحة(IV) ، لكن تجدر الإشارة إلى أنى لم أقس إلا الجزء الواقع من جهة البحر، و لم يكن بإمكانى أن أجول فى المدينة كلها كما ذكرت سابقا. لكنى حددت موقع جزء من السور، و عددت من بعيد خطى عربى رأيته يمشى قرب هذا السور. و لم أستطع إدراج كافة الشوارع، إذ لم يكن يسمح لى بالاقتراب من الباب الواقع من جهة مكة. و نجد فى هذا الحيّ عددا من الأكواخ الخشبية، المغطاة بالقش أو بالعشب، و قد نجد بعض المنازل الحجرية المتفرقة حيث أشرت إلى وجود أكواخ فقط. و سأضيف هنا تفسير الأرقام التى دوّنتها على الخارطة: ۱) منزل الباشا، ۲) باب الشريف، ۳) باب الحديد، ۴) باب مكة، ۵) مراقب قرب الدرب المؤدى إلى مكة، ۶) سهل، يجمع منه الملح الذى تركته المياه بعد تبخرها، ۷) مدافن المسيحيين، ۸) برج، تهدم كليا، و فيه مدافع، ۹) مرفأ السفن الحربية، و لم أسمع بسفن حربية يملكها الباشا فى الخليج العربى، ۱۰) منزلنا، و بالتالى المكان الذى أجريت فيه الدراسات الفلكية، ۱۱) الجمارك، ۱۲) منزل الكخيا، ۱۳) أمنا حوّا أو ضريح حوّاء، ۱۴) تلال عالية مغطاة بالأصداف و أحجار المرجان، ۱۵) مرسى السفن القادمة من السويس و الهند.

إننا لا نجد إلّا القليل من المياه فى الخليج الصغير الذى يسمى مرفأ السفن، و بما أنى غالبا ما ترددت إلى هذا المكان، لمراقبة المدّ و الجزر، تسنّى لى أن أرى كيف يصطاد العرب البط. حين تظهر إحدى هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۶

الطيور فى المياه، يتعرى الواحد منهم و يغطى رأسه بالطحالب، و يغطس تحت المياه حتى يقترب من البطة التى لا تفزع من الطحالب، ثم يمسك بها من قائمتيها و يأخذها .

يروى فى تاريخ ملوك مصر، الذى كتبه مارای(Marai) و ترجمه ريسك(Reiske) ، أنّ فى العام ۹۲۰ للهجرة (۱۵۱۴)، أمر السلطان الغورى(Sult n el Guri) بتحصين مدينة جدة، خوفا من البرتغاليين الذين تعاظمت قوتهم حتى أنهم أرسلوا سفنا حربية إلى الخليج العربى. و لا تزال هذه المدينة محاطة بسور من جهة اليابسة، لكنه متداع فى أكثر من مكان حتى أن المرء يمكن أن

يتخطاه ليدخل المدينة أو ليخرج منها. و لا يعتبر المرفأ أكثر حصانة، لأن البطارية مخربة كليا، و لا تضمّ سوى مدفع وحيد قديم لا يستخدم، أما المدافع القليلة الموضوعة أمام منزل الباشا، فى الجهة الأخرى للمدينة و قرب المرفأ، فلا تستخدم إلا لرد تحية السفن. و قصر الباشا غير منظم شأنه فى ذلك شأن مساكن الأسياد فى مقاطعات السلطنة الأخرى، إذ لا يبقى الواحد منهم فى الحكم نفسه طويلا، فلا يهتمون ببناء قصر عظيم لخلفائهم.

و نجد فى المدينة- و لا سيّما من جهة البحر- العديد من المنازل الجميلة و فنادق كبيرة و محال مبنية من حجر المرجان، و هى أحجار سهلة الاستعمال، يزيد الهواء من بياضها، مما يضفى لمسة جميلة على المنظر العام. و لا يشرب السكان سوى المياه التى يجمعها العرب فى خزانات كبيرة بين الجبال، و ينقلونها تباعا إلى المدينة على ظهور الجمال.

و تزدهر فى جدة التجارة، لكن هذه المدينة لا تتعدى كونها مخزنا للبضائع الأجنبية، إذ تصل إليها مرة فى السنة السفن المحمّلة من السويس و الهند فضلا عن القوافل الكبيرة التى تقوم برحلة واحدة فى السنة من مصر و سوريا إلى مكة و جدة، و تحمل معها كميات من البضائع الثمينة. و لم أسمع فى المدينة ببضائع محلية تصدّر إلى الخارج باستثناء لوز الطائف، الذى ينقل منه الإنكليز وحدهم إلى الهند حوالى ۶۰۰ بالة، و يبلغ وزن الواحدة ۸۰۰ ليبرة. و يصدّر التجّار أيضا بلسم مكة، و المسك و الزباد، لكن البلسم ينتج فى ضواحى المدينة، و يأتى المسك و الزباد على الأرجح من الحبشة. و تشترى جدة و مدينتا مكة و المدينة المقدستان الكثير من الحنطة، و الأرز، و العدس، و السكر، و شراب السكر، و العسل و الزيت و غيرها من مصر، حتى أن سكان مكة اعتادوا القول إنه إن بادت البلاد المجاورة، باستثناء مصر، لن تصاب شبه الجزيرة العربية بخسارة كبيرة، و إن العالم كله، من دون مصر، لن ينفعها. و تزوّد القاهرة جدة بالكثير من الصبغة الصفراء أو الزعفران المزيف (من زهرة تستخدم للصباغ باللون الأحمر)، و بالشباك العريضة، و خيوط الذهب و الفضة، و ملح النشادر، و البارود، و تبغ سوريا الخ. أما بالنسبة إلى البضائع الأوروبية،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۷

التى تصدّر جزئيا، فتزوّدها مصر بالجوخ الفرنسى، و بالورق، و بالقصدير، و بالرصاص، و بالحديد، و بصفائح الفولاذ، و بالزئبق، و بالإبر، و بالسيوف، و بالسكاكين، و بالزجاجيات الملوّنة و الأساور التى تستخدمها النساء من عامة الشعب للزينة. و ينتقل سنويا من جدة إلى اليمن و الهند عدد كبير من دوقيات البندقية، و النقود الألمانية. كما تموّن جدة القاهرة بمنتجات اليمن من بن و أوراق حنة فقط، فيما تموّنها الهند بالشباك الناعمة و الأقمشة الثمينة، و الأحجار الكريمة، و اللؤلؤ، و العطور المختلفة، و البهارات و غيرها من البضائع القيّمة. و ينبغى دفع الرسوم لجدة على هذه البضائع إن جاءت من مصر، أو اليمن أو الهند، و تبلغ هذه الرسوم عشرة بالمئة من قيمتها التى تقوم الجمارك بتحديدها فيضطر التجّار أحيانا إلى دفع ۱۲ إلى ۱۵ بالمئة. و يتمتع الإنكليز- و هم الوحيدون بين الأمم الأوروبية الذين يقصدون جدة اليوم- بالأفضلية على التجار الهنود المسلمين، و على رعايا السلطان، فلا يدفعون سوى ۸٪ من قيمة البضاعة، و لا يدفعونها نقدا بل يستعيضون عن المال بتقديم البضائع. أما بالنسبة لتلك التى تباع بالوزن، كالسكر، و البهارات، إلخ فيضطرون إلى دفع ۸٪ نقدا استنادا إلى القيمة التى تحددها الجمارك.

و يعتقد مايية(Maillet) أن قيام تجارة فى الهند، تمرّ عبر مصر و الخليج العربى تفيد الفرنسيين، لكن إن اضطروا إلى دفع الرسوم، يخشى ألا يربحوا الكثير من المال، و لا نضمن أن يسمح لهم بعبور مرفأ جدّة.

و منذ سنوات قليلة، لم يتمكن مركب من السراة(Sur t) ، دفعته الرياح الجنوبية بقوة نحو الشمال، من الوصول إلى هذا المرفأ، فتوجه إلى السويس و منها عاد إلى الهند. و فى السنة التالية، أرغم التجار على دفع الرسوم عن هذه الشحنة، و زجّ القبطان، و هو مسلم من الهند، فى السجن حتى دفعت كفالته. و لم يمنح أحد الأوروبيين على الأرجح إذنا بالتوجه من جدة إلى السويس، و سمعت أن تجارا من جدة عرضوا حمولة ما على قبطان إنكليزى- و لا أشك أن التجار المسلمين يفضلون استخدام السفن الأوروبية- لكن حاول ربابنة القاهرة، و هم من كبار التجار، وضع العراقيل فى طريقهم كى لا يفقدوا أرباحهم، و يمكنهم و بسهولة أن يسببوا مشاكل عدة للربابنة

الأوروبيين الذين يقصدون السويس. و قد أمضى تاجر إنكليزى سنوات عدة فى هذا العمل، لكن هذه الأمة تستفيد أكثر حاليا من عودة رعاياها و سفنها سنويا.

و يتقاسم باشا المدينة و شريف مكة مردود جمارك جدة، لهذا، يبقى كخيا الباشا و مندوب الشريف، الذى يحمل لقب وزير، يوميا فى الجمارك عند وصول السفن و قبيل رحيلها. و لا يبدو أن كخيا جدة خاضع للباشا فقط، كما هو الحال فى المقاطعات التركية الأخرى، إذ يبقى فى منصبه لسنوات عدة فى حين يتمّ تغيير الباشا تقريبا سنويا، علما أن الباشا، حين كنا فى جدة، أرسل موظفا آخر إلى الجمارك لأن الكخيا رفض تفتيش البضائع بالصرامة التى يطلبها، لكنه استمر فى تأدية المهام الأخرى المسندة إليه.

و يخضع رعايا الشريف، المقيمين فى جدة، لسلطة الوزير الذى ينبغى أن يكون من إحدى العائلات التى يحقّ لها المطالبة بمهام السيادة فى مكة أو بلقب الشريف. و إن استدعى الشريف، أى المولود فى إحدى عائلات الحجاز الأولى النبيلة، للمثول أمام القضاء، يرفض المثول أمام قاض أدنى منه من حيث المستوى الاجتماعى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۳۸

و تفتقر الحكومة دوما للمال أو على الأصح، بما أن المسلمين لا يحسنون استخدام الأموال العامة، لا يبقى منها إلا القليل لمصاريف الدولة، و غالبا ما يضطر تجار الهند و مصر إلى دفع مبالغ مالية معينة سلفا لجمارك جدة. على أن تحتسب لهم فى رحلتهم القادمة. و طلب الأمر نفسه من الإنكليز الذين يترددون على هذا المرفأ، لكنهم رفضوا حتى اليوم دفع المال سلفا للجمارك أو لغيرها، و قد أوردت مثلا على ذلك فى وصفى لشبه الجزيرة العربية.

و لقد كنت قد أشرت سابقا إلى أن المركب الذى غادرنا السويس على متنه كان يعجّ بالتجّار الذين يدّعون أنهم انكشاريون. إن تجار القاهرة و المدن التركية الأخرى يلتحقون بالجيش كانكشاريين، للتأكد من أن الحكومة لن تستولى على بضائعهم أو لن تعاقبهم بطريقة ما، لأن من يلتحق كانكشارى و إن كان لا يقبض أجرا و لا يخدم فى مكان ما، و إنما يمارس مهنة مدنية، يتمتع بامتيازات عدة مرتبطة بهذا الفوج. و لا يخضع للمحكمة المدنية إنما للفوج الذى يحميه أو يعاقبه. يقال إن الانكشارى الذى يسافر فى البلاد الخاضعة للسلطان، لا يدفع رسما جمركيا على صندوق وقفتين و هذا ما يعود بالفائدة عليه كتاجر، و قد عرفت تجارا، و ربابنة و بحارة من الانكشاريين و يرتدون الزىّ الخاص بهم، لكنهم لا يتمتعون بالميزات نفسها التى يتمتع بها رعايا السلطان، و التحقوا على الأرجح بهذا الفوج ليكتسبوا مكانة بين الأتراك فى جدة و البصرة، و ليحصلوا على مساعدة رفاقهم عند الحاجة. و حين كنا فى جدة، حاول التجار الانكشاريون عصيان الكخيا و الوزير علنا، لأنهما، برأيهم، يأمران بتفتيش متاعهم تفتيشا دقيقا، مما دفع الباشا إلى إرسال عدد كبير من الجند لمرافقة الكخيا إلى الجمارك يوميا، كما حضر الوزير و معه عدد من جند الشريف، فاضطر الانكشاريون إلى الانصياع حتى انتهاء عملية تفتيش أغراضهم. و بعد رحيلنا بمدة قصيرة، اجتمع الانكشاريون مجددا، و تسلحوا، لكن ما إن علم الباشا بالأمر حتى أمر بتصويب المدافع نحو المنزل الذى يجتمع فيه زعماء هذه الحركة، فتفرق الجميع من دون القيام بأية محاولة أخرى.

و لا تسك أية عملة فى الحجاز، و تستعمل فى البلاد النقود المستخدمة فى القسطنطينية أو فى القاهرة خصوصا، كالقطع النقدية الذهبية التى تأتى من البندقية، و تتداول فى القاهرة و القسطنطينية أو الدرهم، و نصف الدرهم، و ربع الدرهم الألمانى، أو البريزة فى القاهرة و القسطنطينية و التى تسمّى فدّا(Fadda) .

لكن يتمّ العدّ فى جدة بعملة وهمية و هى القرش و الديوانى(Diw ni) : فيساوى الدرهم ۹۲ بريزا فى جدة فى حين يساوى ۸۵ فى القاهرة، و تعادل أربع برايز من القاهرة ۵ ديوانيات. كما يعادل ۴۰ ديوانى قرشا فى جدة، و بالتالى يساوى الدرهم الواحد قرشين و ۳۵ ديوانى. و يعادل الديوانى ۲۰ جديدا، و هى قطع صغيرة من النحاس لا تحمل أية كتابات أو أية علامة. و يقدّر التجار الإنكليز أن ۲۵۰ قرشا من جدة تعادل ۱۰۰ درهم أسبانى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۴۰

و قد يبدو غريبا للقارىء، أن يعادل الدرهم ۸۵ بريزة فى القاهرة و ۹۲ فى جدة، فى حين أن العملة الصغيرة فى البلاد الأخرى تندر فى المدن البعيدة أكثر من المكان الذى تسك فيه. و يعود الأمر برأيى إلى أعداد الحجاج الكبيرة التى تتوجه إلى مكة، محمّلة بالكمية الكبيرة من القطع النقدية الصغيرة لحاجاتها اليومية و للتصدق بها. و الصدقة فرض رئيسى فى الديانة الإسلامية، و يمارسه المؤمنون و لا سيّما حين يتوجهون إلى مكة. و تنتقل القطع النقدية الكبيرة بمعظمها إلى اليمن و الهند، و بما أن إعادة القطع الصغيرة إلى مصر أمر عسير تصبح أقل قيمة فى الحجاز منها فى الأقاليم التركية الأخرى. و لا أظن أن تذويب هذه القطع النقدية الصغيرة أمر يعود بالفائدة، لأن قيمة النقد الأصلية فى الشرق كما فى أوروبا أدنى من سعره العادى.

و بما أننا نحب فى أوروبا رؤية لباس الأمم الغريبة، أدرجت بعض الرسومات التى رسمها السيد بورنفاند فى جدة. و تصوّر اللوحة(LVI) صيّادا يحمل الأسماك التى اصطادها إلى السوق. و لا يرتدى بدو هذه البلاد سوى الإحرام و زنّارا. أما هذا الصياد و عامة الشعب فى جدة فلا يلبسون الإحرام بل يكتفون بقميص (جلباب) واسعة و زنّار حول الخصر يدسون فيه سكينا صغيرا يقطعون به أعناق الأسماك ما إن يصطادونها. و يتبع الأعيان فى جدة طريقة الأتراك فى القاهرة و فى القسطنطينية فى اللباس، باستثناء القماش فهو أرق لأنهم يعيشون فى مناخ حار. تحمل اللوحة(LVII) صورة امرأة تبيع الخبز، و ترتدى الثياب نفسها كنساء العامة فى مصر أى قميص واسعة من دون زنار (جلباب)، و تضع على رأسها حجابا، و أمام وجهها خمارا صغيرا. و تحمل فى يدها قطعة من أوراق النخيل المشبوكة لإبعاد الذباب، و تجلس على حصيرة من القش عرضت عليها خبزها، أما المظلة الكبيرة التى تقيها من الشمس فمبطنة بحصيرة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۴۱

الرحلة من جدة إلى مخيّة

و طلب منا التوجه فى أسرع وقت ممكن إلى مملكة اليمن، و ألّا نتوقف إلّا فى حالة الضرورة، و لم تبقنا فى جدة سوى الرياح الشمالية التى منعت مراكب اليمن المحملة بالبن من أن تسير نحو عالية الخليج العربى، و هى الطريقة الوحيدة لمغادرة جدة. و فى بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر، وصلت بعض هذه السفن، و كان بينها سفينة قادمة من عمان، فنصحنا الأصدقاء بالسفر على متنها، و يطلق عليها اسم طرّاد(Tar d) . فسارعنا لرؤيتها، و نحن نتوقع أن نجدها كبيرة و مريحة، ففوجئنا حين أشاروا إلى مركب أشبه بعربة مكشوفة منه بسفينة، إذ لا يتعدى طوله سبع قامات و عرضه قامتين و نصف القامة، و يفتقر إلى سطح، كما لم أر فيه أى مسمار، بل أخشاب رقيقة و كأنها مخيّطة ببعضها، و قد نزعت صواريه و وضع أرضا لإصلاح هيكله. و كان الريّس يرتدى زى عامة الشعب من العرب، أى إنه شبه عار، تحيط برد فيه قطعة قماش، يعلوها حزام، يتدلى منه خنجر معكوف (راجعوا الصورة ۱۰ على اللوحة(XVI) فى وصف شبه الجزيرة العربية). أما البحارة فمن العبيد، استقدم قسم منهم من أفريقيا و يتميز بشفاهه الغليظة و أنفه الأفطس، و القسم الآخر من شواطىء مالبار، حيث يشبه السود الأوروبيين تقريبا، أما بشرتهم فليست سوداء و لماعة كبشرة الأفريقيين. كانوا يعتمرون قلنسوة صغيرة أو عمامة، و يحملون حبلا حول خصرهم، و يضعون قطعة من القماش بعرض اليد بين افخاذهم لستر عوارتهم. و لم يشأ أى منّا تسليم أمره لهؤلاء البحارة و لمركبهم، لكن كافة أصدقائنا نصحونا بالسفر مع هذا الريّس لا مع ريّس من اليمن، لأن أشرعة سفينته ستكون من الحصر، و يعرف عنهم أنهم بحارة غير ماهرين، بينما الربابنة من مسقط و مرافىء عمان الأخرى يستخدمون أشرعة كأشرعة الأوروبيين و الأتراك و الهنود، و هم بحارة ماهرون.

و تأكدنا من أن إنكليزا من الهند سيصلون إلى المخا، و ارتأينا أننا بحاجة لعونهم لدخول البلاد، فقررنا التوجه إليها مباشرة من جدة. و كنا لا نعرف لحية و الحديدة و هما المرفآن الخاضعان لسيطرة الإمام، و جلّ ما كنا نعرفه أنه علينا اجتياز مسافة كبيرة برا للوصول إلى المخا، و هى مسافة أقلقتنا لأن رأينا بعرب اليمن لم يكن أفضل من رأينا ببدو مصر و الحجاز. و علمنا أن الريس سيتوجه إلى الحديدة

لتحميل كمية من البن لمسقط، و أكدوا لنا أن اجتياز القسم الجنوبى للخليج العربى، فى هذا الموسم، يتطلب وقتا طويلا بسبب الرياح المعاكسة. و نصحنا أصدقاؤنا بالنزول فى لحية، مضيفين أن الطرقات آمنة فى دول الإمام لذا يمكننا الوصول فى وقت قصير إلى المخا برا. و بالتالى، اتفقنا مع الريّس على إيصالنا حتى الحديدة، و زوّدنا كل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۴۳

من الكخيا برسائل توصية لأصحاب الدولة فى لحية و الحديدة، و التجار لتجار آخرين فى المدينتين المذكورتين، لأنهم يعرفون أن الريس سيتوقف فى لحية لأعماله الخاصة و إن لم نقرر نحن النزول من المركب فى هذه المدينة. و أمر الباشا بترك أمتعتنا تمرّ من دون تفتيش، و هكذا صعدنا على متن السفينة فى ۱۳ كانون الأول/ ديسمبر.

و بالرغم من أننا استأجرنا المركب بأكلمه، وجدناه محمّلا بالبضائع، و اعتذر الريّس معللا بأن مركبه الخفيف لو حمّل أمتعتنا فقط لما تمكن من الإبحار. و كانت أسرّتنا، و هى عبارة عن قاعدة مربعة و مستطيلة، محشوة بحبال من قش، و قد علّقت فوق الصناديق و الرزم، فكانت لنا مجلسا خلال النهار، و مكانا للنوم فى العراء عند ما يحلّ الليل. و لا ينبغى أن يفكر المرء بالتنزه على هذا المركب، فهو ملىء بالبضائع، باستثناء زاوية صغيرة فى مقدمة السفينة خصصت لطهو طعامنا و لتحضير خبز العرب. و منذ الليلة الأولى، فقد طبيبنا ساعته بين الألواح الخشبية، و الحصر التى مدّت مسبقا على هيكل المركب كى لا تتبلل البضائع إذا ما بلغت المياه المركب، و فقدنا الأمل برؤيتها، قبل إنزال البضائع كلها، و هذا ما لن يحصل فى وقت قريب. و ظنّ السيد كرامر أن ساعته فقدت، لأن المياه التى تتسرب عبر الألواح الخشبية ستعطلها، إنما حين نزل فى لحية وجدها بحالة جيدة. إذا، لا بد أن هذه المراكب لا تسرب المياه بعكس ما يبدو للأوروبى للوهلة الأولى.

و لم نر إلّا القليل من القرى و المدن بين السويس و جدة، و بين هذه المدينة و اليمن. لكن بما أن البعض قد يهتم بمعرفة أسماء الأماكن غير المسكونة فى هذه البلاد و المجهولة فى أوروبا، سأستمر فى إعطاء أسماء الجزر و المراسى التى نراها خلال رحلتنا كما تقال لى. و لا تضاهى المرافىء على هذه الطريق، المرافىء الممتدة بين السويس و جدة، لأن كلمة مرسى تطلق على كافة الأماكن التى يمكن لمركبنا الصغير أن يرسو فيها. و كان الريس غريبا عن هذه الناحية، لكن القبطان و هو من الحديدة يعرفها خير معرفة و هو الذى زودنى بأسماء الأماكن التى سترد لاحقا، و كان مهذبا للغاية معى، فلا أظنه أعطانى أسماء خطأ لغاية فى نفسه.

و فى ۱۴ كانون الأول/ ديسمبر من العام ۱۷۶۲، أبحرنا و الرياح مواتية، و فى اليوم نفسه رأينا أبى سعد، و هى أكبر الجزر الأربع قرب جدة، ثم رأس العلم، و جبل الهداء(Dsj bbel Hadda) و رأس أسود(R s Aswad) . و نجد قبالة هذا الرأس الأخير، و على الشاطىء الغربى للخليج العربى، رأسا يدعى رأس عبود(R s Abچd) . و إلى الجنوب، دلّنى القبطان على مرفأين صغيرين على شاطىء شبه الجزيرة و هما سروم(Sarچm) ، و ملك سروم(Malek Sarچm) أو صعدة(S ade) . و عند المساء، رسونا قرب غيدان(Ghed n) ، و يقع هذا المرسى فى الجنوب، على بعد حوالى ۱۰ أميال من جدة، إذ تقدر المسافة بين هذين المكانين بيومين سفر برا. و لم نر أرصفة مرجان بالرغم من أننا كنا على بعد ميل و نصف من الشاطىء، لكن يدّعون أن هذه الأرصفة تكثر فى الغرب، و أن أخطرها هو المسمى مسمارى حيث اعتاد قادة السفن الأوروبية المتجهة إلى جدة اتخاذ قبطان لاجتيازه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۴۴

فى ۱۵ كانون الأول/ ديسمبر، و قبيل بزوغ الشمس، انطلقنا مجددا، و رأينا فى الصباح، على شاطىء شبه الجزيرة العربية، جبلا شاهقا، يحمل اسم عمر كبير(Amer Kbir) . و عند الظهر، وصلنا خط عرض ۲۰؟، ۲۸؟، و كان رأس محرم إلى الجنوب الشرقى، على بعد ۵ / ۴ الميل، و نستنتج بالتالى أنه يقع على خط عرض ۲۰؟ ، ۲۵؟. و عند المساء، اجتزنا مرافىء مرشد(March d) و أشرا(Oschera) أو كشر(Kuschera) ، لنرسو قرب سمّار(Sum r) و يقع جبل حادم(Haddem) على مقربة منها. و يمتد الشاطىء من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، و فى ذاك اليوم، رأينا بعض الأسماك الطائرة التى يطلق عليها العرب اسم جراد

البحر، لكنها لا تكاد ترتفع عن الماء حتى لتعود و تغطس فيها.

فى ۱۶ كـانون الأول/ ديسـمبر، هبّت رياح جنوبيـة، و عنـد الظهر، كنا على خط عرض ۲۰؟، ۴؟، و كانت جزيرة عبلـة(Abell t) إلى الجنوب، على بعـد ميل و ربع منا، أىّ إنها تقع على خط عرض ۱۹؟، ۵۹؟. و كان مرسـى إبراهيم إلى الشمال الشرقى، على بعد ميل و نصف أى على خط عرض ۲۰؟، ۸؟.

و بعد العشاء، مررنا أمام قارسى(Karsi) ، ثم رسونا قرب رقة(Rakka) فى مياه بلغ عمقها ۳ أذرع.

و لا حظت يومها أن الشاطىء يمتد نحو الجنوب الشرقى.

فى ۱۷ كـانون الأول/ ديسـمبر ظهرا، أصـبحنا على ارتفاع ۱۹؟، ۵۰؟، و كان بنـدر جلاجى(Bender Dsjeladsjie) إلى الشمال الشـرقى، و رأس العسـكر إلى الشـرق. و نجد من هنا و حتى القنفذة(Ghچnfude) و جزيرة السبايا(Sabaia) ، العديـد من الجزر الصـغيرة البعيـدة عن الشاطىء. و يشـكّل المرور، فى بعض الأماكن، بين هذه الجزر، خطرا نظرا لكثرة أرصـفة المرجان المحيطة بها. و يمتـد شاطىء شـبه الجزيرة العربيـة فى هـذا المحيط نحو الجنوب و الجنوب الغربى، و اشـتدّ الهواء بعـد العشاء، فاضـطررنا للرسو قرب جزيرة صغيرة لم أعرف اسمها.

و أبحرنا مجددا فى ۱۸ كانون الأول/ ديسـمبر صـباحا، و بعد ساعات قليلة رأينا إلى الغرب منا، و على جزيرة سرين(Serene) جبلا شاهقـا، و تعتبر هـذه الجزيرة من أكبر الجزر من محيط رأس العسكر، و فيها مرسـى جيـد، و جاء كتاب الجغرافيا، الطقس ۲، ص ۵۰، على ذكر حصن، يسـمى سـرين، فى هـذا المحيط، على بعد ۵ أيـام من حـالى، و لعله على هـذه الجزيرة أو قبالتها على اليابسـة. و عند الظهر، كنـا على خط عرض ۱۹؟، ۳۴؟، و كانت جزيرة الظهر(Add hhr) إلى الجنوب منا، و جزيرة الغراب إلى الشـمال الشـرقى، و رأس كفيل(R s Kefil) إلى الغرب، فيمـا بنـدر دجى(Bender Dodsja) إلى الشـرق. و يمتـد الشـاطىء فى هـذه الناحيـة إلى الجنوب و الجنوب الشرقى. و بعد الظهر، رسونا قرب جزيرة الغراب الصغيرة حيث وجدنا الكثير من حطب التدفئة.

و فى ۱۹ كانون الأول/ ديسـمبر، عاكستنا الرياح للغاية، فاضطررنا إلى الرسو و لم تكن الساعة قد تعدّت العاشرة. ثم أبحرنا مجددا قبل الظهر بقليل، و تمكنت من تحديد ارتفاع القطب ۱۹؟، ۲۱؟،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۴۵

بصـعوبة، لكن الرياح كانت عاصـفة، و حركـة مركبنا الصـغير قويـة. و كانت جزيرة فراء(Far) على بعـد ۳/ ۴ الميـل منا إلى الجنوب الغربى، أى إنهـا تقع على خـط عرض ۱۹؟، ۱۹؟. و عنـد الساعـة الواحـدة و النصف من بعد الظهر، اضـطررنا إلى إنزال المرساة قرب جزيرة صـغيرة بسـبب الرياح المعاكسة، و هذا دليل على أن مركبنا أفضل من مراكب اليمن التى لا يمكنها أن تغادر المرفأ إذا ما هبت رياح خفيفـة معاكسة بسـبب أشـرعتها المصـنوعة من الحصـر. و رأينا خلال هذه الرحلة العديد من المراكب الصـغيرة المحمّلة بالبن و القادمـة من اليمن إلى جـدة، و لم تكن هـذه المراكب تنتقل فى قوافل إنما منفردة، مما يـدل على أن العرب لا يخافون من غيرهم من العرب مثل الأتراك.

و أبحرنا فى ۲۰ كانون الأول/ ديسمبر نحو الجنوب خلال ساعتين و نصف، ثم لساعة و نصف نحو الشرق، و وصلنا مرسى سيئا يسمى ساروم الخشم(Sarچm el K chme) و يقـع على خـط عرض ۱۹؟، ۱۳؟. و أمر الريّس بجلب الميـاه الـتى وجـدناها غير صـالحة للشـرب. و نرى من هذا المكان مدينة القنفذة(Ghچnfude) الواقعة فى الجنوب الشـرقى. لكن تكثر أرصـفة المرجان على شواطىء هـذه الناحية، فاضـطررنا إلى التوجه نحو الجنوب و إلى الدوران حول جزيرة صـغيرة لدخول المرفأ بمركبنا الصـغير، بعد أن أبحرنا فى ۲۱ من الشهر نفسه قبل بزوغ الشمس. رسونا بين الجزيرة المذكورة و المدينة على ارتفاع ۱۹؟، ۷؟.

و القنفـذة مدينـة كبيرة، لكنها سـيئة البناء، فمعظم المنازل لا تتعدّى كونها أكواخا فى لغة الأوروبيين، و تتميز المدينة بمياهها العذبة و بمؤنهـا الأخرى. و تضـطر السـفن، الآتيـة من اليمن، و المحملـة بالبن، إلى دفع رسوم تبلغ قيمتها، إن لم أكن مخطئا، بالـة واحـدة لكل

حمولـة، و تحصل بالمقابل على إيصال. و فى طريق العودة، يسـمح لها بالمرور، لكن إذا ما رست، تلزم بدفع ريالين نقدا، أو هذا على الأقل ما طلبه منا الريّس، بحجـة أنه سيضـطر لـدفع هـذا المبلغ إذا ما دخل المرفأ. و يخضع حاكم القنفـذة لشـريف مكة وجدة، و ليس لسـلطان القسـطنطينية أية سلطة عليه. و يقيم فى هذه الجزيرة الصغيرة التى ذكرتها، لكنه ينزل إلى المدينة يوميا ليتواجد فى الجمارك.

البحر، و بعض المدافع على الجزيرة، قرب برج صغير يسمى حصن.

فى ۲۲ كانون الأول/ ديسمبر، أبحرنا قبيل طلوع الشمس، و شاهدت على بعد ميلين، إلى الجنوب من القنفذة، جزيرتين صغيرتين يطلق عليهما اسم فدعـة و جبيس(Fad ha((Dsjabis(. و عنـد الظهر، كنـا على خط عرض ۱۸؟، ۵۴؟، و كان رصـيف المرجان الكبير المسمى لينده(Lind h) أو أنده(And h) على بعد ميل إلى الجنوب الشرقى، فيقع بالتالى على خط العرض ۱۸؟، ۵۰؟، و بعد الظهر، رأينا رصيفا مرجانيا آخر. و مررنا أمام مرسى يسمى أبى كلب(Abu K lb) ، ثم رسونا على مقربة منه، قرب رأس حالى(R s H li) .

و أمضيت الليل فى قياس ارتفاع بعض النجوم، لكن الظلمة، و الأفق الضبابى لم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۴۶

يمكنانى من قياس إلّا ارتفاع المشترى، و لم أسـتطع بالدقة اللازمة. لكن هذه الدراسة، سمحت لى بتحديد موقع رأس حالى على خط العرض ۱۸؟، ۳۶؟. و عند المغيب، رأينا جبل صبيا(Sabia) ، على الجزيرة التى تحمل الاسم نفسه، و ذلك إلى الغرب، و على مسافة بعيـدة من اليابسة، على مقربة من رأس حالى، على حدود الحجاز كما كانت فى أيام أبى الفدا. و تعتبر الإمارات الصـغيرة، الواقعة إلى الجنوب من حالى، جزءا من مملكة اليمن.

و فى ۲۳ صـباحا، و فى الساعـة المعتـادة، أبحرنـا لكن الريـاح عاكسـتنا. و عنـد الظهر، كنّا على خط عرض ۱۸؟، ۲۰؟، و كـان رأس يشوف(Yachasچf) على بعـد حوالى ميـل إلى الجنوب و الجنوبى الشـرقى، و بالتالى على خط عرض ۱۸؟، ۳۱؟. و يمتد الشاطىء تقريبـا من الشـمال إلى الجنـوب، و مررنـا فى ذاك اليوم فوق رصـيف مرجـانى، فى ميـاه بلغ عمقهـا ثلاثـة أذرع. و نجـد إلى الغرب، بحسب ما قال لنا القبطان، جزيرة كبيرة تحمل اسم ميركت(Meerket) ، و عند المساء، رسونا على خط عرض ۱۸؟، ۲۰؟، قرب فجّ الثعالب(Fedsj el Sj lbe) ، على مسافـة بعيدة من اليابسة. و تتميز أرصـفة المرجان فى هذا المحيط بحجمها الكبير و ارتفاعها مما اضـطرنا إلى اسـتخدام مراكب الإنقاذ الصـغيرة، و القيام بمحاولات عـدة للنزول إلى الشاطىء، و حين تمكنّا من ذلك أخيرا، مررنا فى مياه عميقة للغاية مرات عدة بغية الوصول إلى بعض خيام العرب.

و يخضع العرب، الـذين يقيمون بين حالى و عطود(Attue ?d) - و هى حدود شـريف أبى عريش- لشـيوخهم المستقلين، و يتبعون ديانـة أخرى غير الإسـلام. (راجعوا وصف شـبه الجزيرة العربيـة) و يـدّعى البعض أنهم يحبون لبـاس المسـافرين كثيرا، لأنهم يجـدونه أفضل مما يلبسونه، و يقال عنهم إنهم لا يقتلون امرأ لا يقاومهم، شأنهم فى ذلك شأن البدو كافة. و ارتديت و السـيد فورسكال أبسط ثيابنا أى إننا لبسنا قميصا واسعا كالذى يلبسه العرب، و سروالا، فيما غطى أفراد طاقم المركب، الذين لم يعتادوا هذا اللباس، أردافهم و رؤوسهم بأقبح القماش، و نزلنا إلى اليابسة، عزّلا كى لا يظنونا من الأعداء. و يصل شعرهم إلى أكتفاهم، و هذا ما لم نسمع به من قبل، و يضعون حبلا حول رؤوسهم بدلا من العمامة، و يعتمر بعض منهم نوعا من القلنسوة مصنوعة من أوراق النخيل الخضراء المتشابكة، و لا- يرتـدون سوى قطعـة قماش يلفونها على أردافهم، كما يحمل كل منهم رمحا فى يـده. و بعـد السـلام، أخـذ اثنان من البحارة رماح العرب، و كأنهمـا يريان شـيئا فريـدا، و أراد ريّسـنا الحصول على رمـح الأكبر سـنا، فاسـتنتج العربى أننا نرتاب به، فسـلّم رمحه للريّس، مؤكدا لنا أننا فى مأمن بينهم، و رموا جميعا رماحهم أرضا لتأكيد ذلك. و بما أننا رسونا بهدف شراء المؤن، رافقنا العرب إلى خيامهم القريبـة، و حين دنونـا منها، لاقتنا امرأتان، و قبلتا يـد الشـيخ باحترام بالغ، فردّ بتقبيل رأسـيهما. و لم يكن وجههما مغطى، و قـد رسـمتا عينيهما و رموشهما بالكحل، المصنوع من الرصاص، و زيّنتا جبينهما، و خدودهما، و ذقنيهما بنقوش سوداء.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۴۸

و طلبت هاتان الحسناوتان منا الكحل و الحنة لزيادة محاسنهما، و تأسفنا لأننا لم نفكر بحمل هدايا كهذه من جدة للجنس العربى الجميل. و يبدو أن هؤلاء العرب متحضّرون نوعا ما، بالرغم من أنهم يتسكعون فى الصحراء، و لا يتعاملون مع سكان المدن. فقدموا لنا الحليب الذى يحفظونه فى جلد الماعز، و الزبدة التى تصنّع فى جلود الماعز، و الخبز السيىء بالرغم من أنه أفضل ما يخبزون. و اشترينا بعض المؤن، لكن العرب اضطروا إلى الصعود على متن المركب لقبض المال و قد وافقوا على ذلك دون صعوبة تذكر.

فى ۲۴ صباحا، أبحرنا و الرياح شمالية شرقية، و مررنا قرب مرفأ صغير يسمى نهود(Nhچd) . و عند الظهر، كنا على خط عرض ۱۸؟، ۴؟، و كانت ظبان(Dhab n) إلى الشرق، و الوسّوم إلى الجنوب الشرقى، لكنهما بعيدتان، و يمتد شاطىء شبه الجزيرة العربية تقريبا نحو الجنوب و الجنوب الشرقى. و عند المغيب، رسونا بين كرمبل(Kolچmbel) و اليابسة، و كرمبل جبل صغير فى البحر كان فيما مضى بركانا، على ما يدعى العرب، و مما جعل هذه الجزيرة الصغيرة مميزة هو أننا اضطررنا لإعطاء القبطان بعض المال.

و لم أتمكن من تحديد ارتفاع القطب إلا بتحديد ارتفاع المشترى، و بالتالى كنا على خط عرض ۱۷؟، ۵۷؟، قرب كرمبل. و قيل لنا إنه لا يوجد جزر أخرى بين هذه الجزيرة و جزيرة فران(Fir n) إنما العديد من أرصفة المرجان.

و فى ۲۵ ظهرا، كنا على خط عرض ۱۷؟، ۳۹، و كان جبل عطود و المرسى الذى يحمل الاسم نفسه إلى الجنوب الشرقى، استنادا إلى أقوال قبطاننا، لكن على مسافة بعيدة، و عند المساء، رسونا على مسافة كبيرة من اليابسة، إلى الغرب و الجنوب الغربى من جبل عطوى(Attuie) أو عطود أى على الحدود الشمالية لإمارة أبى عريش. و منذ غادرنا جدة، لم نر سوى جزء صغير من هذه السلسلة الجبلية التى تقطع شبه الجزيرة العربية بالطول، و فى هذا اليوم لم نر منها شيئا لكثرة ما ابتعدنا عنها.

و فى ۲۶، رأينا من بعيد مرسى شط البقر(Chabt el Bakkar) ، و مرسى حمرين(H merejn) . و عند الظهر، كنا على خط عرض ۱۷؟، ۲۲؟، و لم نر من حولنا جبلا أو مرسى، أو جزيرة. و عند المساء، رسونا قرب شعب الكبير(Sch b el Kabir) ، و كانت جزيرة فرسان التى يكثر فيها صيد اللؤلؤ إلى الجنوب الغربى منا. و تبين لى أن ارتفاع شعب الكبير هو ۱۷؟، ۱۲؟، استنادا إلى ارتفاع زحل الذى قسته بدقة، و لا حظت فى ذاك اليوم أن الشاطىء يمتد نحو الجنوب الشرقى و الجنوب.

و فى ۲۷ صباحا، مررنا أمام جزيرة الدروجى(Dsjesiret ed Dre ?dsji) ، و مرسى(Mersa) ، الطرفة(Turfa) ، و رأس جيزان(R s Dsjes n) ، و يبرز هذا الرأس الأخير كثيرا فى البحر، و لا ينبغى خلطه بالجبل أو بلسان الأرض الذى تقوم عليه مدينة جيزان، و عند الظهر، أبحرنا فى عرض البحر، فلم نعد نرى اليابسة مما منعنى من تحديد موقع أى مكان على الارتفاع الذى كنا عليه أى على ارتفاع ۱۶؟، ۵۶؟.

و بعد الظهر، مررنا قرب جزيرتى أبى شريجة(Abu Schureija) و دراكة(Duraka) . و عند الرابعة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۴۹

و النصف كنا بين جزيرتى هابور(Habo ?r) و جيزان(Dsjes n) ، لكننا لم نرس لأن شريف هذه البلاد مشهور بسوء استقباله للأجانب و لرعايا إمام اليمن، لذا لا يمكننى أن أقول سوى أنّ مدينة جيزان تقع على لسان أرض و قرب جبل متقدم فى البحر. و على بعد حوالى ميل إلى الجنوب من جيزان، حددت ارتفاعنا على ۱۶؟، ۳۹؟، استنادا إلى ارتفاع زحل، و على بعد ربع ميل نحو الجنوب، أصبح ارتفاعنا ۱۶؟، ۴۰؟، استنادا إلى ارتفاع المشترى. و منعتنى الظلمة من القيام بهاتين الدراستين بالدقة اللازمة، لكن إذا ما انطلقنا من الوسط، تقع مدينة جيزان على خط عرض ۱۶؟، ۴۴؟. و أبحرنا طوال الليل، لأن الرياح كانت تدور حول الشفق، و بالتالى كانت مؤاتية لنا أكثر منها خلال النهار حيث استمرت تعاكسنا. فى ۲۸ ظهرا، كنا على خط عرض ۱۶؟، ۱۲؟، و كانت جزيرة الغراب الصغيرة على بعد ميل منا إلى الجنوب و الجنوب الشرقى أى على ارتفاع ۱۶؟، ۸؟، أما جزيرة بيكيلام(Bikill m) فإلى الشمال الغربى. و كنا بالكاد نرى القارة، و بعد الظهر مررنا أمام جزيرة بحيس(Baheis) ، و أمام قرية صغيرة على اليابسة أعطت اسمها للجزيرة، و هى

تحوى قبر أحد كبار أولياء المسلمين.

و فى ۲۹ صباحا، وصلنا مرفأ مخيّة، و رسونا على بعد ۳/ ۴ الميل من المدينة. و خلال رحلتنا من السويس إلى المخيّة، سمعنا عن كثير من الأسياد المستقلين الذين لا- يهتمون بالتعامل مع الأجانب، و لهذا يصعّبون عليهم مرورهم فى بلادهم التى ظنناها رائعة لفرط ما سمعنا عن الأمان فى المناطق التابعة لإمام اليمن. و علمنا، خلال الرحلة، أن الشيخ مكرامى من نجران يخيّم مع جيشه فى منطقة أبى عريش، و بالتالى عزز الإمام حامية المخيّة، و أمر حاكم المدينة ببناء برج جديد أو حصن كما يسميه العرب، خوفا من أن يزحف الشيخ مكرامى على مدينة المخيّة. و وددنا أن نتوجه مباشرة عبر البحر إلى المخا أو على الأقل إلى الحديدة، لكن تاجرين من المخا، رافقانا من جدة، قررا متابعة الرحلة عبر البر. و كنا قد تعبنا من السفر بحرا بسبب الرياح المعاكسة، فنزلنا إلى اليابسة و توجهنا إلى منزل الحاكم، لنعرف منه إن كنا نستطيع السفر بأمان من المخيّة إلى المخا عبر البر.

و يطلق عرب اليمن لقب صاحب الدولة أو أمير على حكّام المدن. أما حاكم لحية فيدعى الأمير فرحان، و هو أفريقى، أسود البشرة. أتوا به إلى اليمن حين كان فتى لبيعه، فاشتراه باشا يدعى الماس، و كان صاحب الدولة فى بيت الفقيه لسنوات عدة ثم أصبح أحد أبرز وزراء الإمام فى صنعاء. و بعد أن علّم الباشا فرحان، أمّن له وظائف صغيرة، لكن قدراته جعلت نجمه يلمع فى البلاط، فرقّى إلى رتبة بايلى(Bailli) أو حاكم إقليم كبير. و هو سيد مهذب، مستقيم السيرة، و صديق للأجانب، قلنا له إننا أوروبيون، و إننا نستعد للذهاب إلى المخا عبر الحديدة و من ثم إلى الهند الشرقية على متن مراكب إنكليزية، و إن كخيا جدة حمّلنا رسالة توصية موجهة إليه و إن السيد يحيى رمضان أحد أبرز التجّار فى جدة أعطانا واحدة أخرى لمحسن المكاويش(M hsen el Mak wisch) ، أبرز تاجر فى مخيّة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۰

لاستخدامهما إذا ما توقف المركب لأيام فى المدينة. و كنّا نرتدى ثيابا طويلة، و قد أرخيت و السيد فورسكال لحيتنا، و كان الأمير قد عاشر الكثير من الإفرنج فى مخا، لكنه لم يرحب يوما بهذا المظهر، كما لم يسمع يوما بأوروبيين يقصدون اليمن عبر الخليج العربى، و عرف النصارى ورآهم يرتدون ثيابا طويلة كما هى العادة فى الشرق. و سألنا إن كنا نصارى أم افرنج، فأجبنا أننا ندين بالنصرانية و أننا من أوروبا، لأننا نعلم أن المسلمين ينظرون إلى المسيحيين نظرة أفضل من تلك التى ينظرونها إلى من يتبع الديانات الأخرى، و لم نكن ندرى إن كانوا يعتبرون الأوروبيين و ثنيين. سلّمنا الأمير الرسالة و استقدم كاتب التاجر محسن لاستلام الرسالة لأنّ هذا الأخير مريض، و لقراءة الفقرة التى تعنينا للحاكم.

و لم يعرف الحاكم، حتى هذا اليوم، من الأوروبيين سوى التجار الذين تدفعهم تجارتهم نحو اليمن.

و بعد قراءة الرسائل، تبين له أن أحدنا طبيب، و الآخر يبحث عن النبات و الثالث يهتم بالنجوم، الخ. و أننا لا نحمل معنا أية بضائع تدفعنا إلى استعجال وصولنا إلى المخا، فطلب منا أن نبقى فى لحية لبعض الوقت، و وعدنا بنقلنا إلى المخا على إبله. و رجانا التاجر، الذى كان بأمس الحاجة لطبيب، أن نأتى لزيارته، و قدم لنا أحد منازله للإقامة فيه، و لم نكن نتوقع عروضات كهذه من العرب. لكن، لنخفى هدف رحلتنا الأساسى و أعنى رؤية أكبر عدد ممكن من المدن و السفر برا فى اليمن، تحججنا بخوفنا من أن تندلع الحرب بين الشيخ مركامى و شريف أبى عريش فتمنعنا بالتالى من السفر بأمان فى البلاد. عندها، أكد لنا الأمير، أن لا خوف علينا فى لحية، و أنه بإمكاننا السفر بكل أمان على كافة أراضى الإمام، سيده. ثم عرض لنا صعوبات السفر بحرا مع الرياح المعاكسة التى تسيطر خلال هذا الفصل فى محيط مكرم، و أضاف أن السفر برا أكثر راحة، و باختصار، فإن أفضل نصيحة يسديها لنا هى أن نغادر المركب. و سعدنا للقائنا مسلمين أكثر تحضرا كلما ابتعدنا عن مصر، لا سيّما و أن سكان هذا البلد، الذى نسعى لزيارته و إجراء دراسات فيه، عاملونا بأدب و تهذيب. و بما أن الفرصة تسنت لنا لزيارة هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية، من دون أن نثير الشك، بأننا نود الانتقال إلى اليابسة، لم نتردد فى ترك المركب.

و دخلنا المدينة لرؤية المنزل الذى خصّصه التاجر لإقامتنا. و لم يطلب الريّس منا أن ندفع كلفة الرحلة كاملة سلفا، كما يفعل الذين يملكون قوارب بين القاهرة و السويس، فخشى ألّا ندفع له الكلفة الكاملة حتى الحديدة، و رجا الأمير، كما قيل لنا لا حقا، ألا يدعنا نسافر أو أن يجبرنا على دفع أجره كاملا فوعده هذا الأمير بدفع المبلغ إن نحن تخلفنا عن ذلك، لكن الريّس لم يرض بالجواب، فتوجه إلى التاجر محسن الذى عرض عليه أن يضمننا. و فى الواقع، لم نكلف هذين السيدين هذا العناء، لكن بدا لى عرض هذين المسلمين كريما للغاية، فبالكاد تلاقى بعثة عربية هذه المعاملة فى أوروبا.

و ما إن قررنا نقل متاعنا إلى اليابسة، حتى أمر الأمير طاقم مركبه بجلبها، و لم يرض بأن يكلفنا أىّ شىء سوى الإكراميات المعتادة للبحارة، و كى لا نتعرض لأى إشكال مع موظفى الجمارك أو الحمّالين،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۱

عمل كاتب التاجر على إرضائهم. و عند المساء، أرسل لنا الأمير نعجة للترحيب بقدومنا، مع رسالة مجاملة للغاية، راجعوا اللوحة(XIV) فى وصف شبه الجزيرة العربية، دعانا فيها ضيوفه و أكد لنا أننا نلقى الترحيب فى مرفأ اليمن هذا كما يمكننا البقاء فيه بكل أمان.

و كان مركب الأمير، الذى استخدم لنقل متاعنا، مبنيا بطريقة متينة، لكن، و وفقا لعادات البلاد، صنعت الأشرعة من الحصر التى لا يدفعها الهواء و التى يصعب التحكم بها، لذا عدنا متأخرين، و بما أن المياه تتسرب كليا تقريبا أمام المدينة عند المدّ، اضطررنا إلى النتظار أول جزر لنرسو عند الجسر. و لم نتمكن من نقل متاعنا إلى اليابسة فى تلك الليلة، فسألنا إن كانت فى مأمن قرب الشاطىء، و حين علم الأمير بقلقنا أرسل جنديا لحراسة المركب طوال الليل. و أكّدوا لنا أننا يمكن أن نسلّمه كل ما نملك، لكننا لم نكن لنثق بجندى عربى، فبقى أحد أعضاء البعثة و خادمنا على متن المركب، و تمّ نقل أسرّة الآخرين إلى اليابسة من دون أن يطالب أحد بتفتيشها. و بقيت عدّة الطبخ فى المركب، فأرسل لنا التاجر عشاء لذيذا، أعاد لنا نشاطنا، إذ لم نأكل طبقا ساخنا منذ غادرنا جدة. و لم يكن ينقصنا سوى النبيذ، و بقى لدينا القليل من الكحول السيئة التى حملناها معنا من المدينة، و استعلمنا أولا عن إمكانية الحصول على مشروبات روحية، لكنها غير متوفرة فى لحية، و لم يكن بإمكاننا استقدامها من صنعاء حيث تكثر عند اليهود، إذ ينبغى نقلها فى أوعية نحاسية مما يجعلها مضرّة للصحة. و أخيرا، أحضروا لنا شرابا قويا، ظننته بوظة(Busa) ، لكنه تسبب لنا غثيانا قويا، فقررنا الاستغناء عن المشروبات الروحية لبضعة أشهر.

و فى اليوم التالى، نقلت صناديقنا إلى الجمارك حيث تمّ فتحها، و خشينا أن يفتشوها بصرامة و دقة، لكن الموظفين قاموا بعملهم بتهذيب فائق. و لا حظنا أن الأمير يود رؤية معداتنا و معرفة كيفية استخدامها، فعرضنا له ما ظنناه يسعده و الأعيان الذين اجتمعوا فى الجمارك. و طلب السيد فورسكال- الذى كان يعرض على الحضور أشياء عدة تحت المجهر- من الخدم إعطاءه قملة حيّة، و بدا أن هؤلاء أحسوا بالإهانة إذ ظن الأوروبى أنهم مصابون بهامّة كهذه، لكن حين وعدهم بدفع بعض المال، قدم له أحدهم ما طلبه، و لم يسعد الأمير شيئا بقدر ما أسعده رؤية هذه القملة مكبّرة، و تأملها كافة الأعيان، و أخيرا، نادى على الخادم الذى أقسم أنه لم ير قملة عربية كبيرة كهذه، و لا بد أن هذه الموضوعة تحت الزجاجة قملة أوروبية. لكنه روى لأصدقائه أنه باع فى ذاك اليوم للأوروبيين قملة واحدة بأربعة قروش، و كان الجميع يعلم أننا لسنا من أولئك التجار الأوروبيين الذين يأتون من الهند إلى المخا، فظن الشعب أننا تجار من نوع آخر، و أننا نجيد استعمال القمل أحسن من العرب، لذا حضر فى اليوم التالى شخص و عرض علينا قبضة من القمل، ثمن الواحدة قرشا. و فيما بعد، طلب السيد فورسكال من الصبية جمع البزاق و حشرات أخرى متنوعة مقابل بضعة قروش، فجاءنا آخرون، يعرضون الحشرات للبيع، و نستنتج مما تقدم أن سكان اليمن أقدر على التجارة من باقى العرب. و من بين كافة الأدوات التى عرضتها على عرب لحية، أثار

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۲

منظارى الفلكى، الـذى يظهر الأشـياء مقلوبة، الإعجاب. و رأوا من بعيد سـيدة تسـير، و تفاجؤوا حين رأوها تسـير و قدماها إلى الأعلى دون أن تنقلب ملابسـها، الخ. و عند كل جديد، كانوا يصـرخون الله أكبر، و سـعد الجميع بوجود أجانب فريدين فى مدينتهم، و سـرّنا أن نلاقى هذا القدر من المودّة بين سكان هذه البلاد.

أما المنزل، الذى خصّصوه لإقامتنا، على الطراز الشرقى، حول ساحة مربعة، فلم تكن فيه غرف مؤثثة بشكل جميل، إنما تحيط به محال يمكن إقفالها، و أمامها ممر مفتوح. و يعتبر هـذا المكان سـيئا إذا ما قورن بفنادق أوروبا الجيـدة، لكنه عملى و مريـح فى تلك البلاد. خلال الأيـام الأولى، عجّت الساحـة بـالعرب الـذين دفعهم فضولهم إلى المجىء لرؤيـة الأوروبيين، لكن وجودهم أزعجنا فى بعض الأحيـان، لأنهم يسـتغربون كـل مـا يرونه حتى مـا لا يـدعو للاسـتغراب. و دفعنا هـذا إلى توظيف بواب، أمرناه بعـدم إدخال أحـد إلّا أصـحاب بعض المهن، و هكـذا ارتحنـا قليلا، لكن جاءنـا الكثيرون بحجـة رؤيـة الطبيب. و حين يسـتعلم هـذا الأخير عن أوجـاعهم، يصـفونها بشـكل يثير ضـحكنا. فقد طلب أحدهم من السيد كرامر أن يجس نبضه و أن يطلعه على ما ينقص، و لم يستطع شخص آخر النوم فجاء يسأل الطبيب عن السبب الخ. و لم يذع صيت السيد كرامر فى هذه المدينة إلا حين وصف لباش كاتب مقيئا، فقد أعطى هذا الدواء مفعوله من الأعلى و الأسـفل حتى فقد المريض عزمه. لكن بما أن العرب يفضلون المسهلات القوية، طلب العديد منهم من السـيد كرامر دواء كالذى اسـتعمله الباش كاتب. و استدعى الأمير بحر(Bahhr) ، و هو المشـرف على المركب، و الذى يمنع دخول أو خروج أية بضاعة لم تدفع الرسوم، لطبيبنا.

و حين لم يـذهب على الفور، قيـل له إن حصـان الأمير بحر ينتظره أمام بابنا و عليه سـرجه، و يتم وضع السـرج على الجياد العربيـة فى الإسـطبلات كى تمتطى فى أى وقت كـان. و ظنّ السـيد كرامر أن الأمير أرسل الجواد ليسـرع إليه، فأراد امتطاءه، لكن أشاروا إليه أن الحصان هو المريض الذى ينبغى شفاؤه. و لا يخجل الطبيب العربى من ممارسة مهنته على الحيوانات بعكس السيد كرامر، لكن لحسن حظنا اكتشفنا طبيبا آخر فى بعثتنا، و هو خادمنا، الذى خدم لسنوات فى فوج الخيالة السويدى، و تعلّم العناية بالجياد، فعمل على علاج الجواد و نجح فى ذلك، فاعتبره العرب طبيبا، و استدعى لعلاج الناس.

و فى أحـد الأيام، حضـر عربيان لرؤيتنا نأكل على الطريقـة الأوروبية، و أحدهما شاب من أعيان صـنعاء، تظهر تصـرفاته أنه تلقى تربية حسـنة، أمـا الآخر فمن قحطان، حيث قلما يرون أجانب، و هو رجل ذو مكانـة بين شـعبه لكنه بسـيط، و بـدا لنا أن رفيقه اصـطحبه معه ليتسـلى و يهزأ به. و كان القحطانى قد سـمع أمورا غريبة عجيبة عن الأوروبيين، و حين دعوناه ليأكل معنا، أجاب ببساطة أعوذ بالله من الأكـل مع الكفّـار الـذين لاـ يؤمنون بـالله. و سـجلت اسم موطنه، و طرحت عليه بعض الأسـئلة حول مـدنه و قراه، فسـألنى: «بم يهمك موطنى؟ أتنوى التوجه إليه و الاستيلاء عليه؟» و بما أننا كنا لا نزال نعيش على النمط

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۳

الأوروبى قـدر المسـتطاع، أثارت الطاولـة و المقاعـد و الصـحون و الملاعق و السـكاكين و الشوك اسـتغرابه. و طرح بعض الأسـئلة و أعطى ملاحظات جديـة حول عاداتنا، و لما ضـحكنا من بساطته، خرج خجلا، لكن صـديقه نجـح فى العودة معه مرات عـدة. و يقـدم العرب اللحم مقطعا، فرأى على مائـدتنا فراريـج مشوية كاملـة، و كنا قد أكثرنا من الطعام برأيه، فظنّ أن علينا التوقف عن الأكل، إنما حين رأى السـيد دى هـافن يتحضـر لتقطيع فروج آخر، شـده من ذراعه و سـأله عن الكميـة التى ينوى التهامها، و أثار سؤاله ضـحكنا، فخرج الرجل بسـرعة و لم يتمكن صـديقه من اللحاق به. و تمنى علينا هـذا الأخير ألّا نسـتاء من قلـة التهـذيب التى أظهرها رفيقه لشدة بساطته و انسـحب بدوره. لا بد أن هذا العربى سيروى فى موطنه الأخبار عن غرائب عادات الأوروبيين، و سيستمع إليه الجميع بحماسة كما يستمع الأوروبيون لأولئك الذين يروون مغامراتهم المزعومة فى بلاد بعيدة.

و استمتعنا بإقامتنا فى المخيّة، حتى طاب لى و للسيد بورنفند أن نعزف على كمانينا عند المساء كثنائى.

ممـا جعـل جيراننا و المارة يظنون أننا موسـيقيون. و طلب منا تاجر عجوز، سـمع بأخبار موسـيقانا، أن نزوره و نحضـر معنا القيان، لكننا

رفضنا لعلمنا أن الموسيقيين لا يتمتعون بالمكانة و الاحترام اللازمين بين العرب.

و دفعت الحشرية لرؤية الأوروبيين هذا العجوز، الذى لم يكن قادرا على السير، إلى الطلب من خدمه بأن يضعوه على حماره، و أن يسندوه كى يتمكن من زيارتنا. و كان الرجل مهذبا للغاية و أكّد لنا أنه لا يكره المسيحيين، و أن ديانته لا تسمح له بذلك لأن الله خلق الناس أجمعين و يتقبّل الديانات كلها، و أنه يفضّل المسيحيين على أولئك الذين يتبعون ديانات غريبة، و ذكر لنا حديثا من الصحيح يقول فيه محمد إنه يمكن أن تأمن جانب المسيحى أكثر من اليهودى. و بعد تناول مواضيع متعددة، تحوّل الحديث إلى الموسيقى، و أعرب العجوز عن رغبته برؤية آلاتنا، و بسماعنا نعزف عليها، فقمنا بعزف بعض المقطوعات الهادئة التى تعجب الشرقيين و إن كانوا لا يتذوقون موسيقانا. و سرّ العجوز كثيرا، و أراد إعطاء كل واحد منا نصف درهم لدى مغادرته، و لا يردّ العرب عامة أيّة هدية مهما كانت صغيرة، لذا فاجأ رفضنا للمال العجوز الذى كان يعتقد أن ما من أحد يتكبّد مشقة تعلّم العزف إلّا لكسب المال، و أننا نحتاج لبعض المساعدة لأننا نصرف الكثير من دون أن نكسب من تجارة ما.

و كان هذا التاجر من القلائل الذين رأيت لحاهم مصبوغة باللون الأحمر، و لم يذكر لى أى سبب لذلك سوى أنّ اللحية الحمراء أجمل من اللحية البيضاء، فى حين يرى الآخرون أنه يحاول إخفاء تقدمه بالسن. و استنتجت من ذلك أن العاقلين بين العرب لا يوافقون على عادة صبغ اللحية باللون الأحمر، و لا حظت فى هذا المناسبة، و فى مناسبات أخرى، أن المسلمين لا يكترثون أبدا لسنّهم. و حين نستعلم عن أعمارهم يجيبون أنهم ولدوا حين كان فلان أو فلان فى الحكم أو أنهم كانوا فتيانا حين وقع هذا الحدث أو ذاك، لكن تاجرنا هذا أوضح الأمور أكثر، فهو يعلم أنه فى السبعين من عمره و لا يظن أنه تجاوز

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۵

الثمانين، فى حين أن معارفه يعتقدون أنه قارب التسعين. و توطدت الصداقة بيننا حتى أنه دعانا مرارا لزيارته و قدّم لنا أفخر القهوة و التبغ و المربى، و لم يتزوج يوما وفقا للأصول لكنه يتبجح بأنه غرر بعدد من الجوارى (۸۸ إن لم أكن مخطئا)، و أنه باعهن فيما بعد، أو تزوجهن، أو أعتقهن. و قال لنا إنه يملك، منذ بضع سنوات، جاريتين شابتين و جميلتين و أنه يتمنى أن يفعل بهما ما فعل بسالفاتهما و بعدها يموت عن طيب خاطر، و وعد طبيبنا بهدية قيّمة إن مكّنه، بفضل علمه، من تحقيق رغبته. و كنا قد تعرفنا على تاجر ثرى فى جدة، زرناه غالبا، يعانى المشكلة نفسها، و كان فى العقد الخامس، و يملك منزلا فى مكة يقصده لبضعة أشهر، لكن من دون طيب خاطر، إذ يملك فيه جاريتين جميلتين تسعيان دوما لتأجيج نار حبه لكن خيبته تجعله حزينا، فقدّم لطبيبنا مئة ريال إن استطاع مساعدته ليشفى غليله مرّة واحدة. و لفرط ما تناول من أدوية وصفها له الأطباء الإنكليز لم يتمكن السيد كرامر من مساعدته . لكن أعود لوصف مدينة لحية: بنيت هذه المدينة منذ حوالى ۳۰۰ عام، على يد ولىّ مسلم، يدعى الشيخ صالح(S lei) ، و يعتبر اليوم شفيع هذه المدينة لأن عرب تهامة من أصل السنّة و يجلّون كثيرا هؤلاء الأولياء المزعومين بالرغم من أن دينهم يحرّم تقديسهم. بنى هذا الشيخ لنفسه كوخا على شاطىء البحر، خارج لحية، فى المكان الذى نجد فيه اليوم ضريحه، و عاش فيه متنسكا. و بعد موته، تمّ بناء قبّة فوق قبره، و مع الأيام، تمّ تكبيرها، و تجميلها، و اعتبارها وقفا: و بما أن المسلمين المؤمنين يتوقعون أن يباركهم الله فى هذه الدنيا و فى الآخرة، إذا ما أقاموا و ماتوا فى جوار هذا المزار، بنوا لهم بيوتا فى محيطه. و فى ذاك الوقت، كان حاكم الإقليم يقيم فى مرابع(Mar bea) ، و هى مدينة صغيرة، على بعد ميل إلى الشمال من لحيّة، لكن حالة مرفئها ازدادت سوءا، فهجرت المدينة، و توسعت لحية، و أضحت فيما بعد مكان إقامة صاحب الدولة. و أشير هنا إلى أن ذريّة أولياء السنّة فى التهامة يتمتعون بمكانة ذرية محمد فى العالم الإسلامى كله إنما بقدر أقلّ، و يطلق عليهم لقب شيخ، كما يطلق على سلالة محمد لقب، شريف، و سيّد، و أمير و مولى، و يعتقد الناس أن التقوى و حب الفضيلة من شيم هؤلاء أكثر من عامة الشعب. و يتمتع زعماء العائلات هذه بهيبة و احترام بين الناس لأنهم ولدوا رجال دين، لذا لا يستغرب أن يشيدوا بقداستهم، و يحاولوا أن يجعلوا من أنفسهم قديسين. و يعتبر ابن الشيخ صالح المدفون فى مور(Mo ?r) ، و ابنه الآخر المدفون فى بهاس(Bah s) شفيعى هذين المكانين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۶

و تقع مدينة لحية فى مكان مجدب، و قاحل، و فى بعض الأحيان على جزيرة، لأن الأرض منخفضة نحو الشمال حتى أن الرياح الجنوبية حين تعصف لوقت طويل، و تعلو المياه، يغطى المدّ هذا الجزء من المدينة، و قلما يحدث هذا خلال عام واحد. و هى على خط عرض ۱۵؟، ۴۲؟، و على بعد فرسخين و ۳۹ دقيقة و ۱۴ ثانية على خط الطول إلى الشرق من باريس. و هو المرفأ الأكثر إلى الجنوب فى المناطق الخاضعة للإمام، لكن حالته سيئة إذ إنّ المراكب الصغيرة التى تقصده تضطر للرسو على مسافة بعيدة من المدينة، حيث الجزر فلا تستطيع القوارب الصغيرة الاقتراب منه. و تبقى التجارة الأولى فى هذه المدينة هى البن الذى ينتزعون بزوره و يبيعونه. و لا يضاهى هذا البن جودة بن بيت الفقيه الذى يتم نقله عبر مخا و حديدة، و هو أرخص ثمنا، و لا تعتبر كلفة نقله إلى جدة عالية نظرا إلى أن المسافة التى تفصل المنطقتين ليست بكبيرة. و لهذا السبب، نجد تجّارا من القاهرة يقيمون فى لحية و يشترون البن لأصحاب عملهم أو أصدقائهم فى جدة، و مصر و تركيا، كما يقصد الكثير من أبناء القاهرة لحية سنويا لشراء البن لحسابهم الخاص. و يقيم حوالى ۴۰ بنيانيا فى المدينة، لكن غالبيتهم من الحرفيين الفقراء أو من الخدم لدى من يتبعون الديانة نفسها.

و بالرغم من أن مخيّة غير محاطة بالأسوار، فهى ليست بالمدينة المفتوحة كليا، إذ نجد فيها ۱۲ برجا من جهة اليابسة، يبعد الواحد منها عن الآخر ۱۲۰ خطوة مزدوجة، و تشبه هذه الأبراج أبراج المراقبة القديمة فى ألمانيا، فأبوابها مرتفعة لا يمكن و لوجها من دون الاستعانة بسلّم. و يقيم الجنود، الذين يشكّلون حامية المدن التركية، قرب الأبواب أو فى المدينة نفسها، و نجد حراسا فى كل برج من أبراج لحية تقريبا.

و كان معظم جنود المدينة يجلسون فى الفيء فى أسفل الأبراج، يدخّنون النرجيلة و يشربون الكيشر (و هو شراب يحضّر من سنفة البن)، لكن رؤيتى فى هذا المكان المنعزل أثارت انتباههم. و جدير بالذكر أن تسجيل الخطوط و الزوايا فى طرف كهذا يشكل خطرا علىّ فى تركيا و فى أوروبا، لكنى لم أكن أخشى شيئا بين العرب، حتى أن الضابط المسؤول دعانى للجلوس بينهم، و مشاركتهم بما قدموه لى من اهتمام، و سألنى عن كيفية بناء الحصون فى أوروبا، فضلا عن طريقة خوض الحروب، الخ. و استمعوا إلىّ باستغراب و أنا أقص عليهم أخبار أوروبا، و عرضت عليهم اختراع الكتابة من دون حبر (بقلم)، و أخذت أسجل أمامهم الخطوط و الزوايا من دون أن يرتابوا بالأمر، حتى أنهم نادوا رفاقهم فى الأبراج القريبة ليروا الغرائب التى رأوها. و هكذا، رسمت خارطة مدينة لحية و محيطها على اللوحة(LX) ، فيما حملت اللوحة(LXI) منظرا عاما للمدينة.

بنيت غالبية هذه الأبراج بطريقة تمكّنهم من الدفاع عنها بالسلاح الأبيض. أما البرج، الذى أمر الأمير فرحان ببنائه فجهّز لوضع مدافع فيه، و نجد قرب البرج الخامس مبنى فيه بعض الأسلحة. و نشاهد أمام البرجين الرابع و الخامس حفرة فى الصخر. و تعتبر هذه التحصينات غير مجدية، حتى أن عرب حاشد،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۸

منذ سنوات، اجتازوها و أحرقوا المدينة، لذا لا يتكل أهالى مخيّة عليها كثيرا، إذ علمنا، فى شهر أيار/ مايو فى مخا، أن عددا كبيرا منهم لجأ إلى جزيرة يرموك(kچOrm) الصغيرة، و نقلوا إليها أغلى ما عندهم حين علموا أن بضع مئات من رجال حاشد و بكيل دخلوا تهامة و تقدموا حتى مور(Mo ?r) . و غادر العديدون بيت الفقيه، و توجهوا إلى مرفأ الحديدة، ليتمكنوا من الانسحاب بسرعة نحو بعض الجزر إذا ما تقدم العدو أكثر، لكنه تراجع حين لاقاه الأمير فرحان مع جنده .

بنى العديد من منازل مخيّة من الحجارة، لكن معظمها كتلك المرسومة فى الصورةI للوحة الأولى فى وصف شبه الجزيرة العربية أى كمنازل تهامة عامة، و لا يكلّف بناء منزل كهذا الكثير من المال فهيكله من الخشب الرقيق الذى يقطع من الأشجار أو الدغل، و تطلى الجدران بالصلصال الممزوج بالروث ثم تطلى من الداخل بالكلس، و تصنع السطوح من أعشاب تكثر فى هذه البلاد. و تفتقر هذه المنازل للنوافذ، و تسدّ الأبواب بالحصر المصنوعة من القش. و يؤثث داخل هذه المنازل بالأسرة كتلك المرسومة فى الصورة «ز» من

اللوحة الأولى فى وصف شبه الجزيرة العربية، و لا تغطى هذه الأسرة سوى بحبال من القش، و هى مريحة جدا للجلوس و النوم، لا سيّما أن أرض تهامة رملية، لجدبها، مما يجعل النوم عليها مزعجا للغاية.

و لا تقسم هذه المنازل إلى غرف عدة، و حين تكون عائلة العربى كبيرة و يملك ماشية، يقوم ببناء أكواخ عدة و يحيطها بسور عال، لذا تحتل المنازل مساحة واسعة و لا يمكن أن نعتبر عدد سكان تهامة بعدد سكان أى مدينة فى أوروبا و تركيا تمتد على المساحة نفسها.

نجد خارج المدينة العديد من أفران الكلس، حيث تكلّس أحجار المرجان الكبيرة المستخرجة من البحر عند الجزر. و تكسر هذه الحجارة، و تكلّس فى الهواء الطلق دون بناء أفران، و فى وسط هذه الحجارة المكسورة شاهدنا عددا من الأصداف المستطيلة المخيّة. و نجد فى الخليج العربى الكثير من الأصداف و الأسماك الجميلة. و قد أعطيت سابقا فكرة عن مراكب الصيادين فى لحية فى وصف شبه الجزيرة العربية.

و تعتبر مياه مخيّة غير صالحة للشرب، و تشرب العامة من مياه الوادى و من مياه بئر نعمان الذى يقع على بعد ۳/ ۴ الميل إلى الشرق من المدينة، أما مياه بئر كندى الواقع على بعد ميلين و ۲/ ۳ الميل إلى الجنوب الشرقى فأعذب، و تبقى أفضل مياه فى مخيّة هى مياه فتيت التى تقع على مسافة ميلين و نصف الميل إلى الشمال الشرقى من المدينة. و لا ينقل أهالى مخيّة الماء إلى المدينة فى عربات بل على ظهور الحمير و الجمال، و لا يستخدمون لذلك جلود الماعز، كما فى السويس، أو الأكياس الجلدية، كما فى تركيا و القاهرة، إنما جرارا حجرية بيضاوية الشكل، تتدلى عن جانبى الجمل، كما تظهر فى اللوحة ۱۶

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۵۹

فى وصف شبه الجزيرة العربية. و إلى الشرق من مخيّة و على بعد ميل و ۳/ ۴ منها، نجد جبلا صغيرا يحمل اسم كوخشا(? Ko scha) و تكثر فيه الأملاح المعدنية التى تستخرج منه بسهولة.

و جمعنا فى مخيّة كمية كبيرة من الغرائب الطبيعية، و بما أن نقلها برا مكلف للغاية، أرسلناها إلى المخا بحرا مع أمتعتنا التى لم نكن بحاجة إليها خلال رحلتنا عبر اليابسة. و أضاف الأمير فرحان إليها رسالة موجهة إلى صاحب الدولة فى المخا، يرجوه فيها أن يسمح بإبقاء أمتعتنا فى الجمارك لحين وصولنا. و بعد أن جمعنا كافة المعلومات التى تهمّنا حول هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية، أعربنا عن رغبتنا بزيارة مدن أخرى من هذه المملكة. و وجدنا الحجة المثلى فى خبر وصلنا عن مركب إنكليزى وصل إلى المخا من الهند فى أواسط شهر شباط/ فبراير، و أعلمنا صديقنا الأمير فرحان بنيتنا التوجه إلى بيت الفقيه، و الاستراحة فيها ثم إكمال طريقنا إلى المخا. فسألنا عمّا يثير استياءنا فى مخيّة و أكد لنا أنّ ما من حاكم فى بلاد الإمام سيهتم لأمرنا بقدره هو، و كان محقا فيما قاله. و بعد ذلك أصبح الحكّام، الذين لم يأبهوا لأمرنا من أعزّ أصدقائنا. و كان الأمير فرحان يعلم أن ما من مركب يعود إلى الهند قبل حزيران/ يونيو، و أراد أن نبقى عنده حتى ذاك الحين، لكن حين أعربنا عن حاجاتنا للتحدث مع مواطنينا (يصبح الأوروبيون كلهم مواطنين فى هذه البلاد البعيدة) وافق على ما أردناه، فقمنا باستئجار الجمال و الحمير فى الحال لنقلنا و متاعنا إلى بيت الفقيه.

و يوم أردنا توديع الأمير فرحان، لم نتمكن من التحدث إليه لمرض ألمّ به فى ذاك اليوم، فطلبنا إعلامه بسبب زيارتنا، و بأننا سنسافر إلى بيت الفقيه فى اليوم التالى. و طلب منا البقاء ليوم أو يومين فى مخيّة، لكننا لم نشأ ذلك لأننا كنا جاهزين للمغادرة، فأرسل بطلبنا فى وقت متأخر من الليلة نفسها. و كان قد طلب منى حين وصلنا إلى مخيّة أن أعيره جهاز رصد النجوم الإنكليزى الرباعى القاعدة خلال فترة إقامتنا فى المدينة. و لم أرغب بطلبه منه، لأن أىّ مسلم كان ليظن أنى قدمته له هدية، لكن الأمير فرحان وضعه أمامه بعد أن لفّه بقطعة قماش حريرية و جعل عليه كمية كبيرة من الدراهم الألمانية و هى أكبر عملة تستخدم عادة فى اليمن، و بعد أن سألنا، إن كنّا لا نزال نصرّ على السفر فى اليوم التالى، و قال مازحا للعرب الحاضرين إن الإقامة فى مخيّة لا تعجبنا- دون شك- لأننا نغادر المدينة بسرعة، الخ، أراد إعادة الجهاز لى، لكنى رجوته أن يحتفظ به، فأكّد لى بعد اعتذارات جمّة أنّ هذه الهدية تسعده للغاية. ثم

منح طبيبنا قطعة القماش و فيها ۲۰ درهما فاعتبر الأخير أن بإمكانه قبولها لأنه أعطى الأمير أدوية عدة.

و قدم لنا مبلغا من المال لدفع بدل استئجار الحمير و الجمال التى ستنقلنا إلى بيت الفقيه، فرفضناه معللين السبب أننا لم نأت شبه الجزيرة العربية لنعيش على حساب أهلها. و بما أننا كنا ننوى التجوال فى كافة البلاد الخاضعة للإمام، فخشينا ألا يساعدنا حكام الأقاليم الأخرى، الذين قد يفتقرون لكرم الأمير فرحان، إن شكوا بأننا ننتظر منهم أن يقدموا لنا الهدايا. و فاجأ رفضنا العرب كثيرا، إذ لم يكتف بعض

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۰

المسافرين الأتراك الذين وصلوا إلى مخيّة بطلب المال لرحلتهم بل طالبوا بمعاش لهم. و لم يكن خادمنا الأوروبى، الذى شفى أحد خيول الحاكم، حاضرا فأرسل له عشرة دراهم كمكافأة، و لم ير هذا الأخير أى داع لردّ المال.

و بما أن الأمير قدم لطبيبنا و لخادمنا الهدايا دون موافقتنا، و بما أننا لم نشأ أن ندين لعربى بشىء، قررنا أن نقدم له بالمقابل ساعة أسعدته كثيرا، و إن أصرّ لبعض الوقت على رفضها قائلا إنه لا يستطيع أن يقبل هدية كهذه منا لأننا مسافرون. و سببت لنا لياقتنا مع الأمير فرحان الطيب الكثير من المتاعب لا حقا، فقد ذاع خبر كرمنا تجاهه، فظن حكّام المدن الأخرى أن من حقهم توقّع هدايا منا قبل أن يقدموا لنا أية خدمة. و لم يكن الأمير فرحان يملك ساعة و لا يعرف كيفية استخدامها، لكن تاجرا من القاهرة، من بين الأجانب الذين اعتادوا زيارة الأمير يوميا، كان يملك فيما مضى ساعة، فوعد بتعبئتها كل يوم.

و من بين العرب الذين اعتادوا زيارتنا، مثقفان فقيران، أعطيانى توضيحات عدة حول الجغرافيا و حول مواضيع أخرى، و قد استخدمتها فى وصفى لشبه الجزيرة العربية، لذا لا داعى لذكرها هنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۱

رحلة من مخيّة إلى بيت الفقيه

فى اليمن يمتطى الناس عادة الحمير- ليس لأنه لا يحق للمسيحيين ركوب الخيل كما فى القاهرة- بل لأن استئجار الخيل صعب فى هذا البلد. إلا أن الحمير المستعملة فى المدن الشرقية و للسفر هى من جنس خاص فهى كبيرة الحجم و شجاعة و لا تزعج فى السير. و لشدة قدرة هذه الحمير على المشى، يجبر الرجل الذى يسير خلفها على القيام ب ۱۷۵۰ خطوة مزدوجة فى نصف ساعة. و كنت بحاجة لأدقق فى هذا الموضوع لأتمكن من تصحيح خارطة اليمن. بعد أن عرفت سرعة سيرنا، لم يبق لى إلا مراقبة الوقت الذى نستهلكه للانتقال من مكان إلى آخر و تحويله إلى خطوات مزدوجة و أميال لأتمكن من معرفة طول المناطق . لمعرفة وجهة الطريق اكتفيت باستعمال بوصلة جيب تماما كما فعلت للذهاب إلى طور سيناء.

و لا شك أنه لا يمكن قياس الزوايا بدقة بواسطة آلة صغيرة لكن على ظهر الحمار تصبح عملية المراقبة أسهل. و حرصت أثناء الرحلة على قياس ارتفاع القطب كلما وجدت ذلك ضروريا. و كنت كلما سرت بضعة أيام، أصحح اتجاه الطريق من خلال قياس ارتفاع القطب و البوصلة. ثم جمعت أسفارى إلى اليمن كافة و صرت أملأ المكان الشاغر بأسماء المدن و القرى التى لم أكن قد رأيتها بل تأكدت من وجودها.

و هكذا، دوّنت خريطتى التى أضفتها إلى هذا المجلّد.

و لا يمكن أن نتوقع أن الخارطة التى رسمتها لليمن هى شديدة الدقة كتلك التى رسمها مسافرون أوروبيون لجؤوا إلى الملاحظات الفلكية و الهندسية. إلا أنى لم أوفر جهدا لمعرفة جغرافية البلد و لأوجّه أسفارى لمعرفة مواقع الأماكن الرئيسية التى يسيطر عليها الإمام. و إنى أعلم أن قارئى سيملّ من قراءة كافة الأسماء الغريبة التى تعود إلى هذه الأمكنة: لكن بما أننا نجهل مناطق شبه الجزيرة العربية قررت ألا أكتفى بذكر أسماء القرى بل أيضا أسماء الأكواخ التى تعتبر كالمقاهى و التى تكون معزولة على طول الطريق. و

غالبا ما تسمى هذه الأكواخ باسم القرى المجاورة و يمضى صاحبها نهاره كله فيها لكنه يبيت ليلة فى القرية فى منزل عائلته. من هنا نعلم أن هذا الجزء من شبه الجزيرة شديد الاكتظاظ بالسكان.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۳

و لأن السفر إلى تهامة آمن تماما كالسفر إلى أوروبا، لم نكن بحاجة إلى انتظار انتقال القافلة. لكن بما أننا توقفنا فى ۲۰ آذار/ مارس للذهاب إلى مخيّة أرسلنا فى ذلك اليوم جمالنا محملة بأغراضنا بالإضافة إلى خادمين ليهتموا بها. و بعد مرور ساعات، لحقنا بهم على ظهر الحمير. ثم مررنا بمنطقة قاحلة و صحراوية بالقرب من الخليج ثم ارتحنا فى مقهى ليس سوى كوخ قريب من قرية تدعى عكام(Oke ?m) .

تقع هذه القرية على الخط المستقيم الذى يبعد ميلين ألمانيين عن جنوبى شرقى مخيّة و تبعد قليلا عن البحر و لا نجد فى جوارها ماء عذبا.

و خلال وصفى لهذه الطريقة سأستعمل دوما كلمة كوخ للإشارة إلى المقهى و يسمى العرب هذه الأكواخ مقيلة(Mokeija) . و حتى لا يظن القارىء أن الخدمة فى هذه الأكواخ جيدة مثل خدمة المقاهى الأوروبية سأقول لهم أولا إن هذا المقهى سيىء البناء لدرجة أن بيوت مخيّة الأكثر فقرا تظل أفخر منه.

فأحيانا لا نجد فيه أى سرير و تنحصر فيه الضيافة على القهوة التى تقدم فى فناجين من فخار. و العرب الأثرياء الذين لم يعتادوا على شرب القهوة فى أقداح مماثلة يحملون معهم أثناء السفر فناجينهم الصينية المصنوعة من الخزف. و يقدم الماء العذب مجانا فى هذه الأكواخ و يعتبر المرطب الوحيد.

انطلقنا فى اليوم نفسه من «أقام» و بعد أن اجتزنا أربعة أميال إلى الجنوب الشرقى، وصلنا إلى قرية الجالية عند منتصف الليل. و لقد كانت المياه فيها سيئة للغاية و كنا فى هذا اليوم قد سرنا ستة أميال ألمانية.

فى ۲۱ شباط/ فبراير توجهنا نحو الجنوب الشرقى و وصلنا إلى حميان(Hamj n) و هى القرية الأولى التى وصلنا إليها بعد أن اجتزنا ميلا و ربع الميل. و من حميان وصلنا إلى سبأ(S bea) التى تبعد ربع ميل عنها و منها إلى منير(Meneyre) و هى تبعد ربع ميل عن سبأ. إن قرية منير متوسطة الكبر و فيها مسجد جميل و نزل يقصده المسافرون فيتلقون الخدمة مجانا لو شاؤوا الاكتفاء بنمط حياة أهل البلد فيستقبلون فى كوخ مشترك و يعطون سريرا و خبز الذرة الساخن و حليب الناقة و الزبدة. و جدير بالذكر أن مثل هذا النزل لا يفرغ أبدا من المسافرين. و لو كانت هذه الضيافة موجودة فى أوروبا لكان عدد النازلين هنا أكبر بكثير. ثم ما إن علم صاحب نزلنا بوجود أشخاص أوروبيين فى دياره حتى سارع إلينا شخصيا لمعرفة ما إذا كنا نحظى بمعاملة حسنة و لو أننا تمكنا من المكوث لفترة أطول لذبح نعجة على شرفنا. و لقد خبز لنا خبز الحنطة و هو نادر فى القرى ثم أحضر لنا خدمه حليب البقر بعد أن لاحظوا أننا غير معتادين على شرب حليب النوق. و يقال إن هذا الحليب منعش و صحى فى البلاد الحارة لكنه لزج كثيرا فإذا وضعنا إصبعنا فيه ثم رفعناه، يمتد الحليب مثل الخيط. و رأى خدامنا العرب أن صاحب النزل سيستاء إن نحن عرضنا عليه دفع مصروف إقامتنا عنده لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار ما حدث لا حقا لكنا عرضنا عليه هدية و حسب. فلقد استأذنا للرحيل دون أن ندفع شيئا و دون أن يسألونا أن ندفع شيئا لكن الخادم الذى لم يتجرأ على طلب أى شىء فى حضور سيّده تبعنا للحصول على هديّة بعد أن تأكد أننا ابتعدنا مسافة لا تسمح لسيّده برؤيته.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۴

يقع جبل القمة فى الجنوب الغربى من المنير. و قرب هذا الجبل من جهة الغرب هناك قرية كبيرة تدعى صعدة(S die) و لقد ذهب السيد فروسكال لرؤيتها عند ما كان يجمع الشعب فى وادى سردد(dچSurd) .

انطلقنا من المنير و سرنا مسافة ميل و ربع نحو الجنوب الشرقى فوصلنا إلى بيت الفقيه. أما المحجم(El M hhj m) الذى ذكره أبو

الفدا فليس بعيدا من هنا لكنه مدمّر ما عدا المسجد القديم الشهير الذى رقمه الأمير فرحان. و كان يلزمنا نصف ميل للوصول إلى بيت الشيخ و منه ميلا للوصول إلى الضحى(Dahhi) حيث قضينا الليل. و فى هذا اليوم لم نمش إلا أربعة أميال و نصف الميل.

تعتبر الضحى قرية كبيرة فيها مسجد و قبر ولى من الأولياء و قلما نرى فيها منازل من الحجارة. و فى خارج القرية هناك مصبغة و معمل قرميد حيث يشوى القرميد لا فى الفرن لكن فى الهواء الطلق. كما و رأينا فى ثلاثة أماكن مختلفة كمية كبيرة من الآنية التى يصنع فيها اللون الأزرق. إن ثمن هذا اللون رخيص فى اليمن إذ يباع كل ۲۵ رطلا بدرهم واحد إلا أنه سيىء النوعية. يستعمل هذا اللون كثيرا فى اليمن لأن النساء كافة يرتدين قمصانا و سراويل زرقاء. يقيم فى ضاحى و فى الجالية مساعد صاحب الدولة الذى يكون على رأس مجموعة من العسكر علما أن هاتين القريتين تخضعان لحاكم مخيّة. و كان الأمير فرحان الذى أعطانا رسائل توصية قد أمر السكان أن يعطونا نعجة. إلا أننا أبينا خاصة أننا وصلنا إلى الجالية فى ساعة متأخرة لكننا علمنا لا حقا أن أحد خدم الأمير فرحان الذى سافر معنا بغية تحصيل أعماله الخاصة تقاسم ثمن هذه النعجة مع قاضى القرية. و بعد أن علمنا أن الفلاحين يدفعون على كل حال، أخذنا منهم فى الضحى كل ما أمرهم حاكم مخيّة بدفعه.

و قضينا يوم ۲۲ من شباط/ فبراير فى الضحى، و استطعنا قياس ارتفاع هذه القرية ۱۵؟، ۱۳؟. للذهاب من مخيّة إلى صنعاء يجب المرور بهذه القرية.

أما الطريق الأقصر للذهاب من الضحى إلى بيت الفقيه فهو من خلال المرور بمروة(Mar ua) . لكن بما أن هذه الطريق خالية من الماء و من القرى، تركنا ضاحى فى ۲۳ شباط/ فبراير و بعد أن اجتزنا غاية صغيرة وصلنا بعد سيرنا ۳/ ۸ الميل إلى كوخ يدعى سباريد(Sabarid) . تشكل نقطة هذا الكوخ الحدود بين مخيّة و بيت الفقيه. و بعد ذلك سرنا ميلين و وصلنا إلى مكان فيه عدة قرى مبعثرة يسميها القرويون كافة بنى عفيف. رأينا بئرين على الطريق، و على مسافة ربع ميل وجدنا القرية المسماة شرجو(Schirdsj u) . و على مسافة ۳/ ۸ الميل من هذه القرية و إلى غرب الطريق تقع قرية دير الخليل و بعدها ب ۵/ ۴ الميل تقع دير العفة. و كانت الطريق مزروعة بالآبار هنا و هناك.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۵

إلى هنا كنا قد مشينا باتجاه الجنوب الشرقى و بعد أن سرنا نصف ميل آخر بالاتجاه نفسه وصلنا إلى وادى شعب الحجر الذى يتلقى الماء فى أيام المطر من جبل برّه(Burra) و فى شماله هناك جبل آخر يدعى حفاش(Hof sch) و يمتد إلى صنعاء. و بعد اجتياز ثلاثة أرباع الميل جنوبى شرقى شعب الحجر نصل إلى قرية لم اعرف اسمها. تتميز آبار تهامة كافة بأرضيتها المنحنية فنرى الرجال و الثيران و الحمير تنزل للحصول على مياهها مما يسهل عليهم هذه العملية. و يرفع الماء فى أكياس كبيرة من الجلد تكون مربوطة إلى حبل معلق على بكرة. و الجدير بالذكر أن هذه الآبار عميقة بمجملها. يبلغ انحدار البئر ۳۴ قدما أو من ۱۶۰ إلى ۱۷۰ خطوة من حيث الطول و هذا هو طول الحبل و بالتالى عمق البئر. من هناك مررنا بوادى شعب دفين حيث لا نجد الماء الجارى إلا فى أيام المطر. و بالقرب من هذا الوادى من جهة الشرق و على بعد نصف ميل من الطريق، هناك قرية كبيرة تدعى مدوّر. و على بعد ۳/ ۲ الميل من البئر السابق رأينا قرية صغيرة تدعى دفين(nچDef) و هناك ربع ميل من دفين إلى قرية غانمية القريبة من الجبال على ارتفاع ۱۴؟، ۵۸؟. إن هذه القرية كبيرة مثل ضاحى تقريبا لكن ليس فيها أى بناء حجرى سوى المسجدين. و حتى مساعد صاحب الدولة الخاضع لحاكم بيت الفقيه كان يعيش فى مسكن شعبى يشبه البيوت العادية فى تهامة.

فى ۲۴ شباط/ فبراير تركنا غانمية و توجهنا نحو الجنوب الغربى و بعد أن سرنا ميلا- و ثمن الميل وصلنا إلى قرية كبيرة تدعى قطية(Kataja) . حيث هناك نزل مجانى فى القرية لاستقبال المسافرين لكننا لم نتوقف فيه. فى الفترة الباقية من النهار سرنا نحو الجنوب أحيانا بسرعة و أحيانا ببطء مما حال دون تمكنى من أخذ طول الطريق من خلال الوقت الذى صرفناه فى اجتيازها. و بالقرب من جبل عال فى شرق الدرب رأينا «قرى» كثيرة تدعى كلها شعارى(Sch ra) على اسم قبيلة أو عائلة عربية. بعد ذلك وصلنا إلى

وادى شام و هى شأنها شأن سائر و ديان تهامة، لا تغمرها المياه إلا أثناء المطر. و فى منتصف الطريق بين غانمية و بيت الفقيه هناك واد آخر واسع يدعى البلى(El Belle) و قربه قرية تحمل الاسم نفسه. ثم وصلنا إلى قرية تدعى التمانى(El Te ?am ni) و رأينا بعدها عدة قرى أخرى. أخيرا وصلنا بعد منتصف الليل بنصف ساعة إلى كوخ أو ما يشبه مقهى فقضينا الليل فيه و لم نجد فيه إلا شابا لديه ستة أصابع فى كل يد و كل قدم.

ثم فى ۲۵ شباط/ فبراير كنا على بعد ميل واحد من بيت الفقيه. وصلنا إلى بيت الفقيه فى الصباح الباكر فنقلنا أغراضنا أولا إلى الجمرك لكن لم نتمكن من فتح صناديقنا إلاـ عند الظهر. و فى هذه الأثناء سلّمنا رسالة من محسن المكويش(Machsen el Mekawisch) من المخيّة إلى عنبر سيف أحد أهم تجار بيت الفقيه الذى استقبلنا بحفاوة بالغة و لم يكتف بأن نقل أغراضنا من الجمارك إلى منزل استأجره لنا بل دعانا جميعا إلى العشاء فى ضيافته لأننا لم نكن قد استقررنا بعد.

إن بيت الفقيه هى مسكن صاحب الدولة الذى يحكم ولاية كبيرة تقع على ارتفاع ۱۴؟، ۳۱؟.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۶

و هناك قلعة فى هذه المدينة يعتبرها أهلها شديدة الأهمية. ثم إن المدينة مفتوحة و المنازل بعيدة عن بعضها و هناك الكثير من الحجارة المستعملة فى تدعيم البناء إلا أن غالبية المنازل قد بنيت على الطريقة الهندسية فى تهامة أى إنها تتألف من أكواخ طويلة مستديرة السطوح و مغطاة بالعشب. نزلنا فى بناء حجرى هرب منه صاحبه للتخلص من حشرات حجمها كحجم النمل تسمى أرضة(Ard) . كانت هذه الحشرات الموجودة فى كافة الغرف تشق طريقا لها مغطى بالتراب اعتبارا من الأرض و حتى المكان الذى تبحث فيه عن الطعام. و هى تأكل الفاكهة و الثياب و كل ما تجد، فليس إذا من الغريب أن يكره العرب شغل منزل تملؤه الحشرات. كما و تحدث هذه الحشرات أضرارا كبيرة فى المنزل. تشق طريقها من جذور الشجرة حتى رأسها فتأكل الخشب الجديد و تقضى على الشجرة. و يقال إنها لا تهجم على كافة الأشجار بل تقصد الشجر ذا الخشب الناعم. و لأن البستانيين يعرفونها يقومون بتدمير ممراتها. أما نحن فطمرنا طرقاتها فى الغرف لكنها كانت تعيد شقها دائما. و تعمل هذه الحشرات بسرعة فى الظلام لكن حركاتها تبطئ على ضوء الشموع. و على طول الطريق فى تهامة رأينا نباتات كبيرة مغطاة بالتراب و عند ما كنا نهزها لإبعاد التراب عنها كنا نرى أعدادا من هذه الممرات المغطاة و كانت النباتات جافة تماما.

إن موقع هذه المدينة يعتبر استراتيجيا بالنسبة للتجارة فهى تبعد مسافة نصف يوم عن الجبال التى تنتج البن و مسافة يوم و نصف عن مرفأ حديدة و مسافة أربعة أيام عن المخا و أربعة أيام و نصف عن مخيّة و ستة أيام عن صنعاء. و فى بيت الفقيه تقوم أكبر تجارة للبن على صعيد اليمن كلها و ربما على صعيد العالم بأسره. تجتذب هذه التجارة إلى المدينة تجارا من الحجاز و مصر و سوريا و القسطنطينية و فارس و المغرب و الحبشة و الساحل الشرقى فى شبه الجزيرة العرب و بلاد فارس و بلاد الهند و حتى أوروبا. و من سكان هذه المدينة هناك و ثنيون من الهند و غالبية من الديو(Diu) . يتمتع هؤلاء بحرية ممارسة دينهم علنا لكن يمنع عليهم حرق موتاهم و إحضار نسائهم معهم إلى اليمن؛ و من هنا نجدهم يسرعون إلى العودة إلى بلادهم ما إن يجمعوا بعض المال. و فى أيامنا كان فى المدينة أكثر من ۱۲۰ من البانيان و الراسبوت منهم التجار الأثرياء و الحرفيون البارعون.

ليست مدينة الفقيه بالمدينة القديمة لأن عمرها بعض القرون مثل مخيّة. و يعود أصلها إلى شيخ شهير يعتبره العرب فى تهامة فقيها لذا فإن اسمها أى بيت الفقيه يعود إليه. يدعى هذا العربى أحمد بن موسى و لا يزال ضريحه قائما إلى اليوم داخل مسجد مبنى على تلة رملية خارج المدينة. و حتى اليوم يحتفل به الشعب مرة كل سنة فى شهر ربيع الأول. و فى السنوات الأولى كان المؤمنون يشيدون منازلهم حول ضريح فقيههم.

ثم مع تدهور الحركة فى مرفأ غلفقة، تدهور حال التجارة فيها كما فى زبيد و بدأت تزدهر فى مدن أخرى منها بيت الفقيه. و بعد أن كبرت هذه المدينة لدرجة أن سيّد الولاية قرر أن يشيّد فيها قلعة، اختار مكانا يسهل فيه جلب المياه لكن ذلك كلفه عناء كبيرا. فمن

دون ذلك لما كانت القلعة شديدة الأهمية. و لا شك

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۸

أن العرب بعد ذلك وجدوا أن صاحب الدولة و القلعة يوفران الأمن أكثر من فقيههم. و صاروا يشيدون بيوتهم قرب القلعة، لذلك لا نجد قرب مسجد أحمد بن موسى إلا بعض الأكواخ.

و إليكم بعض الكرامات التى تعزى إلى هذا الفقيه المسلم: كان أحد الباشاوات الأتراك محجوزا لأكثر من ۲۰ سنة فى إسبانيا و كان قد تضرع من دون جدوى لعدد كبير من الأولياء، إلى أن تذكر الفقيه أحمد فتضرع إليه. فما كان من الفقيه إلا أن أخرج يده من ضريحه و فى اللحظة نفسها وصل الباشا من إسبانيا إلى بيت الفقيه مكبلا بالسلاسل و مربوطا إلى حجرين. و يقال إن هذه المعجزة حصلت أثناء الليل بينما كان الناس يحتفلون بعيد الفقيه أحمد و فى حضور عدد كبير من الناس و لا تزال السلاسل و الحجران موجودة إلى جانب ضريح الولى.

و باعتبار أن هذه المدينة ليست عريقة الأصل، فلن أتوقف عند آثارها. فانا لم أجد فيها إلا الكتابة الكوفية القديمة التى أدرجتها فى اللوحة السادسة من كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية». و لقد نقلت الكتابة فى حضور عدد كبير من المشاهدين دون أن يتهمنى أحد بالتنقيب عن الكنوز أو بممارسة الشعوذة كما فعل المصريون، و كما يفعلون عادة بغية الحصول على المال. لقد كان المشاهدون شديدى التهذيب و خاصة الشيوخ و العلماء المسلمون منهم. و لقد شعر هؤلاء بالغبطة لرؤية أجانب يتكبدون عناء فك رموز كتاباتهم لتعلم اللغة العربية القديمة.

تقع بيت الفقيه فيما يشبه الوادى. و مع أنها ليست شديدة الخصوبة إلا أن الزرع لا ينقصها، كما يظهر فى اللوحة(LXII) التى حددت فيها القرى التى رأيتها على الطريق. و المناطق التى بدت مغطاة بالعشب الأخضر فى هذه اللوحة هى المناطق غير المزروعة و الموصلة المغطاة بالعشب الذى يفرش على سطوح المنازل فى تهامة. و تشير العلامة إلى الآبار المحفورة فى كافة الأرجاء. و هناك مصنع قرميد فى جنوب المدينة، و تقع القلعة فى الشمال (راجع الخريطة أ). كما و نرى فى اللوحة(LXI) منظرا عاما لبيت الفقيه.

بعد أن علم حاكم لحية أن السيد فروسكال بقى مرة وحيدا فى مور رأى أن سفرنا وحدنا يعرضنا للخطر. و سمح لنا بالذهاب حيث شئنا شرط إعلامه مسبقا لتزويدنا بأحد الجنود و لإرسال رسائل لمساعديه و لغيرهم من رؤساء القرى؛ و كنا نتخلى بسرور عن صحبة هؤلاء المرافقين إذا اشتبهنا فى أنهم ينقلون أخبارنا و أخبار أبحاثنا إلى الحكومة ثم إن سكان اليمن كانوا شديدى التمدّن لدرجة أننا لم نكن بحاجة لحماية أحد حتى القضاة. و لم يكترث بأمرنا صاحب الدولة فى بيت الفقيه فنعمنا بالحرية الكاملة فى هذه المدينة. و لقد تعرّفنا على فقهاء فقراء و على تجار و حظيت بمعلومات كثيرة حول الجغرافيا و غيرها من الأمور التى أدرجتها فى كتاب «وصف شبه جزيرة العرب».

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۶۹

رحلة من بيت الفقيه إلى غلفقة و الحديدة و الزبيد و التحيتا(Tahate) و القحمة(Kahhma) و هدية و إلى الجبال المنتجة للبنّ

كثيرا ما نسمع فى تهامة بالمدن التى يذكرها أبو الفدا و غيره من الكتّاب العرب و التى تهدمت كليا فلم تعد تمثل شيئا اليوم. و لأن قدامى الكتّاب العرب يهتمون كثيرا بموقع هذه المدن قررت أن أذهب بنفسى إلى أماكنها ليس لأحدد موقعها الجغرافى و حسب بل لأقوم بدراسات على الآثار المتبقية. و مع أنى لم أجد سوى بعض الكتابات القليلة الأهمية رأيت أنها تهم أولئك الذين يدرسون اللغات لمعرفة أى حرف عربى كان يستعمل فى تلك العصور فى بهذا الجزء من شبه جزيرة العرب.

و بعد أن اطمأنيت إلى أن السفر آمن إلى تلك المنطقة قررت الذهاب أولا إلى غلفقة و الحديدة. و لم أجهّز نفسى كثيرا لهذه الرحلة. ثم استأجرت حمارا لنقلى و خرجا وضعت فيه بعض الثياب و الكتب.

كانت ثياب سفرى تنحصر فى عمامة و معطف من دون أكمام و قميص واسع على الطريقة العربية بالإضافة إلى سراويل واسعة من نسيج الكتان و زوج من الأحذية. و مع أن السرقة شبه منعدمة فى تهامة إلا أنه لا بد للمرء أن يتسلّح. لذا زوّدت نفسى بسيف يتدلى من تحت ذراعى بالإضافة إلى زوج من المسدسات تحت حزامى. أما المكارى الذى كان فى الوقت نفسه دليلى و خادمى و الذى كان يتبعنى مشيا على القدمين فكان يحمل سكينا كبيرا و سيفا و ترسا. و جدير بالذكر أن فقراء العرب يحملون فى أسفارهم رمحا و فأسا صغيرة بدلا من السيف. كنت أستعمل سجادة عتيقة كغطاء و كطاولة و كرسى داخل البيت و كشراشف أثناء الليل. و كنت أحمل معى أريكة صغيرة أضعها على السرج أثناء النهار و تحت رأسى أثناء الليل. و كنت أتغطى ليلا بقماش كبير يضعه العرب عادة فوق كتفهم للاتقاء به من الشمس و المطر. كما و حملت معى جرة للماء علقتها على السرج. إن أى عربى كان معه فى سفره قدرته(Kiddre) و هى الغليون الموجود فى الصورة (س) من اللوحة ۱۵ فى صرّة فى الجلد إلا أنى لم أتكبّد عناء حملها معى لأنى لم أكن معتادا على التدخين و لقد عودت نفسى على العيش على الطريقة العربية فلم أحتج إلى الملاعق و الشوك و السكاكين. ثم إن ذوى الشأن من العرب يحرصون على تأمين سبل الراحة أثناء السفر إلا أن ذلك مكلف جدا و يعرضهم إلى بعض المخاطر بسبب غناهم.

فى ۷ آذار/ مارس تركت بيت الفقيه متجها إلى الغرب نحو باب غلفقة الذى كان ذائع الصيت فى السابق. و إليكم أسماء القرى التى رأيتها على يمين الطريق و يسارها: حاجى آجى(Hadsji Adsji) ، ثمانية، حضارة، مقوشية(Makauschia) ، و خضرية(Choddrie) . و من هذه القرية حتى غلفقة لم أشاهد أى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۷۰

قرية لكن على بعد ۳ أميال رأيت أربعة آبار محفورة مما يدل على وجود قرى قريبة منعتنى الجنيبات من رؤيتها. و لقد كانت المسافة من البئر الأخير و حتى غلفقة ميل و نصف. و كانت الطريق مغطاة بالرمال من هنا و هناك مما جعل دليلى يضلّ طريقه أحيانا لأن الهواء غيّر الكثبان المؤلفة من الرمل و كنا أحيانا نعود أدراجنا بسبب الكثبان الحديثة التكوين. و وفقا لهذا الحساب هناك مسافة ۵ أميال و ۳/ ۸ من بيت الفقيه إلى غلفقة و هناك مسافة مماثلة منها إلى زبيد.

كانت مدينة غلفقة شهيرة فى الماضى لأنها كانت مرفأ زبيد إلا أنه لم يعد ناشطا، ليس لأن مياه الخليج العربى تراجعت و لأن أرصفة المرجان تضخّمت و حسب بل أيضا بسبب التلال الرملية التى كوّنها الهواء فى هذا المكان منذ بضع سنوات. و تقتصر غلفقة اليوم على ۲۰ أو ۳۰ كوخا حقيرا مشتتا بين شجر النخيل، و يعتاش أهل هذه القرية من التمر و الخراف لأن صيدهم شديد التواضع. ثم إن ثروة هذا الشاطىء هى الملح و يسمح لأى كان بأن يأخذ منه قدر ما يشاء شرط أن يدفع للحاكم (و هو أمين سر صاحب دولة بيت الفقيه) ضريبة على كل حمولة جمل. إن الجدران المقلوبة التى تبقت من مقام السيد على المدفون فى مشيد هى التى تراها فقط فى هذه المدينة القديمة. و لا يزال سكان غلفقة إلى اليوم يوجهون صدقاتهم إلى السيد على. و فى أماكن عديدة على طريق الحديدة وجدت مياها غير صالحة للشرب كالتى وجدتها فى غلفقة.

و لقد رأيت فى مقبرة هذه المدينة حجرين عليهما كتابة كوفية و كان واحد منهما لا يزال واقفا بينما الآخر ممددا على ضريح ما. و عند ما كنت أنقل الكتابة عن الحجر الأول مرّ بى بعض سكان القرية البسطاء فاستغربوا ما أفعل، و فى اليوم الثانى عند ما جئت أنقل كتابة الحجر الثانى لم أجده و لا بد أن القرويين قد أخفوه ظنا منهم أنى سأستعمل الكتابة لألحق الضرر بأهل القرية أو لأجنى بعض المال. ثم توجهت إلى حكيم القرية و وعدته بمبلغ زهيد إن أمّن لى هذا الحجر. فقادنى فى طرق ضيقة إلى أن وصلنا إلى كوخ حقير مبنى على قبر شيخ يسمى صالح و أكد لى أن سكان البلد لم يخفوا الحجر بل هو هذا الشيخ الذى أخذه ليحميه. و بالرغم من ذلك نقلت الكتابات دون أن أخشى إغضاب الشيخ صالح و عرض علىّ الحكيم نقل الحجر إلى بيت الفقيه لقاء مبلغ من المال. و تجدون هذه الكتابات فى اللوحتين السابعة و الثامنة من كتاب «وصف شبه جزيرة العرب».

فی الیوم التالی غادرت غلفقة بصحبة المکاری و حسب و بعد أن سرنا غالبیة الوقت علی طول الشاطیء باتجاه الشمال و الشمال الغربی وصلنا إلی الحدیدة. فوجدنا علی جانبی الطریق أشجار النخیل لکن المنازل قلیلة العدد. و وفقا لحساباتی هناک میلان و ثلاثة أرباع المیل من غلفقة إلی الکوخ المسمّی قرام(Kure ?m) الذی یبعد نصف میل عن قریة شرام الشروم. و فی شمال القریة نجد بعض المنازل وسط النخیل لکن أصحابها لا یسکنون فیها إلا عند ما یثمر البلح. و هناک مسافة نصف میل بین شرام

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۲۷۱

و سماحی. ثم بعد ذلک سرت فی اللیل میلین ألمانیین خلال ساعتین و أربعین دقیقة إلی أن وصلت إلی الحدیدة. إذن إن المسافة الواقعة بین غلفقة و الحدیدة هی خمسة أمیال و ربع تقریبا.

إن مرفأ الحدیدة أفضل من مرفأ مخیّة إلا أن السفن الکبیرة لا ترسو فیه. و یخضع صاحب دولة الحدیدة إلی الإمام مباشرة إلا أن ولایته لا تمتد إلی خارج المدینة أما عائداته فیأخذها من الضرائب المفروضة علی البن المصدّر. و تتألف منازل صاحب الدولة و الجمرک و التجار الأساسیین من الحجارة أما المنازل الباقیة فهی تتماشی مع إمکانات العامة أی تکون مبنیة بطریقة سیئة جدا. و هناک قلعة صغیرة من جهة البحر. دفن فیها شفیع الحدیدة الشیخ صادق و تقع خارج المدینة. و یحتفل بذکراه فی ۱۵ شعبان.

التقیت السیدین دوهافن(De Haven) و کرامر(Cramer) و کانا قد قاما بجولة فی الحدیدة لتسلیم رسائل توصیة من أصدقائنا فی جدة و من صاحب الدولة إلی تاجر استقبلهما بحفاوة بالغة. و لأننی لم أرغب بإضاعة الوقت فی الزیارات الرسمیة، عدت إلی بیت الفقیه فی الیوم التالی أی فی ۹ آذار/ مارس.

فی هذه الفترة من السنة، لا یسافر الناس إلی تهامة إلا أثناء اللیل. و باعتبار أن هذا الأمر یمنعنی من رؤیة الأماکن و من رسم خارطة البلد، لذا فضلت التخلی عن برودة اللیل و السفر خلال النهار و فی حرارة الشمس. تمتد الطریق باتجاه الشرق و الجنوب الشرقی و قلیلا نحو الجنوب. و نجد علی طول الطریق عددا من الأکواخ یستریح المسافر لارتشاف القهوة فیها، لکن المنازل تغیب تقریبا و لقد قیل لی إن هذه الأکواخ أخذت أسماءها من القری التی کانت بقربها. و تبعد الحدیدة ۳/ ۴ المیل عن مشوریة(Muschuria) التی تبعد ربع میل عن أسویة(Iswie) و منها لأشیل(Uschile) مسافة ربع میل. أما المیاه فهی عذبة فی هذا المکان لذا یقصده سکان الحدیدة لهذه الغایة. و تبعد أشیل مسافة ۷ / ۸ المیل عن مخاجّ(Maschdadsje) التی تبعد ثلاثة أرباع المیل عن شبیر(Chabeiar) و منها ثلاثة أثمان المیل عن موسی(Mussie) و هی القریة الأولی التی رأیتها علی الطریق و تبعد ۳/ ۸ المیل عن وادی عباسی. ثم إن القریة التی أعطت اسمها لهذا الوادی تقع فی جنوب الطریق و فی الشمال هناک قریة تدعی لوع تقع علی بعد ربع میل من غاری(Garri) . و من غاری هناک ثمن المیل إلی قریة قاما(Qama) التی تبعد ۳/ ۴ المیل عن مشفور و منها نصف میل حتی الکوخ المسمّی شعبیّة(Sh bbie) . من هذه القریة اجتزت مسافة میل و ثمن المیل إلی أن وصلت إلی المدینة. إذا هناک مسافة سبعة أمیال و ثمن المیل من الحدیدة إلی بیت الفقیه اجتزتها کلها فی یوم واحد علی ظهر حمار استأجرته و برفقة دلیلی الذی کان یسیر علی قدمیه.

و لأنی لم ألق أی ازعاج من العرب أثناء رحلاتی، قررت القیام بالمزید منها فترکت بیت الفقیه فی ۱۱ آذار/ مارس متجها نحو زبید لأری ما تبقی من هذه المدینة التی کانت فی الماضی عاصمة تهامة و لأزور مدینة التحیتا(Tah te) الصغیرة القریبة منها بعد أن أکد لی سکان بیت الفقیه أنی سأجد فیها بعض الکتابات الکوفیة. و لقد رافقنی فی رحلتی هذه عربی فقیر لکنه یجید القراءة و الکتابة و اغتنم فرصة الذهاب معی لیزور أحد معارفه فی زبید. و لقد سعدت لذهابه معی.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۲۷۲

تمتد الطریق إلی الجنوب الغربی من بیت الفقیه. و تقع قریة جنة علی بعد ۳/ ۸ المیل من المدینة. ثم علی بعد نصف میل من المدینة نجد کوخ أثم(Ussum) حیث یمکن ارتشاف القهوة. و بعد أن سرت نصف میل تقریبا وصلت إلی وادی کوة و هو واد صغیر نجد

فيه الماء فى أيام المطر و يؤدى طريقه المتجهة نحو الجنوب الغربى إلى كوخ يدعى مفتّئة(Mef tea) يبعد عنه ثلثى الميل. و هناك مسافة ۳/ ۸ الميل إلى كوخ يدعى دمنة(Dimne) يقع على بعد نصف ميل من قرية المحلّة(Meh lle) باتجاه الجنوب الشرقى.

و لقد رأيت بئرين على هذه الطريق. و من المحلّة نجتاز مسافة نصف ميل لنصل إلى قرية أخرى هى قرية مهاد. و لقد رأيت على هذه الطريق ثلاثة آبار محفورة. إن هذه القرية تقع فى واد واسع و خصب يسميه سكان المنطقة وادى المهاد. يتلقى مياهه فى أيام المطر من جبل ريما(Re ?ma) قبل أن تتوزع فى عدة قنوات. و يكثر شجر النيلة فى هذه الوادى.

بعد أن اجتزت ربع ميل جنوبى غربى المهاد وصلت إلى كوخ يسمى جرّة و يمر بقربه ساعد من سواعد وادى ريما. و لقد وجدت فيه بعض الماء لكن المياه بدت راكدة و عند ما مررت به مرة أخرى فى ۲ آب/ أغسطس وجدت المياه لا- تزال هى هى. لكن من الممكن وجود نبع فى هذا المكان. و يقول الناس إنه على بعد ربع فرسخ جنوبا كانت هنالك مدينة كبيرة تدعى المهاد لكن لم يتبق منها أى منزل.

فإذا توجهنا من جرّة نحو الجنوب و اجتزنا نصف ميل نصل إلى كوخ جبل و من هذا الكوخ هناك مسافة نصف ميل وصولا إلى زبيد. إذا فالمسافة بين بيت الفقيه و زبيد هى خمسة أميال ألمانية و ۳/ ۸ الميل و قد اجتزناها خلال ست ساعات و خمسين دقيقة. و على بعد ربع ساعة من المدينة، أرانى دليلى كومة من الحجار قائلا إنها ما تبقى من قلعة كانت لا تزال موجودة منذ بضع سنوات و إنه فى العصور الماضية كان هناك مدينة كبيرة فى هذا المكان و كانت تسمّى البود(El Baud) .

تقع مدينة زبيد بالقرب من الوادى الأكبر حجما و الأكثر خصوبة فى تهامة كلها. و كان هذا الوادى جافا لكن موسم المطر يحمل إليه كميات هائلة من الماء تصب عليه من الجبال فيصبح نهرا كبيرا مثل النيل فى مصر يسقى القرى المجاورة و يخضّ بها. و فى الماضى كانت هذه المدينة مكان إقامة أمير مسلم و كانت من أهم المدن التجارية فى تهامة. لكن بعد أن أصبح مرفأ غلفقة غير صالح و بعد أن انتقلت التجارة إلى المخا و الحديدة و مخية و بيت الفقيه لم يتبق من زبيد إلا شهرة الماضى البائدة. لكن لا بد من القول إن زبيد تتمتع بأفضل مظهر خارجى من بين مدن تهامة كافة و يعود الفضل فى ذلك إلى رجال الدين الذين عرفوا كيف يجذبون الكثير من الثروات، علما أن السكان لا يحصلون اليوم إلا على خمس عائدات المدينة و البقاع المجاورة و يحصل الأمير على الخمس الثانى بينما يحتفظ رجال الدين بالأخماس الثلاثة الباقية. لذلك نجد فى المدينة الكثير من المساجد و القبب التى تبيّض قبيل حلول شهر رمضان. و هذه القبب هى بناء صغير يوضع على قبر المسلمين الأثرياء الذين يعتقد الشعب أنهم بمثابة أولياء. و يقال إن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۲۷۳

القبة المسماة جامع ابن عمر عبد الأحد حيث يؤدى صاحب الدولة الصلاة كل يوم جمعة قد شيّدها إمام كان يقيم فى جبلة(Dsjo ? bla) و إن قبة الأشعر(El Ash r) قد بناها أحد صحابة الرسول محمد.

و يقال إن مسجد باش القريب من باب شباريق و المسجد القريب من باب القرطاب و غيرها من المساجد هى من بناء الباشاوات الأتراك الذين كانوا يقيمون فى المدينة و أن مسجد الإسكندرية الذى يقع اليوم داخل القصر بالإضافة إلى مسجد كمالية المجاور له قد بنتهما نساء تركيات. و نرى فى هذه المدينة دور عبادة أخرى يقول أهلها إنها رائعة الجمال. و يمكننا مشاهدة آثار قناة ماء تمر فى الجبال و تصل إلى المدينة و لا شك أن أحد الباشاوات الأتراك هو الذى بناها. إلا أن هذه القناة لم تعد صالحة منذ عدة سنوات.

و حاليا يجلب السكان الماء من الآبار المحفورة علما أن مياه المدينة ليست سيئة. حيث نجد فى زبيد و فى جوارها بساتين غناء كثيرة.

يزعم أبو الفدا أنه كان لزبيد فى الماضى ثمانية أبواب إلا أننى لم أسمع إلا بخمسة أبواب؛ كان باب النحل يقع فى جنوب المدينة الغربى و قد اقتلعته المياه من أساسه منذ سنوات. و لا- يزال باب القرطاب قائما لكنه فى الأغلب سيلقى مصير الباب السابق. و باب شباريق يقع فى الشمال الشرقى و باب الشام فى الشمال. و لم يبق من هذا الباب الأخير إلا الجدران الجانبية. و لقد هدت أسوار المدينة بكاملها تقريبا لأن الفقراء من سكانها يقومون ببيع حجارتها. و لقد دققت فى أبواب المدينة و أسوارها و استغرق منى المرور

حولها ساعة و بضع دقائق. و بالكاد تحتل المدينة اليوم نصف المساحة التى تقع داخل السور لكن لا نزال نجد فيها عدة مساجد و قبب.

إن جلّ ما تتميز به زبيد هو المدرسة الإسلامية التى تحتاجها تهامة كما يحتاجها قسم كبير من بلاد اليمن. إن هذه المدرسة ذائعة الصيت منذ سنوات. و لا يزال شبان السنة يتعلمون فيها إلى اليوم العلوم الشائعة بين المسلمين. و بالإضافة إلى صاحب الدولة الذى يعيش فى هذه المدينة هناك أيضا مفت و قاض من المذهب الشافعى، و قاضيان آخران من المذهب الزيدى كما ينتمى إمام صنعاء إلى هذا المذهب نفسه و كذلك أتباعه فى المناطق الجبلية؛ كما ذكرت فى «وصف شبه الجزيرة العربية».

لم ألتق بين المسلمين كافة بعربى أكثر فخرا من ذلك الذى التقيت به فى نزل زبيد. و لقد كان يعتاش من التجول فى البلاد على حساب أثرياء الدين. و كان قد زار الحبشة و مصر و سوريا بهذه الطريقة. و كان شريفا من الشرفاء و يسبغ على نفسه صورة الأسياد العظام. ظننت فى بادىء الأمر أن حديثه سيعود علىّ بالفائدة لأنه قد زار الكثير من المدن لكنه لم يستطع إخبارى بخصائصها و جلّ ما استطعت أخذه من حديثه هو أن الشيوخ و أصحاب الدولة و الباشاوات و غيرهم كانوا يكرمونه خير إكرام عند ما يحلّ عليهم لأنه شريف سيد من الدرجة الأولى. و كان يؤكد لأصحابه أنه يتكلم التركية و الإيطالية و الفرنسية و اللغة الحبشية لكنى وجدت أنه لا يعرف من اللغات الثلاث الأولى إلا شتيمة أو بعض الكلمات التى يسمعها من الأوروبيين و الأتراك الذين يمرّون ببلاد اليمن. و بدلا من أن يقوم المسافر كما فى أوروبا باستئجار غرفة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۷۴

مفروشة فى النزل عليه أن يكتفى فى اليمن بأن يستأجر لكل شخص كرسيا أو سريرا يجلس عليه أثناء النهار و ينام عليه أثناء الليل. و لأن الشريف السابق الذى لم يكن معه ما يكفى من المال لاستئجار سريرين له و لابنه البالغ من العمر اثنا عشر عاما ادعى أنه يفضّل أن ينام ابنه بجواره فى السرير نفسه لأنه يخشى عليه أن ينام وحده. و كان يرسله أحيانا ليقول للخدم أن يقوموا بمهمة ما إلا أننا اكتشفنا أن الصبى المسكين كان يؤديها بنفسه لأن الشريف لم يكن عنده أى خادم. أما عن زوجته المسكينة فكان يناديها بلقب «شريفة» و قد حكى لى بالتفصيل عن أصلها و فصلها من بعد أن فضّل لى شجرة عائلته بالطبع و ذلك لإخبارى أن أحدا من أسلافه الذين يصلون إلى على بن أبى طالب لم يتزوّج امرأة من عامة الشعب كان يحتقر نسب شرفاء تركيا و أسياد اليمن لأنهم تزوجوا من نساء غريبات. و كنت قد سألت يوما تركيا إذا كان باستطاعة ابن أحد الشرفاء من أم أمة أن يحافظ على لقب الشرف فقال لى إن عراقة هذا الابن تفقد جزءا من قيمتها فتصبح تماما كقطعة الذهب المخبأة داخل خرقة من القماش البالى. إلا أن الشريف الذى كنت بصحبته أخبرنى أن هذا التشبيه ليس صحيحا. و قال لى إن ابن الإمام الذى كان أسلافه من الأسياد البيض هو شديد السواد لأن أمه أمة حبشية. و كان الشريف ينادى ابنه بالشريف أحمد لكن عند ما يخرج الولد عن طوعه يسمّيه كلب ابن كلب و عند ما سألته إذا ما كان يسمح للشرفاء بالتفوه بكلام كهذا قال لى إن ذلك لا يؤثر أبدا على العراقة.

كلنا يعرف أن اسم «أبو» لا- يعنى بالضرورة والد. يسمّى العرب رجلا- له شاربان أبو شوارب مثلا، و أبو حمار رجلا يملك حمارا. كذلك يسمّون المرأة التى تبيع الزبد أم الزبد. و على الطريق بين البصرة و زبير هناك مكان سقط فيه حمار مرة فأوقع حمولته من الحنطة فى الماء. و منذ ذلك الحين يسمى ذلك المكان أم الحنطة ... و قد أخبرنى المسلمون مرارا أنه لا يمكن تسمية المسيح بابن الله لأن الله لم يجعل مريم تلده بالطريقة التى نولد بها نحن. ظننت إذا أن كلمة ابن باللغة العربية لا تعنى إلا الولد من نسل أمّه و أبيه و لعله لهذا السبب لا يسمّى المسلمون المسيح ابن الله بل روح الله. إلا أن شتيمة ابن كلب لها عدة معان.

و بعد أن قمت بالأبحاث اللازمة فى زبيد، انطلقنا فى ۱۲ آذار/ مارس باتجاه التحيتا(Tah te) و وصلنا إليها بعد أن اجتزنا مسافة ميلين و ربع إلى الشمال الغربى. سرنا كل الوقت فى وادى زبيد. و هذا الوادى جاف عادة كما فى جوار مدينة زبيد، لكن فى الأماكن حيث لم يحضر الشلال معه الحجارة تتوضع الأتربة الخصبة فنرى أجمل الحقول . و يشتهر هذا الوادى بشجر النيل الذى يكثر فى

وديان تهامة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۷۵

و قرب قرية التحيتا هناك أكثر من ۶۰۰ مكان مختص فى صناعة اللون الأزرق.

إننا لا نزال نجد فى هذه القرية عددا من المساجد و البيوت الحجرية المبنية على قبور الأثرياء من السكان و الأولياء منذ كانت التحيتا لا تزال مدينة. و ابن حسن هو اسم أحد هؤلاء الأولياء و مع أن مسجده ليس الأكثر جمالا إلا أن الناس لا يزالون يشعلون القناديل كل ليلة أمام ضريحه كما و يملك أحد أهل بيته نزلا مجانيا فى القرية. لكنى دخلت إلى نزل آخر غير مجانى و ما إن علم صاحبه أنى غريب حتى جاء بنفسه ليطلب منى التوجه إلى النزل الآخر. لكن لأنى لم أشأ تغيير مسكنى لتلك الليلة، أرسل إلى عشاء شهيا بدلا من الطعام العادى الذى يتناوله العرب. و لقد قيل لى فى منير إن أصحاب النزل لا يأخذون المال لكن هديتى المالية قبلت بعرفان الجميل نفسه الذى قبلت به العشاء.

و كما فى زبيد، لم أجد فى التحيتا أى أثر قديم جدير بأن أنقله. و قد قال لى العرب إن هناك كتابات كوفية داخل المساجد لكنى لم أتجرأ على الدخول إليها خوفا من إثارة نعرات عند السكان.

فى ۱۳ آذار/ مارس عدنا من التحيتا إلى بيت الفقيه. سرنا مسافة ميلين إلى الشمال الغربى قبل أن نصل إلى مرّة(Murra) . و على طول هذه المسافة لم أر أى منزل و جل ما وجدته كان بئرا محفورا، و مرّة هى قرية كبيرة تقع فى وادى المهاد تحتوى عددا من القبب و على نزل كبير يقدم فيه الطعام يوميا إلى ۳۰ أو ۴۰ شخصا. من هذا النزل إلى الكوخ المسمى الدمنة(Dimne) و الواقع على الحدود بين بيت الفقيه و زبيد هناك ۵/ ۴ الميل. و لقد وصفت آنفا الطريق من الدمنة إلى بيت الفقيه لكنى لم أجد شيئا يستحق النقل.

و باعتبار أنى أعرف أن السفر فى اليمن أكثر أمانا منه فى البلدان الأوروبية كلها، فما أن عدت من سفرتى الثانية حتى بدأت أخطط للثالثة. لكن بما أن شهر الصوم رمضان كان على و شك الحلول فى ۱۶ آذار/ مارس خشيت أن يصبح مسلمو تهامة شديدى التقوى فى هذا الشهر مثل مسلمى مصر. فقد كان مسلمو مصر الذين رافقوا السيد فورسكال من القاهرة إلى الإسكندرية شديدى التقيد بأصول الصيام كما لو كانوا فى بيوتهم؛ فما كانوا يأكلون أو يشربون شيئا طوال النهار و كانوا يستاؤون عند ما يأكل السيد فورسكال أو عند ما تكون الرحلة شاقة. إلا أن مسلمى اليمن لم يكونوا شديدى التقيد بأصول دينهم إذ يصومون شهر رمضان عند ما يكونون فى بيوتهم و يأكلون و يشربون كالعادة إذا كانوا على سفر و يبررون ذلك بقولهم إنهم سيعيدون صوم هذه الأيام فى أيام أخر، إلا أنهم غالبا لا يفون بوعدهم. و بعد أن تأكدت أن عرب اليمن يأكلون و يشربون فى أثناء السفر فى شهر رمضان، استأجرت حمارا و انطلقت نحو (القحمة) فى ۱۹ آذار/ مارس بصحبة المكارى. إذ كنت قد علمت بوجود بقايا مدينة قديمة تدعى ليلو(Le ?lue) . و لأنى لم أشأ أن أبوح للعرب بأنى أجول فى بلادهم بهدف رسم خريطتها، تذرّعت بأنى أبحث عن الكتابات فى ليلو لمعرفة الحروف التى كان يستعملها العرب فى الكتابة بالعصور الغابرة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۷۶

إننا نجد على هذه الطريق و على بعد نصف ميل من بيت الفقيه مكانا يدعى الأقصى لم يبق منه سوى مسجد لا يزال بصورة حسنة. يحتوى المسجد قبر ولى مسلم يدعى شيخ الأقصى و هو ابن أحمد الموسى الشهير ولى مدينة بيت الفقيه و شفيعها. و من الأقصى نصل إلى كوخ يسمى ركتان(Rachte ?n) يقع على بعد ۳/ ۸ الميل و منه إلى القحمة مسافة ميل واحد. إذا تقع هذه القرية على بعد ميل و ۳/ ۴ الميل عن بيت الفقيه و عند الشمال الشرقى من المدينة. و لسلك هذه الطريق ينبغى أن نمرّ بوادى الحنش و هو شأنه شأن باقى الوديان فى تهامة؛ تغمره المياه أثناء مواسم المطر فيلتقى بوادى الريما و يصب فى الخليج العربى بين شرام(Schure ?m) و سماحى بعد أن يأخذ اسم وادى عباسى.

و بعد وصولی إلی القحمة مباشرة جمعت معلومات حول آثار مدینة لیلو لکنی لم أجد إلا مقبرة تملؤها حجارة مخمسة الزوایا یبلغ إطارها ثمانی بوصات تقریبا و طولها من أربعة إلی خمسة أقدام.

و لشدة ما کانت هذه الحجارة شدیدة الدقة فی القیاس ظننت بادیء ذی بدء أنها من صنع أحد النحاتین؛ إلا أنی سرعان ما اکتشفت بالقرب من المقبرة تلة تدعی جبل قحم تتألف من حجارة مماثلة قام السکان بنقل بعض منها إلی المقبرة. و لقد کانت طبقات الحجارة فی هذه التلة مصفوفة عمودیا الواحدة قرب الأخری و الواحدة فوق الأخری و کأن بنّاء وضعها. ثم فی ۲۱ آذار/ مارس و فی ۱ آب/ أغسطس رأیت أعمالا ـ مماثلة من أعمال الطبیعة فی أماکن أخری و بعد عودتی إلی کوبنهاغن قرأت فی مخطوطة السید کونیغ و هو عالم دانمارکی أنه رأی فی إیسلندا أحجارا مماثلة مخمّسة الزوایا یبلغ ارتفاعها من ثلاثة أذرع إلی ثلاثة أذرع و نصف و قطرها نصف ذراع. کانت هذه الأحجار مستقیمة و مصفوفة طبقات طبقات الواحدة فوق الأخری. و من القحمة عدت إلی بیت الفقیه و أنا أخطط إلی رحلة رابعة.

کان السید فروسکال متفرغا للقیام بأبحاث حول النبات فی الجبال؛ تماما مثلما کنت أنا متفرغا للقیام بأبحاث جغرافیة فی تهامة. و لشدة ما کان بحثه الذی تناول المناطق المنتجة للبن ناجحا؛ رافقه السیدان کرایمر و بورنفاند فی المرة التالیة. أما أنا، فبعد أن تفحّصت محیط بیت الفقیه من جهة الجنوب و الشمال و الغرب ذهبت فی ۲۱ آذار/ مارس إلی الجبال و فی نیتی الانضمام إلی أصدقاء رحلتی بغیة تنشق الهواء البارد النقی و شرب المیاه العذبة سرت ۵/ ۸ المیل نحو الشمال الغربی لبیت الفقیه و وصلت إلی الجلّ(Dsjelle) و العمریة(Amerie) بعد أن تجاوزت ۵/ ۸ المیل إلی الجنوب الشرقی. و لقد کان هنالک قریة بین هاتین السابقتین إلا أننی لم أجد أی أثر لها. و بعد أن سرت ۳/ ۴ المیل نحو الجنوب الشرقی وصلت إلی «صعید». حیث هناک مسجد کبیر فی هذه القریة له قبة جمیلة. و تقع سراب(Sor b) علی مسافة ۳/ ۴ المیل، و علی بعد ۱/ ۸ المیل منها تقع قریة قفل(Kufl) و علی بعد ۵/ ۸ المیل عن قفل تقع قریة سنّف(Sennef) القریبة من الجبال. و من هذا المکان نری مدینة هادیة(Hadie) الصغیرة لکن کان علیّ السیر لمدة ۴/ ۷ الساعة قبل الوصول إلیها. إن الطرقات فی هذا المکان و عرة لکن یمکننا أن نری هنا و هناک بقایا طرق یقال إن الأتراک قد شقوها.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۲۷۷

کان رفاق سفری فی الجبال حیث ینمو شجر البن. فتبعتهم فی الیوم ذاته سالکا طریق القزمة(Kusma) و وصلت إلیهم بعد ساعتین بالقرب من قریة بو القوف(Bulgo ?fe) التی تعیش من البن. إنه لا یمکن الوصول إلی هذا الجبل إلا مشیا علی القدمین و مع أن الطریق شدید الوعورة إلا أننی أحببته، کیف لا و أنا الذی قضیت رحلتی بین حقول تهامة القاحلة، و الآن وجدت نفسی محاطا هنا بالبساتین و أشجار البن من کل مکان.

لم أر بالقرب من القحمة إلا تلة واحدة مغطاة بالصخور المخمسة الزوایا لکن کانت الجبال بغالبیتها هنا علی هذا الشکل. إن منظر هذه الصخور جمیل جدا خاصة فی الأماکن التی تسیل منها المیاه من رأس الصخور علی شکل شلالات مسنودة إلی أعمدة مستقیمة. و من السهل انتزاع هذه الأحجار عن الصخور و یمکن استعمالها کدرجات علی الطریق أو کجدران لتثبیت بساتین البن عند منحدرات الجبال.

إن شجرة البن معروفة فی أوروبا. و لقد رأیتها مزهرة هنا قرب بو القوف تنبعث منها رائحة زکیة. تقع البساتین الواحد فوق الآخر و بعضها لا یتلقی الماء إلا من الأمطار بینما هناک برک فی البساتین العلیا تجر منها المیاه العذبة إلی کافة البساتین الأخری. و لشدة ما تکون الأشجار مرصوصة الواحدة قرب الأخری یصعب علی أشعة الشمس اختراقها. قیل لی إن الأشجار التی تسقی من غیر میاه الأمطار لا تثمر إلا مرتین فی السنة و إن ثمارها لا تنضج إلا مرة واحدة و إن الثمار التی لا تنضج تکون أقل جودة من الناضجة.

و بما أن الحجارة لا تنقص هنا، فإن المنازل کلها مصنوعة منها. و مع أنها سیئة البناء بالمقارنة مع منازل أوروبا إلا أن منظرها جمیل من بعید و خاصة تلک التی تقع علی أعلی القمم و الجبال و التی تحیط بها الحدائق و البساتین المزروعة شجرا و التی تکون علی

شكل جلول. و لقد كنا فى منطقة أعلى من تهامة لكن فى منتصف الطريق المؤدية إلى القزمة يقع منزل صاحب دولة هذا الأقليم على رأس أعلى جبل. إن المنظر جميل من كل النواحى. و فى مكان آخر حيث منزل مشيد خلف صخرة منحرفة، رأينا منظرا رائعا رسمه السيد بورنفايند (راجع اللوحة(LXIII .

قضينا الليل فى بو القوف حيث جاء عدد كبير من عرب القرية لزيارتنا. و بعد رحيلهم، جاءت مضيفتنا مصحوبة ببعض النساء و الفتيات الراغبات برؤية أوروبيين. لم يظهر أى ارتباك عليهن لأنهن بعكس مسلمات المدينة لم يكن يرتدين نقابا على وجههن و كن يتكلمن معنا بحرية تامة. رسم السيد بورنفايند لباس قروية كانت متجهة لجلب الماء، يمكن رؤيته فى اللوحة(LXIV) . كان قميصها و سروالها من نسيج الكتان المقلم بالأبيض و الأزرق. و كان القميص مزينا بعدة ألوان مطرزة بالإبرة حول العنق و أمام الركبتين و السروال من الأسفل حول الرجلين. و بما أن مناخ الجبال أقل حرارة من تهامة، وجدت بشرة الناس فيه أكثر بياضا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۰

نزلنا من الجبال فى ۲۲ آذار/ مارس و اتجهنا نحو هاديّة. حيث غالبا ما يأتى التجار الأوروبيون من بيت الفقيه إلى هذا المكان لقضاء بضعة أيام لأن المناخ غير حار و الطبيعة جميلة و الماء أكثر عذوبة من ماء تهامة. و من المستحسن لو تسمى هادية بالقرية الكبيرة بدلا من المدينة الصغيرة. فبيوتها فقيرة و ينحصر نشاطها بتجارة البن. و فى أيام معينة من الأسبوع، يحضر سكان الجبال كميات من البن إليها فيعطون بعضا منها إلى صاحب دولة القزمة على أنها خراج ثم يحملون الباقى على ظهر الجمال إلى بيت الفقيه أو مباشرة إلى حديدة.

إن منظر المنطقة من بيت مساعد صاحب دولة هادية لرائع خلاب. فأمام البيت نرى واديا عميقا فيه جلول مزروعة قمحا و بقولا و وراءه هناك جبال منحدرة و لشدة ما كان المنظر جميلا رسمته فى اللوحة(LXV) .

عدنا من هادية إلى بيت الفقيه من الطريق عينه الذى حثنا منه و الذى وصفته سابقا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۱

سير الرحلة من بيت الفقيه إلى عدن، و جبلة و تعز و حاس

لم نواجه فى بيت الفقيه عراقيل تعيق أبحاثنا لأن السكان لم يعيرونا اهتماما بالغا، خاصة و أنهم اعتادوا على مشاهدة تجار القهوة الأوروبيين باستمرار؛ و إن حاولوا الاستعلام عن جولاتنا قلنا لهم إنها مفيدة للصحة. تعجّب العرب الذين كنا نستشيرهم دوما حول هذا المكان أو ذاك، من استعدادنا الدائم للتنقل من مكان إلى آخر، رغم شدة الحر؛ فهم يفضلون ملازمة منازلهم، خلال فصل الصيد و عدم مغادرتها إلا عند الضرورة القصوى. و لما كنا ننوى السفر إلى فرانكبار فى بلاد الهند نصحونا بتفادى الجولات الخاصة حفاظا منهم على صحتنا و كانوا يسألون عن السبب الذى حثنا على قطع هذه المسافات كلها، رغم أننا لا نرغب بممارسة الأعمال دون الحصول على شىء فى المقابل. خطر لهم أننا نحسن صناعة الذهب؛ و لهذا السبب كان عالم النبات يجوب الجبال بحثا عن نبتة ضرورية لهذه الصناعة، حسب ظنهم. و خطر لهم أيضا أننى أمارس السحر، خاصة و أننى أرصد النجوم.

لم تخطر هذه الأفكار إلا لأصدقائنا من العرب. فصاحب الدولة لم يرسل أحدا ليستعلم عن موضوع رحلاتنا؛ فاستغليت هذا الظرف للقيام ببعض الرحلات الجغرافية. و كنت أعرف جيدا مناطق تهامة، و خاصة القسم الشرقى من مملكة اليمن؛ و كنت أنوى التعرف على المناطق الباقية خلال رحلتى إلى المخا؛ لأننا اقترحنا الانتقال من المخا إلى تعز و صنعاء، و العودة بعدها إلى بيت الفقيه. كنت آمل إذن أن أشاهد خلال هذه الرحلة القسم الجنوبى و الشرقى و الداخلى من المنطقة الجبلية فى هذه البلاد. و فى سبيل رسم خارطة لليمن خطر لى أن أتعرف على طرقات بيت الفقيه الواقعة فى وسط تهامة، و على مدن أخرى واقعة فى وسط المنطقة الوعرة. أما بالنسبة لطرقات عدن، و جبلة و تعز فهى واقعة شمالا.

يستطيع المرء التنقل فى تهامة ليلا و نهارا دون التعرض لأى سوء؛ و لكن لا أحد يحب السفر ليلا فى المناطق الجبلية، كما و أن التنقل وحيدا على الطرقات المنعزلة محفوف بالمخاطر. خاصة و أننى لا أجيد اللهجة التى يستعملها عرب الجبال. فطلبت من صديقى فورسكال مرافقتى فى هذه الرحلة، حتى يترجم لى اللغة السائدة فى البلاد؛ فبعد إقامته فى الجبال حيث ينمو البن تعلم عددا كبيرا من الكلمات التى لا تستعمل أبدا فى تهامة و بالتالى غريبة عنى كليا. فلم يتردد بالقيام بهذه الرحلة التى ستأتى عليه بالفائدة أيضا؛ فاستأجرنا حمارين من عربى رافقنا سيرا على الأقدام، و قام مقام مرشد سياحى لنا، و خادم و ترجمان. و كنا قد أرخينا لحيتنا مثلما يفعل العرب، و ارتدينا ثيابا طويلة أضفت علينا طابعا شرقيا، غير

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۳

أننا استعملنا اسمين عربيين حتى لا يتعرف علينا الأوروبيون؛ و بعد أن اتخذنا هذه التدابير كلها، شكّ سائق الحمير فى أمرنا، و حسبنا من مسيحيى الشرق.

فى ۲۶ آذار/ مارس انطلقت برفقة السيد فورسكال و السائق من بيت الفقيه؛ و بعد أن قطعنا نصف ميل جنوبا، بلغنا قرية محل القوس؛ فاتجهنا من هناك جنوبا أو جنوبا- شرقا، لنصل إلى كوخ دياب، حيث ارتشفنا القهوة. و بعد أن سرنا حوالى الميل و نصف الميل، بلغنا قرية عربين الواقعة فى وادى المهاد.

و سلكنا لاحقا الطريق الجنوبى- الغربى، لنصل إلى منجد، و منها إلى قرية بساد، على بعد نصف ميل، و إلى قرية أرجود على بعد ربع ميل. و تبعد هذه القرية نصف ميل عن محلة الشيخ المجاورة لربوع؛ و هى قرية كبيرة يقام فيها أسبوعيا سوق كبير، يجتمع فيه التجار و الحرفيون و العاطلون عن العمل من القرى المجاورة بهدف جنى المال أو اللهو (راجعوا كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية» و من يقطن فى قرية ربوع شيخ يخضع لصاحب الدولة فى زبيد؛ و يبدو بالتالى أن ربوع تبعد خمسة أميال و نصف الميل عن بيت الفقيه.

و فى ۲۷ آذار/ مارس، غادرنا (ربوع) عند شروق الشمس؛ و بعد أن قطعنا نصف ميل جنوبا وصلنا إلى عقبى، و منها إلى سلامة، الواقعة عند سفح الجبل الذى يبعد نصف ميل عن مشعل، شاهدت قرب هذه القرية للمرة الأولى مياها جارية فى اليمن؛ هى نهر وادى زبيد قبل أن يدخل إلى تهامة. و اللافت للنظر أن مجرى هذا النهر عريض جدا فى هذه البقعة؛ و لكن الأمطار لم تهطل منذ فترة طويلة، و لذلك لم يكن عرضه يتعدى ۲۰ أو ۲۴ قدما. و بعد أن يدخل النهر أراضى تهامة القاحلة، تصب مياهه فى الأرياف المجاورة، و تضيع بكاملها. ثم عبرنا قرب المياه جنوبى الجبل و اهتدينا إلى النهر قرب متعة و هى القرية الأخيرة التى نشاهدها فى هذه الجهة من زبيد.

و يمكننا تحديد موقع المدن إن جبنا المناطق السهلية فى هذه البلاد: و لكننا نخفق فى ذلك بالمناطق الجبلية، نظرا لتعرجات الطرقات و وعورتها. و لتدارك هذه العقبة، غالبا ما نستعمل البوصلة، لتحديد المسافات بدقة متناهية. و استنادا لحساباتى، تقع متعة فى الجهة الجنوبية- الشرقية، على بعد نصف ميل من مشعل. و بعد أن قطعنا ميلا و نصف الميل، وصلنا إلى جبل سلام. و لقد قال لى عربى فى الحديدة إننا نجد فى هذا المكان صورا منقوشة على الصخور و على الجبل لكافة أنواع الحيوانات. و بناء على هذه المعلومة كنت آمل اكتشاف نقوش قديمة، و هيروغليفية فى هذه البقعة؛ و لكن آمالى ذهبت هباء. فقد حفر عربى عاطل عن العمل على هذه الصخور صورا كئيبة، كتلك التى تحدثت عنها سابقا.

و على بعد نصف ميل من جبل سلام، توقفنا فى كوخ سلام لارتشاف القهوة؛ و هو يبعد ربع ميل عن قرية سلام، حيث يقام أسبوعيا سوق شعبى. و كنا نسير تارة فى وادى زبيد، و طورا بمحاذاة هذا الوادى الشاسع؛ و بعد مضى ساعتين تقريبا، بلغنا ضفاف النهر الجنوبية؛ و شاهدنا من بعيد قريتين صغيرتين، لم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۴

يفصح لى أحد عن اسمهما و رقدنا تلك الليلة فى مشعا(Mascha) ، الواقعة جنوبى- شرقى سلام.

لا يسلك الرحالة هذه الطريق إلا لماما؛ فهى وعرة و خالية تقريبا من السكان و محفوفة بالمخاطر؛ لكن منذ بضع سنوات عين سيد عدن فى مشعا نائبا لصاحب الدولة يعاونه على حفظ الأمن عدد من الجنود؛ و لقد قيل لنا إن هذا النائب يعوض على الأشخاص الذين يتعرضون للسرقة فى مناطق نفوذه و أن لا شىء يدعو للخوف. و فرض علينا نائب صاحب الدولة دفع ربع ريال للمرور فى المنطقة. فوجدت أن هذه الضريبة و غيرها من الضرائب التى تفرضها الحكومة العربية على الرحالة زهيدة للغاية مقارنة بتلك التى تفرض فى أوروبا.

و يقام فى مشعا، سوق شعبى مرة فى الأسبوع؛ و هى تمتاز بأكواخها الرديئة المصنوعة من الأنسجة المصلبة، و المغطاة بالقصب و بعد عناء طويل، وجدنا كوخا صغيرا لنبيت فيه؛ غير أننا لا نستطيع الوقوف وسطه بارتياح كما و أن أرضه ضيقة للغاية، و لا تتسع لاثنين منا؛ و كان يكفى أن يوضع فى داخله سرير واحد من تلك التى تكثر فى منازل تهامة؛ غير أن هذه الأسرة لا تستعمل إطلاقا فى مناطق اليمن الجبلية؛ و يفضل الجميع الجلوس أرضا شأنهم فى ذلك شأن سكان مصر و تركيا. أما عامة الشعب فى مناطق اليمن الجبلية، حيث درجات الحرارة منخفضة فيستعملون أسرة مختلفة عن تلك المستعملة فى تهامة. يندس العربى الجبلى عاريا فى كيس كبير، دون أن يقفله فوق رأسه؛ فتحول حرارة لهاثه دون إحساسه بالبرد، و يوضع الكيس مقلوبا فى النهار على سطح المنزل حتى لا تتكاثر الحشرات الطفيلية ليلا. و لم أحاول أبدا أن أنام فى الكيس، و لكننى اعتدت على تغطية وجهى خلال الليل، خاصة فى الهواء الطلق، تفاديا للندى المضر بالصحة، و الرياح المؤذية (وصف شبه الجزيرة العربية) و لم نجد فى القرى الواقعة على طريقنا إلا بعض الخبز السيىء المصنوع من الذرة و كميات قليلة من حليب النوق؛ لكنى وجدت المياه لذيذة للغاية فى الجبال الواقعة خارج تهامة.

و فى ۲۸ من شهر آذار/ مارس، غادرنا مشعا؛ و سلكنا طرقات متعرجات و وعرة حتى بلغنا مصيل(Masil) بعد أن قطعنا ميلا تقريبا. ثم عبرنا بين هاتين القريتين سهلا فسيحا تكثر فيه الأشواك و الأعشاب؛ و لا حظنا أن الأراضى أكثر خصبا و المنازل أكثر جمالا؛ فهى مبنية من الحجارة المتراصة و التى يعلوها سقف ترابى. و يقع وادى زبيد على الجهة الشمالية للطريق على مسافة بعيدة جدا عنه.

و يقام سوق شعبى فى مصيل؛ غير أننا لم نكن نحمل جوازات سفر أو رسائل توصية، و نفضل التنقل متخفين و تجنب الأماكن المكتظة بالناس؛ لهذا السبب تابعنا طريقنا دون أن نتوقف للهو قليلا. و يقع على الطرف الآخر للبلدة جبل نخيل الشاهق الذى يتطلب تسلقه حوالى ۴۵ دقيقة؛ شاهدنا على سفح هذا الجبل رمالا لماعة أو حجارة الميكا؛ و هذا ما حثّ عرب العامة على الاستنتاج بأن هذا الجبل يحوى عروق ذهب. و عند الظهر وصلنا إلى كوخ حيران حيث شربنا القهوة بعد أن مررنا أمام قبة تعلو ضريح أحد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۵

الأولياء، و بئر يستعمل الناس مياهه لإرواء الماشية التى تمر فى هذا المكان و أظن أن حيران تقع على بعد ربع ميل جنوبى- شرقى مصيل.

ثم مررنا فى وقت لا حق بقرية سهل، الواقعة على قمة الجبل، و أمام قبر الشيخ تارى الواقع على قمة جبل آخر. زعم السيد فورسكال أن جبال هذه المنطقة غنية بعروق الحديد. و لقد توقفنا ليلا قرب كوخ الوشفاد، بعد أن أنهك التعب الحمير، حتى يتمكن السيد فورسكال من جمع الأعشاب قرب جدول صغير. و لم نصادف فى تلك المنطقة إلا صبى القهوة. و كانت المنازل متداعية و خالية تماما حتى لتحسبّ المكان مهجورا حقا. أما الطريق الممتد من حيران إلى الوشفاد فيمتاز بتعرجاته الكثيرة. و تبلغ المسافة بينهما حوالى الربع ميل. و يمكننا بالتالى القول إن مشعا تبعد ثلاثة أميال عن الوشفاد.

لما كان سكان المنطقة يتوقعون هطول الأمطار فى أوقات متقاربة، بنوا قرب الجبال سدودا من الحجارة و الأشواك حتى تصب المياه المتدفقة من أعالى الجبال فى الحقول المجاورة؛ فهذه الحقول متدرجة و لها من الجهة السفلى سور ترابى، يحول دون تسرب المياه. يجدر بالبلدان الأخرى أن تقلد هذه الطريقة فى رى الحقول. غير أننى لا أحبذ أبدا طريقتهم فى قطع الخشب؛ فهم يشعلون النار عند أسفل الجذع، حتى يشتعل جيدا و تقع الشجرة كلها.

و فی ۲۹ آذار/ مارس، غادرنا عند الساعة الثانية ظهرا الوشفاد، فعبرنا الجدول الصغير الذی أشرت إليه سابقا، و بعض الهضاب الصغيرة حتی بلغنا جدولا آخر ينبع من شرقی أعالی الجبال، و يصب فی وادی زبيد بعد أن ينضم إلی سواقی المنطقة فشاهدنا أولی بساتين البن، علی الطريق التی قطعناها من بيت الفقيه؛ و لو اعتبرنا الطريق مستقيمة، وقع هذا المكان علی بعد نصف ميل من الوشفاد. و لقد صادفنا فی طريقنا ثلاثة جبال شاهقة، و شاهدنا علی الأخير جامعا متداعيا توقفنا قربه لارتشاف القهوة. و بعد مرور نصف ساعة عدنا إلی وادی زبيد، الذی لم نشاهده منذ مغادرتنا مشعا. و تكثر فی هذه المنطقة بساتين البن. ثم عبرنا لاحقا ساعد الوادی الآخر الذی كان جافا، و مليئا بقضبان القصب، التی يبلغ طول كل واحد منها ۲۰ قدما، منصوبة علی جانبی الطريق أو علی ضفاف الجدول الجاف. و الجدير ذكره أن عدن تقع علی مقربة من هنا استنادا إلی حساباتی و تبعد الوشفاد ميلين عن الجامع أو ما يعادل أربع ساعات و نصف.

إن مدينة عدن مفتوحة و صغيرة؛ لا يزيد عدد منازلها علی ۳۰۰ و هی مبنية من الحجارة و الملاط يمر أمام البلدة من الجهة الشمالية جدول يصب فی وادی زبيد. و الجدير ذكره أن الطريق الممتدة من تهامة إلی عدن شبه خالية من السكان؛ بينما يحتشد الناس فی أماكن أخری من هذا الأقليم. و يؤمن البن مردودا كبيرا علما أن بن عدن هو الأفضل فی اليمن و فی العالم أجمع و لا أظن أن الإمام يعين صاحبا للدولة فی هذا المكان، تستلم عائلة الشيخ التی تقيم فی قصر خارج البلدة زمام السلطة؛ غير أن الشيخ العالم يخضع لسيادة الإمام.

رحلة إلی شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۶

ثم غادرنا عدن صباح ۳۰ آذار/ مارس، و بعد أن قطعنا ربع ميل، بلغنا وادی زبيد الغنی بالقصب.

و بعد أن اجتزنا ربع ميل آخر، بلغنا بلدة شيخ شهاری، حيث صادفنا كوخ حطبة علی جبل مسعد فتوقفنا فيه لارتشاف القهوة. و كانت عدن واقعة علی الجهة الغربية. قطعنا من الكوخ المذكور نصف ميل لنبلغ وادی زبيد. و بعد أن سرنا صعودا حوالی النصف ميل بلغنا بلدة عصل(Osle) ؛ و شاهدنا فی جوارها حقولا مزروعة بقصب السكر و رغم أن عصل مرتفعة عن سطح المياه إلا أننا سرنا ۹ أرباع الساعة للوصول إلی قمة الجبل.

و لقد كانت طريق هذا الجبل الوعر مبلطة جزئيا. و لكن لم يحاول أحد ترميمها منذ عدة سنوات.

و لا حظت أن سكان اليمن يتخذون إجراءات كثيرة لتأمين الراحة للرحالة؛ فقد وجدنا علی هذا الجبل ثلاثة خزانات صغيرة مليئة بالمياه العذبة مخصصة لاستعمال المارة. يبلغ عرض هذه الخزانات قدمين و نصف و طولها خمس أو سبع أقدام و هی مستديرة أو محددة الرأس من الأعلی و لها فتحة واحدة تسكب منها المياه. و نجد أحيانا قرب هذه الخزانات يقطينة مقعرة، أو مجرفة خشبية؛ و لكن يستحسن أن يجلب المسافر معه كأسه أو إبريقا للرحلات الطويلة و لما كانت الأمطار تهطل بغزارة فی هذه المنطقة الجبلية خلال وقت محدد من السنة بنی علی هذا الجبل منزلان أو قبتان يحتمی فيهما المسافر من وابل الأمطار. تقع بلدة رعكة(R ka) علی ارتفاع ۳/۲ من الجبل بينما نجد بلدة مشوار علی الجهة الشمالية من الطريق. و إن وقفنا علی قمة الجبل شاهدنا مدينة عدة علی الجهة الغربية وعب علی الجهة الشرقية.

و تقع مدينة جبلة خلف جبل شاهق علی بعد ميل تقريبا؛ مما يعنی أن عدن تبعد ثلاثة أميال عن جبلة.

لقد حملنا معنا محر ريومور الذی كنا نعود إليه فی كافة الظروف، بينما كان السيد بورانفايند يقيس الارتفاع فی بيت الفقيه مستندا إلی محر فهرنهايت. أما محر ريومور فسجل ذلك النهار عند الواحدة ظهرا، ۱۷ درجة و نصف، بينما سجل محر فهرنهايت ۷۱ درجة؛ و فی الوقت عينه، سجل محری فی بيت الفقيه ۵۶ درجة؛ و هذا يعنی أن الطقس كان ألطف حيث كنا منه فی تهامة. و تعتبر الملابس نوعا آخر من العناصر التی تشير إلی الفرق فی الحرارة. فبينما ينتقل سكان تهامة شبه عراة يرتدی عامة الشعب فی هذه المنطقة الوعرة جلد الخراف.

و لقد شاهدنا بين الجبل المذكور و جبلة عدة قرى منها مدينتا بنى حسان و عقاب. و كانت التلال مغطاة بحقول الثيلم المتدرجة، غير أن البن لا ينمو فى هذه المنطقة رغم خصوبتها.

إن عرب اليمن يعترضون- و خاصة الجبليون منهم- المارة و يسألونهم عن القرية التى غادروها عند الصباح، و تلك التى ينوون قضاء الليلة فيها؛ و لما كانت غايتهم الاطمئنان عليهم فحسب فمن قلة التهذيب عدم الإجابة على هذه الأسئلة كلها. فأعطيناهم أجوبة صريحة على السؤال الأخير. و فضلنا التكتم حول السؤال الأول: لأننا كنا نردد دوما أننا قادمون من الشام (الشمال)؛ و الشام هى دمشق فى سوريا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۷

و إن حاول أحدهم أن يسألنا إن كنا أتراكا قلنا له إننا نصارى؛ فظن أننا يونانيون أو أرمن. و فى الحقيقة كان باستطاعتنا الاعتراف بهويتنا الأوروبية من دون التعرض لأى سوء؛ لكننا حاولنا أن نتجنب هذا الأمر كى لا نثير فضول الشعب. و لقد ظنت صاحبة أحد المقاهى فى أجرود أننا رجال دين أتراك؛ لأنها طلبت منا أن نتلو لها الفاتحة (و هى صلاة شائعة عند المسلمين). و قبيل مغادرتنا المكان عند وصولنا إلى جبلة، أسمانى أحدهم الحاج أحمد، و ادعى أنه يعرفنى بهذا الاسم منذ عدة سنوات. و لم يحاولوا الاستعلام عن جوازات السفر، أو ضرائب العبور أو أى شىء آخر يفرض على الرحالة الأوروبيين؛ و رغم أننا كنا فى شهر رمضان وجدنا فى بعض المقاهى- و بشكل خاص- فى المنعزلة منها أشخاصا يعدون الطعام للمسافرين.

تعد جبلة عاصمة إقليم أم علا(Iemo Ala) ، و مقر صاحب الدولة. يبلغ طولها ۵۰۰ قدم هندسية و تقع قرب واد ضيق و عميق؛ و لكننى لا حظت أنها ليست كثيرة العرض مما يجعلنى أظن أن عدد منازلها لا يزيد على ال ۶۰۰.

و تمتاز هذه المدينة بطرقاتها المعبدة، و منازلها الكبيرة المبنية على الطراز العربى؛ غير أنى لم أر فيها قصورا أو سورا، و لم أحاول أن أوطد علاقاتى بسكان البلدة الأصليين الذين يعرفون الجوار جيدا كى لا أثير الشكوك حولى و لقد لا حظت أن اليهود يقيمون خارج البلدة و يبلغ طول شارعهم ۱۰۰ قدم و يقع غربى المدينة.

إن مدينة جبلة قد اشتهرت منذ عدة قرون؛ غير أننى لم أشاهد فيها نقوشا ذات أهمية كبرى.

اصطحبونا خارج البلدة لمشاهدة جامع متداع و بعض الصروح القديمة التى ادعوا أن عمر بن سعيد المعروف بصاحب الكلام الذهب هو الذى بناها. لكن النقوش التى رأيتها على بقايا الجدران ليست أثرية إلى هذا الحد. و قيل لى إننا نجد قرب قرية عقاب جوامع هائلة مهدمة، غير أنها لا تستحق عناء الذهاب لرؤيتها. و عند مغادرتى المدينة، أرشدونى إلى صرح صغير شرقى البلدة محاط بالأسوار، دفن فيه باشا تركى. و لم يسمح لى الوقت لنقل النقوش التى تغطيه؛ و لا يهمنا أن نعرف اسم باشا جبلة الذى توفى منذ ۱۵۰ سنة.

ثم فى ۳۱ آذار/ مارس، غادرنا جبلة بعد العشاء و سلكنا طريق تعز. و قضينا الليلة فى خان واقع على الجهة الجنوبية لجبل محراث، حيث تبعد محراث عن جبلة حوالى ثلاث ساعات أو ميل و نصف فى الجهة الجنوبية- الشرقية.

و فى صباح اليوم التالى، استخدمنا مرشدا سياحيا و تسلقنا جبل شدرا الشاهق لنرى بقايا أحد القصور.

و يعد جبل محراث عاليا جدا مقارنة بالوادى الواقع جنوبا؛ لكن كان يلزمنا ساعة تقريبا لتسلق جبل شدرا. و بعد أن بلغنا أعلى قمة، رأينا آثارا قديمة شبيهة بتلك التى نشاهدها فى ألمانيا قرب القصور المتداعية الواقعة على الجبال. و تتألف جدران هذا القصر العربى و أبراجه من الحجارة الصلبة غير المنحوتة. و رأينا فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۸

إحدى جهات السور فتحات طويلة و ضيقة، كانت تستعمل قديما ككوى لإطلاق السهام. و لقد انهارت مبانى هذا القصر كله و لم يتبق منه إلا خزان كبير مربع و آخر مستدير لا تزال آثار المدافع بارزة على جدرانه. و يقال إن هذا القصر و آخر على جبل ثقل(T kel) ، المجاور لبلدة جبلة، قد بنيا على يدىّ حسان الجاهلى؛ و غالبا ما يستعمل العرب كلمة جاهلى للدلالة على أسلافهم الملحدين.

و لم أسمعهم يوما ينعتون الملحدين بالكفار رغم أن هذه العبارة رائجة الاستعمال. و لم أجد أثرا للنقوش فى قصر جبل شدرا؛ لكن طريقة بناء الحجارة تدل على انتمائه للعصور القديمة.

و من أعالى هذا الجبل نشاهد جنوبا حوالى ۲۰ قرية و بلدة؛ و لما كنت أخشى تدوين أسمائها فى حضرة المرشد اكتفيت بمراقبة موقع تعز و بلدة الشروق فى الجهة الجنوبية- الغربية، و جناد فى الجهة الجنوبية، و خان محراث فى الجهة الجنوبية- الغربية، و جبل أحبور فى الجهة الشرقية- الجنوبية، و جبل شيرمان فى الجهة الجنوبية- الشرقية.

ثم فى الأول من نيسان/ أبريل، غادرنا الخان الساعة ۱۱ صباحا. و الجدير ذكره أن كل البضائع التى تنقل من المخا إلى صنعاء تمر بهذا المكان؛ و لهذا السبب يعد الطريق الرئيسى للبلاد؛ كما و أن العرب يعتنون أكثر بالطريق الذى يمر أمام هذا الجبل الوعر من ذلك الذى يمر بين جبلة و عدن قرب الحادى و أماكن أخرى لا يتردد عليها الناس كثيرا. و رغم أن الطريق كثير التعرجات، إلا أنه معبد معظمه مما يجعل التنقل عليه أكثر سهولة . و بعد مرور نصف ساعة وصلنا إلى كوخ شربنا فيه القهوة و وجدنا على بعد ۲۰ دقيقة من هذا المكان كوخا آخر شبيها به. اقتضى إذن النزول من الجبل ۵۰ دقيقة تقريبا؛ أى ما يعادل الربع ميل تقريبا.

اتجهنا جنوبا، لنصل إلى قرية كعدى، الواقعة على إحدى الهضاب. و مررنا بعدها بسهل فسيح، لنبلغ بلدة عماقى(Am ki) ، التى تبعد ميلين و نصف عن جبل محراث. و بعد أن قطعنا حوالى الميل، اتجهنا شرقا لننعطف بعدها جنوبا و نبلغ كوخ جعفر الذى يحمل اسم الشيخ جعفر المدفون على مقربة من هنا.

و خلال الرحلة كنت أدوّن أسماء الأماكن المميزة، التى كنا نعبر فيها أو نراها من بعيد، فضلا عن الملاحظات التى كانت تخطر على بالى؛ و هذا ما فعلته للمرة الأخيرة فى جبلة. إذ سجلت أسماء المدن التى شاهدتها لا حقا على محفظتى؛ و لكننى أضعتها فى ذلك النهار و لم أعد أذكر أيّا من تلك الأسماء.

و عند وصولنا إلى كوخ جعفر، كان الظلام قد هبط، ففضلنا قضاء الليل فيه، رغم أن صاحب المقهى رفض فى البداية الذهاب لإحضار العلف لحميرنا. و رغم بساطة العشاء الذى تناولناه تلك الليلة استمتعنا به للغاية بعد أن أمضينا نهارا متعبا جدا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۸۹

غادرنا جعفر صباح الثانى من نيسان/ أبريل، و بعد أن قطعنا ميلا فى السهل بلغنا تعز. و يقع فى الجهة الجنوبية لهذا السهل جبل صابر الشاهق و الخصب و الذى يضم ثلاث خانات و مجلسين. و استنادا لحساباتى، تبعد تعز عن محراث خمسة أميال و ۷/ ۸ الميل، و عن جبلة سبعة أميال و ۳/ ۸ الميل. و الجدير بالذكر أننا لا نستطيع رؤية تعز إلا من فوق هضبة مجاورة للبلدة؛ بينما يظهر حصن قاهر، الواقع على الجبل المحاذى لأسوار تعز عن بعد. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر ؛ ج۱ ؛ ص۲۸۹

لما كنا ننوى العودة ثانية إلى تعز و نخشى أن يتعرف علينا أحدهم، و يحاول الاستعلام عن جولاتنا اكتفينا بأخذ قسط من الراحة فى أحد المنازل، و تابعنا بعدها طريقنا. و تبعد تعز عن قرية قرة(Kerra) حوالى ميل و ۳/ ۸ الميل؛ أما طريقها فوعر و كثير الحجارة، و تحده المرتفعات من الجهتين. و تبعد قرة عن بلدة ربيع(Robey) ، التى يقام فيها أسبوعيا سوق شعبى، نصف ميل تقريبا؛ و نشاهد شرقا حصن قاهر الواقع على قمة الجبل. و بعد أن غادرنا ربيع، سلكنا دربا كثيرة الحجارة لنصل إلى بقعة ينفصل فيها طريق تعز عن طريق المخا الذى يمتد جنوبا. و بعد أن نزلنا جبلا شاهقا بلغنا بلدة ربى(Roba) ، حيث تقام أسبوعيا سوق شعبية. و تقع ربى على بعد ۵/ ۸ الميل من ربيع، و نجد قربها مجلسا.

و فى صباح الثالث من نيسان/ أبريل، غادرنا ربى بعد أن تزودنا بالمؤن من خبز، و بيض، و خلافهما، و بعد أن اجتزنا الجبال، رأينا على بعد نصف ميل تقريبا البئر الثانى. على هذه الطريق؛ و على مسافة ۳/ ۴ الميل من هنا، عبرنا أمام مجلس لنبلغ بعدها ينبوع مياه يتفرع منه جدول صغير؛ و الجدير ذكره أن المنطقة التى مررنا بها ذاك النهار، كانت شبه خالية من السكان. أما الأراضى القليلة الصالحة للفلاحة على طول الطريق فهى مغطاة كليا بالحصى، التى تحول دون جفاف الأرض من شدة حرارة الشمس؛ غير أننى لم أر

الحقول مغطاة بهذه الحصى فى المناطق اليمنية التى تشهد ازدهارا زراعيا ملحوظا. ثم شاهدنا لا حقا نهرا صغيرا و خان الشيخ عيسى الواقع فى سهل فسيح تكثر فيه أشجار البلح، و يبعد حوالى ۳/ ۸ الميل عن الينبوع المذكور آنفا. و بعد أن سرنا حوالى الميل و ۱/ ۸ الميل، بلغنا قرية حيدان، الواقعة فى منطقة نفوذ ابن عقلان. و اللافت للنظر، أن أراضى هذه المنطقة الصالحة للزراعة لم تكن مغطاة بالحصى كتلك التى أشرت إليها سابقا؛ غير أن معظمها كان بائرا، و الأسوار المحيطة بها متداعية، و هذه هى مخلفات الحرب؛ فلسنوات خلت، كانت هذه الولاية التى تخضع اليوم لسلطة شيخ من بنى عقلان مستقلة تماما؛ و مما لا شك فيه أن الشيخ المذكور يمتثل اليوم لأوامر الإمام، و لا يملك حق حشد الجيوش. و كان علينا أن نسير حوالى الميل و ۳/ ۸ الميل لبلوغ خان بنى سيف؛ و شاهدنا على طول الطريق، عدة آبار محفورة فى الأرض و خانات كثيرة، لم أحفظ أسماءها كلها. ثم وصلنا فى وقت لا حق إلى خان عودة(Oude) المنعزل، حيث لم يعتد المسافرون على قضاء الليل؛ و لكن أكد لنا المرشد أن الخان التالى يقع على مسافة بعيدة من هنا؛ فارتأينا قضاء الليلة فيه، و طلبنا من صاحب الخان الذى حزم أغراضه كلها عند وصولنا أن يعود إلى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۰

أقرب قرية، ليقضى الليل وسط عائلته. و الجدير ذكره أننا لم نشعر أبدا بالانزعاج فى هذا الكوخ كما و أننا لم نتذمر من عدم توافر وسائل الراحة التى نتمتع بها فى فنادق كوبنهاغن؛ بل كنا فى غاية السرور، لأن رحلتنا كانت تسير حتى الآن على خير ما يرام دون أن نتعرض للأخطار.

و غادرنا عودة صباح الرابع من نيسان/ أبريل، و اجتزنا طرقات وعرة، و هضابا مرتفعة، و وادى سراجى، و نهرا غزير المياه دون أن نصادف أى قرية؛ غير أننا شاهدنا شمالا جبل سودان الشاهق.

لقد اكتشف السيد فورسكال بعد ميل من عودة شجرة بيلسان مغطاة بالزهر؛ و بعد أن أجرى عليها تجارب كثيرة، أيقن أنه عثر على الشجيرة التى تعطى بلسم مكة. فطار فرحا باكتشافه هذا؛ كما و أنه احتفظ بكمية من الأزهار ليقدم دليلا على اكتشافه هذا، و ليثبت صحة وصفه . و يسمى العرب هذه الشجرة أبو الشم، أى الشجرة الطيبة الرائحة؛ و يقال إنها تكثر فى اليمن؛ و لكن السكان يحرقونها للاستمتاع برائحتها، و لا يحسنون استعمالها لشىء آخر.

قطعنا من هنا طرقا وعرة و أودية صغيرة تصب كلها فى واد كبير، بمحاذاة الطريق؛ و بعد أن سرنا ميلا و نصف بلغنا خان مضروب. و تقع على الجهة الجنوبية من الطريق سلسلة جبال مبرشة(Embarascha) ؛ التى بنى على مقربة منها خانا حمارة و حسيب. و بعد أن غادرنا مضروب مررنا أمام خانين آخرين، و وادى دامى(Dhami) ، الذى يصب فى وادى سراجى الكبير. و بلغنا أخيرا بلدة سلامة، التى تبعد ميلا و ۲/ ۳ الميل عن مضروب. حيث تكثر فى هذه البلدة القبب، أو دور العبادة المبنية فوق أضرحة المسلمين الكريمى النسب. و كان علينا أن نقطع بعد ۵/ ۸ الميل لنصل إلى حاس. و بعد أن جمعت هذه المسافات الصغيرة، وجدت أن مدينة تعز تبعد ۱۲ ميلا و نصف الميل عن حاس.

أما بلدة حاس الصغيرة فتقع فى تهامة؛ و هى تعد عاصمة منطقة عصاب الأسفل، حيث يقيم صاحب الدولة فى حصن صغير، و تكثر فيها مصانع الفخار، و المنازل الحجرية. و تتميز بغناها بالقمح و البلح؛ غير أن مناطق نفوذ آل عقلان تمتد إلى حاس و شرج، التى تبعد ميلا غربا، و تشكل جزءا من إقليم زبيد.

ثم غادرنا هذه المنطقة فى الخامس من نيسان/ أبريل، قبيل شروق الشمس؛ و بعد أن قطعنا ۳/ ۸ الميل، بلغنا خانا عند سفح جبل دباس. و سرنا بعدها ۷/ ۸ الميل لنصل إلى خان مسقط، المجاور لجامع مهدم.

و فى الطريق عبرنا قرب أربع قرى لم أستطع حفظ أسمائها. و اجتزنا من مسقط نصف ميل تقريبا لنصل إلى وادى فراجى (كتبت اسم هذه البلدة استنادا للفظ عربى من البلاد غير أنه كان يجدر بى القول وادى سراجى) فوجدناه جافا، شأنه فى ذلك شأن و ديان تهامة الأخرى.

و سرنا بعدها حوالى ۲/ ۳ الميل لنصل إلى بلدة قرطاب و منها إلى وادى زبيد الخصب أو المنطقة التى

.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۱

تتعذى منه. و انتقلنا بعدها إلى معت(M te) و منها إلى زبيد، بعد أن سرنا ميلا عبر الأرياف الجميلة و يمكننا أن نستنتج بالتالى أن حاس تبعد عن زبيد أربعة أميال و ۳/ ۴ الميل.

كان الحر شديدا فى تهامة، عند خروجنا من المنطقة الجبلية، حيث الطقس بارد بعض الشىء. و ترجلنا عن الحمير فى قرطاب قرب خان خارج البلدة. و كانت جدران هذا المنزل الأربعة مبنية من الأحجار الخام الموضوعة الواحدة منها فوق الأخرى. و رغم أن الحر لا يحتمل فى الخارج، شعرنا فى الداخل بالهواء المتسرّب من الشقوق فمنحنا إحساسا لذيذا بالانتعاش. و كان يجدر بى أن أتغطى بالقماش القطنى الطويل، الذى يلف عادة حول الكتف؛ إلا أننى تمددت أرضا و استرسلت فى النوم بعد أن أنهكنى الحر، و تعب السفر. فأصبت بالحمى يوم وصولنا إلى زبيد. و بعد أن تحسنت حالتى تابعنا فى السادس من نيسان/ أبريل طريقنا من زبيد إلى بيت الفقيه، سالكين الطريق نفسها التى و صفتها آنفا. و لكننى عانيت لبعض الوقت من الحمى الثالثة التى أضعفتنى كثيرا إلى حد أننى لم أعد أقوى على فعل أى شىء.

و عند عودتنا إلى بيت الفقيه وجدنا السيد دوهافن متوعكا، نظرا لإصابته بداء الحفر؛ فهو يشعر بالاشمئزاز من طبيعة الحياة التى كنا نعيشها خلال رحلتنا. فمنذ فترة طويلة لم نستطع التزود بالنبيذ و المشروبات الروحية و اكتفينا بشرب المياه و القهوة. و مياه تهامة كانت بمعظمها ملوثة فضلا عن أن القهوة تهيج الدم. أما الكيشر فمذاقه لا يعجبنا، رغم أن العرب يعتبرونه مفيدا للصحة. و لقد طلبوا منا أيضا أن نمتنع عن أكل اللحمة؛ و كان هذا صعبا علينا خلافا لحال سكان البلاد الذين يتزودون بأطعمة أخرى أكثر بساطة، فيمكنهم الاستغناء عنها بسهولة. غير أن طباخنا لم يعثر فى شبه الجزيرة العربية على مكونات أخرى لتحضير أطباق أوروبية شهية؛ لهذا السبب كنا نتناول اللحوم يوميا فى مقرنا العام، إن كان يصح أن أطلق على المكان الذى أقمنا فيه هذه التسمية؛ فتدهورت بالتالى صحة الأشخاص الذين لا يتنقلون كثيرا خاصة السيد دوهافن الذى لا يغادر المنزل، و لا حتى مقعده أو سريره إلا لتناول الطعام.

فى تلك السنة، صادف اليوم الأول من عيد الفطر، فى بيت الفقيه فى ۱۴ نيسان/ أبريل، حيث غادر صاحب الدولة البلدة برفقة عدد كبير من السكان، و قصدوا صرحا كبيرا محاطا بالأسوار يسمى المصلّى (راجعوا اللوحة(LXII) بغية الصلاة فى الهواء الطلق. يستمر هذا العيد ثلاثة أيام، لا يمكنك خلالها إقناع أى عربى بالسفر معك، أو بتأدية خدمة لك إلا إن دعت الحاجة الماسّة لذلك.

و فى ۱۷ نيسان/ أبريل، شاهدت فى بيت الفقيه مثالا على صلابة العرب فى المآسى. اندلعت النار فى ذاك اليوم فى منزل واقع فى الجهة الجنوبية للبلدة؛ و لما كان الهواء الجنوبى يعصف بشدة التهمت النيران جزءا كبيرا من المدينة. غير أن العرب لم يفقدوا رباطة جأشهم، و لم نسمعهم يصرخون أو ينتحبون؛ و إن عبّر أحدهم عن أسفه لحالهم، قالوا له إنها إرادة الله. كنا نقيم فى منزل حجرى على مقربة من المدينة المشتعلة؛ و رغم أن الأكواخ المحيطة بنا تحولت رمادا لم نتعرض لأى سوء. و عند ما صعدنا إلى السطح

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۲

شاهدنا سكان المنازل الحجرية تتأمل الحريق بأعصاب باردة. و لقد أتى لزيارتنا يومها فقيه من البلدة، بعد أن وضع أثاث منزله فى مكان آمن؛ و أعلمنا بنبرة تنم عن عدم المبالاة أن منزله يحترق. و أظن أن خسارة العربى فى ظرف مماثل لا- توازى أبدا خسارة الأوروبى؛ فهو يحمل متاعه على ظهره و ينتقل إلى حى آخر، أو يقيم فى الهواء الطلق، إن احتدمت النيران أكثر؛ فلا يخسر بالتالى سوى كوخه الذى يستطيع إعادة بنائه بسهولة؛ و مما لا شك فيه أن هذه الخسارة تعد فادحة بالنسبة إلى الفقراء منهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۳

لرحلة من بيت الفقيه إلى المخا

بعد أن عاينا محيط بيت الفقيه معاينة دقيقة، و بعد أن استعدنا أنا و السيد دوهافن عافيتنا، استعدت القافلة كلها للسفر إلى المخا؛ فغادرنا بيت الفقيه فی ۲۰ نيسان/ أبريل، بعد تناول العشاء، و سلكنا الطريق نفسها التی و صفتها آنفا.

و غالبا ما نسافر ليلا فی تهامة؛ و لكننی قررت أنا و السيد فورسكال، أن نسبق الآخرين مع حمار، حتی يتمكن هو من جمع الأعشاب و أنا من تحديد موقع القری؛ بينما تتابع القافلة سيرها ليلا مع الخدم و المتاع. و لقد نصبت المزولة عشية وصولنا إلی زبيد؛ و بعد أن حددت ارتفاع نجمتين وجدت أن هذه المدينة تقع علی خط العرض ۱۴؟. و فی صباح ۲۱ منه، تابعت أنا و السيد فورسكال طريقنا إلی وادی زبيد، عبر حقول مروية بالماء؛ و بعد أن قطعنا نصف ميل بلغنا قرية طوارق، الواقعة فی وادی جرصة؛ الذی يقع علی الساعد الصغير لوادی زبيد؛ و هو يتفرع من ساعده الأكبر، لإخصاب أكبر مساحة من أراضی تهامة. إن حقول هذه المنطقة تحاط بسدود ترابية تساعد علی تجميع الكميات اللازمة من المياه لری الأراضی المجاورة. و بعد مغادرتنا طوارق قطعنا ۳/ ۸ الميل، و بلغنا صاحب القواس، و منها إلی جواهر علی مسافة ۳/ ۴ الميل؛ علی مقربة من هذا المكان، تنتهی الحقول التی يرويها وادی زبيد و التی يبلغ عرضها ميلا و ۱/ ۸ الميل، بما فيها الأنهر الأخری. إننا لا نجد قری كثيرة بين وادی زبيد و المخا، حيث الأرض رملية قاحلة، تكثر فيها الجنيبات التی تستعمل فی تهامة لتغطية سطوح المنازل. و نظرا لشدة الحر فی هذه المنطقة الرملية سارعت أنا و السيد فورسكال إلی الظل و أخذنا قسطا من الراحة فی خان جواهر الحقير. ثم غادرنا الخان عند الساعة الثالثة بعد الظهر. و بعد أن قطعنا نصف ميل وصلنا إلی قرية عدج(Udge) ، المطلة علی جبل سوكار الواقع علی جزيرة صغيرة فی الخليج العربی. و بعد أن سرنا ربع ميل بلغنا قرية جوهار، و منها إلی قرية شيرج التی تبعد ثلاثة أميال و ۳/ ۸ الميل، أو أربعة فراسخ و ۲۴ دقيقة من زبيد. و عند وصول قافلتنا و متاعنا نصبت مزولتی لأقيس شيرج عن خط الطول الذی بلغ ۱۳؟، ۵۹؟.

يقول أبو الفدا إن الشرقية هی مرفأ علی البحر؛ لكن إن كان هذا المكان يقع فی عهده علی الخليج العربی فمياهه تراجعت بشكل ملحوظ، و القرية لا تمت إلی وصف أبی الفدا بصلة إلا من حيث رداءة منازلها. و يقيم اليوم فی شيرج شيخ (قاض) يخضع لسلطة صاحب الدولة فی زبيد.

فی ۲۲ نيسان/ أبريل، سبقت أنا و السيد فورسكال و المرشد المرافق لنا، الآخرين و وصلنا إلی مشيد

رحلة إلی شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۴ (Mauschid)

. و لم نشاهد علی هذه الطريق سوی خانات للقوافل. سرنا ۵ / ۸ الميل لنصل إلی جوربان(Dsjurb n) ، و منها إلی النهاری(Ennah ri) ، التی تبعد نصف ميل. و رأينا قرب هذا الكوخ ضريح نبی مزعوم علق بعض المسافرين قطعة من ثيابهم علی الجنيبات المحيطة به حتی يذكرهم الشيخ فی صلواته، و تستجاب دعواتهم. ثم قطعنا بعدها ۳/ ۸ الميل لنصل إلی دونان(Do ?nne ?n) ، و منها إلی مهجان(Moheij n) . و عند الثالثة من بعد الظهر، و بعد أن قطعنا نصف ميل جنوبا وصلنا إلی جبلی. و منها إلی قرية مشيد الكبيرة الواقعة علی بعد مئة قدم تقريبا من البحر. و بالتالی إلی شبرج التی تبعد أربعة أميال و ۱/ ۸ الميل عن مشيد، أو ۵ ساعات و ۴۰ دقيقة.

و عند وصولنا إلی مشيد، سمعنا الناس يتحدثون عن حرب عائلية قتل خلالها أحد المحاربين تحت أشجار النخيل المجاورة للبلدة. فخفنا أن تصاب قافلتنا بمكروه، خاصة و أننا نتوقع وصولها ليلا. و لكن أكد لنا السكان أن هذه الخلافات لا تعكر الأمن العام أبدا. حين يقتل عربی من تهامة عربيا آخر، تختار عائلة المغدور حلا من ثلاثة: إما الثأر من عائلة القاتل، أو تسليمه للقاضی الذی سيقتله بدوره؛ أو مبارزة القاتل أو أحد أفراد عائلته ؛ و فی الحالة الأخيرة يلزم القاتل بالدخول إلی السجن إلا أن يدفع للقاضی ۲۰۰ ريال إن لم أكن مخطئا. و لسنوات خلت، قتل أحد الفلاحين فلاحا من مشيد؛ فأعلنت عائلة الفقيد أنها ستنتقم بنفسها من القاتل أو من أحد أفراد عائلته لكن عشية وصولنا، التقی رجلان من الفريقين المختصمين فی المكان المذكور و تعاركا حتی الموت؛ غير أن عائلة الفقيد

الأول فجعت ثانية بموت فرد آخر من أفرادها فاضطر القاتل إلى أن يدفع مبلغا آخر للقاضى، كما و أن عائلة الفقيد وجدت نفسها مضطرة لقتل شخصين أو للتصالح و وضع حد لهذه الحرب. و فى صباح اليوم التالى التقيت أنا و السيد فورسكال برجل من الفريق المنتصر فى خان على طريق المخا و لم يكن مستاء أبدا من هذه الحرب، لأنها مسألة شرف؛ غير أنه اشتكى من المبالغ التى اضطرت عائلته لدفعها إلى القاضى خلال فترة قصيرة.

و بعد ذلك وصلت القافلة فى ساعة متأخرة من الليل أو فجر ۲۳ نيسان/ أبريل. فسارعت لاستعمال مزولتى. كانت السماء ملبّدة بالغيوم التى حجبت النجم الظهرى؛ غير أننى تمكنت أخيرا من مراقبة ارتفاع النجم من النسر الواقع الذى يشير إلى بعد مشيد بمسافة ۱۳؟، ۴۳؟، عن خط العرض. و يقيم فى مشيد نائب لصاحب الدولة و بعض الجنود التابعين لصاحب الدولة فى حاس. و لما فرضوا على جمالنا المحمّلة بالأغراض دفع رسم عبور فى زبيد، خطر لى أنهم سيفرضون علينا رسوما مماثلة فى المناطق الأخرى فاتفقنا مع جمّالنا على أن يتكفل بهذه المصاريف الصغيرة غير أنه اتفق مع موظفى الجمرك على فرض رسم العبور علينا، و إلا فتشوا متاعنا فاعترضنا عليه و طلبنا مقابلة القاضى الذى سمح لنا بالرحيل على الفور لعدم صحة ادعاءاتهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۵

كنت أنوى الوصول هذا المساء إلى المخا قبل أن تغلق الأبواب؛ فانطلقت برفقة السيد فورسكال عند طلوع الفجر رغم أنه لم يغمض لنا جفن فى الليلة السابقة. بعد أن سرنا ۱/ ۳ الميل بلغنا خان دربه، و عبرنا لاحقا منطقة مملح التى تنقل إليها مياه البحر و تبخر حتى تربة(Turbo) وصـــــــــــــــــلنا

على بعد ۷/ ۸ الميل إلى خان جردان(Djurden) ؛ و منه إلى خان سمعال(Sema Y ?hhle) ؛ حيث تمر بين هذين الخانين الحدود التى تفصل بين المخا و حاس. و بعد أن غادرنا سمعال، وصلنا إلى خان سهارى، بعد أن قطعنا ۱/ ۸ الميل. و سرنا بعدها ميلا تقريبا لنصل قرية رواس(Rua Y ?s) ، حيث أخذنا قسطا من الراحة نظرا لارتفاع الحر. و يتفرع من رواس طريق يؤدى إلى المخا مرورا بقبة سابا؛ و هى دار عبادة تضم أضرحة سبعة أشقاء. غير أننا سلكنا طريقا آخر مختصرا، رغم أنه رملى و وعر. و بعد أن سرنا ۱/ ۸ الميل، وصلنا إلى بلدة عشتيل التى تبعد ميلين عن المخا. و استنادا لهذه الحسابات تبعد مشيد عن المخا خمسة أميال و ۳/ ۴ الميل؛ لكن أرصادى الجوية تشير إلى أنهما يقعان على بعد ستة فراسخ، قطعناها فى ظرف سبع ساعات على ظهر الحمير؛ و مما لا شك فيه أننا كنا نسرع فى سيرنا.

يمر المسافرون إلى المخا برا بمدينة باب شاذلى؛ و يتبع الأوروبيون العادة المشينة السائدة فى القاهرة للدخول من بابها، أى إنهم يترجلون عن حميرهم و يدخلون سيرا على الأقدام. ترجلنا إذن عن الحمير حتى يفتشوا الخرج. و لم يحاول أحد طرح الأسئلة حول أسمائنا و جوازات سفرنا على خلاف المناطق الأخرى؛ فمررنا بالتالى دون أن يتعرف علينا أحد. و أرشدونا إلى خان، اعتاد الأتراك على النزول فيه، حتى نلتقى بمواطنينا حسب رأى موظفى الجمارك.

و كان يقيم فى المخا تاجر إنكليزى وصل إليها على متن باخرة من بومباى. و لكن العرب استقبلونا بالترحاب فى اليمن، حتى أننا لم نجد من داع للتحدث إليه أولا كما و أننا لا نحمل رسائل للإنكليز.

و كنا نخشى أن يحسبنا متشردين أو خونة، غير أننا كنا نحمل رسائل توصية متعددة، واحدة من كخيا جدة إلى صاحب الدولة فى المخا، و أخرى من تاجر فى جدة إلى سمسار الإنكليز، و ثالثة من تاجر فى بيت الفقيه، إلى تاجر فى المخا يدعى سيد صالح. فلم نعلم جيدا أن الأمير فرحان لم يكتف بأن يوصى بنا فى رسالته صاحب الدولة فى المخا، بل كتب له فى مناسبة أخرى معددا له ميزاتنا. و علاوة على ذلك، وطدنا صداقتنا فى المخا بابن سيد صالح و اسمه إسماعيل. كان والده قد أرسله إلى جدة لنقل كمية من البن، فحاول أن يكسب صداقتنا و قدم لنا شهادة تثبت أنه كان مترجم الربابنة الهولنديين فى المخا، علما أنه تعلم الهولندية من أحد المرتدين عن الدين؛ و كم كانت دهشتنا عظيمة لأننا لم نقابل منذ فترة طويلة مسلما يحسن لغة أوروبية. و لما كان يحسن الإطراء على

الأوروبيين، و يمتاز برزانته رافقناه من جدة إلى مخيّه.

أحسنا صنيعا بمقابلة سمسار الإنكليز عند وصولنا إلى المخا؛ فقد كان يعدّ من كبار تجار المدينة الذين حظوا بثقة صاحب الدولة فيهم؛ غير أنه كان بانيانيا، أو ملحدا من بلاد الهند؛ و لا حظنا فى بيت الفقيه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۶

و مخيّة أن المسلمين لا يعيرون هذه الأمة اهتماما، كما أننا لا نعير اليهود اهتماما لذلك فضلنا أن لا نتقرب منه. قصدت برفقة السيد فورسكال منزل إسماعيل الذى استقبلنا بالترحاب، و أمّن لنا منزلا لنقضى الليل فيه؛ و رغم أنه مسلم، قدم لنا شراب البانش، الذى أنعشنا كثيرا خاصة و أننا لم نحتس الكحول منذ فترة طويلة. و لكن إسماعيل لم يذق البانش و أحضر لنا شخصا هنديا مرتدا عن الدين المسيحى، يعمل تاجرا فى المخا، و يسرف كثيرا فى شرب الكحول. و كنا على و شك أن نثمل برفقته لو لم نع أن الشراب قوى للغاية. غير أن إسماعيل شدّد على صداقته لنا، و عرض علينا خدماته، و اقترح علينا حلق ذقنينا و ارتداء ملابس أوروبية، شأننا شأن الإنكليز الذين يحبون ممارسة التجارة فى المخا، و عدم التحدث بالعربية، حتى لا يظن أحد أننا أصبحنا مسيحيين. لكننا حسبنا كلامه مزاحا. و بعد أن استشرناه حول الطريق الأسرع للوصول إلى صنعاء و غيرها من المدن الجبلية، حذرنا من القيام بهذه الرحلة واصفا الجبليين بالفظّين و القليلى التهذيب؛ و أضاف أن الإمام المسلم يعامل بازدراء من أتباع الديانات الأخرى.

و الجدير ذكره أننى كنت أعرف اليمن أفضل من إسماعيل الذى لم ير من بلده سوى الطريق من المخا إلى مخيّة؛ فأخبرته تفصيليا عن الرحلات التى قمنا بها، بدءا من مخيّة؛ و شكرته على استقباله الحسن لنا الذى لم نحظ بمثله فى أى مكان آخر. غير أنه ادعى معرفته بسكان المخا أكثر منا؛ و أكد لنا أن شعبها يكره الأوروبيين كرها شديدا؛ و لكن والده يتمتع بمكانة مرموقة فى المدينة و يستطيع أن يقدم لنا خدمات كثيرة.

كان إسماعيل يحب التقرب من الأجانب لمصلحته الشخصية؛ و لعله انكب على تعلّم اللغة الهولندية من أجل هذه الغاية فحسب. و كتب والده عدة رسائل إلى باتافيا عبر المرتدين الهولنديين الذين كانوا فى المخا، و استطاع إقناع التجار الهولنديين بإرسال مركب لهم. فوصل هذا الأخير منذ سنتين تقريبا قبل عدة أشهر من وصول الإنكليز؛ و لما كانت المرة الأولى التى يزور فيها الربان المخا، قصد أولا منزل سيد صالح الذى أعطاه فكرة مريعة عن سكان هذه البلدة، و خاصة البانيانيين منهم؛ فشكر الهولندى الله لأنه وقع بين يدى رجل طيب إلى هذا الحد. و استأجر له سيد صالح منزلا و وضع ابنه فى خدمته فأمن له كل ما يلزمه، إلى حد أن الهولندى اعتمد كليا على سيد صالح و ابنه. و حين أتى بعض التجار الهنود الذين يحسنون اللغة البرتغالية لزيارته طردوا من المنزل؛ كما و أن الخدم الذين يتكلمون البرتغالية مع الربان كانوا يؤكدون له ادعاءات إسماعيل حول فظاظة سكان المخا، خوفا من إسماعيل و أبيه لكى لا يتسببا فى طردهم من عملهم. أما التجار العرب فلا يثيرون القلق، لأنهم لا يحسنون إلا العربية و إسماعيل يترجم كلامهم كما يحلو له. فأخذ الهولندى عن سكان المخا فكرة سيئة للغاية حتى أنه كان يتفادى الخروج إلى الشارع خوفا من أن يأخذوه رهينة. و بقيت هذه الأفكار راسخة فى ذهنه إلى حين وصول الإنكليز الذين أثبتوا له أنه وضع ثقته فى أشخاص أشرار؛ غير أنه كان قد تورط جدا مع إسماعيل و أبيه، و لم يعد باستطاعته التنصل منهما؛ و لا أظن أن تجار باتافيا سيرسلون مركبا آخر إلى المخا، بعد وقوع ذاك الهولندى ضحية الخداع.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۷

و خلال الرحلة من جدة إلى مخيّة حاول إسماعيل إقناعنا بأن الدانمركيين أيضا يجنون أموالا طائلة من ممارسة التجارة فى المخا. و لكن بعد أن لاحظ عدم رغبتنا بالتورط فى الأعمال التجارية حاول تضليلنا قدر المستطاع. و نلاحظ بالتالى أن المسافر يقع بسهولة فى الفخ، إن لم يحسن لغة البلاد، أو إن وضع ثقته بأول شخص يصادفه و يعرض عليه خدماته. و هكذا لم يفلح إسماعيل بخداعنا و لكنه سبب لنا خيبة أمل كبيرة؛ فلو أتينا إلى المخا من بلاد الهند دون أن نتعلم العربية و وضعنا ثقتنا فيه، لما حاولنا التعرف على سكان

البلاد و لما كانت دراستنا مطابقة للواقع. و عند وصولنا سلمنا رسالة التوصية الموجهة إلى سيد صالح لابنه إسماعيل و لم نقابل والده إلا في اليوم التالى الواقع فيه ۲۴ نيسان/ أبريل. و لما كان تجار مخيّة و بيت الفقيه، الذين أوصوا بنا، قد دفعوا لنا رسوم الجمارك و نقلوا لنا متاعنا، طلبنا من سيد صالح و ابنه أن يؤديا لنا الخدمة نفسها؛ فأظهرا استعدادهما التام للقيام بذلك. غير أننى أخالهما يضمران لنا نية مختلفة و يسعيان لإقناع موظفى الجمارك بتعذيبنا.

و عند الساعة التاسعة صباحا، وصلت القافلة و الخدم و المتاع. و عملا بعادة هذا البلد نقل المتاع إلى الجمارك حيث كان صاحب الدولة موجودا بنفسه. فطلبنا أن تفتش أولا الأغراض التى نقلت برا حتى نأخذ أوانى المطبخ و الأسرّة؛ لكن موظفى الجمارك ارتأوا تفتيش الصناديق التى وصلت إلى مخيّة و المخا بحرا، و من بينها برميل صغير فيه أسماك من الخليج العربى؛ و طلب السيد فورسكال عدم فتحه حتى لا يتبخر عرق النبيذ أو تفوح رائحة السمك الكريهة؛ غير أن الموظف فتحه و أخرج الأسماك و حرك السائل بقضيب من حديد ليتأكد من أننا لا نخفى داخل البرميل أحجارا كريمة؛ و رغم المساعى التى بذلناها أوقع البرميل وفاحت رائحة الأسماك و عرق النبيذ فى المكان، و يمكنك أن تتخيل ردة فعل العرب فى ظرف مماثل، خاصة و أن ديانتهم تحظر عليهم شرب الكحول فضلا عن الإحراج الذى شعرنا به أمام صاحب الدولة و مساعديه. لقد طلبنا منهم أن يفتشوا أسرتنا أولا؛ و لكنهم فضلوا البحث عن النوادر الطبيعية؛ و كنا قد حملنا معنا من مخية حشرات بحرية تبعث أيضا روائح نتنة أثارت سخط الحاضرين و حملتهم على شتم الفرنسيين؛ أما الأصداف التى كنا قد حزمناها بعناية فائقة فانتزعوا بعضها من قعر الصندوق بينما ثقبوا بعضها الآخر بواسطة قضيب حديدى مستدق الرأس؛ إذ لا يصدق العرب أن رجلا عاقلا يجمع هذه الأشياء بغية استعمالها لاحقا؛ بل خطر لهم أننا أرسلناها لنسخر من صاحب الدولة و موظفى الجمارك. و ظن آخرون أننا خبأنا بين هذه الأغراض بضائع ثمينة. و لكن صاحب الدولة لم يصدق أبدا هذه الادعاءات. و أحضروا له أخيرا حقيبة وضع فيها السيد فورسكال أنواعا مختلفة من الأفاعى؛ فأثار هذا المنظر خوف الجميع. فزعم أحد خدام صاحب الدولة أن الفرنسيين أتوا إلى اليمن ليدسوا السم للمسلمين و أحضروا معهم طبيبا كى ينفذوا هذه المهمة بنجاح. و كان صاحب الدولة يظهر تعاطفه نحونا دون أن يكنّ لنا الاحتقار؛ لكن عند ما سمعهم يقولون إننا ننوى إلحاق الضرر بالسكان ثار غضبا و قال: أقسم بالله أن هؤلاء الأشخاص لن يمضوا الليلة فى بلدتنا و أقفلوا مركز الجمارك دون إعطائنا حاجاتنا الأساسية من أوان مطبخية و أسرة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۸

ثم جاءنا أحد الخدم مسرعا لإخبارنا أنهم رموا الكتب و الحقائب التى نقلناها على ظهر الحمير من النوافذ؛ و أنهم أقفلوا المنزل؛ و لما أراد السيدان فورسكال و دوهافن الاستعلام عن السبب أجابوهما إنها أوامر إسماعيل. و مما لا شك فيه أن وصف إسماعيل لسكان المخا قد ثبتت صحته حتى الآن. و لكننا اضطررنا للاستماع إلى كلامهم بصبر و أناة. كان إسماعيل و والده قد اختفيا عن الأنظار ما أن بدأ موظفو الجمارك بإزعاجنا. و لم نستطع العثور عليهما أو على صاحب المنزل؛ فرحنا نبحث عن منزل آخر علما أن الجميع رفضوا إيواءنا فى هذه الظروف خوفا من أن يعاقبوا. و فى نهاية المطاف قبل أحدهم أن يؤجرنا منزله شرط أن يؤكد له القاضى أن الحكومة لن تتعرض له. كان قضاة تركيا يهتمون بحبهم الشديد لمصلحتهم الخاصة على خلاف قضاة اليمن بمن فيهم قاضى المخا الذى أثبت لنا استقامته.

و قصدناه برفقة النبيل ليؤكد له أنه يستطيع أن يؤجرنا منزله.

و لقد أرسلت حكومة بومباى فى تلك السنة سفينتين إلى المخا مع تاجر يدعى فرانسوا سكوت و هو اسكوتلندى الأصل. وصل هذا الأخير، إلى المدينة على متن السفينة الأولى منذ بضعة أشهر. فأعلم بوصولنا و بحجز أغراضنا فى مركز الجمارك. و رغم أننا لم نحاول الاتصال به، دعانا إلى العشاء؛ و أعد لنا طاولة مليئة بالأطايب التى لم نذق مثلها منذ مغادرتنا القاهرة؛ و أثبت لنا أنه صديق مخلص و وفى.

فسلمناه عندها رسائلنا إلى سمساره و اكتشفنا متأخرين أننا أخطأنا بعدم الاتصال به أو بالسيد سكوت فور وصولنا. و رغم أننا استرجعنا شجاعتنا إلا أننا لم نحاول إبداء رأينا الحقيقى فى إسماعيل و والده مخافة أن يثيرا لنا مشاكل جديدة.

و لم نستطع حلّ المشكلة مع الجمارك و فى ۲۵ نيسان/ أبريل؛ نصحنا إسماعيل بأن نعرض على صاحب الدولة ۵۰ دوقية بغية كسب رضاه. و كنا قد ارتأينا أن نقدم له هدية. و لكن ليس بهذا الحجم؛ كما و أن الشكوك ساورتنا فى مسألة إرسالها مع إسماعيل؛ و لما كنا ننوى الذهاب إلى صنعاء و قضاء سنة بكاملها فى البلاد. و لما كان أمر مغادرتنا المخا مرهون بموافقة صاحب الدولة، قررنا أن نضحى بهذا المبلغ، و أن نسلمه له بأنفسنا حتى نستغل الفرصة و نحاول أن ننال حظوة لديه. و كان خدمه يمنعوننا من مقابلته كلما قصدنا منزله؛ و أكد لنا إسماعيل أن صاحب الدولة لا يتنازل و يتحدث مع المسيحيين؛ و فى ۲۶ نيسان/ أبريل قررت المجموعة أن أسلمه ال ۵۰ دوقية بنفسى. علمت فى الطريق أنه أصيب عند الصباح برصاصة فى رجله بينما كان يدرب جنوده؛ فعدت أدراجى عند سماعى هذا الخبر آملا أن يستدعى طبيبنا لمعالجته و نحتفظ بالتالى بالمال. و لكن أحدا لم يستدع السيد كرامر؛ فحين اقترحوا على صاحب الدولة استدعاءه رفض رفضا قاطعا لأنه لا يثق بالفرنسيين الذين قد ينتقمون منه و يستعملون عقاقير مسخنة؛ فالعرب يميزون بين العقاقير المسخنة و العقاقير المنعشة و يعتبرون الأولى مضرة بالصحة. و لعل العبارة وحدها تثير خوفهم نظرا لشدة الحر فى بلادهم.

استغل نبيل من نبلاء العرب هذه المناسبة ليقول لنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۲۹۹

إن الله عاقب صاحب الدولة لأنه أساء معاملتنا؛ غير أننا كنا على ثقة بأنه ليس شريرا و أن بعض الأشخاص السيئى النية أثاروه ضدنا؛ و لذلك لو أتيحت لنا فرصة التعرف عليه من قبل لعاملنا بطريقة مختلفة تماما.

و فى ۲۷ نيسان/ أبريل، أعاد لنا موظفو الجمرك أسرتنا بعد أن فتشوها تفتيشا دقيقا؛ و فى ۲۹ منه، أعادوا لنا بعض الأشياء البسيطة بعد أن عاينوها بدقة؛ فبدا لنا واضحا أنهم يريدون إرغامنا على تقديم هدية قيمة. فقررنا حينها أن نضحى بال ۵۰ دوقية المخصصة لهذه الغاية؛ و كان إسماعيل قد استطاع طوال هذه الفترة رشوة الخدم حتى لا يسمحوا لنا أبدا بمقابلة صاحب الدولة؛ فكانوا يرددون لنا إنه لا يسمح لأحد بالتحدث فى شأننا باستثناء إسماعيل و والده؛ و لكن فى ذلك النهار لم يطردوا السيد فورسكال خاصة بعد أن علموا أنه يحمل الهدية؛ فلقد قبل صاحب الدولة ال ۵۰ دوقية و وافق على طلب السيد فورسكال الذى سأله أن يسمح لنا بالدفاع عن قضيتنا بأنفسنا؛ و كم كانت دهشته عظيمة حين أدرك أننا نحسن اللغة العربية و لم نحاول الاتصال به منذ البداية. و فى اليوم التالى أرسل لنا هدية بدوره و هى أربع نعاج و كيسين من الأرز. و علمنا فى الوقت نفسه أن موظفى الجمارك تلقوا الأمر بإعادة متاعنا دون فتحه. و تحسنت علاقتنا بإسماعيل على الفور خاصة و أنه تكفل بدفع مصاريف موظفى الجمارك و الحمالين بدلا منا رغم أنها بلغت ثلاثة أضعاف المبلغ الذى دفعناه فى مخيّة و بيت الفقيه.

و اقترح أعيان البلدة على صاحب الدولة أن يستدعى طبيبنا؛ لكنه كان يخشى أن يعطيه دواء مضرا بالصحة بغية الانتقام منه. بيد أن القاضى أكد له أنه لم يتلق أى شكوى ضدنا و أن احتفاظ الطبيب بأفاع ميتة لا يثير القلق لأن سمّها يستعمل فى بعض العقاقير؛ و أن الأصداف و الحشرات البحرية لها فائدة كبيرة. أرسل صاحب الدولة فى طلبنا فى ۴ أيار/ مايو بعد أن استعان ب أربعة أو خمسة أطباء دجالين و بعد أن زاد مرضه خطورة. و كم كانت فرحتنا كبيرة حين أدركنا أن صاحب الدولة لم يعد يخشانا؛ فأرسل الطبيب كرامر يعلمه بموافقته على تقديم خدماته له. و ما إن تبلغ ردنا حتى أرسل لنا صاحب الدولة أحد خدامه مع بغل لينقل السيد كرامر إلى منزله.

أتيحت لنا لا حقا الفرصة لزيارة صاحب الدولة عدة مرات و التأكد من صداقته لنا؛ و فى أحد الأيام أخبره السيد فورسكال أن أحد النبلاء شتمه فى الشارع يوم كان صاحب الدولة مستاء منا؛ و دون أن يسعى للتأكد من صحة الموضوع وعد بالتعويض عليه وزج النبيل المزعوم فى السجن. و صدم إسماعيل برؤية صديقه معاقبا بسببنا و أكد لنا أن السكان ثائرون ضدنا و أن حياتنا باتت فى خطر حتى

داخل المنزل، فقصد السيد فورسكال منزل صاحب الدولة على الفور طالبا منه إطلاق سراح السجين على أن يعده بأن يعامل الأجانب بطريقة حضارية من الآن فصاعدا. لبّى صاحب الدولة طلبه معربا له عن استعداده لزجه ثمانية أيام فى السجن إن شئنا ذلك.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۰

و بعيد وصولنا إلى المخا أصبت بإسهال حاد لم أشف منه إلا بعد مضى خمسة عشر يوما؛ أما توعك السيد دوهافن الذى ظهرت بوادره فى بيت الفقيه فازداد سوءا فى المخا؛ فكان يشعر بالارتياح عند حلول المساء خاصة إن ذهب فى نزهة فى الطراوة؛ غير أنه لم يكن قادرا على احتمال حرّ النهار. و فى ۲۲ و ۲۳ أيار/ مايو نام على سطح المنزل فى الهواء الطلق حتى يستمتع بالهواء العليل.

إنه و رغم هبوب رياح قوية فى اليوم التالى جازف فى ۲۴ و ۲۵ منه بالنوم على السطح فأصيب بالبرد و لم يعد يقوى على النزول وحده إلى المنزل. و راحت صحته تتدهور حتى أن نبضه بدأ يخف تدريجيا؛ كما و أنه طلب كتابة وصيته. و لكننا لم نفقد الأمل فى شفائه؛ و عند الساعة الثامنة مساء راح يهذى بكلمات لا معنى لها تارة بالعربية و طورا بالفرنسية و مرة بالإيطالية و أخرى بالألمانية؛ غير أنه ما لبث أن استرسل فى سبات عميق ليلفظ أنفاسه الأخيرة عند الساعة العاشرة ففقد العلم بالتالى واحدا من كبار رجال الأدب الشرقى.

إن سكان البلاد لا يضعون شاهدة على قبور موتاهم؛ غير أننا صنعنا واحدة و أرسل لنا الربان فى ۲۶ أيار/ مايو ستة بحارة كاثوليكيين لدفنه خارج المدينة فى مقابر الفرنسيين. فسار إنكليز المخا كلهم خلف النعش و حضروا الجنازة التى جرت على الطريقة الأوروبية على خلاف جنازة السيد فيرو قنصل البندقية التى جرت فى القاهرة فى ۴ نيسان/ أبريل ۱۷۶۳، إذ عند خروج النعش من المنزل عبر الحمّالون الشارع بسرعة حتى لا يتجمع الرعاع حولهم فتفرق الأوروبيون الذين كانوا يتبعونهم- فى القاهرة- و تجمعوا لا حقا خارج البلدة قرب الضريح؛ و لما كنا نخشى أن يسرق بدو مصر الجثة ألبسنا الفقيد ثوب ناسك حقير لا ينتفع منه العرب بشىء. أما فى المخا فيدفن الناس أمواتهم دون أن يخشوا تعرضهم للسلب أو للنهب من قبل الرعاع.

و بعد موت السيد دوهافن ارتأينا مغادرة المخا و التوغل أكثر فى البلاد؛ و رغم أن بعض أفراد المجموعة كانوا يفضلون قضاء سنة أخرى فى اليمن لزيارة قرى المنطقة الجبلية كلها ارتأى البعض الآخر العودة سريعا إلى أوروبا. علما أننا واجهنا مشاكل جمّة فى المخا. لم نكن نعلم كيف سيستقبلنا السكان داخل البلاد خاصة بعد عودة الإنكليز إلى بلاد الهند. و لما كنا قد زرنا الجزء الأكبر من اليمن و لم يتبق لنا من مناطق نفوذ الإمام إلا الطريق المؤدية من المخا إلى صنعاء؛ قررنا الذهاب إلى العاصمة فى أسرع وقت ممكن علّ الإقامة فيها تروق لنا أو إن لم ترق لنا حتى نتمكن من العودة إلى المخا قبل رحيل الإنكليز.

كان باستطاعتى أنا و السيد فورسكال أن نقوم بجولات خاصة، كما فعلنا خلال إقامتنا فى بيت الفقيه؛ و لكن رفيقانا فى السفر كانا يتوقان مثلنا لمشاهدة مقر إقامة الإمام. و الجدير ذكره أننا لم نستطع مغادرة المكان قبل أن يعالج طبيبنا رجل صاحب الدولة و يشفيها تماما. فادعينا أننا لم نعد نحتمل الحر الشديد خاصة و أن أحد رفاقنا قد قضى بسببه و نفضل الذهاب إلى صنعاء حفاظا منا على صحتنا و البقاء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۱

فيها حتى يقرر السيد سكوت العودة إلى الهند. و فى البداية رفض صاحب الدولة طلبنا هذا مدعيا أنه يريد إعلام رئيسه أولا برغبتنا هذه حتى يعطينا الإمام الإذن بدخول صنعاء؛ فقد كان يظن أننا نسعى لمقابلة الإمام؛ و قد جرت العادة فى البلاد أن يبلغ الإمام مسبقا بقدوم الأجانب الذين يرغبون بمقابلته و تقديم الهدايا له بغية الحصول على بعض الامتيازات التجارية. غير أن صاحب الدولة وعدنا بمراسلته سريعا و بإعلامنا برده فور تبلغه إياه.

و لما رفضوا السماح لنا بالذهاب حالا و إلى صنعاء قررنا الذهاب إلى تعز فى انتظار رد الإمام؛ غير أنهم رفضوا هذا الطلب أيضا و سمحوا لنا بالذهاب إلى موسى(Mussa) . و أكد لنا البعض أن صاحب الدولة لن يأذن لنا بمغادرة المخا قبل أن تشفى رجله تماما؛

و لا يمكننا أن نلومه على ذلك لأنه لن يجد فى شبه الجزيرة العربية طبيبا واحدا ماهرا. فاقترحنا بالتالى ترك طبيبنا فى المخا شرط أن يسمحوا لنا بالرحيل؛ غير أن العرب خافوا أن يخفق فى العلاج من شدة حزنه على رحيل أصدقائه.

فاشتكينا أمام أعيان البلاد من رفض حاكمهم السماح لنا بالذهاب لإنفاق أموالنا فى مكان آخر.

فسألوا عن سبب رفضنا انتظار انطلاق السفن من المخا و حذرونا من التجول فى المناطق الجبلية، فى هذا الفصل من السنة؛ فمن ينتقل من حرّ تهامة إلى برودة الجبال قد يصاب بحمى قوية. و لما كان هدف رحلتنا التعرف على هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية لم نستطع العدول عن قرارنا.

سر صاحب الدولة بشفاء رجله خلال أسابيع قليلة؛ فقد قال طبيبنا إن جرحه ليس بالغا و لكن شفاءه يتطلب وقتا طويلا . ثم وصل رجل عربى إلى المدينة و وعد صاحب الدولة بشفائه فى ظرف ثمانية أيام؛ فاستقبل الطبيب الجديد بالترحاب و لبى صاحب الدولة طلبنا؛ و أعطى السيد كرامر الإذن بالرحيل و قدم له بغلا- و سرجا و بعض الملابس العربية. و تلقينا فى الوقت نفسه الأمر بالذهاب إلى تعز فحسب، لأن صاحب الدولة ينتظر رد الإمام. و علاوة على ذلك أعطانا صاحب الدولة رسالة توصية لصاحب دولة تعز و أرسل معنا أحد خدامه حتى نسافر بأمان و راحة. و كنا نتمنى أن لا يفعل ذلك لأن هذا الخادم كان يراقبنا باستمرار؛ مما جعلنا نتوخى الحذر فى تصرفاتنا.

و لما كنا نجهل إن كان بوسعنا العودة إلى المخا خلال هذه السنة اتخذنا الإجراءات المناسبة كافة؛ فأخذنا معنا الأغراض اللازمة علما أننا قد نقضى سنة تقريبا فى المناطق الجبلية. و لكننا فضلنا أن نحتفظ بجزء من أموالنا النقدية مع سمسار الإنكليز الذى حملنا رسائل لبانيانيى تعز و صنعاء.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۲

الرحلة من المخا إلى تعز

غادرنا المخا فى ۱۳ حزيران/ يونيو عند غروب الشمس؛ سرنا ليلا- حوالى ست ساعات أو أربعة أميال و نصف لنصل إلى موسى. وجدنا قرب المخا بئر الشاذلى الشهير؛ الذى يشرب منه الفقراء فقط علما أن السكان يفضلون مياه بئر بليل الذى يبعد فرسخا عن المدينة؛ أما الأثرياء فيجلبون الماء من موسى. و تمتاز المنطقة الممتدة من المخا إلى موسى بجفافها و خلوها من السكان؛ و لم أر على الطريق إلا- خانات دبولى(Dabulie) و بصى(Bsie) و فترا(Fatra) . و تقع بلدة موسى على مدخل المنطقة الجبلية؛ و يقيم فيها صاحب الدولة و عدد من الجنود فى حصن صغير. و غالبا ما يزور الأوروبيون القادمون من الهند إلى المخا بلدة موسى لقضاء وقت ممتع؛ غير أننى لا- أظنهم يستمتعون كثيرا؛ إذ لا- نجد فيها سوى مياه عذبة و منازل حقيرة و حرا شديدا. و بعد أن استنتجنا أن مياه الخليج العربى قد تراجعت فى هذه البقعة؛ كان علينا أن نبحث هنا على مرفأ موسى الذى يتحدث عنه علماء الجغرافيا اليونانيون. تمتد مناطق نفوذ أولاد يقظان من موسى على طريق سفار و جبل الشرق (سفر التكوين الفصل ۱۰).

و فى ۱۰ حزيران/ يونيو غادرنا موسى عند الساعة الرابعة من بعد الظهر متجهين شمالا و بعدها شرقا؛ فعبرنا واديا كبيرا تصب مياهه بعد هطول الأمطار الغزيرة فى بحر مجاور لمخا، لتتلاشى بعدها فى أراضى تهامة. و لقد سلكنا بعدها طرقات وعرة حتى بلغنا خان الميجم(El Meij m) ، و منه إلى خان سبلة الواقعة على بعد ۳/ ۸ الميل. و قطعنا ذاك النهار ميلا و نصف الميل لنصل إلى بلدة عريش الواقعة على حدود المخا حيث يقام سوق شعبى كل نهار أحد. و على مسافة نصف فرسخ من البلدة المذكورة نجد منزلا صغيرا تدفع فيه مبالغ زهيدة على حمولات الملح التى ينقلها العرب من رواس إلى إقليم جاوه المستقل؛ غير أن لا أحد يطالب بدفع رسوم على البضائع التى تنقل من المخا و تعبر صنعاء أو غيرها من المدن الواقعة فى مناطق نفوذ الإمام.

قابلنا ذاك النهار فردا من سلالة الشيخ الشاذلى الشهير. و رغم جنون هذا الشاب كان يضحك و يلعب مع بعض شبان مجموعتنا الذين

كانوا يحثونه على القيام بهذه الدعابة أو تلك؛ و لكن لم يحاول أحد إهانته رغم أنهم لم يكنوا له أى احترام. لأننا نعرف أن المجانين فى مصر يعدون من الشيوخ و حتى أنهم يعدّون من الأنبياء بعد وفاتهم؛ غير أننا اكتفينا بتسميته شيخا تيمنا بالشيخ الشاذلى الذى يتحدر من عائلته. و يقال إنه لسنوات خلت أفقد أحد النجارين عقله بعد أن احتال عليه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۳

و نظرا لوعورة الطرقات فى هذه المنطقة الجبلية ارتأينا عدم السفر ليلا؛ ففى ۱۱ حزيران/ يونيو غادرنا عريش عند شروق الشمس و سرنا شمالا مرورا بدحواحة(Dahuaha) ، فوصلنا بعد مسافة ميل و ۱/ ۳ الميل إلى بلدة البراش(El Brach) ، حيث يقام أسبوعيا سوق شعبى. و تقع شرقى الطريق جبال كامار الخصبة؛ و هى تخضع لنفوذ شيخ ابن عقلان المقيم فى دوربات؛ علما أن السكان لا يخشونه كثيرا. فمنذ بضع سنوات علم الشيخ بمقتل شخصين من المنطقة؛ فأرسل فرقة من جنوده للبحث عن الجناة دون جدوى؛ فقد اختبأ هؤلاء الآخرون فى أعالى الجبال حيث لا يتمكن الجنود من القبض عليهم. ثم غادرنا هذه المنطقة و قطعنا ۳/ ۴ الميل لنصل إلى خان متراح حيث اجتمع ذاك النهار عدد كبير من المسافرين؛ فدخلنا إليه لنرتاح قليلا من حرّ النهار. فما لبثت أن هبت عاصفة رعدية قوية ترافقت مع أمطار غزيرة أدّت إلى تدفق المياه من أعالى الجبال معيقة بذلك طريقنا علما أن الدرب تحولت إلى سيل جارف.

ثم غادرنا متراح فى ۱۲ حزيران/ يونيو، و بلغنا على مسافة ۳/ ۴ الميل إلى ميسار و منه إلى مقهى رحابة(Rehabe) ، الواقع على بعد ۳/ ۴ الميل؛ و تقع بين هذين الخانين قرية دجانة(Dj ne) الجبلية. و بعد أن سلكنا طريقا وعرة للغاية وصلنا إلى مقهى الباب و منه إلى دربات على بعد ۳/ ۸ الميل؛ مما يعنى أن دربات تبعد ۶ أميال و نصف عن موسى.

و تعد دربات عاصمة مناطق نفوذ ابن عقلان و مقر الشيخ المتحدر من العائلة الحاكمة حاليا. يقيم فيها عدد من جنود الإمام و تدفع لهم فى المقابل رواتب مرتفعة. تقع هذه البلدة على قمة الجبل، و تتميز بسجنها الأكثر بشاعة فى اليمن كلها؛ و أظنه يشبه المغارة البنغالية السوداء حيث قضى منذ بضع سنوات عدد كبير من الإنكليز خنقا من شدة الحرّ. حفر سجن سوق دربات فى الصخر، بحيث لا يتسلل إليه الضوء إلا عبر كوة صغيرة دخل منها السجناء. و يقع قبالة هذه الكوة، السجن العام حيث يحجز مرتكبو الجرائم البسيطة بعد أن يقيدوا بسلاسل طويلة.

بعد مغادرتنا دوربات سرنا ۱/ ۴ الميل لنصل إلى مقهى شوفادى(Chofadie) ، و منه إلى بلدة سلامة حيث يقام سوق شعبى كل أسبوع. و رأينا على الطريق مقهى آخر، و خزانين للمياه، و بئرين. و أرغمتنا العاصفة القوية التى هبّت بعد ظهر ذلك اليوم على قضاء الليل فى سلامة؛ و فى صباح ۱۳ حزيران/ يونيو، قطعنا ۵/ ۸ الميل لنبلغ مقهى رماد(Rhom de) . و بعد أن سلكنا طريقا متعرجة شاهدنا قرية ربيع التى يقام فيها سوق شعبى كل أسبوع و هى تطل على حصن قاهر الواقع على جبل مجاور لتعز؛ غير أن الطريق المؤدى إليها يمر بقرية قرة(Kerra) على بعد ۱/ ۳ الميل، و بمقهى رحسن(Rahssen) على بعد ميل تقريبا، وصولا إلى تعز؛ مما يعنى أن تعز تبعد ۴ أميال و ۱/ ۸ الميل من دربات. و الجدير ذكره أننا شاهدنا على الطريق من سلامة إلى تعز ثلاث خزانات للمياه مخصصة لراحة المسافرين.

وفور وصولنا إلى تعز، أرسلنا خادم صاحب دولة المخا الذى لم يؤد لنا أى خدمة حتى الآن ليسلم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۴

صاحب الدولة فى هذه المنطقة رسالة معلمه. فأرسل فى طلبنا على الفور و بدا لنا لطيف المعشر. فقدم لنا الكيشر و النراجيل و شاهدنا على الأريكة أفنان شجرة يمضغها العرب فى أوقات اللهو، كما نمضغ التبغ، و كما يمضغ الهنود التنبول. غير أن هذه الحلوى العربية لم ترق لنا أبدا. و أخبرنا صاحب الدولة أنه يقال فى تعز إننا نحمل معنا من المخا صناديق مليئة بالأفاعى: هكذا يغالى العرب فى نقل الأخبار. و اصطحبنا إلى أحد المنازل التى زج صاحبها فى السجن منذ فترة و جيزة؛ و أرسل لنا نعجتين و كمية من الطحين و الشعير. فقدمنا له فى المقابل قطعة قماش من الهند توازى قيمتها ۲۴ ريالا؛ كان خادمنا الأوروبى قد قصد بيت صاحب الدولة ليسلم له هديتنا

فاعترض البواب طريقه طالبا منه أن يدفع له بقشيشا فما كان عليه إلا أن رد قائلا: إن جرت العادة فى بلادكم أن يتبادل الخدم البقشيش فعليك أن تدفع لى مبلغا كبيرا من المال لأننى أحمل هدية لسيدك فضحك البواب منه و سمح له أن يتابع طريقه.

ثم فى اليوم التالى سلمنا الرسائل التى أوصانا بها أصدقاؤنا فى المخا إلى أصحابها؛ و منها واحدة للباش كاتب، و ثانية للقائم بأعمال عائلة أحمد الذى كان أمير تعز، و ثالثة لنبيل يدعى سيد، و رابعة لبانيانى؛ و الجدير ذكره أن الجميع استقبلنا بالترحاب غير أن خادم صاحب الدولة فى المخا كان يلاحقنا حيثما ذهبنا؛ حتى أنه كان يدخل إلى غرفتنا حين يأتى أحدهم لزيارتنا؛ و لعله كان يحاول أن يعلم العرب أننا نسافر تحت رعاية سيده، و لكن تصرفاته هذه كانت تحد من حريتنا و تثير سخطنا. فحاولنا أن نفهمه أن وجوده ليس مشجعا فى هذه المناسبات. و من ناحية أخرى كان الطقس فى تعز جميلا جدا؛ فبدلا من الحرارة الخانقة و الجفاف اللذين يسودان فى تهامة، كانت السماء تمطر كل مساء حاملة معها هواء منعشا.

إن مدينة تعز تقع شمالا، عند سفح جبل صابر الخصيب، على خط العرض ۱۳؟، ۳۴؟؛ و هى محاطة بأسوار تتراوح سماكتها بين ۱۶ و ۳۰ قدما، و تعلوها أبراج صغيرة؛ كما و أنها مغطاة من الخارج بآجر مشوى؛ و نجد داخل الجدران صخرة متعرجة يبلغ ارتفاعها حوالى ۴۰۰ قدم بنى عليها حصن قاهر المنيع.

و للمدينة بابان، باب الشيخ موسى، و باب الكبير، يصلان على الطريق المؤدى من المخا إلى صنعاء؛ و هما مبنيان على الطراز العربى؛ و نجد بابا آخر يصل قصر قاهر بجبل صابر، و بابا رابعا فى سور المدينة بين قاهر و باب الكبير؛ و الجدير ذكره أننا لم نشاهد أثرا للمدافع إلا فى قلعة قاهر، و على بابى المدينة؛ لكن خلال إقامتنا فى تعز، تمّ بناء برج جديد وضع عليه عدد من المدافع. تتألف حامية تعز من ۵۰۰ أو ۶۰۰ عنصر يقيم ۶۰ منهم فى القصر، بينما يوزع الباقون على أبواب و أبراج المدينة.

و قد تبدو تعز محصنة جدا ضد الأعداء؛ لكن وفقا للأسلوب الذى يعتمده الأوروبيون فى حروبهم، لا أظن أن بلدة تعز و حصنها قد يصمدا طويلا أمام العدو. و إليكم ما تدل عليه الأرقام التى وضعتها على اللوحتين(LXVI) و(۱ : LXVII) باب الشيخ موسى، ۲) باب الكبير، ۳) البرج الجديد الذى وضعت

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۷

عليها المدافع، ۴) قصر المرحوم سيد أحمد، ۵) جامع الشريفة الكبير الذى يعلو أقبية تستعمل لتخزين القمح، ۶) إسماعيل ملك أو جامع تعز الكبير؛ و هو كبير جدا، و يعلو أقبية تستعمل كمخازن للأسلحة، ۷) قبة الحسنية المبنية على ضريح باشا تركى، ۸) جامع قصر، ۹) السوق، ۱۰) جوامع متداعية خارج البلدة، ۱۱) المصلى حيث يصلى صاحب الدولة أيام الأعياد. و نجد فى كافة مدن اليمن أماكن مماثلة يصلى فيها المسلمون فى الهواء الطلق، خلال الأعياد و المناسبات. غير أن بعضها يفوق بعضها الآخر جمالا. أما هذا المصلى فهو محاط بسور كبير فيه بعض الحجرات التى يستعملها المسلمون للوضوء قبل أداء صلاتهم ۱۲) طريق صنعاء ۱۳) طريق المخا. قست حرم المدينة و حددت موقعها بواسطة البوصلة مع أننى لم أتعرف على شوارعها كلها. و أشرت على اللوحة(LXVI) إلى ارتفاع الهضاب التى بنيت عليها أسوار المدينة.

و يدعى ولى مدينة تعز إسماعيل ملك. و يقال إن هذا الولى الذى يجلّه سنّة اليمن كان ملكا؛ و هو يرقد فى جامع يحمل اسمه؛ لكن منذ أن تبين أنه يصنع العجائب، حظّر على الجميع الاقتراب من ضريحه. و إليكم وقائع القصة التى رووها لى: طلب متسولان صدقة من حاكم تعز فلم يتصدق إلا على واحد منهما؛ فلجأ الآخر إلى قبر الملك إسماعيل و تضرع إليه أن يغيثه؛ فلم يشأ إسماعيل الذى كان كريما جدا فى حياته أن يدع هذا الرجل المؤمن يرحل دون أن يلبى له طلبه. ففتح ضريحه المطيّن و سلم المتسول رسالة إلى الحاكم تقضى بدفع ۱۰۰ ريال لصاحبها. و بعد معاينة الرسالة بدقة تبين أن إسماعيل كتبها بيده و مهرها بختمه. فما كان من الحاكم إلا أن استجاب لطلب هذا الملك النبى العظيم؛ غير أنه حظر بعدها الدخول إلى القبر حتى لا يتلقى بعد اليوم رسائل مماثلة.

إننا نجد قرب جامع إسماعيل ملك، حديقة جميلة كانت مخصصة لعيسى بن إسماعيل ملك.

و هى تضم حوض ماء كبيرا يحيط به بقل زراعى تمر فوقه القنوات التى تنقل المياه إلى هذه الحديقة.

شاهدنا خارج أسوار المدينة جامع نبى شهير يدعى الشيخ موسى الذى يحمل اسمه أحد أبواب المدينة. أما فى الجهة الشرقية للمدينة فنشاهد جامعا رائع الجمال و صرحا يعلو ضريح أفضل و عائلته.

فعاينت بدقة هذين الصرحين و لا حظت أن هندستهما المعمارية شبيهة من حيث أبعادها و زخرفاتها بالهندسة المعمارية التركية؛ مما جعلنى أستنتج أن أفضل هذا كان باشا من تعز. و تكثر هنا كما تكثر فى الجوامع الأخرى النقوش العربية الحديثة التى تتشابك أحرفها إلى حد بعيد حتى أن العربى الأصيل لا يستطيع قراءتها بسهولة. و مما لا شك فيه أن المدينة تعج بالمساجد الصغيرة و لكن معظمها متداع جزئيا.

و رغم أن أسياد تعز كانوا زيديين و ليسوا من أهل السنّة إلا أنهم يفوقون أسلافهم نباهة. فقد بنوا قصورا فخمة ليستمتعوا بالعيش فيها فى حياتهم، بدلا من استعمال هذه الأموال لترميم الجوامع

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۸

و المساجد. و اكتفى كل واحد منهم ببناء قبة خلف منزله استعملها كمصلى له فى حياته و مدفنا بعد مماته.

و الجدير ذكره أن الحرب هدمت معظم المنازل و جعلت الحقول و البساتين شبه مهجورة.

نجد فى جوار تعز بقايا مدينتين قديمتين؛ و منها مدينة عدين، المقابلة لمدينة تعز؛ لم يتبق منها إلا أنقاض جوامع صغيرة. يقول العرب إنها كانت قديما مقر الملوك أو أسياد هذه المنطقة. و يروى أن إسماعيل ملك، بدأ بتشييد ضريحه و جامعه عند سفح جبل قاهر؛ فتبعه سكان عدين الذين كانوا يعانون من تسلق الجبل أو الذين كانوا يفضلون الإقامة قرب نبيهم؛ و يمكننا القول بالتالى إن تعز تدين بأصلها إلى النبى محمد المسلم شأنها شأن مخيّة و بيت الفقيه و المخا. أما المدينة الأخرى فهى تهيد(Thaheid) ، الواقعة جنوبى شرقى تعز، على بعد نصف ميل تقريبا. و نشاهد اليوم بقايا أسوار المدينة و جامعا كبيرا متداعيا و أنقاض جامع مسقط الحمر المبنى من حجارة حمراء غريبة؛ و لقد لفتت انتباهى فى هذه البقعة نقوش غريبة نقلتها فى اللوحة(IX) من كتاب «وصف شبه الجزيرة العربية».

و لم أستطع جمع معلومات وافرة عن تاريخ مدينة تعز؛ فالثورات التى وقعت فى السنوات الأخيرة كانت ستحتل مكانا مميزا فى التاريخ. لو أن العرب احتفظوا بالتواريخ أو لو أتيحت للأوروبيين فرصة الاطلاع على تفاصيلها. و سأروى لكم باختصار ما سمعته من أقاويل حولها: عين الإمام المنصور حسين أخاه حاكما أو صاحبا للدولة فى هذا الإقليم. فاستمتع هذا الأخير بمنصبه كثيرا إلى حد أنه رفض لا حقا التخلى عنه. فأرسل الإمام جيوشه لإرغامه على الخضوع لمشيئته، غير أن أحمد استطاع الصمود ۱۲ سنة، بمساعدة حاميته التى يبلغ عددها ۲۰۰۰ عنصر؛ فصك عملة باسمه فى المدينة، و فرض ضرائب على البضائع التى تعبرها، و أجبر رعايا الإمام على سلوك طريق عدن خلال سفرهم من المخا إلى صنعاء.

و خلال حديث السكان عن هذا الحاكم كانوا يسمونه ملكا أو إمام تعز. أما هو فكان يكتفى بأن ينادوه سيدى أحمد، و هو لقب يحمله أمراء عائلة الإمام كلهم.

لقد ترك سيدى أحمد ستة أبناء: عبد الله، على، و جاشا، و محسن، و يعقوب، و حسين. استلم البكر عبد الله الحكم بعد وفاة أبيه و عاش فى وئام مع الإمام و عند وفاته عام ۱۷۵۹ ترك ابنا يدعى عبد الكريم، و يبلغ من العمر ۱۳ سنة؛ و كان يفترض به أن يخلف والده، و يستلم الحكم غير أن حب السلطة كان يسيطر على أعمامه الثلاثة: على، جاشا و محسن، فشكل كل واحد منهم حزبا بغية السيطرة على مدينة تعز و الأراضى المحيطة بها. فاستولى واحد منهم على قصر قاهر، و آخر على باب الشيخ موسى، و الثالث على باب الكبير؛ غير أن إيراداتهم كانت ضئيلة للغاية، و لا تسمح لهم بإعالة الجنود أو حتى شراء الذخائر؛ فإن جمع أحدهم بعض المال استعمله لشراء الذخائر و إطلاق النار على أخيه حتى نفادها دون أن يبلغ هدفه المطلوب.

و فی وسط هذه الظروف، اضطر الأمير عبد الكريم لبعث رسالة للإمام الحالی الإمام المهدی يرجو منه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۰۹

فيها أن يهب لنجدته، للمحافظة على أراضی والده و أجداده. فأرسل الإمام النقيب أو القائد الماس، على رأسه جيش كبير إلى تعز للسيطرة على المدينة، و جلب المتمردين إلى صنعاء. غير أن النقيب المذكور لم يزود بالمدافع اللازمة لإرغام المتمردين على الاستسلام.

و لما كانت جيوش الإمام تبذل جهدها لمحاصرة تعز كان الشيخ عبد الرب و أتباعه يتقدمون نحو المخا؛ فهذا الأخير نصب نفسه حاكما على الحجيرية بعد أن فصلها عن مناطق نفوذ الإمام. و لما كان الإمام عاجزا عن رد هذا الشيخ إلى صوابه، قرر أن يتصالح معه و يستغله لغزو تعز. فأقرت معاهدة السلام بحضور النقيب الماس الذی كان على رأس جيوش الإمام، و النقيب أحمد الحمر، قائد حلفاء حاشد و بكيل الذين يخضعون لنفوذ الإمام؛ و تم الاتفاق على أن يضم عبد الرب جنوده إلى جيوش الإمام و يساعدهم على غزو تعز. فانضم عبد الرب و أتباعه إلى الجيوش التی كانت تحاصر تعز؛ غير أنه كان يفتقر للمدافع اللازمة لمهاجمة المدينة؛ فخطر له أن يتبع الخطة التالية: كان الجنود موزعين على الأبراج التی تعلو أسوار المدينة؛ فوعد عبد الرب ۱۲ جنديا منهم ب ۱۰۰۰ ريال إن حفروا كوة فی البرج ليعبر منها رجال الإمام. و بعد أن وافقوا على ذلك، تسلل رجال الإمام ليلا إلى المدينة التی نهبت برمتها؛ و كان ذلك عام ۱۷۶۰.

و بعد غزو تعز، أظهر الإمام محبته العميقة تجاه سلالة سيدی أحمد و عبد الرب، و دعاهم لزيارة صنعاء. و رغم خوف عبد الرب من زيارة هذه المدينة، إلا- أنه لبّی الدعوة نظرا للخدمات التی أداها للإمام، و بناء على إلحاح النقيبين الماس و أحمد ابن النقيب على الحمر. غير أن الإمام خان ثقة الأبطال العرب و قادته المخلصين فيه، عند وصولهم إلى صنعاء؛ و قد شرحت هذه الحادثة تفصيليا فی رواية تاريخ اليمن «وصف شبه الجزيرة العربية». كما و أنه لم يحاول أن يرسخ سلطة الأمير عبد الكريم فی مناطق نفوذ والده. و عيّن صاحبا للدولة فی تعز و فی الأقاليم الأخرى. و قابلت فی وقت لا حق الأمير شاب فی صنعاء؛ كان ذلك نهار الجمعة، بينما كان ذاهبا على حصانه إلى الجامع. و عند وصول سيدی جاشا و سيد محسن إلى صنعاء، اقتيدا على الفور إلى السجن. غير أن سيدی على بقی حرا لأنه والد زوجة الإمام.

كان صاحب دولة تعز ضابطا فی جيش الإمام و يحمل لقب نقيب. و لسنوات خلت كان ضابط الحرس، و مفتشا فی الجمارك عند باب الشاذلی فی المخا. و الجدير ذكره أنه لا يد لأصله النبيل فی حصوله على هذه الوظيفة شأنه فی ذلك شأن معظم أصحاب الدولة الآخرين. و مما لا شك فيه أن المنطقة الواقعة تحت نفوذه شاسعة للغاية لأنها تضم جبل صابر و مناطق يوفروس و الحجيرية. غير أننا نجد فی جبل صابر و فی منطقة الحجيرية عددا لا بأس به من الشيوخ الذين احتفظوا بسيادتهم فی مقاطعاتهم رغم أنهم يدفعون الضرائب للإمام؛ و هم يفتخرون بأصلهم النبيل شأنهم شأن العرب الذين يقطنون على حدود

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۰

الأقاليم التركية؛ كما و أنهم يحتقرون أصحاب الدولة كما يحتقر أولئك الباشاوات فوجد صاحب دولة تعز نفسه مجبرا على التخلص من مضايقات شيوخ جبل صابر؛ فزج واحدا منهم، أتی إلى البلدة برفقة عبدة من عبيداته- و حاول مقاومته- فی السجن؛ و وضع العبدة فی مكان آمن. و رغم مطالبة الشيوخ الآخرين بالإفراج عنه لم يطلق سراحه إلا بعد تدخل القاضی. عند ذلك قصد الشيخ صنعاء ليحضر أمرا من الفقيه أو وزير الدولة إلى صاحب الدولة ليسلمه العبدة على الفور. غير أن هذا الأخير، استشاط غيظا وزج الشيخ ثانية فی السجن. ثم أطلق سراح الشيخ و عبدته. و لكن صاحب الدولة بقی حاقدا على شيوخ جبل صابر و أرسل لهم فی أول مناسبة خمسة أو ستة جنود تصرفوا معهم بفظاظة، بناء على طلب معلمهم. غير أن الشيوخ لم يحتملوا أن يهانوا فی عقر دارهم، فقتلوهم جميعا. و منذ ذلك الحين لم يعد يجازف أی جندی بالذهاب إلى قری جبل صابر. و خلال إقامتنا فی تعز قيل إن عددا من الأشخاص، قتل خارج

البلدة قرب جبل صابر. و يظن الناس أن الشيوخ لن يرتاحوا قبل أن يرسل الإمام صاحبا جديدا للدولة إلى تعز.

و كان السيد فورسكال يتأمل يوميا جبل صابر، حيث تنمو وفق كلام العرب كافة أنواع الأعشاب فى العالم. غير أنه كان عاجزا عن جمعها بسبب الخلافات القائمة بين الشيوخ و صاحب الدولة. فكان يفكر فى استدعاء أحد الشيوخ ليرافقه فى هذه الرحلة، حتى لا يتعرض لأى سوء؛ غير أن صاحب الدولة لم يسمح له بذلك. و عند ذلك طلب الإذن بالذهاب إلى جبل سوراق(Saurak) ؛ و لقد وافق صاحب الدولة على طلبه، و أرسل جنديا ليرافقه فى رحلته. كان السيد فورسكال قد أكد لنا فى المخا أنه يريد الإسراع فى الذهاب إلى تعز بغية جمع الأعشاب من جبل صابر. فأمر صاحب دولة المخا خادمه بمرافقة السيد فورسكال إلى جبل سوراق، علما أنه كان يجهل نشوء خلافات بين صاحب دولة تعز و الشيوخ.

غير أن الخادم المذكور حثّه جندى صاحب دولة تعز على رفضه الذهاب إلى جبل سوراق، بحجة أن الأعياد على الأبواب. ظنا منه أنه لا يجدر به السماح لرفيقه فى السفر لجمع الأعشاب إلا على جبل صابر. فأعلم صديقى صاحب الدولة الذى هدد الجندى بالسجن إن لم يرافقه على الفور. فغادر السيد فورسكال المدينة مساء ۱۸ حزيران/ يونيو؛ غير أنه لم ير جبل صابر إلا من بعيد. فى ۲۰ حزيران/ يونيو، ثم وصل إلى بلدة مهجورة تماما لأن صاحب الدولة أساء معاملة أهلها، ففضلوا الذهاب لكسب رزقهم فى مكان آخر. و لما علم أن معظم القرى التى يبغى زيارتها قد هجرها أهلها، خاف أن يعوزه الطعام، أو أن يعرّض حياته للخطر فغادر إلى تعز مساء ۲۰ حزيران/ يونيو.

نادرا ما نجد بين المسلمين علماء يدرسون كسوف الشمس و خسوف القمر بغية وضع جدول زمنى؛ يستطيع الحاكم بوساطته أن يعلن قبل بضعة أسابيع أو أيام عن موعد حلول الأعياد. فلقد زعموا فى تعز أنه فى ۲۱ حزيران/ يونيو يصادف عيد عرفة أو الأضحى حيث يذبح حجاج جبل عرفات قرب مكة،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۱

و المسلمون كافة الجمال و الثيران و النعاج. و بهذه المناسبة تلقى صاحب الدولة و غيره من أعيان المدينة عددا وافرا من النعاج و الهدايا الأخرى ليلة ۲۰ حزيران/ يونيو؛ فالعيد يدوم يومين أو ثلاثة تقفل خلالها الأسواق كلها؛ و على القرويين أن يتزودوا بكل ما يحتاجونه عشية العيد. فابتعنا لخدمنا المسلمين، الطحين و السكر و العسل لنصنع لهم قالبا من الحلوى، فضلا عن نعجة صغيرة؛ بعبارة أخرى استعدت البلدة كلها لاستقبال العيد. لكن قبيل غروب الشمس، وصل مرسال يقول إن العيد قد أرجىء إلى اليوم التالى لأن القمر ظهر متأخرا فى صنعاء. أما فى المناطق التى لم تعلم شيئا عن الأمر الصادر من صنعاء فاحتفلت بالعيد فى ۲۱ حزيران/ يونيو، بينما راح سكان تعز يتأملون بحزن التحضيرات التى أعدوها. كما و أن البلدة لم تشهد حركة ملحوظة إلا عند غروب الشمس؛ و عندئذ أطلقت ثلاث طلقات من مدافع باب الشيخ موسى و طلقتان من قصر قاهر للإعلان عن الاحتفال بالعيد فى اليوم التالى.

فى ۲۳ حزيران/ يونيو أطلقت المدافع طلقات جديدة حين غادر صاحب الدولة المدينة برفقة أتباعه قاصدا المصلى لتأدية الصلاة فى الهواء الطلق؛ و بعد حوالى ساعة سمعت طلقات مدفعية أخرى و عاد صاحب الدولة و أتباعه إلى المدينة. و انصرف الجنود إلى تأدية تحركاتهم التعبدية. كما اعتادوا أن يفعلوا كل نهار جمعة عند عودة صاحب الدولة من الجامع، بينما راح أعيان البلاد يتدربون على حمل الرمح و هم على ظهر أحصنتهم. و لقد كان الأمير فرحان من لحية ماهرا جدا فى هذه اللعبة، كما سبق لى أن أشرت فى «وصف شبه الجزيرة العربية». و عاد بعدها الجميع إلى منزله و أكل اللحم، و مضغ العشب و أشعل الطيب فى منزله و استلقى على الأريكة، و أشعل غليونه الطويل.

كانت إقامتنا فى هذه المدينة خالية من المشاكل. و كنت أتمنى أن أقوم بجولات داخل هذه المملكة كما فعلت فى بيت الفقيه. غير أننى لم أجازف بمغادرة المدينة، نظرا للظروف الراهنة. و لما كنت قد قمت بدراسات فلكية فى تعز، و وضعت خارطة و رسما منظوريا لها، لم يتبق لى سوى زيارة قصر قاهر. و كنت أتمنى ذلك بهدف نقل النقوش المنحوتة على باب الصناديق. أما السيد

فورسكال فلم يفقد الأمل بعد زيارة جبل صابر. و لما كان صاحب الدولة يستقبلنا بالترحاب قرر السيد فورسكال أن يطلب منه ثانية السماح له بإحضار شيخ من جبل صابر، لمرافقته فى رحلة علمية إلى الجبل المذكور، فضلا عن إعطائى الإذن بنقل النقوش التى تحدثت عنها آنفا. فاستجاب صاحب الدولة لمطلبينا، بيد أنه عند منتصف الليل أبلغنا قرارا آخر. استدعى خادم صاحب دولة المخا، و أبلغ أن سيده بعث رسالة إلى صاحب دولة تعز يطلب فيها عودتنا إلى مدينته؛ فصدر لنا الأمر بالرحيل فى ۲۵ حزيران/ يونيو و تذكرنا أن صاحب دولة المخا وعدنا بإبلاغنا رد الإمام بشأن ذهابنا إلى صنعاء. و عند الصباح الباكر، كانت الجمال فى انتظارنا عند الباب؛ غير أننا رفضنا الانطلاق على الفور بحجة أننا لم نحزم أمتعتنا بعد. فغادر الجمالون المكان على أن يعودوا فى وقت لاحق.

خطر لنا أن صاحب الدولة يحاول ابتزازنا للحصول على هدية قيّمة كتلك التى قدمناها لصاحب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۲

دولة المخا؛ كما و أنه مستاء لعدم تلقيه هدية منا عشية العيد؛ علما أننا لم نأخذ هذا التقليد بعين الاعتبار.

و لعله غضب أيضا من إلحاح السيد فورسكال عليه للذهاب إلى جبل صابر؛ فلو عاد سليما معافى، لثار سكان تعز ضده، لأن الرحالة الفرنسيين يتنقلون على هواهم فى المنطقة، بينما أبناؤهم يموتون قتلا؛ و لو قتل فى الجبل لطلب الإمام من صاحب الدولة أن يثأر له. لهذا السبب تفهمنا جيدا سبب رفض صاحب الدولة السماح لنا بالتجول فى جبل صابر.

و لقد طلبنا مقابلة صاحب الدولة لنعرف شخصيا سبب رفضه هذا. غير أننا لم نستطع رؤيته، بعد أن أكد لنا الخدم أنه مريض. فاستشرنا أصدقاءنا فى الموضوع؛ و نصحونا بالتحدث مع الباش كاتب؛ فقال لنا إنهم قد يسمحون لنا بالبقاء بضعة أيام أخرى بانتظار وصول معلومات مفصلة من المخا؛ غير أن كلامه كان دون جدوى خاصة و أن صاحب الدولة أرسل لنا فى ۲۶ حزيران/ يونيو خدمه مصطحبين معهم الجمال و الحمير، و طلبوا منا حزم متاعنا؛ فأكدنا لهم أننا لن نغادر المكان قبل مقابلة سيدهم؛ و أرسلنا أحد خدامنا ليبلغ صاحب الدولة قرارنا هذا؛ غير أنه لم يستطع مقابلته و طرد خادمنا من بيت الحاكم؛ غير أنه قال لرجال الحاكم بأنه لن يبرح مكانه قبل أن يحصل على موافقة صاحب الدولة بمقابلة واحد منا؛ و تكفل السيد فورسكال بهذه المهمة، و حاول إرضاءه قدر المستطاع متجنبا التطرق إلى مسألة السفر إلى جبل صابر، على أمل أن يأذن لنا بالبقاء فى تعز، حتى نتبلغ رد الإمام بشأن ذهابنا إلى صنعاء. غير أن صاحب الدولة رفض اقتراحاته هذه و أمرنا بالاستعداد فورا للرحيل.

و بعد أن حزمنا أمتعتنا استعدادا للرحيل و فقدنا الأمل فى البقاء مدة أطول فى تعز، أو فى الذهاب إلى صنعاء تبدل فجأة مجرى الأحداث إذ وصل وفد من قبل صاحب دولة المخا حاملا لنا رسالة مختومة فيها واحدة موجهة للإمام و أخرى للفقيه أحمد وزيره الحالى و ثالثة لصاحب دولة تعز. و هو يعلمنا فيها أن الإمام أعطانا الإذن بزيارة صنعاء شرط أن نأخذ معنا مجموعة النوادر التى جمعناها من كافة أنحاء البلاد.

و هذا يثبت أن الرسالة التى أبلغنا بوصولها قبل بضعة أيام كانت ملفقة. فحمل السيد فورسكال هذا الخبر إلى صاحب الدولة، و لكنه لم يستطع مقابلته؛ لأنه دخل إلى الحريم و نادرا ما يتخلى حاكم مدينة عربية عن رفقة نسائه اللواتى يخصصن لهنّ الليل بكامله، بعد أن يقضى نهاره محاطا بالرجال. فسلم السيد فورسكال الرسالة لخدمه.

حسبنا أن سفرنا إلى صنعاء بات محتوما؛ و كنا على و شك أن نغادر البلدة دون أن نأخذ موافقة صاحب الدولة أولا، و لكننا لم نستطع أن نستأجر حميرا و جمالا. فالتجار الذين يبحثون عن الجمال يتحدثون أولا مع محلف المجموعة الذى يحدد عدد الجمال اللازمة للسفر. و بعد أن أبلغ صاحب الدولة باستعدادنا للرحيل، أعلمنا أن الجمال جاهزة لاصطحابنا إلى المخا، علما أنه لم يتلق الأمر بإرسالنا إلى صنعاء، و أن هذه المسألة تتعلق بصاحب دولة المخا وحده. فأدركنا حينها أن الله وحده هو معيننا، لأننا لا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۳

نستطيع مواجهة رجل يعمل تحت أمرته ۵۰۰ أو ۶۶۰ جنديا و يرفض الخضوع لأوامر سيده. فأخبرنا أصدقاؤنا قصة صاحب الدولة

المذكور و شيخ جبل صابر حتى يوحوا لنا بفكرة اللجوء إلى القاضى. فقد سمعنا الكثير عن طيبة قلب قضاة اليمن. فأخذنا بعين الاعتبار الإشارة التى أعطونا إياها؛ و قصدنا القاضى و عرضنا عليه الرسائل التى استلمناها من المخا. فاعتبر القاضى تصرف صاحب الدولة تجاهنا مشينا؛ فبعث له على الحال رسالة حذره فيها من معارضة أوامر الإمام. فرد عليه صاحب الدولة قائلا إنه لا ينوى أن يثنينا عن رحلتنا إلى صنعاء، و لكنه يطلب منا الانتظار يوما آخر حتى يتسنى له الوقت لكتابة الرسائل التى سيبعثها معنا. فاقترحنا تأجيل رحلتنا ثلاثة أيام إن كان صاحب الدولة يبغى ذلك. لكن صباح ۲۷ حزيران/ يونيو أتى خدمه لزيارتنا و طلبوا منا الذهاب على الفور إلى المخا. و بعد أن لاحظنا أنهم يؤدون مهمتهم على مضض، أكدنا لهم أننا لن نرحل اليوم. و لما أعلمنا القاضى بالأمر كتب إلى صاحب الدولة ما يلى: «لا تحاول أن تخدم مصلحتك لأنهم من الأجانب».

أثبت لنا هذا الكلام أن صاحب الدولة يحاول ابتزازنا للحصول على هدية غير أنه سبب لنا مآس كثيرة فى الأيام الأخيرة، حتى أننا لم نعد نرغب بتقديم أى شىء له، علما أن القاضى نفسه اعتبر طلبه هذا غير منصف. و عند الظهيرة، أرسل الباش كاتب فى طلبنا. فأعرب عن دهشته لتقديمنا شكوى ضد صاحب الدولة أمام القاضى خاصة و أنه لم يعترض أبدا على ذهابنا إلى صنعاء؛ و أكد لنا أن خدمه تحدثوا باسمه كذبا و طلبوا منا مغادرة المخا على الفور. إثر ذلك سألنا القاضى أن يمد لنا يد العون لمتابعة رحلتنا.

حسبنا أن خادم صاحب دولة المخا سينحاز إلينا ضد صاحب دولة تعز بعد أن استلم رسائل سيده؛ غير أنه فضل أن يمتثل لأوامر صاحب دولة تعز نظرا لأنه يقيم فى مناطق نفوذه. فارتأينا أن نعيده إلى المخا و نقدم له هدية مقابل الخدمات التى قدمها لنا سيده. غير أنه كان يجدر بنا أن نصطحب معنا عربيا يعرف البلاد جيدا و يحسن التحدث مع الحاكم، إن دعت الحاجة لذلك. فلجأنا إلى القاضى ليدلنا على مرشد سياحى ملائم. فأرسل لنا على الفور رجلا رافقنا إلى صنعاء و عاد برفقتنا إلى المخا.

حددنا موعد الرحيل فى ۲۸ حزيران/ يونيو و وصلت الجمال بعد ظهر ذلك اليوم. و ما إن بدأنا نحمل متاعنا حتى أرسل صاحب الدولة فى طلبنا؛ غير أننا لم نحظ بشرف مقابلته بسبب توعكه الصحى؛ فبعد أن وقفنا فى جهة و اضطر لتقديم بعض التنازلات لنا، احتقره السكان و عكروا صفو مزاجه. و أبلغنا الباش كاتب أنه تلقى فى اليوم السابق أمرا من الإمام بإرسالنا إلى صنعاء؛ و لهذا السبب رفض السماح لنا بمغادرة المكان من قبل؛ و أضاف الباش كاتب أن صاحب الدولة أمر أحد خدامه بمرافقتنا فى رحلتنا حتى لا يعترض أحد طريقنا. كان الخادم يهودى الأصل اعتنق الإسلام منذ ۲۸ سنة و يتلهف لرؤية أهله فى صنعاء، غير أنه لم يتوان عن تحديد المبلغ الذى يريده بحضور الباش كاتب و بعض الرجال العرب. أما القاضى فحملنا رسالة إلى الفقيه أحمد، كتب فيها ما يلى: «إن تحدث أحدهم أمامك بالسوء عن هؤلاء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۴

الأجانب، إياك أن تصدقه». و كنا قد اتفقنا على إهدائه ساعة، كما فعلنا مع صديقنا الأمير فرحان فى مخية. و لكن الخادم الذى أرسله لنا، أكد لنا أنه لن يقبلها مخافة أن نظن أنه حاول مساعدتنا لخدمة مصلحته الشخصية؛ اكتفينا بالتالى بتقديم جزيل شكرنا لهذا الرجل الذى أغدق علينا أفضاله. و الجدير ذكره أنه عند عودتى إلى أوروبا، تحدثت عنه طويلا لأثبت أن القضاة العرب ليسوا جميعا خبثاء و ظالمين شأنهم شأن القضاة الأتراك.

و بلغنا بالتالى هدفنا و أجبرنا صاحب دولة تعز على منحنا حرية السفر إلى صنعاء. غير أننا عانينا الكثير من المآسى خاصة و أن مرض السيد فورسكال أخذ يتفاقم. فخلال الأيام الأخيرة من إقامتنا فى تعز، بدأ يشعر بالتوعك؛ غير أنه أخفى عنا ذلك، حتى لا يؤخر سفرنا. فأخذ مرضه يزداد خطورة، إلى أن أدى إلى وفاته، علما أننا لم نكن نجد فى طريقنا أماكن ملائمة لنرتاح فيها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۵

الرحلة من تعز(TAA'S) إلى صنعاء

يوم غادرنا تعز وصلنا فندقا قرب المدينة و لم نبتعد أكثر، ثم رحلنا فى اليوم التالى أى فى ۲۹ حزيران/ يونيو، قبل أن تفتح أبواب المدينة. و بما أن الفوضى كانت تعمّ فى قافلتنا الصغيرة، مما اضطرنا للبقاء قرب الإبل، لم أتمكن من تحديد المسافة بين الأماكن بالدقة نفسها التى اعتمدتها فى الأماكن الأخرى حيث كنا نسبق القافلة على حميرنا. لكن استطيع تحديد الآتى: إذا توجّهنا إلى الشرق من تعز، يمرّ الدرب قرب مقهى يسمى عدن، و يؤدى إلى جعفر التى تقع على بعد فرسخين. و لقد زار السيد فورسكال، أثناء الرحلة، جبل سراق(Saurek) ، الذى إذا ما تقدمنا منه فرسخين نحو الشرق و الشمال الشرقى، لوصلنا جناد(Dsjennad) ، التى اشتهرت فيما مضى بمسجد معد بن جابل، لكن لم يبق منه حاليا سوى المسجد المذكور و بعض المنازل المعدودة. و تسمى المنطقة المحيطة بجعفر هبان(Hauban) ، و قد أخذت اسمها من جبل هبان الواقع إلى جانب جبل صابر(Sabber) .

و يؤدى الطريق من جعفر باتجاه الشمال و الشمال الشرقى إلى عماقى(Am ki) ، و لا نقع فى هذه الدرب سوى على قرى حقيرة و هى: قرف(Korff) ، عبّاد(Ob de) و عمور(Amچr) . أما عماقى فتقع فى سهل خصيب، و كانت فيما مضى مدينة صغيرة لكنها تعرضت منذ سنوات للدمار، فلم يبق فيها سوى بضعة منازل. و يقام فيها سوق أسبوعيا، و إذا ما توجهنا من عمّاقى إلى الشمال و الشمال الشرقى نصل إلى كعده(Kaade) .

فى ۳۰ حزيران/ يونيو، وصلنا إلى سمسرا فى محراس(Simeser Mh rras) بعد أن انطلقنا من كعدة نحو الشمال الشرقى. أما القرى الواقعة إلى غرب هذه الدرب فهى: جان المرستان(Gannue el Mursete ?n) ، غرافا(Gurafa) ، حمّارا(H m ra) و دراس(Derras) ، و دشرق(Duschruk) و هى مدينة صغيرة بين هذه القرى. و نرى إلى الشرق القرى الآتية: دمن(Dimne) ، منسل(Mensil) ، و نهل(Nahhl) . و لقد حفرت المياه التى تتدفق من الجبال فى هذه المنطقة، مجرى واسعا و عميقا بين الصخور، و عند ما هبّت عاصفة هوجاء، بعد الظهر، كوّنت سيلا عظيما و سريعا، لكن بما أن مياه هذه الأمطار تندفع بعنف من الجبال، جفّت مجارى السيل هذه كليا بعد ساعتين. و مما يجدر ذكره أنه تمّ بناء جسر حجرى صلب للغاية بعقد واحد قرب سمسرا على أحد هذه المجارى.

و تسمى النزل الكبيرة، التى نصادفها من تهامة و حتى هنا مطرح(Mattrach) ، و هى لا تتعدى كونها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۶

منازل خاصة لا يدفع أصحابها الكثير لصيانتها، و يكتفون بتأمين مأوى للضيوف و البضائع. و نجد من محراس حتى صنعاء، سمسرات كبيرة مبنية من الآجر المشوى، تبعد الواحدة عن الأخرى يوم سفر أو نصف يوم أحيانا. و قد بنى هذه الصروح فضلا عن الخانات أو الكرونسيرا فى تركيا، رجال أغنياء لراحة المسافرين؛ لكن السمسرا تفتقر إلى وسائل الراحة المتوافرة فى الفنادق فى أوروبا، فالمسافر الذى لا- يكتفى بالقهوة، و الأرز، و الخبز و الزبدة التى لا تقدم هذه النزل غيرها، ينبغى أن يحمل أطعمة أخرى. زد على ذلك، أن هذه الأماكن ليست آمنة للغاية، ففيها باب واحد يقفل فى المساء و قبل فتحه عند الصباح، يطلب من المسافرين فى بعض الأماكن تفقد أغراضهم كى لا يفقدوا شيئا منها.

و فى ۱ تموز/ يوليو، غادرنا النزل، و كنا نعرف أن تسلق قمة جبل محراس يحتاج إلى ۳/ ۴ الساعة.

و كنت فى أثناء رحلتى الأولى إلى هذه البلاد، قد لا حظت أن نزول الجبل انطلاقا من النزل يتطلب ۵۰ دقيقة، و من هنا يمكننا أن نستنتج تقريبا مدى ارتفاعه. أما الطريق الذى يؤدى إليه فمرصوف جزئيا، كما ذكرت سابقا، و نجد على قمة الجبل قرية نجد و هى قرية كبيرة إلى شرق الدرب. و تسمى المنطقة الممتدة من هذه النقطة و حتى أود(Ode) – و هى قرية تقع إلى شرق مدينة جبلة– شيبان(Scheb n) . و ينحدر الطريق من أود إلى أرما، و فيها مقهى بوعورة، و نجد هنا أيضا مسجدا قديما مزينا بقبّة. أما الأراضى الصالحة للزراعة التى تأخذ فى هذه المنطقة الخصبة شكل مدرجات كالكروم فى أوروبا فتضفى على المكان جمالا و روعة. و تبعد أرما عن آب(Abb) حوالى نصف ميل، و تقع هذه القرية على بعد ميل من جبلة(Dsjo ?bla) إلى الشمال الشرقى، كما تبعد

السمسرا عن جبل محراس حوالى ميل و نصف إلى الشمال الشرقى و على خط مستقيم. و لا حظت وجود ستة مجالس(Madsjils) على هذه الطريق القصيرة، و رأيت قرب أحدها، و هو لا يبعد كثيرا عن أرما، مسقى للمواشى التى تمرّ بالمكان، كما نجد ۴ منازل مبنية جيدا، إنما غير مسكونة، و هى تستخدم كملجأ للمسافرين الذين تفاجئهم الأمطار فى المنطقة.

و تتبع مدينة آب قضاء اليمن الأعلى، و يخضع صاحب الدولة فى هذه المدينة لذاك المقيم فى جبلة.

و تقع المدينة على قمة جبل، تحيط بها الأسوار و الحصون، أما شوارعها فمرصوفة، و منازلها مبنية من الحجارة ككافة المنازل فى البلاد الجبلية. و يقدّر عدد المنازل فى آب بربع المنازل الموجودة فى جبلة، فلا نجد فيها بحسب تقديرى إلا ۴۰۰ إلى ۵۰۰ منزل. و يملك العرب ۸۰۰ منزل فى آب و ۱۲۰۰ فى جبلة. و يقال إنّ فى المدينة عدد كبيرا من المساجد الصغيرة، لكنى لم أر سوى مسجدين بمنارات، و لعل الأمر يعود إلى أن الزيديين لا ينفقون الكثير على مساجدهم كأهل السنّة. و يتبع العرب من آب و حتى سنّا(Sunna) المذهب الأول، فيما يتبع عرب تعز و تهامة المذهب الأخير (أهل السنة).

و نرى إلى شرق المدينة جبلا شاهقا يحمل اسم بعدان(Baadan) ، تجرّ منه المياه فى قناة يبلغ طولها ۳۰۰ قدم إلى مسجد كبير و منه إلى المساجد الأخرى و إلى منازل المدينة. و بما أن المسجد يقع فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۷

منخفض، يضطر الأهالى إلى غرف المياه كما لو أنهم يستخرجونها من بئر. و تمّ بناء سور عال قرب الخزان الكبير لهذه المياه، تعلوه بكرة عليها حبل غليظ ربط بأسفله دلو من الجلد أو على الأصح قربة واسعة. و يعمل الرجال و الحمير و الثيران على نقل المياه حتى خزّان آخر فتفرّغ فيه ثم توزع إلى أحياء المدينة المختلفة. و نجد هنا، كما فى أماكن أخرى، فى أعلى الآبار، فى الريف، بكرات عدة الواحدة فيها جنب الأخرى، لكنها تحتاج إلى جهد كبير مضن، و هى متعبة أكثر من الآلات التى تعمل على المياه و التى تستخدم فى بلاد أخرى من الشرق.

و نجد على مسافة قريبة من آب و جبلة نبعين، يجرى أحدهما نحو الغرب فى جداول صغيرة عدة، ليصب بعد الأمطار فى الخليج العربى تحت اسم وادى زبيد. و يجرى الآخر فى الجنوب، و يطلق عليه اسم ميدام(Meidam) ، و بعد تساقط الأمطار، يعظم و يصب أخيرا فى البحر قرب لحج(Lahadsj) و عدن.

فى ۲ تموز/ يوليو، غادرنا آب، و نزلنا جبلا وعرا للغاية على مسافة ۳/ ۴ الفرسخ، لكن الدرب كان مرصوفا و بالتالى يمكن سلوكه إلى أقصى حدّ ثم دخلنا السهل، و توجهنا نحو الشمال و نحو الغرب بعض الشىء، فوصلنا قرية لهود(Lahuad) التى تبعد حوالى ۷/ ۸ الميل عن آب. و بعد أن اجتزنا ۵/ ۸ الميل إلى الشمال، بلغنا قرية تدعى سوق(SچkS) ، و صادفنا على الدرب بين آب و هذا المكان ثلاثة مجالس و مآوى.

ثم تصبح البلاد جبلية بعد سوق، و لقد قطعنا ميلا و ۲/ ۸ الميل لنصل إلى مشادر(Mechader) و رأينا على هذه الطريق خمسة مجالس، و ثلاثة مآوى. و تبعد آب عن مشادر ميلين و ۵/ ۸ الميل.

و تقع مشادر، و هى مدينة صغيرة، على جبل، و نجد بالقرب منها، و على مرتفع قصرا صغيرا يقيم فيه صاحب الدولة، و يقام فى المدينة يوم الخميس سوق. و يمكننا أن نرى من هذا المكان قرى عدة منها دلم(Dolme) فى الغرب، طلاب(Tullab) فى الشمال و شنن(Schanen) فى الشرق، كما نجد فى المنطقة جبلا يحمل اسم سهول(SahچI) . أما بالنسبة إلى قرية سهول و الوادى الذى يحمل الاسم نفسه و اللذين ذكرهما أبو الفدا، و يقال إنهما بالقرب من جناد(Dsjinnad) ، فلم يتمكن أحد من إعطائى معلومات عنهما.

و كان السيد فورسكال مريضا للغاية فى ذاك اليوم، فاضطررنا إلى التأخر عن الجمال التى سبقتنا إلى قرية لهود، و عند ما اجتازت مشادر، و قطعت نصف ميل أبعد من سمسرا برقان(Barke ?n) ، فأجبرنا على اللحاق بها. و يتكوّن قرب برقان سيل عظيم، يضيع فى

الجبال.

و فى ٣ تموز/ يوليو، سبقتنا الإبل منذ الصباح إلى(Mensil) ، و لحقنا بها بعد شروق الشمس. و قطعنا حوالى ٧/ ٨ الميل فى خط مستقيم، و أثناء ال ٣/ ۴ الميل الأولى، لم يكن الدرب صعودا، إنما فيما بعد و حتى جبل سمراء يصبح الدرب وعرا، حتى يستحيل سلوكه على الجمال المحمّلة لو لم تهيأ فيه تعرجات تجعل بلوغه ممكنا بصعوبة، و لو لم يرصف فى أماكن عدة. إن هذا الجبل أعلى و أكثر و عورة من جبل محراس و الجبل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۸

العالى بين عدن و جبلة. و نجد فى قرية منسل، التى تقع فى نصف جبل سمّراء، سمسرا رائعة بنى كل ما فيها من الحجارة المقصوبة لا من الخشب بما فى ذلك السقف و العارضات. و لقد بقى الجمّالون و المكاريون فى الأسفل مع الحقائب و مع بهائمهم. و كان على سطح هذه السمسرا شقة يمكننا البقاء فيها وحدنا، لذا وجدنا المكان مريحا للسيد فورسكال الذى يحتاج للراحة بسبب مرضه.

و فى اليوم التالى (۴ تموز/ يوليو) بقينا فى منسل، و قست ارتفاع الشمس فى الهاجرة، و حددت بالتالى خط العرض الذى تقع عليه القرية و هو ۱۴؟، ۱۰؟. و أحسست يومها، بعد الظهر ببعض الحمّى، و بما أن وضع السيد فورسكال كان يزداد سوءا، قررنا إطالة إقامتنا فى هذا المكان حتى يتحسّن. لكن الجمّالين و المكارين أعلمونا أن هذا المكان لا يستطيع أن يؤمّن العلف للدواب و الطعام لهذا العدد من الأشخاص، و أكدوا لنا أن مدينة يريم(Yerim) تقع على الجهة الأخرى لجبل سمّراء و تفصلها عن منسل إلى الشرق المسافة نفسها التى تفصل هذه الأخيرة عن برقان إلى الغرب. و وعدونا بتأمين أناس ليحملوا مريضنا حتى أعلى الجبل، و من هناك يمكنه أن يقطع بسهولة على ظهر الجمل المسافة القصيرة المتبقية حتى يريم.

و أغرتنا هذه الوعود فغادرنا فى ۵ تموز/ يوليو. و سبقت و السيد بورنفاند، يرافقنا واحد من المكارين الذين مع البعثة عند الصباح كى نستفيد من برودة الجو، لكننا دفعنا ثمن هذه المجازفة غاليا، إذ لم أكثر من الثياب فى هذا المناخ البارد و أصبت بالتالى برشح مزمن، و لكثرة ما رأينا من مياه قرب الطريق بين تعز و منسل، لم نشكك للحظة أننا لن نجد قطرة واحدة فى ذاك اليوم، و ارتفعت الحرارة، و كان لا يزال أمامنا ساعة مسير، حين صادفنا فى الريف فلاحا أعارنى إبريقه، و كنت بحاجة ماسة للمياه لأنى لم أعان يوما من ظمأ مضن كهذا. و لحسن الحظ، وصلنا أخيرا إلى يريم، و تبين لى أن المسافة إلى هذه المدينة من منسل هى حوالى ميلين و ٧/ ٨ الميل إلى ثلاثة أميال، إلى الشمال الشرقى، و هناك طرقات أكثر مما قال لنا الجمّالون. و أثار انتباهى على هذا الطريق قصر مهدّم يقع قبالة منسل على قمة جبل سمّراء، و يملكه آل حسن. و يؤدى الطريق من قصر بنى حسن، نزولا- إلى مسجد صغير و إلى قرية مدّراس(Maddrasse) ، و نلفى نحو الشرق سهلا منبسطا تقريبا لأن التضاريس التى نراها فيه لا تقارن بالجبال الممتدة بين سمراء و تهامة. و لم أر على طول الطريق، بين مدارس و يريم، إلّا قريتين صغيرتين هما ربعة القلعة(Rab d el Kalla) و منسل الثانى(Mensil Asse ?ni) . و تعيش فى هذه البلاد قبيلتا بنو يربع و بنو سعيد(Beni Se ?id) ، لكنهما لا تقيمان فى الخيام إنما فى أكواخ، و تجدر الإشارة إلى أننا لا نجد بدوا فى المناطق الخاضعة للإمام.

و بقى السيد كرامر مع خدمنا الأوروبيين بانتظار الأناس الذين ينبغى أن ينقلوا مريضنا إلى جبل سمّراء، لكن هؤلاء لم يستدعوا إما لأن العرب الذين يرافقوننا و الذين قدروا المسافة بين المنطقتين بميل واحد من دون المنعطفات، يعرفون أنها ثلاثة أميال أو لأن العرب الآخرين لم يرضوا بحمل مسيحى، و بالتالى تم ربط السرير و المريض على ظهر جمل. و بالرغم من أنهم سافروا ببطء شديد، و اتخذوا كافة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۱۹

التدابير اللازمة لإراحته، وصل عند المساء إلى يريم و قد أصابه الإعياء، و اشتد عليه مرضه. و كنا قد اعتدنا على العيش و السفر كالعرب، فلم نعد نحس بالانزعاج طالما أننا بصحة جيدة، لكن فى مناسبة كهذه عشنا تجربة المرض و صعوبته فى تلك البلاد حيث

لا يتمكن المرء من الحصول على الطعام و الشراب- و هذا شيء ما تعودناه في أوروبا- و تجربة المرض خلال الرحلة دون أن يتمكن المريض من الوصول في الوقت المناسب إلى مكان يرتاح فيه و يستعيد فيه عافيته كان شيئا جديدا علينا.

و كنا قد قررنا الإقامة في يريم في نزل، لكن حشد المتفرجين الذين دفعتهم حشريتهم لرؤية الأوروبيين و سماعهم لم تسمح لنا بالراحة، فعزمنا على استئجار شقة في المدينة نقيم فيها بانتظار شفاء رفيقنا. و تمكنا هنا من معرفة السبب الحقيقي الذي منع العرب في منسل من نقل السيد فورسكال إلى أعلى الجبل، و هو أن خادمنا العربي لم يرض بنقله من منزل إلى آخر، و لذلك اضطررنا لنقله بأنفسنا مع خدمنا الأوروبيين.

و يريم مدينة صغيرة أو على الأصح بلدة كبيرة، لكن صاحب الدولة يقيم في قصر صغير على تلة و عرة في وسط البلدة. أما منازلها فجزء منها مبني من الحجارة، و الجزء الآخر من الصلصال المدهون بمعجونة مؤلفة من الطين و روث البقر. و لم أتمكن من التعرف على المدينة و التجوال فيها بسبب مرضي و مرض رفيقي، لذا لا يمكنني الحديث عنها كثيرا، إلا أنني رسمت من نافذة غرفتنا واجهة القصر و قسما من المدينة على اللوحة(LXVIII) . و تقع يريم وفقا لدراساتي على خط عرض ۱۴؟، ۱۷؟.

و على مقربة من مدارس إلى الجنوب و الجنوب الغربي من يريم، قامت فيما مضى، بحسب روايات عرب عدة، مدينة تدعى جعفر، لم يبق منها أي منزل وفقا لما يقال. لكن نجد فيها، كما أكّد لي شيخ البلد، حجرا ضخما يحمل كتابات لم يتمكن اليهود أو المسلمون من فهمها، لذا تستحق زيارة أوروبي جاء البلاد لهذا الغرض. و يبدو أنه المكان الذي قامت فيه مدينة ظفار(Tdaphar) ، التي جعلها المؤرخون القدامى مكان إقامة الحميريين، و إذا ما تمكّنا من الحصول على كتابات حميرية، فستكون من دون شك من تحت هذه الأنقاض. و عند ما نجد أحرفا كوفية عادية أو كتابات أخرى لا تثير الاهتمام كثيرا يمكننا الاكتفاء بها، لأنني لطالما خدعت و أعطوني آمالا- كاذبة بإيجاد كتابات قديمة و مجهولة. و يحلو للعرب أن يؤكدوا أن مدينة جعفر، كانت منذ ۸۰۰ عام، في أوج ازدهارها، و كانت مكان إقامة سعد الكامل حاكم شبه الجزيرة كلها، و أنها دمرت على يد العباسيين. و لم يرد ذكر حاكم يدعى سعد الكامل في كافة كتب التاريخ حول شبه الجزيرة العربية التي نملكها في أوروبا، و كلما استعلمت عنه في اليمن، قيل لي: إنه بطل عربي عظيم، و ملك شهير، أقام في جعفر. و يقال: إن في نجرا(Nedsjera) ، بإقليم عمران(Amran) ، ضريح ملك عظيم يحمل الاسم نفسه، لكننا لا نعلم إن كان نفسه الذي حكم جعفر.

و بما أن مدينة جعفر تقع إلى الشرق من موسى(Musa) ، و على سفح جبال عالية، استنتجت أننا يمكن أن نبحث هنا عن «سفار»(Sephar) التي جاء على ذكرها موسى. لكن قد تكون هذه المدينة هي جعفر،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲۰

لأن حضرموت و سبأ و مدنا أخرى و بلادا أخذت أسماءها من أولاد قحطان، لا تقع بين يريم و موسى، بل بين هذا المرسى و ميزا. (راجعوا وصف شبه الجزيرة العربية). و كان الطقس في شرق جبل سمراء مغايرا لطقس غربه، ففي تعز و آب و القرى المجاورة لمنسل، تساقطت الأمطار لأيام عدة في فترات بعد الظهر، و رأينا أراض خصبة صالحة للزراعة، و باختصار يكثر في المنطقة الزرع و يطغى اللون الأخضر على الطبيعة.

لكن، لم تسقط الأمطار في يريم منذ ثلاثة أشهر، و إن سمعنا الرعد في البعيد كل مساء تقريبا. و لقد تكاثر الجراد فالتهم كافة الثمار، لذا قرر أهالي يريم التوجه في ۸ تموز/ يوليو بعد الظهر إلى مكان تقام فيه الصلاة جماعة خارج المدينة، للاستسقاء. و كانت المسيرة تتألف من شيوخ حقيري الملابس كما ينبغي في يوم تضرّع كهذا، يرأسها شيخان جليلان يحمل كل منهما على رأسه علبة مفتوحة فيها كتب، و يتبعهما الشيوخ الآخرون و الناس، و هم يغنون و يرددون صلوات قصيرة لم أفهم منها سوى «لا إله إلا الله». تمّ كل ذلك في جو من التقوى و الورع، و بدا أن هذه الشعائر التقية أعجبت القدير، فما إن عادت المسيرة إلى المدينة، حتى هبّت عاصفة، و تساقط البرد ثم المطر عند المساء. و في ۹ تموز/ يوليو، أعاد سكان يريم صلواتهم خارج المدينة، لكنها لم تكن فعّالة كاليوم السابق

لتجلب المطر. و بعد أيام، تساقطت الأمطار، إما لأن الله استجاب لصلاة المسلمين المؤمنين و إما لأن موسم الأمطار قد حلّ، و لا سيما و أن هذا موعدها المعتاد كما هى الحال فى غرب جبل سمراء و فى بلاد مدارية أخرى.

و كان الجراد يباع فى الأسواق كلها بأرخص الأسعار، لكنى لم أر يوما هذا العدد الذى شاهدته فى سهل جبل سمراء القاحل و فى يريم، حيث كان بالامكان التقاطها باليد. و رأينا عربيا يملأ كيسا من الجراد ليجففها و يحفظها كمؤونة للشتاء. و حين تتساقط الأمطار بتقطع و لساعات فقط، إلى الغرب من الجبل، تهاجم جحافل الجراد من الشرق حتى أن فلاحى منسل يضطرون إلى طردها من حقولهم كى لا تقضى كليا على نتاجهم، فتراهم يتراكضون يمنة و يسرة، حاملين عصيا طويلة ربط بأعلاها قطعة قماش، و يطلقون صيحات عالية. و لا تنفع هذه الوسيلة فى يريم التى اعتاد عليها الجراد و كأنها موطنه لقلة ما تمطر.

و شاهدنا فى يريم عريسا جديدا، يتوجه إلى الحمّام، و يتقدم المسيرة مجموعة من الشباب تمرح و ترقص على وقع الطبول، تليها مجموعة كبيرة من الناس من أعمار مختلفة، يلهو بعضهم بإطلاق العيارات النارية، و يختمها أخيرا العريس و بعض أصدقائه. و تعود الجموع عند المساء ببطء. فنرى عند الغسق عددا من المشاعل التى تشبه مشاعلنا إلى حدّ ما و إن كانت فى حالة سيئة، لذا أعجبتنى أكثر من تلك التى تستخدم فى مصر و التى ذكرتها سابقا.

و فى يوم آخر، رأينا مصارعين يعرضان قدراتهما أمام بعض الناس فى الشارع، و كانا يرتديان القليل من الثياب، و يضعان على وجهيهما قناعا كبيرا (و هو الأول الذى رأيته فى الشرق)، مع لحية طويلة و شعر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲۱

يتدلى على أكتافهما. و يحملان فى اليد اليمنى خنجرا طويلا و فى اليسرى درعا كبيرا، و ظننا أنهما سيظهران براعة فائقة و لا فتة فى المبارزة، لكنهما اكتفيا بالوثب على وقع الطبول و بالقيام ببعض ألعاب الخفّة.

وصف الشريف الإدريسى فى كتابه أسواق اليمن، و لم أحاول دراستها لأنى كنت أتجنب الجموع الكثيرة. لكن بعد أن بقيت لبضعة أيام فى يريم دون أن أغادر المنزل، توجهت إلى السوق كى أبدد كآبتى، و كان قد تجمّع فيه عدد من الناس جاؤوا من القرى المجاورة لشراء المؤن و المواد الضرورية للعائلة و بيعها. و لم أر فى السوق أى محال غنية، بل خياطين، و إسكافيين، و حدادين و حرفيين آخرين يحيطون بالشارع أو على الأرجح بالساحة، أو يتوزعون حولها ضمن جدران منخفضة و سيئة البنيان و يعملون فى الهواء الطلق. و صادفت هناك حجامين يشرطون و يجرحون العرب بسكين عادى ثم يضعون على الجرح قرون تيس قصّت من جذورها، و لا يملك هؤلاء معدات أفضل و هى كتلك التى استخدمت لشفاء الأب لوبو من الحمى .

و بدا أن السيد فورسكال يتماثل للشفاء فى الأيام الأولى التى أمضيناها فى يريم، لكن المرض استشرى من جديد حتى فقدنا الأمل بشفائه، ثم غطّ فى سبات عميق فى ۱۰ تموز/ يوليو مساء، و وافته المنيّة فى هذه الحالة، فى اليوم التالى أى فى ۱۱ تموز/ يوليو قرابة الساعة الواحدة و النصف. و أسفنا لفقدانه كثيرا، لأن تعاطيه مع عامة الشعب، بسبب حبّه لجمع النبات، مكّنه من تعلم اللغة العربية أفضل من كافة أعضاء البعثة، فضلا عن اللهجات المختلفة، فأصبح بالتالى الناطق باسمنا جميعا، كما أن نجاح رحلتنا كان من أبرز همومه، و كأنه ولد ليقوم برحلة إلى شبه الجزيرة العربية، فلم تكن الصعوبات تثنيه، و لا نقص وسائل الراحة يرده عن هدفه. اعتاد أولا على طريقة عيش السكان، و هو أمر ضرورى إذا ما أردنا السفر فى شبه الجزيرة العربية و الوصول إلى الهدف المرسوم، و لا يمكن لعالم عظيم من دونه أن يقوم بالكثير من الاكتشافات فى هذه البلاد. و كان يتوجب علينا إعلام الحاكم بوفاة رفيقنا و شراء مكان لقبره، فأرسلنا خادم قاضى تعز إلى صاحب الدولة و قاضى البلاد، فدلّه هذا الأخير على عربى يمكننا أن نشترى منه مكانا لدفن صديقنا. و باعنا الرجل بالفعل أرضا لكن هذه العملية التجارية لم تتمّ، إذ إن المكان يقع قرب قناة صغيرة تجرّ فيها المياه لرىّ الحقول المجاورة، فهدد الجيران المالك بجعله يدفع الثمن إن شحّت المياه بسبب جسد هذا الإفرنجى. و بما أن الرجل يفضل عدم كسب المال على إثارة غضب و نقمة جيرانه الجهلة، اضطررنا إلى البحث عن مكان آخر و وجدناه بالسعر نفسه. و طاب لصاحب الدولة

بعدها الاجتماع بأحد أعضاء البعثة و التشاور معه، فقال لى إنه يملك و بصفته حاكم هذه المقاطعة، حق الوراثة على تركة اليهود و البانيان الذين يموتون خلال سفرهم فى منطقته، فأجبته أن الميت ليس يهوديا و لا بنيانيا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲۲

إنما أوروبى، و أن صاحب الدولة فى المخا لم يطالبنا بتركة صديق لنا توفى فى مدينته. عندها، شرح لى ابن صاحب الدولة قصد والده، و أعلمنى أنه يتوقع منا على الأقل هدية قيّمة، و حين قلت له إن الأوروبيين لا يدفعون قرشا من دون إيصال، و أننا نحتاج إلى كتاب حول المبلغ الذى يطلبه بسبب وفاة رفيقنا فى مقاطعته، توقفوا عن إزعاجنا بهذا الموضوع. و كان صاحب الدولة يعلم بنيتنا السفر إلى صنعاء، و لعله خشى أن نقدّم شكوى ضده لوزير الإمام إن طالبنا بما لا يحق له طلبه.

و وقعنا فى مأزق كبير عند دفن صديقنا إذ لم نتمكن من إيجاد حمّالين، و إن وعدنا بالدفع بسخاء، و وافقنا على دفنه ليلا، و فى النهاية، حضر ستة رجال. لكنهم لم يحضروا لنقل الجثمان إلا فى الصباح، ما بين الساعة الثالثة و الساعة الرابعة، حين يكون الجميع نياما، و سارعوا إلى تنفيذ مهمتهم خلسة، فاستنتجنا أن المسلمين لا يرضون بحمل رجل من دين آخر و دفنه. أما أنا، فلم أتجرأ على الخروج فى ساعة كهذه، لحضور الدفن، لأننى كنت مريضا، فيما رافقه إلى مثواه الأخير السيد كرامر و السيد بورنفايند، و الخدم الذين رافقونا من تعز، و خادما القاضى و شيخ البلد فى يريم.

و لم نكن لنعتبر أننا أكملنا واجباتنا اتجاه رفيقنا، لو لم ندفنه فى تابوت، لكن كان حريّا بنا أن نلفه بكفن و ندفنه. لأن وجود التابوت دفع العرب إلى الاعتقاد بأن الأوروبيين يدفنون كنوزا مع موتاهم، و هذا ما شاع خبره حين طلبنا بصنع التابوت. و علمنا، فيما بعد فى صنعاء، أن أحدهم نبش القبر بعد رحيلنا من يريم، و كسر التابوت، و سرق الكفن. و حين علم صاحب الدولة بالأمر، أجبر اليهود على إعادة دفن الجثة، و منحهم التابوت حين طالبوا بأجورهم.

و بعد دفن رفيقنا، أخذنا نستعد لمتابعة رحلتنا من يريم إلى صنعاء فى ۱۳ تموز/ يوليو. لكن فى الليلة التى سبقت رحيلنا، هطلت الأمطار بغزارة فلم نتمكن من الانطلاق إلا فى وقت متأخر من النهار، و بعد أن قطعنا ميلا و ۳/ ۸ الميل إلى الشمال الشرقى، وصلنا إلى رباد(Rab d) ، و بعد ميلا و نصف الميل إلى الشمال وصلنا إلى ديقسوب(Dikesچb) ، و من بعدها إلى ذمار(Dam r) بعد أن اجتزنا ميل و نصف نحو الشمال، و هى تقع على جبل صغير يحمل اسم نمارا(Numara) . إذا، تبعد يريم عن ذمّار أربعة أميال، و لقد لزمنا ست ساعات لنصل إليها، أما طريقها فحجرية، و أرضها قاحلة. و صادفنا فى أماكن مختلفة أناسا يبيعون الكشر للمارة، لكنهم على الأرجح لا يجنون أرباحا طائلة من هذه التجارة، لأنهم لا يعيشون حتى فى أكواخ إنما ضمن أربع شقات جدران، ترتفع قدمين إلى أربع أقدام و من دون سقف.

و بسبب إقامتنا الطويلة فى يريم، كان سكان دمار على علم مسبقا بأننا سنمرّ فى قريتهم لنتابع طريقنا إلى صنعاء. و بما أن البلاد لم تشهد زيارة أوروبيين منذ سنوات عدة، أثار قدومنا حشرية الشعب، حتى أنهم لاقونا على مسافة ربع ميل خارج مدينتهم. و تزايد عدد الناس، و بما أننا كنا نخشى التعرض للإزعاج فى الفندق من قبل المتفرجين، استأجرنا منزلا لنرتاح و نمضى الليلة التالية، و اضطررنا للانتظار طويلا فى الشارع فتجمهر المواطنون حولنا خارج المدينة، مما دفعنا إلى شق طريقنا بينهم لنصل إلى منزلنا. و عمل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲۳

السيد كرامر الذى ركب البغل المهدى إليه من صاحب دولة المخا على فتح الطريق لنتمكن من المرور.

فوقع البعض على الأرض، و أخذ الموجودون يتهامسون حول وقاحة الكفّار. و سارعنا فى الوصول إلى منزلنا، و رشق بعضهم بابنا و نوافذنا، أو على الأصح فتحات النوافذ إذ لا يعرف العرب استخدام الزجاج، بالحجارة، فأرسلنا خادمنا إلى الشارع لتفريق الجموع، لكننا لم نسترح إلّا لفترة. و أردنا طلب حرّاس من صاحب الدولة، لكن قيل لنا إنه لا يملك إلا ۳۰ جنديا و أنه يخشى المواطنين. و لم يظن أحد أننا فى خطر، و قيل لنا إنّ هناك عددا كبيرا من الطلاب فى الشارع، يودون رؤيتنا، و أنهم أرادوا لفت انتباهنا برشق نوافذنا

بالحجارة. و زارنا شيخ البلد، و طلب من السيد كرامر أن يعطيه بعض الأدوية، و أملنا أن يتوقف رشق الحجارة احتراما لهذا الرجل الجليل، لكنهم استمروا فى ذلك. و بما أن شيخ البلد و صاحب المنزل ارتأيا أنه ينبغى ترك الشباب و شأنهم، أوصدنا الأبواب و النوافذ، فملّوا هذه اللعبة.

و تقع ذمار فى منطقة خصبة و منبسطة، اشتهرت فى اليمن بمرابط الخيل الجميلة، و هى عاصمة إقليم مشارب العنز(Me ?chareb el Anes) و بالتالى مكان إقامة صاحب الدولة. و نجد فيها جامعة شهيرة للمسلمين، و تسمى الجامعة الزيدية، و أكدوا لى أنها تضم حوالى ۵۰۰ طالب شاب، أى إنهم يتعلمون فيها القراءة و القرآن. و نشاهد قرب المدينة قصرا ضخما، أما المدينة نفسها فمفتوحة، و واسعة، و حسنة البنيان، و أشك أنها تحتوى على ۵۰۰۰ منزل كما يؤكد شيخ البلد. و يعيش يهود هذه المنطقة على طريقة أهل البلاد فى قرية خارج المدينة، و نجد بعض البانيان الذين يعيشون بين المسلمين كما فى المدن اليمنية الأخرى. و لم يحط بطبيبنا هذا العدد من المرضى فى أىّ مكان آخر من اليمن، و بما أنه رفض مغادرة المنزل بسبب الإهانة التى لحقتنا حين رشقوا منزلنا بالحجارة، أحضروا له مريضا على فراشه إلى المنزل، و سافر آخر معنا إلى صنعاء بسببه.

و يجرى على مسافة قريبة من ذمار نهر صغير، و يتوجه نحو الشمال ليضيع فى رمال بلاد يوف(Yof) ، و لعله من الأنهار التى تتجمع فى بلاد مأرب(Mareb) فى سدّ أهل سبأ القديم . و نجد فى الشرق، على بعد أميال من دمار، جبلا يسمى حيران(Hirr n) ، حيث نجد أحجارا ناعمة، لونها أحمر قان، و يقع هذا الجبل إلى شمال غرب المدينة. و لقد ذكرت هذا الحجر الكريم فى وصف شبه الجزيرة العربية.

وقع خادمنا الأوروبى فريسة المرض فى يومنا الأخير، و لم يقو على السفر إلى صنعاء معنا، لذا تركناه فى ذمار كى يتبعنا على مهل بحسب ما تسمح له قواه. و حين لحق بنا، اشتكى من أنه لم يجد مأوى أثناء محنته لأن العرب خشوا أن يموت عندهم فيتحملوا عناء دفنه، لكنه وجد الكثيرين ليؤجرّوه حميرا و يسافروا معه بالبطء الذين يشاؤه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲۴

و فى اليوم التالى (۱۴ تموز/ يوليو)، سافرنا ليوم كامل تقريبا باتجاه الشمال، حيث نجد إلى شرق الدرب الذى سلكناه سهلا واسعا، و إلى غربه جبلا أجدب. و رأينا على بعد ۵/ ۸ الميل من ذمار، و إلى الشرق، قرب الطريق: قرية مواهب(Mawahheb) التى يقيم فيها الإمام، و التى زارها كاتب رحلة إلى شبه الجزيرة العربية السعيدة فى بداية القرن. كما نجد إلى غرب الدرب قرية تسمى ماضى(Madi) ، و بقى علينا اجتياز ربع ميل لنصل إلى سمسرا. التى تبعد عن قرية ممراد(۸ /۳ (Mamrade الميل، و تبعد هذه القرية عن قرية سعاد(۴ /۳ (Sau d الميل. و إذا ما سرنا ميلا فى منطقة المستنقعات هذه، لوصلنا إلى سمسرا التى تحمل اسم سعاد، و من بعدها يمسى الدرب حجريا، و قلما نجد حتى سراج على بعد ميلين، سهولا مزروعة. و نصادف من هذا المكان الأخير و حتى صنعاء، و قرب القرى كلها، عددا كبيرا من الحدائق المزروعة بالكرمة الجميلة و الشهية فضلا عن فواكه أخرى، فى حين أن الجبال جرداء و قاحلة.

و تبعد ذمار عن سراج، وفقا لتقديرى ثلاثة أميال أو ستة فراسخ و ۳/ ۴ الفرسخ، و هطلت الأمطار الغزيرة أثناء رحلتنا كما تساقط البرد مترافقا مع عواصف رعدية عنيفة. و لم نجد هنا أيّا من المنازل التى يستخدمها المسافرون كمأوى أثناء العواصف و التى نصادفها فى إقليم اليمن الأعلى، كما لم نر فى ذاك اليوم سوى مجلس واحد قرب سمسرا.

فى ۱۵ تموز/ يوليو، توجهنا نحو الشمال لكن الدرب لم يكن سهلا كما فى الأيام السابقة. انطلقنا من سراج، و سرنا ميلا و ۳/ ۴ الميل فى الجبل، و وصلنا قرية عودى(Audi) على الحدود التى تفصل إقليم سراج عن بلاد شولان الصغيرة. و نجد على مقربة من هذا المكان قرية صغيرة تدعى حدّاثة(Hadd sa) ، و تقع على تلة وعرة حيث نقشت، كما يقال، كتابات مثيرة للاهتمام على حائط قديم. و كنت قد علمت فى تعز، أننا نرى كتابات عبرية فى بلاد عنز لأن المسلمين لا يعرفون أى حرف منها، و لأنهم لم يسمعوا بلغة

أخرى غير العبرية، باستثناء الكوفية و العبرية و العربية، لذا يظنون أنها باللغة العبرية. و وعدنى جمالونا و مكاريونا باصطحابى لرؤيتها، لكنى كنت أظن أن بلاد عنز هو اسم قرية، و علمت فى ذاك اليوم أنه اسم إقليم، فاستعلمت من أحد المواطنين و علمت أن هذه الكتابات موجودة فى حداثة. و كنا قد تجاوزنا هذه القرية بحوالى فرسخ و نصف، و أخفى علىّ الجمّالون و المكاريون الأمر عمدا كى لا أؤخرهم فى رحلتى. و علمت لاحقا فى صنعاء من يهود رأوا هذه الكتابات مرات عدة، أن الحروف ليست حروفا عبرية و أنهم لم يتمكنوا من فهمها شأنهم فى ذلك شأن المسلمين. و بما أن حداثة تقع قرب الطريق المؤدى من المخا إلى صنعاء، أودّ لو يتكبد أى أوروبى، يسافر إلى تلك البلاد، مشقة نسخ هذه الكتابات، لأنها قد تكون من زمن الحميريين، و قد تساهم فى تسليط الضوء على كتابة هذه الأمّة و اكتشافها. و يعتقد يهود صنعاء أنهم رأوا كتابات أخرى مجهولة فى نقيل أسور(Nakil Assur) إلى الجنوب الغربى من صنعاء.

و نجد قبالة حداثة قرية تدعى كمن(Komen) ، و تؤدى الدرب منها إلى سمسرا تسمى ظيلة(Dsile) ،?

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲۵

يجرى قربها نهر يبقى داخل البلاد. و نجد على مسافة قريبة من هذا المكان مقهى مقيل(Makil) ، على بعد ۳/ ۴ الميل من عودة. و قطعنا من مقيل ۷/ ۸ الميل و وصلنا سمسرا التى تحمل اسم سنان(Sinn n) و تقع فى سهل واسع، و يلزمنا ۳/ ۴ الميل لنبلغ نجدا و هو مكان مهجور تقريبا إلا فى اليوم الذى يقام فيه السوق حيث يقصدها التجّار الصغار و العمّال فيجدون أكواخا فارغة أو أماكن محاطة بسور منخفض.

و نجد فى الجوار قرية صغيرة تدعى مسعود(Messaud) ، ثم سرنا فى نجد ميلا فوصلنا إلى سيّان(Seiyan) و هى قرية كبيرة، عدد من منازلها مهدم. و يأخذ أمراء عائلة الإمام حصة من مردود مسعود و سيان. و يبعد هذان المكانان عن بعضهما، أربعة أميال و نصف أو سبعة فراسخ، وفقا لحساباتى، و لم نر على هذه الطريق سوى مجلس واحد أى خزان تسكب منه المياه للمسافرين.

و بما أن الأمطار لا تتساقط فى هذه البلاد بغزارة كافية لترويها كلها، نجد فى أماكن مختلفة خزانات كبيرة و رائعة من مختلف الأشكال بنيت على سفوح التلال. و يصعب جمع مياه الأمطار من الجبال و التلال فى الأماكن المنبسطة، لذا نرى آبارا عظيمة وضعت فى أعلاها أحيانا ست بكرات الواحدة جنب الأخرى. و تستخدم فى رفع المياه بقوة الذراع لرىّ الحقول، مما جعل الزراعة مضنية و مكلفة.

و لقد أملنا دخول صنعاء فى ۱۶ تموز/ يوليو، و كنا قد اعتدنا على طريقة العرب بعدم ترتيب هندامنا، لكن أردنا الظهور بمظهر حسن فى مكان إقامة الإمام، فارتدينا ثيابا كالأتراك. قبل مغادرتنا سيان، و هى ثياب أفضل من تلك التى نرتديها حاليا و إن لم تكن فخمة. و اتجهنا نحو الشمال الغربى، فوصلنا قرية تدعى ابن عاد(Ibn Had) ، و مررنا قرب أرض شيخ أو نبيل عربى، و بلغنا رامة(Rama) ، و هى قرية تقع على مرتفع، على بعد ميل و ۵/ ۸ الميل من سيان. و يؤدى الدرب من هذه القرية إلى سهل واقع فى الشمال الغربى، و نجد فى هذه المنطقة نهرا صغيرا، تحيط بضفيته السهول الخصبة، لكنه لا يقطع مسافة طويلة، إذ يضيع فى الرمال أو فى الحقول، و يعلو هذا النهر جسر حجرى. و اجتزنا من رامة ۱/ ۸ الميل لنصل إلى مقهى قرب قرية حدّ، حيث يملك الإمام منزلا ريفيا، و حديقة تكثر فيها الدوالى، و أشجار البندق و المشمش و الإجاص و غيرها. و تقع قرية دار سلم(Darshelm) قبالة حدّ(Hadde) ، و تبعد عن أسوار صنعاء حوالى ميل و ۱/ ۴ الميل، و بالتالى تبعد سيان عن صنعاء ثلاثة أميال أو حوالى أربعة فراسخ و ۱/ ۴ الفرسخ.

و فى ذاك اليوم، أرسلنا باكرا أحد الخدم و حمّلناه رسالة موجهة إلى الفقيه أحمد، و هو وزير الإمام، نعلمه فيها بوصولنا، لكنه علم بالأمر مسبقا و أوفد واحدا من أهم كتّابه يستقبلنا على بعد نصف ميل من المدينة. و أبلغنا هذا الموفد بأن الجميع بانتظارنا منذ فترة، و أن الإمام استأجر لنا منزلا ريفيا فى بئر القصب(Bir el Assab) لمدة شهر كامل، و لم يحمل لنا سوى أخبار حسنة. و علمنا أن الفقيه يملك بيتا للراحة فى بئر القصب، و لما وصلنا إلى الحديقة، طلب منا الكاتب الترجل، فظننا أنه سيقودنا إلى الفقيه أحمد و أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲۶

منزله فى الجوار، لكن تبين لنا أنه بقى و الخدم المسلمين على ظهور حميرهم، و أن مسافة طويلة تفصلنا عن المنزل الذى سنقيم فيه، و استقبلنا أسوأ استقبال فى ذاك اليوم كما لم يحصل معنا قط من قبل فى أيـة قرية يمنية. و كان يمكن أن نصادف فى منزل ما، أناسا يوفرون لنا الماء و الخبز، فيما لم نجد فى منزلنا سوى غرف فارغة. و بما أننا كنّا نتوقع دخول عاصمة المملكة فى ذاك اليوم، لم نتزود بالمؤن اللازمـة، و انتظرنا طويلا لنحصل على مرطبات من المدينـة، و كنا نودّ أكل العنب. عـدا ذلك، لم نقم منذ فترة طويلة فى منزل نزه كـذاك الـذى خصـصه لنا الإمام، ففيه شـقق جميلة، و تحيط به حديقة غنّاء تكثر فيها الأشـجار المثمرة التى تبدو و كأنها نمت من دون زراعة، و قد تمّ تنسيقها على الطراز العربى، فلا تجد فيها فيئا أو ممرات.

و فى اليوم التـالى لوصولنا إلى بئر القصب، أى فى ۱۷ تموز/ يوليو صـباحا، أرسل لنا الإمام هديـة، و هى خمسة خراف، و حمل ثلاثة جمال من الخشب، و كمية كبيرة من الشمع، و الأرز، و التوابل المختلفة.

و اعتـذر المكلّف بتقـديم هـذه الهديـة منا، لأن الإمام غير قادر على اسـتقبالنا فى هـذا اليوم و فى اليوم التالى لأنه مشـغول بـدفع أجور جنود حاشـد و بكيـل الخاضـعين له. و لم يؤثر علينا هـذا الخبر إذ لم نقصـد صـنعاء بهـدف تقـديم الطاعـة للإمام بل لزيارة المدينـة و المناطق المجاورة و للتعرف على أناس يعطوننا معلومات حول هـذه البلاد. لكن فرض علينا عـدم الخروج من المنزل قبل مقابلة الإمام، و أثار هذا الأمر استياءنا، إذ لم نشأ تضييع الوقت، و لم نكن واثقين كل الثقة من أن الإمام سيدعونا بعد يومين.

و لم يعلمونا بأن استقبال شخص من أهالى البلاد، قبل مقابلة الإمام، مخالف لأصول اللياقة تجاهه؛ و كنا قد تعرّفنا من قبل على شخص من صـنعاء و هو يهودى، سـافر معنـا من القـاهرة إلى لحيـة. و بـالرغم من أنه من أغنى عائلات اليهود و أهمهـا، رافقنـا كخـادم لتوفير مصاريف الرحلة من جهة، لأن يهود شبه الجزيرة العربية يعرفون قيمة المال كإخوانهم فى أوروبا، و للسفر فى حمايتنا بسهولة أكبر من جهة أخرى، لأن الأتراك، الذين يحجون من القاهرة إلى جدة، يحتقرون اليهود و يسيئون معاملتهم حين يصادفونهم.

و حين علم هـذا اليهودى بقـدومنا، زارنا مع واحـد من أكبر علماء الفلك عندهم، ليشـرح لى الاسم العبرى لبعض النجوم التى ذكرت فى الكتب المقدسة (وصف شبه الجزيرة العربية). و وصل فى الوقت نفسه كاتب الفقيه أحمد، فوقف اليهوديان لكنه لم يسرّ لرؤيتهما، و اسـتاء من كونهمـا تجرآ و دخلا بيتنا قبل أن نقابل الإمام، و طردوهما من بيتنا كما كلّف خـدمنا المسـلمين بمنع دخول أى شـخص كان قبل أن يرانا سيّده. و أثارت هـذه الأعراف العربيـة استياءنا، لكن السـفراء العرب لـدى الملوك الأجانب يلتزمون بها، و لم يرض سفير باشا طرابلس بتوجيه الكلام إلى أحـد عنـد دخوله كوبنهاغن قبل مقابلـة وزير الدولة. و لعل الكاتب المذكور أعلاه ظن أن رفقة اليهود لا تسرّنا كما لا تسعده هو، و أنه أسدى لنا معروفا بطردهم من منزلنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲۷

و فى ۱۹ تموز/ يوليو صباحا، تمّ تبليغنا بأن الإمام سيستقبلنا، و قادنا كاتب الفقيه أحمد إلى قصر بستان المتوكل. و كنا نتوقع أن ندخل على الإمام بحضور بعض ضـباطه و مسؤوليه، لكن فوجئنا بالتحضيرات الكثيرة. و كان فناء القصر يعجّ بالخيول، و المسؤولين، و غيرهم من العرب، و كان من الصـعب علينا شق طريقنا وسط هـذا الحشـد، لو لم يصل النقيب خير الله(Nakib Gheir Allah) ، و هو عبد سابق و مروّض لجياد الإمام حاليا، حاملا عصا طويلـة، ليفسح لنا المجال. أما مجلس الإمام فهو فى قاعة مربّعة و مقببة، و تتوسـطه بركة كبيرة، ترتفع مياه النوافير فيها حوالى ۱۴ قدما. و نجد وراء الحوض تعلية يبلغ طولها قدما و نصف، و عرضـها خمس إلى خمس أقدام فوق مستوى المجلس كله، و يليها إعلاء صـغير يقوم قرب أدراج عرش الإمام مباشـرة. و يغطى السـجاد العجمى الأرض كلها، بما فى ذلك محيط الحوض و العرش، و لم أر على العرش سوى أعلاء رباعى الزاوية مغطى بأقمشة حريرية، وضعت و سائد عريضة و مطرزة وراءه و على جـانبيه. و تربع الإمـام على عرشه بين الوسائـد، على طريقـة الشـرقيين، و كان يرتـدى ثوبا أخضـر اللون، بأكمام واسـعة و طويلة على الطراز العربى ، و علّق على جانبى صدره، ككبار الأتراك، شـبكة ذهبية كبيرة و اعتمر عمامة بيضاء عريضة. و جلس أبناؤه

إلى يمينه و إخوته إلى يساره، فيما جلس الفقيه أحمد قبالته، و بقينا على الإعلاء الأول، و بالتالى على مستوى منخفض بالنسبة للفقيه، و جلس على جانبى القاعة نفر من إخوة الإمام و أولاده و عند الباب عدد من وجهاء العرب، يلاصق أحدهم الآخر.

و قادونا مباشرة إلى الإمام، كىّ نقبّل ظهر يده اليمنى و راحتها، فضلا عن طرف ثوبه، و يسمح الأمراء المسلمون بالأولى و الأخيرة، و هى نعمة عظيمة حين يسمحون للأجانب بتقبيل راحة يدهم. و كان الصمت سائدا فى القاعة، لكن ما إن لمس أحدنا يد الإمام حتى تلفظ أحد البشراء ببعض الكلمات التى تعنى: «ليحفظ الله الإمام»، و ما إن صمت حتى ردد الحضور كلماته بصوت عال. و بما أنى كنت أول شخص فى الوفد، و كنت أحاول التركيز للفظ إطرائى بلغة عربية صحيحة قدر المستطاع، و أخذت أفكر بهذا الحفل الباذخ الذى لم أر يوما مثيلا له فى شبه الجزيرة العربية، و لم أتمكن من إخفاء اضطرابى من هذا الحشد الصاخب، لا سيّما حين أخذوا يصرخون عند ما لمست يد الإمام، لكنى عدت و تمالكت نفسى. و عند ما هتفوا من جديد فيما كان رفاقى يقبلون يد الإمام، تذكرت أن الأمر نفسه يحدث عند ما يصرخ طلّاب الجامعات فى ألمانيا «يعيش» إكراما لشخص ما، و يرددونها مرارا.

و تختلف لغة البلاط فى صنعاء اختلافا عظيما عن لغة العامة فى المناطق الجبلية، فضلا عن تهامة، و لم نكن نتكلم إلا لهجة هذه البلاد الأخيرة و بركاكة، فاستعنا بخادمنا الذى اعتاد سوء لفظنا، و هو رجل من المخا، كناطق بلساننا، فيما ترجم الفقيه أحمد، الذى أقام طويلا فى تهامة و تعلّم اللغة العامية، كلام الإمام.

و لم أتمكن من فهم الكثير من كلامهما، حين كانا يتحدثان معا، و ينطبق الأمر ذاته على خادمنا الذى ولد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۲۸

فى المخا و بالتالى فى هذه المملكة، و الذى أكدّ لنا أنه لم يفهم الكثير من الإمام. و بما أننا لم نتمكن من التحدث مباشرة، إنما عن طريق غرباء، أوجزنا الحديث، و لم نر ضرورة لإعلامهم بأننا قطعنا هذه المسافات الطويلة، فأوضحنا للإمام أننا أبحرنا عبر الخليج العربى لأنه الطريق الأقصر للوصول إلى الهند من أوروبا. و لم ننس أن نذكر، أننا سمعنا الكثير من الإطراء و المديح حول الثقة و الأمن المستتبين فى الدول الخاضعة للإمام، فدفعتنا رغبتنا لرؤية هذه المملكة قبل رحيل آخر سفينة إنكليزية، كى نتمكن، بصفتنا شهود عيان، من الثناء على هذه البلاد. فردّ الإمام مرحّبا بنا فى بلاده، و منحنا حرية الإقامة فيها بقدر ما يحلو لنا أو بقدر ما تسمح به أعمالنا. و بعد أخذ ورد، استأذنا، بعد أن قبّلنا يد الإمام من جديد وسط الهتافات المعتادة، و قطعنا صالة طويلة ثم خرجنا من الباب دون أن نضيف أية إطراءات. و لقد حفرت هذه الجلسة على اللوحة(LXIX) .

و عند عودتنا، أرسل لنا الإمام أحد عشر كيس نقود، واحد منها لخادمنا من المخا، الذى عمل كمترجم لنا، يحتوى على ۹۹ خماسى و هى قطع نقدية تبلغ قيمة كل ۳۲ منها درهما واحدا. و احتفظ الصرّاف لنفسه بدرهم بالمئة، إما لأنها عادة فى البلاد و إما إنه يفعل ذلك من دون علم الإمام. و قد تبدو هذه الهدية التى أرسلها الإمام بالعملة المحلية منافية للياقة، لكن إذا ما اعتبرنا أنّ ما من إنسان يمكن أن يعيش فى هذه البلاد بالدين، أو فى فندق، و أننا مضطرون لشراء حاجاتنا من السوق نقدا و لتحضير طعامنا بأنفسنا، تعتبر هذه الفعلة لطفا منهم اتجاه الغرباء، كى لا يخدعهم الصرافون و لتجنيبهم هذا العناء.

و احترنا فى قبول أو عدم قبول هذه الهدية لا سيّما و أننا لم نشأ العيش على حساب العرب كى لا نعطيهم حجة ليتمنوا رحيلنا، لكن رفضها سيعتبر إهانة لذا قررنا الاحتفاظ بها.

و لا يقابل السلطان، فى تركيا، شخصا ما إن لم يكن الوزير قد رآه، لكن العادة مختلفة فى اليمن فبعد أن نلنا شرف مقابلة الإمام فى الصباح، أرسل الفقيه أحمد بطلبنا بعد الظهر إلى منزله الريفى فى بئر القصب، و طلب منا إحضار الغرائب التى شاهدها معنا الأمير فرحان فى لحية، و بعض أعيان العرب فى المدن الأخرى. لكن هذه النوادر الجميلة لم تكن سوى المجاهر و المحراث، و المناظير، و الكتب العربية المطبوعة، و الألواح، و أدوات الرسم فضلا عن الخرائط الجغرافية و الهيدروغرافية، و الإبر الممغنطة الخ و التى حملناها معنا لاستعمالنا الخاص، لكننا عرضناها لاحقا عن طريق الإمام. و تبينت أن خوفى هذا لم يكن مستندا إلى أىّ أساس منطقى، لأن

الفقيه استقبلنا بتهذيب و أدب بالغين، و أعرب عن إعجابه بما عرضناه أمامه، و طرح علينا بعض الأسئلة التى دلّت على اطلاعه على العلوم أكثر من أبناء بلاده الآخرين، و على كثرة تعامله مع الأجانب من أتراك و فرس و هنود، مما مكنه من جمع معلومات واسعة حول الجغرافيا.

و يظن معظم العرب أن أوروبا تقع إلى الجنوب من بلادهم، لأن السفن الأوروبية التى ترسو فى مرافئهم تأتى من المناطق الجنوبية، لكن الفقيه أحمد يعرف موقع دول أوروبا كافة، و يعرف الدول الأقوى برا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۳۰

و بحرا. و هل يمكن أن نتوقع أكثر من ذلك من عالم فى شبه الجزيرة العربية، لم ير يوما خرائط جغرافية؟

و للرد على اللطف الذى أحاطونا به، و الهدايا الصغيرة التى تلقيناها، و لأننا قرأنا فى كتب عدة أن ما من أوروبى يتجرأ على مقابلة أحد أعيان العرب من دون أن يحمل له هدية، قررنا أن نستغل هذه الفرصة لنقدّم هدية للإمام و للفقيه، و هى عبارة عن قطع ميكانيكية أوروبية كالساعات و أدوات الفيزياء و غيرها، و هى أشياء تندر فى اليمن. و عرفنا لا حقا أنهما لم ينتظرا منا هدية لأننا لسنا تجارا، و لا نطلب أية حظوة من الإمام و إنما من المفترض أن نسافر كالدراويش، لكن الهدية لاقت إعجابهما. يعتبر الأتراك هدية الأوروبيين لهم، إن لم أكن مخطئا، ضريبة يدفعونها، و يظنون أنهم يظهرون لنا شرفا عظيما حين يقدمون لنا قفطانا مقابل هدية مميزة. و نستنتج من المعاملة المميزة التى تلقيناها فى صنعاء أن الإمام و وزيره لا يريدان أية هدية مجانية من الغرباء.

تكثر الأشجار المثمرة فى حديقة الفقيه أحمد، و لم يكن بيته كبيرا جدا، إنما لا حظت أنه مفتوح كليا من جهة الجنوب، فى حين أن الشمس فى هذه المنطقة تتواجد فى أشهر القيظ إلى شمال سمتها. و نجد فى الوسط، قبالة المبنى حوض ماء كذلك الذى رأيناه عند الإمام، و ترتفع المياه فيه أعلى من مياه قناة آب.

كما نجد قرب البئر حائطا يبلغ ارتفاعه ۲۰ إلى ۳۰ قدما، يخفى وراءه أرضا يبلغ انحدارها ۳۰ إلى ۳۶ درجة، يتحرك فيها مكارى و حماره نزولا و صعودا لإخراج المياه. و لا تضفى هذه النوافير جمالا على الحديقة، إنما تساعد فى ترطيب جو المنزل و تبريده، و هى نعمة فى بلد حار كهذا. و رأينا فى حدائق أعيان صنعاء نوافير كهذه أيضا.

و تقع مدينة صنعاء على خط عرض ۱۵؟، ۲۱؟، و على سفح جبل يحمل اسم نقوم(Nikkum) أو لقوم(Lakkum) ، نرى عليه بقايا قصر قديم، بناه سام، على حدّ اعتقاد العرب، و يجرى فى جهة أخرى، أى فى غرب المدينة، جدول صغير. و نجد من جهة الجبل القصر الواقع، بحسب ما أكدوا لى، على تلة خمدان(Chomd m) الشهيرة، و يمتد إلى جانب النهر بستان المتوكل، و هو حديقة فسيحة، أو على الأصح ضاحية بناها الإمام المتوكل، و زينها الإمام الحالى بقصر بناه فيها. و يحيط بالكل حائط واحد، أو بالأحرى، حاجز من تراب، مغطى بالصلصال، و يعلو فوقه عدد من الأبراج الصغيرة يبعد الواحد منها عن الآخر ۶۰ قدما. و تفصل الأسوار المدينة عن القصر من جهة و عن بستان المتوكل من الجهة الأخرى. و لا تعتبر مساحة المدينة و القصر، إذا ما استثنينا بستان المتوكل، شاسعة، و يمكننا زيارتها بساعة و ثمانى دقائق.

و أردت رسم خارطة المدينة بدقة، لكن حين كنت أتجول فى الشوارع، كانت الحشود تحيط بى، تدفعها إلى ذلك حشريتها، و تسير معى كيفما تحركت، فرأيت أنه من الأفضل، فى ظروف كهذه، عدم استعمال البوصلة لكنى رسمت خارطتها على اللوحة(LXX) . و للمدينة أربعة أبواب هى: ۱) باب اليمن(۲ (El Yemen) باب السبع(۳ (B b es Sebb) باب شعيب(B b Scha چ۴ (b) باب السران

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۳۲ .(B b es Str n)

و لم يفتح الباب الأخير و الذى يؤدى إلى القصر منذ سنوات عدة، كما نجد أيضا ثلاثة أبواب صغيرة أخرى هى ۵) باب الشرارة(B b ۶ (Sch r ra) باب الحديد(۷ (B b Hadid) باب الصغير(B b Sogair) . يبدو أن عدد السكان فى صنعاء مرتفع، كما نجد فيها

عددا كبيرا من الحدائق و بالتالى قد لا يكون حرم المدينة مبنيا بالكامل. و لم ألاحظ سوى تسع إلى عشر مآذن تعلو المساجد، و يقوم الجامع أو الجامع الرئيس فى وسط المدينة تقريبا و تعلوه مئذنتان. أما المساجد الأخرى فبمئذنة واحدة و تحمل الأسماء التالية: المدرسة(El M drasse) ، صلاح الدين(Salech eddin) ، الطعس(El Tha s) ، و البكيرى(El Bekirie) ، فضلا عن مسجد القصر. و قد بنى بعض هذه المساجد باشاوات أتراك، كما شيّد الإمام الحاكم حاليا مسجدا جميلا، و جرّ إليه الماء للرجال و الحيوانات، و بنى إلى جانبه ضريحا صغيرا لرفاته. و لا يتعدى عدد الحمامات الكبيرة الاثنى عشر حمّاما، لكن نجد فيها قصورا رائعة بنيت على الطراز العربى و منها: بستان السلطان، و دار الفتح التى شيّدها الإمام الحالى. و نجد بالقرب منها قصر الإمام المنصور، و أبنية عظيمة أخرى تملكها عائلة الإمام الكبيرة و أعيان آخرون. إن القصور العربية لا تبنى بما يتلاءم و الذوق الأوروبى، لكنها مبنية من الآجر المشوى و بعضها من الحجر فيما تبنى بيوت العامة فى صنعاء من الصلصال . و أظن أنى لم أر زجاجا فى فتحات النوافذ إلّا فى قصر واحد، أما نوافذ المنازل الأخرى فمزودة بمصراعيين يبقيان مفتوحين فى أيام الصحو و مغلقين أثناء موسم المطر، و يدخل النور إلى المنازل عبر نوافذ صغيرة مستديرة تعلو المصراعين. و نجد فى منازل أعيان العرب زجاجا مرسوما عليه، يستقدمونه من البندقية.

و نجد فى صنعاء، كما فى كافة المدن الكبرى التجارية فى الشرق، نزلا للتجّار و المسافرين، فضلا عن ساحات خاصة أو أسواق يباع فيها الخشب، و الفحم، و الحديد، و العنب، و القمح، و الزبدة، و الملح و الخبز.

و لا ـ نرى فى سوق الخبز سوى النساء، كما نجد فى صنعاء سوقا حيث يمكنك أن تستبدل بثيابك القديمة ثيابا جديدة. و يملك البضائع تجار من الهند و بلاد فارس و تركيا، فضلا عن أولئك الذين يبيعون التوابل على أنواعها، و الأدوية، و الذين يبيعون أوراق القات(K d) ، و الفواكه المجففة أو الطازجة من إجاص و مشمش و دراق و تين الخ، و النجارون، و الحدادون، و الإسكافيون، و الخياطون، و صانعو السرجّ و الحجّارون، و الصاغة، و الحلاقون، و الطباخون، و مجلد و الكتب، و حتى الكتّاب الذين يخطون عريضة للإمام لقاء بضعة قروش أو لبعض الأعيان، فضلا عن أنهم يعلمون الأولاد و ينقلون الكتب، أماكنهم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۳۳

المحددة فى محالهم الصغيرة المحمولة. أما خشب البناء فمرتفع الثمن فى اليمن و لا يقل خشب التدفئة عنه غلاء فى صنعاء لأن الجبال جرداء، فيتطلب نقل خشب التدفئة يومين إلى ثلاثة أيام ليصل إلى المدينة، و تبلغ كلفة حمل الجمل الواحد عادة درهمين، لكن يتم التعويض عن نقص الخشب بالفحم الحجرى.

و رأيت الكثير من الخثّ فى تلك البلاد، لكنه سيىء للغاية فيضطرون إلى خلطه بالقش ليؤججوا النار فيه.

و تكثر الفواكه فى صنعاء، إذ نجد فى أسواقها أكثر من عشرين صنفا من العنب، و بما أنها لا تنضج فى وقت واحد، يمكننا أن نشترى عنبا جديدا خلال أشهر عدة من السنة، كما يقوم بعض العرب و بعض الأتراك فى الأناضول بتعليق عناقيد العنب فى سقوف الأقبية، فتتوفر هذه الفاكهة اللذيذة على مدار السنة. و يعصر يهود المنطقة العنب لصنع النبيذ، و يمكنهم الحصول على كميات ضخمة فيجعلون منها بالتالى تجارة مربحة شأنهم فى ذلك شأن أرمن شيراز. لكن يبدو أن العرب كالفرس يكرهون المشروبات القوية، فيضطر اليهود إلى اتخاذ إجراءات عدة عند ما يريدون تزويد البعض بالمشروبات فى المدن الأخرى، إذ يعاقبون بشدة إذا ما تمّ العثور على النبيذ بحوزتهم و هم ينقلونه إلى أحد العرب. و يتم تجفيف الكثير من العنب لتصديره، و من بينها عناقيد عنب بيضاء تبدو و كأنها من دون بزور، لكن نجد فى داخلها بدل البزر القاسى حبوبا طرية لا ـ نحس بها أثناء الأكل إنما يمكن رؤيتها عند قطع حبة العنب.

و يقع قصر صنعاء كما ذكرت سابقا على تلة حمدان التى اشتهرت فى الماضى، و يقسم إلى جناحين يحملان اسم دار الذهب و دار عمر. و رأيت الكثير من بقايا الأبنية القديمة، لكنى لم أكتشف أية كتابات كوفية و بالتالى حميرية، لأن البيوت القديمة فى صنعاء، كما فى المدن القديمة الأخرى التى سكنت دوما، هدمت ليبنى مكانها بيوت جديدة. و يقيم الإمام عادة فى المدينة، لكن بعض أفراد

عائلته يعيشون فى القصر.

و يضم القصر المبنى الذى تسكّن فيه الأموال، و سجون مختلفة، كبيرة و صغيرة للأعيان أو للعامة، و لم يسمحوا لى برؤية أعلى مكان فى القصر، أى مركز المدفعية، و كأنه أمر فريد للغاية، و رأيت بالفعل شيئا لا فتا و هو مدفع هاون ألمانى قديم، كتبت فوقه بعض السطور، و هى كتابات رهبانية محاها الزمن تقريبا. و رأيت فى هذا المركز ستة إلى سبعة مدافع حديدية صغيرة، ثبت أكبرها فى الرمل، و الأخريات على ركائز مكسورة. و يعلو كل من الأبواب الثلاثة أى باب اليمن، و باب السبع، و باب شعيب مدفعان يستخدمان فى المناسبات الكبرى. و تقتصر المدفعية الثقيلة فى عاصمة اليمن على الأسلحة التى ذكرتها آنفا.

و تقع بئر القصب إلى الشرق من صنعاء، و هى قرية أو ضاحية، فيها مسجد كبير تزيّنه مئذنة، و تتوزع بيوتها فى الجنائن قرب جدول صغير. و يمتد فى الشمال على بعد فرسخ و نصف أو فرسخين من صنعاء، سهل يحمل اسم روضة(Rodda) تحيط به الحدائق و تجرى فيه جداول صغيرة. و يشبه موقع هذا المكان موقع مدينة دمشق، فى حين أن صنعاء التى شبّهها المؤرخون العرب بدمشق تقع على ربوة قاحلة جرداء جزئيا. و بعد موسم أمطار طويل، يجرى جدول صغير آتيا من تنام(Tanaim) ، و يمرّ فى المدينة، ليكمل طريقه إلى الشمال نحو بلاد جوف، لكنه كان جافا كليا حين كنا فى صنعاء. و نجد أقنية مياه، تمتد من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۳۴

جبل نغوم(Nikkum) ، و تتوزع على المدينة و على القصر، فلا تشح المياه فى أى فصل من فصول السنة، فالمياه رفاهية تحاول مدن الشرق كلها الحصول عليها، إما لأن المياه مشروب المسلمين الرئيسى، و إما لأن المؤمنين بهذه الديانة مجبرون على الاغتسال غالبا.

و لا يبقى اليهود فى مدينة صنعاء، إنما يعيشون فى قرية كبيرة خاصة بهم تسمى قاع اليهود(dچKda el Ih) ، و تقع قرب بئر القصب، و يبلغ عددهم ۲۰۰۰ يهودى. و يعامل اليهود فى اليمن باحتقار كما فى تركيا، لكنهم أمهر الصاغة و الفخارين و العمّال يقصدون المدينة ليعملوا أثناء النهار فى محالهم الصغيرة و يغادروها عند المساء إلى منازلهم. و نجد بين اليهود عددا من التجار الأثرياء، و منهم رجل يدعى أراكى(Or ki) كسب ثقة الإمامين، و شغل منصب المفتش الأول للجمارك، و الأبنية و الحدائق لمدة ثلاثة عشر عاما أثناء حكم المنصور و لمدة خمسة عشر عاما أثناء حكم الإمام الحالى، و هو مركز مهم للغاية فى صنعاء. لكن قبل وصولنا بسنتين، غضب عليه الإمام الحالى، فسجن و أجبر على دفع غرامة بلغت قيمتها ۵۰۰۰۰ درهم، وفقا لما يقوله اليهود، و فى الوقت نفسه، تمّ هدم اثنا عشر معبدا من المعابد الأربعة عشر التى يملكونها. و كان فى هذه القرية منازل جميلة كمنازل الأعيان المسلمين فى صنعاء، لكنهم هدموا تلكم التى يتعدى ارتفاعها ۱۴ ذراعا، و منعوا أى يهودى من بناء منزله بارتفاع يتجاوز الأربعة عشر ذراعا. و بما أن المشروبات الروحية تحفظ هنا، كما فى شيراز فى بلاد فارس، داخل جرار كبيرة من الفخار، قاموا بكسر الجرار مسببين لهم المزيد من الأضرار. و أطلق سراح المدعو أراكى قبل وصولنا بخمسة عشر يوما، و قدّم له الإمام، استنادا إلى أقوال اليهود، ۵۰۰ درهما. و هو رجل عجوز، يملك معارف واسعة، و يرتدى ثيابا زرقاء اللون ككافة يهود اليمن، و لا يلفّ قلنسوته بأى شاش أو عمامة، و أكدوا لى أنه يفضل تغيير طريقة لباسه بالرغم من أن الإمام سمح له بذلك. و خصّنى بصداقته، بعد أن روى له أحد خدمنا الذى رافقنا من القاهرة إلى مخية، و هو من أقاربه، الكثير عنا، و كان قد خرج لتوه من السجن فلم أجرؤ على زيارته مرارا كما كنت أتمنى.

و يعيش فى صنعاء حوالى ۱۲۵ بانيانيا، و يضطرون لدفع ۳۰۰ درهم للإمام شهريا، فى حين لا تدفع قرية قاع اليهود سوى ۱۲۵ درهما. عند ما يموت أىّ بانيانى فى صنعاء، يدفع ورثته للإمام ۱۰ إلى ۱۵ درهما نقدا، و إن لم يكن للفقيد أقرباء فى اليمن، تعود تركته كلها للإمام. و يروى البانيانيون أن اثنين من أبناء دينهم، زجّا فى السجن، منذ بضعة أشهر، فدفعا للإمام ۱۵۰۰ درهم من تركة ورثاها فى الهند و لم يقبضاها بعد، كى يطلق سراحهما. و لعل الإمام طلب هذا المبلغ لسبب آخر لم يرد البانيان الاعتراف به، لئلا يقروا بذنب اقترفوه. و هذا أمر موجود فى تلك البلاد كما هو موجود فى أوروبا.

يزور سلطان القسطنطينية المسجد أيام الجمعة عند ما تسمح له صحته بذلك فيتبع إمام صنعاء هذه العادة الدينية أيضا فيقصد المسجد

فی موکب بهیّ، لکننا لم نره إلا فی طریق العودة، إذ وصف لنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۳۵

بطریقة غریبة لأنه یسلک الدرب الطویل، و ینضم للموکب عدد کبیر من الذین أدّوا واجباتهم الدینیة فی المساجد الأخری. و لقد غادر الإمام الجامع الرئیس بعد أن أدّی الصلاة فی ذاک الیوم (۲۲ تموز/ یولیو)، و توجه عبر باب الیمن إلی باب شرارة(Sch r ra) و منه إلی خارج المدینة. و یسبق الإمام بضع مئات من الجند، و یحمل الخدم إلی جانب الإمام و کل أمیر من عائلته مظلة أو شمسیة کبیرة، و هی مزیّة لا تحقّ إلا للأمراء الأقحاح، لذا لا یسمح السلطان فی القسطنطینیة إلا لوزیره بالحصول علی نوع من الجندول المغطی من الأمام لاتقاء حرارة الشمس. و یقال إن الأمراء المستقلین فی أقالیم الیمن الأخری کمشایخ یافع و حاشد و بکیل، و شریف أبی عریش و غیرهم، یخصصون خدما لحمل هذه المظلة(Mad lla) کدلیل علی استقلالهم. و یتبع الإمام، فضلا عن الأمراء، حوالی ۶۰۰ رجل من الأعیان، من رجال دین و علماء، و عسکریین، یمتطی بعض منهم جیادا رائعة، و یرافق عدد من الشعب الإمام سیرا علی الأقدام. و یسیر إلی جنب الإمام حملة الأعلام من الجهتین، لکنها أعلام مختلفة عن تلک التی نراها فی بلادنا أو تعلوها مجمرة عطور صغیرة من الفضة، و یقال إنها تحمل تعویذات تجعل الإمام لا یقهر. و ینتشر حملة البیارق مع مجمرات ضمن المسیرة لکن لا یبدو أن لها مکانا محددا؛ باختصار کانت المسیرة ضخمة و رائعة جزئیا، لکنها غیر منظمة بحسب ما بدا لی، إذ یرکض البعض، و یمتطی البعض الآخر الجیاد، و یتداخلون من دون مراعاة أی نظام. و علی مقربة من باب شرارة، وقفت جمال، تحمل هوادج فیها بعض نساء الإمام اللواتی یشارکن بالمسیرة لکن یقال إنها کانت فارغة و أنها نقلت إلی خارج المدینة کی لا یخالفوا العادة، و یتبع هذه الجمال بعض الإبل غیر المحملة، لا یحمل الواحد منها علی سرجه سوی أعلام للزینة و أطلق الجنود عیارات ناریة عند باب خرارة بارتباک لم أشهد له مثیلا فی الیمن. و بما أنی کنت مریضا، لم أشأ التعرض لأشعة الشمس و أنا أتجول هنا و هناک، فعدت علی أعقابی إلی بئر القصب. و أجری الجنود بعض العروض العسکریة أمام منزل الإمام، و أظهر مسؤولوهم براعة فی السباق، و لم یجد السید کرامر، الذی حضر الاستعراض، الجنود أبرع من أولئک الذین شاهدناهم مرارا فی الأقالیم، و یکون ذلک عند عودة صاحب الدولة من المسجد. و تقفل أبواب المدینة کلها أثناء الصلاة- علی ما یبدو- للسبب نفسه الذی یدفع الأوروبیین لإقفال مدنهم خلال الوعظ، و لیس خوفا، کما قرأته فی بعض الروایات، من أن یفاجئهم المسیحیون نهار الجمعة کما تقول نبوءة مزعومة.

و استقبلنا فی صنعاء بلیاقة و صداقة لم نکن نتوقعهما، و أراد بعض الأعیان إقناعنا بالبقاء لعام آخر فی الیمن، و بعدم الإبحار مع السفن الإنکلیزیة. و لم نکن لنخشی شیئا من الشعب لو قررنا اتباع هذه النصیحة، لکن بما أن الموت حرمنا من الأستاذین و لم نعد نأمل باکتشافات جدیدة حول اللغة و التاریخ الطبیعی للبلاد، و بما أننی رأیت القسم الأکبر من مدن هذه المملکة المهمة و وضعت مشروع خارطة جدیدة خاصة بالیمن، و بما أننا عرفنا سمات البخل عند الإمام الحالی، و بعد أن تعرضنا لمشاکل عدة مع صاحب دولة تعز و المخا،- و لو أننا لم نعد نخشی هذه الأمور- و بعد الصعوبات الدائمة التی و اجهناها،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۳۶

و تغییرات الطقس و الماء التی تعرضنا لها فی الجبال و السهول، فمرضنا الواحد تلو الآخر، قررنا التوجه إلی المخا و منها إلی الهند حفاظا علی أرواحنا و أوراقنا. و حصلنا علی إذن مغادرة صنعاء علی إذن مغادرة صنعاء ساعة نشاء، لکن کان ینبغی أن نستأذن وفقا للأصول و أن نعرض علی الإمام فی الوقت نفسه ما شاهده الفقیه أحمد سابقا مما أخّر سفرنا لأیام عدة.

و أرسل بطلبنا للمرة الثانیة فی ۲۳ تموز/ یولیو، و اقتدنا إلی القاعة نفسها فی بستان المتوکل حیث قابلنا الإمام فی المرة السابقة. لکن الأمور حصلت فی صمت تام ذاک الیوم، و جلس الإمام علی الارتفاع الأول، لا أمام العرض، إنما فی إحدی جهات القاعة علی کرسی أوروبی، صنعه هندی من القصب فی صنعاء.

و قبّلنا راحة یده و ظهرها، وفقا لعادات العرب، فضلا عن انحناء علی مستوی الرکبة، و لم یکن حاضرا سوی الفقیه أحمد و الکاتب

الذى أحضرنا و ستة إلى سبعة عبيد و خدم. و لم يسمح لأى من خدمنا بالدخول، لأن الفقيه أحمد اعتبر أنى قادر على التكلم بالعربية. و بدا أن ما عرضناه على الإمام أثار إعجابه، و طرح علينا أسئلة حول التجارة و الفنون و العلوم فى أوروبا، و تمّ إحضار علبة مليئة بالأدوية قدمها إنكليزى للإمام فشرح السيد كرامر اسم كل دواء و كيفية استعماله و أمر الإمام بكتابة ما ذكره الطبيب بالعربية.

و غادرت المنزل مريضا، و ازدادت حالى سوءا من الوقوف طويلا، فطلبت الإذن للخروج من القاعة، و وجدت أمام الباب عددا من ضباط البلاط، يجلسون على حجارة فى الفيء و من بينهم النقيب خير الله الذى تحدثت معه فى السابق مرات عدة. و ترك لى هذا الأخير مكانه و أخذ يحمل بعض الحجارة لبناء مقعد آخر لنفسه، و طرحوا علىّ العديد من الأسئلة حول عادات الأوروبيين و تقاليدهم و من بينها عادة شرب الكحول التى لم ترق لهم. لكن حين أكدت لهم أن السّكر ممنوع على المسيحيين أيضا، و أنهم يعاقبون على ذلك، و أن ما من أوروبى عاقل يشرب أكثر مما تسمح به صحته، أغضبتهم هذه العادة أكثر من قوانينهم التى تمنعهم من شرب الكحول نهائيا فى حين أنها تكثر فى بلادهم، و أنهم يشربونها أحيانا كعلاج. وعدت إلى القاعة، و استأذنا من الإمام بالطريقة نفسها التى دخلنا بها عليه، بعد أن شرح له السيد كرامر كيفية استعمال الأدوية و أجبنا على أسئلة عدة. و بعد الظهر، و دعنا الفقيه أحمد و بعض الأعيان.

إن لسلوك الدرب الذى يمرّ عبر يريم و تعز، فى طريق العودة من صنعاء إلى المخا، سببا وجيها و مهما و هو نسخ كتابات حراتة و جعفر التى أعتقد أنها كتابات حميرية، لكن بما أن الهدف الأول للرحلة ليس البحث عن الآثار، و بما أنى لا أجد عادة سوى بقايا غير مهمة حيث يعلمنى العرب بوجود آثار شهيرة و كتابات غريبة، اخترنا أن نسلك الدرب الذى يمر فى موفاق(Mo ?fh k) و فى بيت الفقيه. و باختيارى هذا الطريق، سأتمكن من تحسين خرائطى عن اليمن، و سنتمكن من رؤية تهامة فى فصل آخر من السنة أى فى موسم الأمطار. و لم يكتف الفقيه أحمد، الذى عرضنا له صراحة أننا نفضل الوصول إلى بيت الفقيه عبر طريق لم نسلكها من قبل، بإعطائنا حرية اختيار طريقنا، بل وعدنا بأنّ يؤمّن لنا الإمام الحمير و الجمال.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۳۷

ثم فى ۲۵ تموز/ يوليو، أرسل الإمام لكل منا لباسا عربيا كاملا، أى قميصا و سروالا، فضلا عن رسالة موجهة إلى صاحب الدولة فى المخا كى يدفع لنا مئتى درهم نقدا كهدية وداع. و خشينا أن يظن الإمام أننا، وفقا لعادة رائجة بين الأتراك، لم نقصد صنعاء سوى لكسب المال لرحلتنا، أو أننا قدمنا له الهدايا ليرد لنا الصاع صاعين. لكن حين نتذكر المشاكل التى تعرضنا لها عند وصولنا إلى المخا، و أننا اضطررنا إلى دفع ۳۰ دوكا من البندقية لإخلاء سبيلنا، اهتممنا بهذه الحوالة التى ما إن أعطيناها لا حقا لصاحب الدولة حتى أرسلنا إلى صرافه، و هو بانيانى، فدفع لنا المبلغ كاملا عن غير طيب خاطر.

و بالكاد صدّقنا الفقيه أحمد حين قال لنا إن الإمام سيهتم بأمر تحضير الحمير و الجمال لرحلتنا، و خشينا أن تنطلق آخر سفينة إنكليزية قبل وصولنا، لذا أردنا استئجار الدواب بأنفسنا، على أمل أن يسرّع ذلك بعودتنا إلى المخا. و تحدثنا مع كاتب الفقيه أحمد الذى شرح لنا كلام سيده، و أعلمنا بأن الإمام سيتكفل فقط بنقل أغراضنا على حسابه الخاص، و بالتالى استأجرنا حميرا لنا و لخدمنا، و لم نكن واثقين من أننا سنجد جمالا أخرى فى موفاق، فاتفقنا مع الذى أجّرنا الجمال على أن ينقل أغراضنا إلى بيت الفقيه.

و اعتقدنا أننا جاهزون للانطلاق فى ۲۶ تموز/ يوليو، لكن فى ذاك اليوم، و عند الصباح، أعلمنا الكاتب المذكور آنفا أنه يتوجب علينا دفع نصف درهم إضافى عن كل جمل للوصول إلى بيت الفقيه، فوافقنا على أمل ألا تتأجل الرحلة. و وصلت جمالنا، لكنها لم تكن بحالة جيدة، فشككنا فى أن تصل و متاعنا إلى بيت الفقيه، و قال لنا الجمّالون، الذين يجهلون أمر الصفقات المعقودة بين الكاتب و صاحب عملهم، إنهم سيعودون مع جمالهم من موفاق. و هكذا، وقعنا فى ورطة جديدة، و لم يكن بإمكاننا تحميل أغراضنا قبل التحدث إلى الكاتب و مؤجر الجمال أو بالتالى رئيس البريد عند العرب، لكن لم نجد أيّا منهما.

و بالرغم من أننا نكره إزعاج الفقيه أحمد الكريم، اضطررنا إلى عرض حالتنا عليه و اكتشفنا الخدعة، فقد أعطى الفقيه كاتبه رسالة

مفتوحة موقعة من الإمام فى أعلاها لا فى أسفلها، يؤمّن لنا بموجبها فى كل أقليم نمرّ فيه، جمالا أبدالا و رأس غنم (على حد تعبير العرب) . كما تلقى الكاتب لبعثتنا بعض الهدايا التى لم يأت على ذكرها، و بما أننا كنا على عجلة من أمرنا، لم نتمكّن على الأرجح من الاتفاق بسرعة مع صاحب الإبل حول تقسيم الأموال المخصصة لدفع بدل الإيجار. لكن فى أثناء ذلك، طلب من الكاتب عدم تأخيرنا، و هكذا أحضر لنا رسالة الإمام المذكورة، و بعض الأقمشة لخدمنا العديدين، أما الثياب المخصصة لنا فوعدنا بتسليمها فى غضون ساعات قليلة، لكننا فضّلنا الرحيل فورا لبلوغ المخا بسرعة. إذا، احتفظ الكاتب على الأرجح بهذه الهدايا الأخيرة التى تعود لنا، فضلا عن المال المخصص لاستئجار حميرنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۴۰

و يشبه اللباس الذى تلقيته من الإمام لباس أعيان العرب فى اليمن، و قد رسمنا طريقة لباسهم على اللوحة(LXXI) . يرتدى العرب القميص فوق سروال واسع، ثم يلبسون سترة أكمامها ضيقة و فوقها معطف واسع (عباءة)، و يضعون فى زنارهم خنجرا. و ظنّ بعض أصدقائى الأوروبيين الذين رأوا هذا الخنجر، أن العرب يستخدمون هذا السلاح كما يستعمل البحارة سكاكينهم، لكنى رسمت استعمالاته على اللوحة المذكورة أعلاه. أما السلسلة التى تدلت من الخنجر فليست سوى سبحة يستخدمها المسلمون أثناء صلاتهم، كما يستعملونها للتسلية فى أوقات الفراغ. و يعتمر سكان اليمن عمامة عريضة للغاية، تتدلى من الخلف ما بين أكتافهم، كما ذكرت سابقا فى وصف شبه الجزيرة العربية، و لا يرتدون الجوارب إنما ينتعلون الحذاء أو الخفّ مباشرة.

و يبدو أن الأتراك يعرفون- أفضل منا- كيف يستغلون سخاء الإمام، إذ يتوجه الكثير من الحجاج الفقراء من هذه الأمة، من جدة إلى مخيّة أو إلى الحديدة و منها إلى صنعاء حيث يتحمل الإمام نفقتهم من أربعة إلى خمسة أشهر، كما يحصلون منه على سفتجة (حوالة)، يدفعها لهم بعض أصحاب الدولة فى أحد مرافىء البلاد كى يتمكنوا من العودة. و لا يعطى لهم هذا المبلغ الأخير على الحدود، إلا ليتأكدوا من أنهم سيغادرون البلاد و لن يتحمل نفقتهم أكثر. و عرفت بعض هؤلاء المتسولين الطفيليين، فضلا عن يونانى مرتد من عامة الشعب فى بيت الفقيه، حصل على كمبيالة بعشرة دراهم يدفعها له صاحب الدولة فى الحديدة، بعد أن أقام لفترة طويلة فى صنعاء على نفقة الإمام. كما عرفت تركيا عمل فى القاهرة لحساب شخص يدعى عبد الرحمن كخيا، و تبع سيده إلى مكة، ثم توجه من جدة إلى الحديدة و منها إلى صنعاء على أمل أن يعيّنه الإمام فى منصب رفيع فى جيشه، إذ يعتبر الأتراك أنفسهم بارعين للغاية فى ركوب الخيل و فى الحرب، و يظنون أن عرب اليمن محظوظون إن تمكنوا من ضمّ ضابط تركى إلى جيوشهم. لكن الإمام أنفق عليه لفترة فى صنعاء، و أرسله عائدا إلى الحديدة، كما خصص له مبلغا من المال ليعود إلى البصرة. و رأيت هذا التركى عند عودتى من الهند فى قافلتنا المتوجهة من ديار بكر إلى حلب، فروى لى أنه توجه من الحديدة إلى البصرة على متن أحد مراكب مسقط التى تقوم سنويا برحلة إلى اليمن لشراء البن، و أنه رأى كافة المرافىء الواقعة إلى جنوب شبه الجزيرة، و أن الطريق ليست أخطر من الطريق المؤدية من جدة إلى اليمن. و أدرجت هذه الملاحظة للمسافرين الذين يعتبرون أن هذه الطريق لا يمكن سلوكها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۴۱

الرحلة من صنعاء إلى المخا

غادرنا صنعاء فى ۲۶ تموز/ يوليو، و قطعنا مسافة ميلين و ۷/ ۸ الميل نحو الجنوب الغربى، كانت الطريق و عرة و الجبال جرداء قاحلة. أما القرى التى رأيناها فهى أسوّر(Assur) و تقع على جبل يحمل الاسم نفسه، و يحطنة(Ochte ?na) ، و المسائل(El Mis kil) ، و مند(Mund) ، و نزلنا فى قرية موطن(Mo ?ttene) .

فى اليوم التالى ۲۷ تموز/ يوليو، سلكنا أسوأ طريق عرفته فى اليمن، إذ يمرّ عبر جبال صخرية، و لم يصلّح منذ قرن، و نجد على هذا الجبل قرية حقيرة تدعى يافل(Yafil) . و تبعد قرية بعن(Bo n) ميلا واحدا عن موطن، و حالها ليست أفضل من الأخرى، لكن نجد

فيها نزلا مبنيا من الحجارة، و يقام قربها سوق يوم الجمعة. يجرى قرب هذه القرية جدول صغير، يتوجه نحو الشرق، لكنه لا يلبث أن يغيّر اتجاهه، و يلتقى بجداول أخرى فيعظم و يحمل اسم خان(Schan) . و تبعد بعن عن سوق الخميس حوالى ميل و نصف و بالتالى تبعد موطن عن هذا المكان ميلين و ۲/ ۸ الميل إلى الجنوب الغربى تقريبا. و يحاذى جزء كبير من هذا الدرب جبالا جرداء، تحيط بها و ديان و قرى عدة من الجهة الجنوبية، لكنى لم أعرف سوى اسم قرية واحدة و هى كملان(Kamelan) . و يقام فى سوق الخميس سوق كل نهار خميس، و نجد فيها نزلا كبيرا، و مجلسا قرب القرية (خزانات مياه صغيرة للمسافرين)، و هو أول مجلس صادفته خلال هذه الرحلة.

و تتبع هذه القرية إقليم حيم(Heim) الواقع إلى الشمال الغربى من هذا المكان، و يحاذيها إقليم بلاد عنز فى الجنوب الشرقى.

و سرنا فى ۲۸ تموز/ يوليو، فى طريق منحدر للغاية، تعلو هذه الجبال بعض النباتات و الأشجار، و صادفنا على هذه الطريق إبلا محملة بخشب سيىء للتدفئة تتجه نحو صنعاء. و لم نقطع فى ذاك اليوم أكثر من ميل و ۳/ ۸ الميل من قرية خميس و حتى موفاق. و لم نر على هذه الدرب سوى قرية واحدة تحمل اسم حدين(Hadein) و مجلس يقوم بقربها. و عند الواحدة بعد الظهر، اجتاحت جحافل الجراد المنطقة لكن هبّت عاصفة قوية ترافقت مع أمطار غزيرة استمرت طوال الليل فأبعدتها.

تقع مدينة موفاق الصغيرة على قنّة جبل وعر، و نجد على سفحه بعض المنازل التى يأوى إليها المسافرون عادة، و هى على خط عرض ۱۵؟ ، ۹۶. يقيم فى المدينة صاحب الدولة الذى يقدم حسابا عن إيرادات هذه المقاطعة لأحد أبناء الإمام، لكن الحامية و القضاء خاضعان للإمام. و أوفدنا خادم صاحب الدولة فى تعز و خادم قاضيها ليحملا رسالة الإمام إلى صاحب الدولة فى المدينة، فحضّر الجمال اللازمة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۴۲

لإكمال رحلتنا إلى بيت الفقيه، و قدّم العشاء لخدمنا و حصلنا على علف لحميرنا، و رأس غنم لعشائنا، كما دفع إيجاز منزلنا.

فى ۲۹ تموز/ يوليو، توجهنا من موفاق إلى سهّان(Seh n) ، فسرنا ميلين و ۵/ ۸ الميل إلى الجنوب الغربى تقريبا. يحاذى الدرب الجبال حينا، و يمر فوقها حينا آخر، لكنه سيىء معظم الوقت فاحتجنا إلى خمس ساعات على الحمير، و احتاجت الجمال لثمانى ساعات لقطعه. و تقع قرية جرانى(Dsjurani) قرب موفاق، فيما تفصل مسافة قصيرة بين سهان و قريتى يوان(Yoan) و منقلا(M ngala) . و نجد بين موفاق و سهان، ستة خزانات كبيرة، تتجمع فيها مياه الأمطار لتستخدم للشرب لكنها غير صالحة فى بعض المواسم لأن الخزانات نادرا ما تنظف، و لا تغطى أبدا. و هبت عاصفة هوجاء، بعد الظهر، ترافقت مع سقوط أمطار و برد كثيف.

و رأينا فى ذاك اليوم، عائلة متشردة، و هى المرة الأولى التى نصادف عائلة كهذه فى اليمن، و لم يكن يملك هؤلاء أىّ خيام، إنما يكتفون بالتخييم تحت شجرة ما، و يجرّون وراءهم الحمير و الكلاب و الغنم و الدجاج.

و نسيت أن أسأل عن الاسم الذى يطلق على هذه الجماعات التى تشبه إلى حدّ بعيد جماعات الغجر، لأنهم لا يبقون مطولا فى المكان عينه، بل ينتقلون من قرية إلى قرية يتسولون و يسرقون. و يتصدق عليهم الفلاحون بطيب خاطر كى يتخلصوا منهم بسرعة، و تقدمت منا فتاة حاسرة عن وجهها طالبة منّا حسنة.

فى ۳۰ تموز/ يوليو، غادرنا سهان، و كان إقليم موفاق إلى الجنوب الشرقى من الدرب التى سلكناها، فيما كان الجبل و إقليم حرّاث(Harras) إلى الشمال الغربى. و أخذ الدرب يسوء، لكنه تحسّن فيما بعد، و أصبح متعرجا حول الجبال إلى الجنوب الغربى تقريبا. و تقع حالسى(Halesi) على جبل حراث قرب سهان، و بعد ساعة، وصلنا إلى معبر ضيّق بالكاد يمرّ منه جمل واحد. نجد على جهتى هذا الدرب صخورا و عرة، و قد حفرت مياه الأمطار التى سقطت بغزارة فى الليلة الماضية، فى هذا المضيق حفرة بلغ عمقها سبع إلى ثمانى أقدام، مما جعل عبوره مستحيلا على جمالنا و حميرنا. و فقد العرب الذين يرافقوننا الأمل بالوصول، و بغياب أى سبيل آخر فى الجوار، رأى معظمهم أنّ علينا العودة إلى صنعاء، و منها إلى ذمار و تعز. لكن بما أننا لم نشأ سلوك هذه الدرب الطويلة، و بما أنّ

الوقت لا يسمح لنا بذلك، قررنا إقامة جسر فوق هذه الحفرة، فتفاجأ العرب من مشروع كهذا، ظنّا منهم أنه يتطلب على الأقل يومى عمل.

و باشرنا بالعمل، فأخذنا نجمع الحجارة، و ساعدونا بعد أن رجونا بعضهم و قطعنا و عودا للبعض الآخر، و بعد ساعتين و نصف من العمل الجاد، تمكّنت جمالنا و حميرنا من المرور. و يعتقد العرب الذين يرافقوننا، أن صاحب الدولة الأول فى اليمن، لو وصل إلى هذا المعبر لفضّل العودة إلى صنعاء على القيام بعمل كهذا.

و على مسافة قريبة من هذا المكان، وصلنا إلى مقهى يدعى أدورة(Eddora) ، و وقفنا قربه على أرض

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۴۳

مزروعة بالبن، و هى الأولى التى أراها منذ ۲۹ آذار/ مارس. و أمضينا الليلة فى قرية بائسة تدعى سمفور(Samfچr) ، بنيت منازلها من حجارة مكوّمة، و غطّت السطوح بالقصب، و بالتالى ليست مسطحة بل على الطراز الأوروبى، و رأينا هنا كما فى تهامة هياكل أسرّة تأخذ شكل الأرائك. و تقع القرية على بعد ميلين و ۳/ ۴ الميل من سهان. و يحمل النهر الصغير، الذى رأيناه قرب بعن، هنا اسم وادى سهان، و كانت مياهه كثيرة فقطعناه بصعوبة على ظهور حميرنا، و يجرى هنا أيضا بين الصخور، لكن مجراه عريض.

و فقدت البوصلة فى مأوانا فى سمفور، لذا لم أتمكن من تحديد موقع الأمكنة بدقة من هنا و حتى بيت الفقيه كما لم أتمكن من ذلك على الدروب المتعرجة من صنعاء إلى هذا المكان. و أعتقد أننا فى ۳۱ تموز/ يوليو، توجهنا نحو الغرب. حيث تبعد سمفور عن مقهى يدعى كعبة(K ba) نصف ميل تقريبا، لكن الطريق غير سالكة فى هذا الفصل لعمق المياه و سرعتها فى الأماكن التى تلتطم فيها بالصخور الوعرة. و لا يتوفر الأمان فى هذه المنطقة على الطرقات، لذا اضطررنا للبقاء قرب متاعنا. و ينفصل الطريق المؤدى من صنعاء إلى مخيّة هنا عن ذاك المؤدى إلى بيت الفقيه، و يجرى النهر نحو الشمال. و تبعد كعبة عن فيل(Fil) حوالى ميل و نصف الميل، و رأينا على هذه الدرب الكثير من البيلسان الذى ينمو من دون زراعة لأن سكان اليمن لا يعرفون فوائده.

و صادفنا فى نزل فيل عددا من الحجاج العائدين من مكة، و من بينهم عربى من مدينة دوان(Doan) الواقعة على بعد ۲۵ يوم سفر إلى الشرق من صنعاء بحسب ما قيل لى، و على بعد ۱۲ يوم من كشين(Keschin) ، و بالتالى فى منطقة لا يعرفها الأوروبيون إطلاقا. و أسفت لأنى لم أتمكن من البقاء مع هذا العربى لوقت طويل، و لأن لغته بدت لى غريبة. و بدا لى أنه لا يعرف فقط موطنه حضرموت بل يعرف مناطق أخرى بعيدة كالحبشة(Habbesch) التى عاد منها للتو. و يبعد مقهى فيل عن هجير(۴ /۳ Hadsjir) الميل، و يمرّ الدرب عبر واد أخضر، يحمل اسم سير(Seir) ، حيث تصبّ المياه من الجبال المجاورة، بعد تساقط الأمطار الغزيرة، فى وادى سهان. و تقع هجير على جبل فى إقليم جابى(Dsje ?bi) ، و نجد فيها نزلا جيدا و مسجدا و الثانى مياه الشرب للماشية، و تستخدم مياه الثالث للاغتسال و التنظيف. و يغطى الاخضرار هذه المنطقة كما تقوم فوق الجبال قرى كبيرة، و تبعد سمفور عن هجير ميلين و ۳/ ۴ الميل استنادا إلى الحسابات السابقة.

فى الأول من شهر تموز/ يوليو ۱۷۶۳، وصلنا موضعا بعيدا بعض الشىء عن هجير، حيث ألفينا نبعا ضخما يشكل جدولا، لكنه لا يلبث أن يضيع فى وسط الدرب على بعد حوالى ۲۰۰ خطوة مزدوجة ، ثم يعود و يظهر من جديد بحجم أكبر، و يقطعه بعد ذلك حجر عريض، فيكمل جريانه من جهة فيما يضيع القسم الآخر فى الرمل، و لا يختفى الساعد الأول كليا بقدر ما رأينا، لكن المنسوب يتراجع فيه للغاية، فلا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۴۴

شك أن جزءا من الجدول يضيع تحت الأرض، و لعلنا لم نكن لنراه أبدا فى هذه الأمكنة لو أتيناها فى غير موسم الأمطار. و يجرى هذا الجدول المسمى قلاب(Kul be) من الجبل، و يتوزع فى تهامة على الأرياف المحيطة، ثم يختفى كليا، و بالتالى لا يصل إلى الخليج العربى علما أن الآثار التى يتركها على الصخور تشير إلى أنه يعظم كثيرا فى هذا الأقليم، بعد أن تتساقط الأمطار بغزارة و لوقت

طويل.

و تبعد هجير عن مقهى يحمل اسم أبى كرش ميلا و ۳/ ۴ الميل إلى الغرب و الجنوب الغربى انحدارا، و يؤدى هذا الدرب إلى منحدر صعب على بعد ميل و ۳/ ۴ الميل، و يمرّ عبر وادى كلاب(Wadi Kul be) حتى حدود تهامة. نرى بعض الجبال الصغيرة بين الحين و الآخر إلى الشمال، و تغطى المنطقة الذرة التى يصنع منها العامة فى اليمن خبزهم. بينى العرب فى المناطق الجبلية خياما فى الأشجار لحراسة حقولهم، فيما يجعلون لها فى تهامة أربعة قوائم مرتفعة للغاية يعلوها سقف .

بعد أن تركنا المكان المذكور آنفا، اتجهنا نحو الجنوب الغربى، و وصلنا حدود تهامة، و بعد ميل و نصف الميل بلغنا مقهى أنجور(Andsjor) ، بعد أن قطعنا وادى رما(Rema) . و بعد تساقط الأمطار، يلتقى هذا الوادى بوادى حنش و يحملان معا اسم وادى عباسى(Wadi Abassi) الذى يصب فى الخليج. و تتكوّن الجبال، فى بلاد انجور، من حجارة مخمّسة الزوايا كتلك التى رأيتها فى ۱۹ آذار/ مارس فى كحم(Kachme) و فى ۲۱ آذار/ مارس على جبال البن قرب هادى(Hadie) ، و انفصلت بعض هذه الحجارة عن الجبال و تجمعت على سفحها حيث وجدناها. قطعنا ۷/ ۸ الميل لنصل من أنجور إلى قرية متاهن(Matt hen) ، و رأينا بين هذين المكانين، واديا صغيرا، يختفى لا حقا و لا يصل إلى البحر. و تركنا بعض أعضاء البعثة و بعض الخدم مع المتاع فى متاهن، و ركبنا حميرا استأجرناها هنا، و قطعنا فى تلك الليلة ميلين و نصف الميل لنصل إلى بيت الفقيه، و بالتالى سرنا فى ذاك اليوم سبعة أميال و ۱/ ۸ الميل. و تقع بين متاهن و بيت الفقيه على القرى التالية: قتف(Kitf) ، ضرب(Djurb) أبو برثن(Abuberten) ، و رحتن(Rachten) ، فضلا عن وادى الحنش. و بما أن القسم الأكبر من بيت الفقيه التهمته النيران فى ۱۰ نيسان/ أبريل، فتوقعنا ألّا نجد سوى صحراء قاحلة، لكنهم أعادوا بناء غالبية المنازل أو على الأصح الأكواخ، كما تمّ تشييد منازل حجرية تقاوم النيران.

وصلت جمالنا إلى بيت الفقيه صباح الثانى من شهر تموز/ يوليو، و أبلغنا صاحب الدولة بوصولنا، و رجوناه أن يأمر بتحضير الجمال التى نحتاجها لإكمال رحلتنا. و أراد خدمنا العرب طلب المؤن منه كى يأكلوا على حساب الإمام أو على الأرجح على حساب أهالى المنطقة و كى يظهروا مكانتنا الرفيعة عند الإمام فى صنعاء، لكن بما أن هذه المدينة أحسنت استقبالنا من قبل و قدمت لنا المساعدة، لم نسمح لهم بذلك و اكتفينا بطلب رأس غنم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۴۵

كنت قد رأيت من قبل الطريق المؤدى من بيت الفقيه إلى المخا، و رسمت خارطة له، و نظرا إلى أن الحرارة مرتفعة للغاية فى تهامة، و بالتالى مضرّة لنا بعد اعتدال المناطق الجبلية، رحنا نسافر ليلا و نرتاح أثناء النهار. و ليلة الثالث من شهر آب/ أغسطس، صادفنا على الطريق بين بيت الفقيه و زبيد، رجلان يسوقان ستة حمير محملة بالمال الذى تلقاه تجّار بيت الفقيه من مصر و تركيا لقاء البنّ الذى يرسلونه من المخا إلى خارج البلاد بغية شراء البضائع من الهند، مما يدلّ على أن أهالى هذه البلاد لا يخشون اللصوص.

فى ۳ آب/ أغسطس، اضطر صاحب دولة زبيد إلى تزويدنا بالمؤن و الجمال لإكمال رحلتنا إلى المخا.

و ظننا أننا سنجد منسوب المياه فى وادى زبيد، فى هذا الفصل من السنة، مرتفعا، فألفيناه جافا قرب المدينة، لكن تمّ تحويل المياه فى الجنوب إلى بعض الحقول المحاطة بسدود عالية، حيث حفظت فى حفر عميقة. و لا يدعون المياه على الأرجح تجرى فى وادى زبيد قبل ريّ كافة الحقول المجاورة، و قد تمّ بناء الحواجز المحيطة بالسهول المذكورة آنفا بطريقة فريدة. فبعد فلاحة الأرض، يربط العرب ثورين بثلاثة حبال أو ثلاث سلاسل حديدية يربطونها بخشبة عريضة للغاية، و تجرّ هذه الخشبة على الأرض المفلوحة لتمتلىء، فينقلونها إلى الحاجز المذكور كما أظهرنا فى الصورة أ من اللوحة ۱۵ فى وصف شبه الجزيرة العربية. و لم نصل شرج(Scherdsje) سوى فى منتصف الليل، و بعد أن ارتحنا قليلا، أكملنا سيرنا نحو مشيد(Mauschid) ، التى غادرناها فى ۴ آب/ أغسطس عند المغيب، و دخلنا المخا فى الخامس من الشهر نفسه عند التاسعة صباحا و قد أضنانا التعب.

و استعجلنا فى رحلتنا كى لا يفوتنا المركب الذى ننوى مغادرة البلاد على متنه، لكنه لم يكن بإمكانه أن يبحر بالسرعة التى تصورناها،

و هكـذا وصـلنا باكرا إلى هـذا الطقس المحرق. و كنت مريضا للغايـة و فى ۸ آب/ أغسـطس و بعد أيام، لزم رسامنا السـيد بورنفايند الفراش، و لحقه السـيد كرامر فضـلا عن كافة خدمنا الأوروبيين. و التقينا هنا صديقنا السـيد فر. سكوت(FR .Scott) ، الذى أمّن لنا مرطبات أوروبية متنوعة أفادتنا فى حالتنا هذه أكثر من أى دواء كنّا لنتناوله لو اضطررنا للعيش كالعرب.

و تقع مدينـة المخا على خط العرض ۱۳؟، ۱۹؟، فى منطقـة جافـة و جرداء لافتقارها للأمطار، و يحيط بها سور. و نجد بين المخا و بئر بليل(Beleile) كما نجـد على طرفى المرفأ، قلعتين مماثلتين مزودتين ببعض المـدافع. و تسـمى الواقعة إلى الشـمال قلعة الطيّار(Kall Tei r) ، تيمننـا بولى مسـلم دفن فى مكـان قريب، و هى القلعـة الأهم و الأعظم، أما القلعـة الأخرى فصـغيرة، و نظرا لأن ضـريح أحد أولاد الشيخ الشاذلى قريب منها حملت اسمه و هى قلعة عبد عرب(Kall Abed Urr b)

و بنى قسم من المنازل الواقعة فى حرم هذه الأسوار من الحجر، و بعضـها شيّد بشكل متين و جميل على طراز المنازل التى رأيناها فى بئر القصب و التى رسمناها على اللوحة(LXVIII) . لكن شاهـدنا داخل المدينة و خارجها منازل حقيرة كالأكواخ العادية فى تهامة و التى رسمنا نموذجا عنها على اللوحة الأولى فى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۴۷

وصف شـبه الجزيرة العربية، كما نجد خارج المدينة العديد من أشـجار البلح التى تتوسـطها حدائق غنّاء منسّـقة. و لقد رسـمت خارطة مدينـة المخا و محيطها على اللوحة(LXXII) ، و تجـدر الإشـارة إلى أننى لم أقس إلّا حرم سـور المدينـة المرسوم قرب الحرف أ، و استنادا إلى سـلم خارطـة القاهرة. و قـد أمّن لى شـخص إنكليزى خارطة المرفأ و معلومات حول العمق المسـجّل للمياه. و تدل الأرقام المدوّنـة على الخارطـة على ما يلى: ۱) باب العامود(۲ ، (B b el Amudi) باب شاذلى(۳ ، (B b Sch deli) باب صغير(B b ۴ ، (Sagair() باب صندل(۵ ، (B b Sandel) باب الساحل(۶ ، (B b Sahhel) مقر إقامة صاحب الدولة، ۷) مقبرة الأوروبيين حيث دفن السيد دوهافن، ۸) الأبراج أو القلاع الصغيرة على طريق موسى، ۹) طريق بيت الفقيه.

و اعتـدت زيـارة الإنكليز فى المخا أكثر من العرب، لـذا لم أقم باكتشافات دقيقـة حول قـدم المدينـة، لكن من المؤكـد أن المخا من المدن الجديدة فى تهامة و أن عمرها لا يتعدى ۴۰۰ عام. و يقال إنه فى ذاك الوقت، كان يعيش فى المنطقة رجل وحيد شهير يدعى الشـيخ الشاذلى و يعتبر مؤسس المدينة. و قد اشتهر بزهده و تقواه، فأخذت الجموع تؤمّ المكان للاستماع لتعاليمه. و رووا لى قصة عنه تقول إن مركبا قادما من الهند و متوجها إلى جدة، رسا فى الجوار، و رأى البحارة كوخا منفردا فى هذه الصحراء فدفعهم الفضول إلى النزول إلى اليابسة و استقبل الشـيخ زواره أحسن اسـتقبال، و قدم لهم القهوة و هى شراب يحبه كثيرا و يعزو إلى منافع عديدة، و اعتبر الهنود الـذين لم يألفوا القهوة هـذا الشـراب الساخن علاجا، و ظنّوا أنه سـيساعد على شـفاء التاجر صاحب مركبهم، و أكّد لهم الشـيخ شاذلى أن هذا الشراب و صلاته لن يشفيا المريض و حسب بل سيؤمنان له ربحا عظيما إن أنزل بضائعه. و تنبأ فى اليوم نفسه، أن مدينة تجارية ستبنى يوما ما فى هذا المكان، و أن الهنود سيقصدونها لبيع قسم كبير من بضائعهم. و بدا هذا الكلام فريدا بالنسبة للتاجر الذى أراد أن ينقل فى اليوم التالى إلى اليابسة كى يرى بنفسه هذا الرجل المميز و يتحدث معه.

و فى اليوم نفسه، زار الكثير من العرب هذا الزاهد لسـماع أقواله، و كان التاجر قد شرب القهوة التى حضّرها له الشيخ و أحسّ بتحسن. و من بين الوفود التى زارت الشـيخ العديـد من التجار الـذين اشتروا حمولـة المركب كلها، فعاد التاجر إلى الهند سـعيدا، و ذاع صـيت الشـيخ بين مواطنيه. و بنى قرب كوخ الشـيخ العديـد من الأكواخ الأخرى و ازداد عـدد التجار الـذين يقصدون المكان عبر البر و عدد المراكب التى ترسو قربه، فتكونت قريـة ثم تحولت إلى مدينـة المخا التجاريـة المعروفـة. و تمّ تشـييد مسـجد كبير يحمل اسم الشـيخ شاذلى فوق ضـريحه الواقع خارج المدينـة. كما يطلق اسـمه على البئر التى تؤمن المياه لعامة الشـعب من الفقراء غير القادرين على دفع المال لشـراء مياه أفضل، فضـلا عن أحـد أبواب المدينة. و تتمتع سـلالته بمكانة بين الناس و يحملون لقب شـيخ تيمنا به، و يقسم أبناء المخا باسـمه عادة، باختصار لن ينسـى هذا الشـيخ طالما المخا موجودة. و أبدى تاجر من مكة، تحدثت معه مرارا فى بومباى، ملاحظة

حول هؤلاء الأولياء لم أكن أتوقعها من مسلم، إذ قال إن الشعب بحاجة لشيء ملموس يحترمه و يخشاه، لذا يقسم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۴۸

الناس باسم محمد بدلا من الله فى مكة و المدينة، و لا أثق بيمين رجل من المخا إن أقسم بالله، و أصدقه إن أقسم باسم الشاذلى الذى يرى ضريحه و مسجده دوما. و لا حظت أن الشعب فى جدة يقسم باسم محمد، و فى المخا باسم الشاذلى، و فى مشهد باسم على، و فى مشهد الحسين باسم الحسين.

و لا يعتبر الشاذلى شفيع المخا و حسب، بل شفيع أصحاب المقاهى المسلمين من أتباع المذهب السنى كلهم. و يقال إنهم يقرؤون الفاتحة كل صباح على روحه، و لا- يعنى ذلك أنهم يتضرعون إليه، إنما يشكرون الله لأنه علّم الإنسان استخدام القهوة عن طريق الشيخ الشاذلى، و يرجون منه أن يرحم الشيخ المذكور و آله .

المخا هى آخر مدينة يمنية بقيت تحت سيطرة الأتراك، و يقال إن العرب لم يستردوها بقوة السلاح إنما اشتروها، و منذ ذلك الحين و هى تخضع للأئمة. جمع أحد أصحاب الدولة فى هذا الأقليم الكثير من الثروات، و أمر بحفر خندق حول المدينة، لكنه طمر فيما بعد، ثم حصّن المدينة، و أظهر ميلا إلى الاستقلال فزجّ فى السجن. و منذ ذلك الوقت، لا يبقى صاحب الدولة فى هذا الأقليم الغنى فى منصبه أكثر من عامين أو ثلاثة. و يضطر إلى تقديم حساباته سنويا بعد الموسم ، و ينتظر عندها فإما أن تجدد ولايته لعام آخر و إما يتم استدعاؤه مباشرة إلى صنعاء. و لم أعرف الكثير عن تاريخ المخا، و جلّ ما عرفته هو أن الفرنسيين قاموا بقصفها مرة، و سأورد لكم سبب ذلك: يسحب صاحب الدولة هنا غالبا، لحساب الإمام، بضائع من الهند من التجّار الذين ترسو سفنهم هنا، أكثر مما يتطلب رسم الجمارك و الرسومات الأخرى التى يتوجب عليهم دفعها، و يعد كل مرة بأن ديون الإمام ستحسم فى العام التالى من رسوم الدخول، لكن هذه الديون تتراكم أكثر فأكثر. و بلغت ديون الإمام للشركة الفرنسية للهند الشرقية ۸۲۰۰۰ درهم، و بما أنها أرادت الحصول على المبلغ، من دون أن تستخدم أساليب تفقدها تجارتها فى المخا، أرسلت فى العام ۱۷۳۸ سفنها التجارية ترافقها سفينة حربية. و أعلم القبطان صاحب الدولة أنهم قصدوا البلاد لبيع بضائعهم، لكنهم لن ينزلوها إلى اليابسة ما لم يقبضوا الديون السابقة، فحاول صاحب الدولة استمالتهم بالكلام المعسول و إقناعهم بإنزال البضائع أولا. لكن الفرنسيين أظهروا ما كان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ۱، ص: ۳۴۹

بمقدورهم، و قصفوا القلعة الشمالية قبل أن يفكر العرب جديا باستخدام العنف. و استؤنفت بعد ذلك المفاوضات و اعتذر صاحب الدولة معللا أنه لا يملك المال و لا أمرا من الإمام بدفع الديون المذكورة، و طلب مهلة مدتها ۱۵ يوما حتى يتلقى ردا من الإمام. و بعد انتهاء المهلة، أطلق الفرنسيون قذيفة نحو منزل صاحب الدولة فقتلوا عربيا، و لم يؤدّ ذلك إلى أية نتيجة، فاستهدفوا المسجد يوم الجمعة فيما كان صاحب الدولة يؤدى صلاته، و قتلوا بعض العرب. عندها فقد المواطنون، الذين دفعوا دين الإمام من دمهم، صبرهم و أجبروا الحكومة على اتخاذ تدابير ترضى العدو. و بعد إقرار المعاهدة، أنزل الفرنسيون بضائعهم و استأنفوا تجارتهم كالمعتاد، و لم يفقدوا سوى أحد الربابنة الذى قتل أثناء نومه أمام باب منزله، على يد جندى مات أحد أهله أثناء القصف فثأر له. (وصف شبه الجزيرة العربية).

و نرى مما تقدم أن صاحب الدولة الذى كان عاجزا عن الدفاع عن نفسه فعل ما بمقدوره لخدمة سيده، لكن الإمام لم يسرّ بما حصل فصادر قصر الأول فى صنعاء . كما لم يسترد تجار من المخا قدموا مبلغا كبيرا لإرضاء الفرنسيين المال الذى دفعوه حتى تاريخ وجودنا فى المدينة.

و يتذكر العديدون هذه المواجهات، لا- سيّما قنابل النار، على حدّ تعبيرهم، التى لا حقت صاحب الدولة، و قد كوّن العرب فكرة عظيمة عن طريقة الأوروبيين فى خوض الحروب. و لو شنت دولة أوروبية هجوما كهذا على مدينة تركية لما سلمت الأمم الأوروبية الأخرى الموجودة فى المدينة من غضب الشعب، و الدليل على ذلك أنه ما إن يقترب مركب من مالطا من مدينة يافا، حتى يدفع

رهبان المدينة جزيات كبيرة. لكن الإنكليز و الهولنديين الذين كانوا فى المخا عند وصول الفرنسيين بقوا فى أمان و لم يتعرضوا للأذية.

لم أسمع بمسيحيين شرقيين يقيمون فى المخا أو فى أىّ مدينة أخرى فى اليمن، إنما نجد فيها يهودا يعيشون خارج الأسوار كما فى تعز، و جبلة و صنعاء و غيرها. كما يعيش فى المخا حاليا من ۶۰۰ إلى ۷۰۰ بانيانى و هندى من الطوائف الأخرى. يعمل قسم منهم فى التجارة فيما يكسب القسم الآخر رزقه من مزاولة بعض الحرف و الأعمال الصغيرة، و يبقى هؤلاء فى اليمن لسنوات، لكن بما أنه لا يسمح لهم باستقدام زوجاتهم، يعودون إلى بلادهم ما إن يجمعوا ثروة. و تحتفظ الشركة الإنكليزية للهند الكبرى ببعض البيوت المستأجرة فى المخا و بيت الفقيه علما أنها لا ترسل عادة سوى مركب واحد لتحميل البن كل سنتين. و لعل تجارتهم فى الخليج العربى لا تدرّ عليهم أرباحا كثيرة، لكن التجار الإنكليز فى الهند يجنون أرباحا طائلة منها، و وصلت إلى المخا هذه السنة، لحسابهم، سفينتان من البنغال، و واحدة من بومباى و أخرى من سورات فضلا عن مركب أبحر من سورات تحت إمرة قبطان إنكليزى، كما أرسل الإنكليز فى السنة نفسها من الهند ثلاثة مراكب إلى جدة. و قد تركوا تاجرا فى المخا لسنوات، لكنه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۰

تعرّض يوما لسوء معاملة من قبل السكان بغياب السفن، فقرر التجار بعد ذلك العودة إلى الهند سنويا و ترك البضائع غير المباعة مع الوسطاء. و لم يبحر الفرنسيون فى الخليج العربى منذ سبع سنوات بسبب حربهم ضد إنكلترا، لكنهم يدفعون بدل إيجار المنازل التى يقيمون فيها عادة فى المخا و بيت الفقيه عن طريق عميلهم فى اليمن، و هو رجل بانيانى. أما الهولنديون فقد أشرنا سابقا إلى أنهم أرسلوا مركبين إلى المخا منذ عامين، فيما لم يعد البرتغاليون، الذين اشتهروا فى الماضى بتجارتهم فى الخليج العربى، يرسلون سفنهم إلى المنطقة.

جئت سابقا على ذكر التجارة و القياسات و الأوزان فى المخا فى وصف شبه الجزيرة العربية. إن التجارة فيها لا يستهان بها، و تدرّ الكثير من الأموال على جمارك الإمام، و يضطر العرب و الأتراك و الهنود إلى نقل بضائعهم إلى المكتب مباشرة، و إخضاعها للتفتيش، فضلا عن دفع ۸ إلى ۱۰ بالمئة من قيمتها، وفقا للنسبة التى يحلو للموظف أن يحددها. و لا يدفع الأوروبيون سوى ثلاثة بالمئة من قيمة البضائع كلها التى ينقلونها من أوروبا و البنغال و الصين إلى المخا، و يحق لهم نقل بضائعهم مباشرة إلى محالهم فيقوم الموظفون بتفتيشها هناك. و منذ أن عظمت سلطة الإنكليز على شواطىء مالابار، و أخذ تجارهم يرسلون من بومباى و سورات إلى المخا البضائع على متن مراكبهم، بعد أن كانت المراكب الهندية تنقلها، أصبحوا يدفعون ثلاثة بالمئة كرسم لدخولها. لكن يضطر تجار المخا إلى دفع الثلاثة بالمئة المتبقية، و هكذا يحافظ العرب على اتفاقاتهم مع الأوروبيين، معززين بالوقت نفسه انتشار التجارة الإنكليزية. و يدفع الأوروبيون ثلاثة بالمئة على تصدير البن و على توضيبه، كما تضطر المراكب التى ترسو هنا إلى دفع رسم تبلغ قيمته بضع مئات الدراهم فضلا عن رسوم الجمارك، و يراعى العرب فى فرض هذا الرسم حجم المركب و عدد أشرعته فيدفع مركب بثلاثة أشرعة ضعف ما يدفعه مركب بشراعين و إن كان بالحجم نفسه تقريبا. لكن يحصل التاجر الذى يحمّل هنا مركبا أوروبيا بالبن على مكافأة قيمتها ۴۰۰ درهم من صاحب دولة المخا.

و استنادا إلى ملاحظات عربية، يهبّ الهواء فى المنطقة دوريا ستة أشهر من الشمال و ستة أخرى من الجنوب، لكن هذا لا يعنى أنهم لا يعرفون رياحا أخرى، ففى شهر آب/ أغسطس، تهبّ الرياح الشمالية، لكنها تتحول أحيانا إلى غربية، و أحيانا أخرى إلى جنوبية غربية، حتى أنها تستحيل جنوبية. و اضطرت السفن الهندية التى كانت تستعد للتوجه إلى جدة و العودة فى العام نفسه إلى الهند، إلى الإرساء فى المخا، كما وصلت إلى المخا سفينتان من سورات بقيادة مسلمين، و أخرى من البنغال بقيادة ربان إنكليزى، فى السنة نفسها لكن فى وقت لا حق، و لم تتمكن سوى السفينة الأخيرة من الوصول إلى مرفأ جدة لأن قبطانها توجه نحو عرض البحر فى وسط الخليج العربى. أما الأخيرتان اللتان أبحرتا فى الوقت نفسه من المخا فاضطرتا إلى العودة إلى هذا المرفأ و إلى الانتظار بضعة أشهر

حتى تهبّ الرياح الجنوبية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۱

أما بالنسبة للسفن الإنكليزية الأربع التى كانت فى المخا هذه السنة، فقد غادرت ثلاث منها نحو الهند عند عودتنا من صنعاء، و عادت أولى السفن التى أبحرت نحو جدة فى ۹ آب/ أغسطس، و الثانية فى ۱۰ و الأخيرة فى ۱۷ من الشهر عينه إلى المخا على أن تعاود الإبحار نحو الهند. و بما أن العرب لا يملكون سوى البن يبادلون به البضائع الأوروبية، و بما أن الهنود لا يستسيغون هذا الشراب كثيرا، عادت السفن بأغلبها إلى الهند شبه فارغة، إلا أن السفن الأخيرة تكسب أكثر عند عودتها منها عند رحيلها، لأن تجار المدينة يؤجلون إرسال ثمن البضائع الهندية حتى تبحر آخر سفينة ، لذا حمل المركب الأخير القادم من جدة على متنه حوالى مليون قرش من جدة نقدا، فيما حمل المركب الذى انتقلنا على متنه إلى المخا ۲۵۰۰۰۰ درهم نقدا، و قد كلّف نقل هذه المبالغ الضخمة الكثير من المال.

و تتألف هذه المبالغ من عملة البندقية و عملة ألمانيا و عملة الأمبراطور و بالتالى من أموال أوروبية، و يمكننا أن نتصور بسهولة أن السفن الإنكليزية و الهندية الأخرى حملت معها مبالغ طائلة من جدة و المخا، كما تعود المراكب من البصرة إلى الهند محملة بالنقود التى انتقلت قبل ذلك من أوروبا إلى تركيا. و إذا ما لا حظنا كمية النقود التى تنتقل سنويا من أوروبا إلى الهند و إلى الصين، هل ينبغى أن نستغرب إذا ما فقدت أوروبا مخزونها من الذهب و الفضة، إذا ما استثنينا كنوز أميركا؟

ذكرت سابقا الأمم الأوروبية التى تاجرت و لا تزالت تتاجر مع المخا، و التى تتمتع بامتيازات فيما يتعلق برسوم الدخول لا ينالها المسلمون، و إذا ما فكرت أمّة أوروبية أخرى بإرسال سفن إلى المنطقة، يسهل عليها نيل التسهيلات نفسها. و عند وصول سفينة غريبة إلى مرفأ المخا، لا ينبغى أن تحيى بطلقة مدفع إنما عليها رفع علمها، فيرسل صاحب الدولة مركبا للاستطلاع و لمعرفة سبب قدومها البلاد. و إذا ما تعرض القبطان لبعض المصاعب، عليه أن يكتفى بالقول إن هدفه هو الوصول إلى الحديدة و إلى مخية، و هذا ما لا يقبله صاحب الدولة بسهولة، خوفا من أن يفقد الهدايا التى يحملها مركب كهذا، و رسوم الدخول التى يدفعها دائما. لكن الدول التى لا تملك مراكز لها فى الهند، لن تجنى الكثير من التجارة فى الخليج العربى، إذ إن البضائع الأوروبية التى يستخدمها العرب قليلة. و ينبغى أن يحمل الأوروبيون، الذين يتاجرون مع المخا، معهم بضائع من الهند، و لا يجدون ما يشترونه بالمقابل سوى البن الذى يمكنهم الحصول عليه بكلفة أرخص مما لو أرسلوا سفينة إلى الخليج لهذا الهدف فقط، و ذلك من المراكب التى تحمّله كى لا تعود إلى الهند فارغة. و يتم استهلاك كمية كبيرة من الحديد فى شبه الجزيرة العربية، كما ذكرت فى (وصف شبه الجزيرة العربية)، و يشتريه الإنكليز من الدانماركك ثم ينقلونه إلى المخا و جدة،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۲

و بالتالى يمكن للدانماركيين ممارسة تجارة مربحة كتجارة الإنكليز مع مستعمراتهم و ذلك عبر بيع حديد أوروبا، و شباك البنغال و بضائع هندية أخرى ينقلونها من ترنكبار إلى الخليج.

و ألفت انتباه كافة التجار الذين يقصدون المخا إلى ضرورة التنبّه للصرّافين المسلمين، و يمكنهم كالفرنسيين و الإنكليز التوجه إلى البانيانيين الذين نجد بينهم تجّارا أثرياء و صادقين، إذ يمكن الوثوق بوثنى أكثر من مسلم. و يحاول تجار المسلمين فى كافة البلاد إغاظة المسيحيين فيغضب هؤلاء و يلومونهم، عندها، يأخذ التجار بالصراخ بحجة أن المسيحى أساء الحديث عن الديانة الإسلامية، و يهددونه بالقضاء فيضطر إلى دفع المبالغ الطائلة كى ينالوا البراءة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۳

سير الرحلة من المخا إلى بومباى

من بين السفن الهندية و الإنكليزية كلها، التى وصلت هذه السنة إلى الخليج العربى، لم يبق هنا إلا سفينة السيد سكوت التى كنا

سنغادر على متنها. كان السيد سكوت يحبذ العودة سريعا إلى الهند، خاصة و أن الرياح تشهد تغيرا ملحوظا؛ غير أن تجار المخا لم يتمكنوا من تسديد المبالغ الكبيرة التي يتوجب عليهم إرسالها إلى الهند؛ و بعد أن دفعوا أجرة السفينة، قبل السيد سكوت بتأجيل الإبحار إلى ظهر ۲۳ آب/ أغسطس. غير أن السيد كرامر و السيد بورنفايند، و خادمنا الأوروبي، كانوا مرضى جميعا متوعكين، و لا أحد سواى قادر على السفر.

و في ۲۳ آب/ أغسطس، استعدّ الربّان ج. مارتن للإقلاع؛ و لكن الرياح القوية منعتنا من الإبحار، كما و أن الحرارة انخفضت بصورة ملحوظة، إذ انخفض محر فهرنهايت إلى ۸۳ درجة، بينما لم يتعد ليلا ۸۸ درجة. و عند الرابعة من بعد الظهر، هدأت العاصفة بعض الشيء، فتمكنا من الإقلاع؛ و لكنها ما لبثت أن عصفت متأخره معيقة بذلك سير السفينة. و في صباح ۲۴ آب/ أغسطس، تحسنت حالة الطقس.

و بعد أن قست ارتفاع الشمس في خط الهاجرة، وجدت أن السفينة تقع على خط العرض ۱۲، ۵؟؟؟، و لما كنا على مسافة ۱۰ أو ۱۲ دقيقة شمالي باب المندب، استطعت أن أقيس عرض هذا المضيق الشهير بسهولة.

فظهر لي أن عرضه خمسة أميال في البقعة الأكثر ضيقا. و تقع في هذا المضيق جزيرة بريم(Perim) ، التي تبعد ميلا تقريبا عن الساحل الإفريقي؛ و يبلغ طول هذه الجزيرة ۳/ ۴ الميل، و هي تضم مرفأ كبيرا.

و مع تقدمنا جنوبا، شاهدنا قرب الشواطىء الإفريقية جزرا صغيرة كثيرة، رسمتها كلها في اللوحة ۲۰ من كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. و لفت انتباهي ارتفاع الجبال المحاذية للساحل الإفريقي على عكس أنوف الجبال الخارجة منها و الداخلة في البحر، في شبه الجزيرة العربية. و تعبر السفن عادة القناة الواقعة بين بريم و الساحل الإفريقي؛ غير أن مجرى المياه كان قويا للغاية، و الرياح كانت عاصفة جدا ففضلنا الاتجاه نحو القناة العريضة الواقعة بين الجزيرة و الساحل الإفريقي؛ و أتيحت لنا بالتالي الفرصة للسير عكس الرياح دون أن نخشى شيئا.

و سأنقل لكم الملاحظات التي دوّنتها خلال عبوري باب المندب؛ أما بالنسبة للسؤال الذي أرسله لنا أحد الوزراء الألمان بشأن الآثار التي تثبت أن طرفي كل من شبه الجزيرة العربية و الحبشة، كانا يلتقيان في مضيق جرفته المياه أو هدمته الزلازل؛ فإنني أعترف بعجزي عن إعطائه ردا حاسما؛ و لا أظن أن الرحالة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۴

على استعداد لإعطاء أجوبة مرضية على هذا السؤال و على الأسئلة الأخرى التي وجهها لنا السيد باستور، إلا بعد مراجعة دراسات الشرقيين و ملاحظاتهم .

و لم نستطع أن نثبت بعد، تحدر الحبشيين من الأصل العربي؛ علما أنهم من الزنوج؛ و قد أكدوا لي أن العرب المقيمين غربي الخليج العربي لم يقترنوا بالحبشيات، و أنهم احتفظوا دوما ببشرتهم البيضاء. و يدّعي بعض العلماء أن الطقس الحار أدى إلى اكتشاف سلالة البرتغاليين المقيمين على الضفة الشمالية اللون الأسود؛ و شاهدت في الهند عددا من هؤلاء البرتغاليين الزنوج؛ لكن إن كان الطقس الحار يؤدي إلى اكتساب هذا اللون الأسود، لماذا احتفظ البرامانيون و البانيانيون و غيرهم من الشعوب الذين يتفادون الارتباط بالأجانب، ببشرتهم البيضاء رغم أنهم يعيشون في منطقة مناخية حارة، شأنهم شأن زنوج أفريقيا و سواحل مالابار؟ و إن تساورنا الشكوك في مسألة اختلاط العرب و الحبشيين بجيرانهم في الأيام الغابرة فعلينا أن نلقي نظرة على كتاب (وصف شبه الجزيرة العربية)، حيث و صفت مركب صيد استعمل في القرون الأولى لعبور باب المندب وصولا إلى الخليج العربي.

ثم في ۲۵ آب/ أغسطس ۱۷۶۳، دخلنا في القناة التي تصل الخليج بالمحيط، على خط العرض ۱۲؟، ۱۹؟. كانت تقع تحت أنظارنا سواحل القارتين، فضلا عن رأس القديس أنطونيوس، الواقع على بعد ۲۱ دقيقة من الجهة الشمالية الشرقية، أي على خط العرض ۱۲؟، ۳۲؟.

و فى ۲۶ منه، راقبنا السواحل الإفريقية و سواحل شبه الجزيرة العربية، انطلاقا من خط العرض ۱۲؟، ۳۲؟؛ و كانت الرياح تتلاءم مع خط سيرنا، حتى أننا استطعنا الانحراف قليلا نحو الشرق. و لا حظنا فى ۲۷ أننا تقدمنا شمالا بعض الشىء؛ فتابعنا سيرنا بخط مستقيم، إلى أن رأينا صباح ۲۸ الجبال على الساحل الجنوبى؛ و كنا عند الظهيرة قد بلغنا خط العرض ۱۲؟، ۰؟. أبحرنا بعد الظهر باتجاه الشرق، و لا حظت ليلا أن ارتفاع القطب لم يتعد ۱۱؟، ۵۸؟، علما أننى قست النسر الواقع شمالا و العقاب جنوبى السمت.

و لقد لاـحظ الرحالة الآخرون، الذين وصفوا رحلتهم إلى المخا، سرعة مجرى مياه هذه القناة؛ و هذا ما أثبتته ملاحظاتنا لأنه كان يدفعنا تارة صوب الشمال و طورا صوب الجنوب؛ غير أن سرعته خفت مع طلوع النهار.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۵

فى ۲۹ منه، كنا على خط العرض ۱۲؟، ۳۰؟، و فى ۳۰ منه، على خط العرض ۱۳؟، ۲۹؟ جنوبى رأس غردافة.

و كانت صحة السيد كرامر تتحسن منذ إبحارنا. أما السيد بورنفايند، فكان مرضه يزداد سوءا إلى أن بلغ منه مبلغا، و لم يعد قادرا على الإجابة على أسئلتنا؛ و استرسل بعدها فى سبات عميق، لم يكن يستفيق منه إلا لتناول الأدوية و الطعام. غير أنه ما لبث أن أسلم الروح فى ۲۹ آب/ أغسطس عند الساعة الحادية عشرة مساء.

و لا داعى لأن أثنى على أعمال هذا الفنان، المتناثرة فى هذا الكتاب، و التى تشهد على مهارته و فعاليته. غير أننى آسف جدا، لعدم تمكنه من العودة إلى الدانماركك، ليقدم أعماله بنفسه للناس.

كان خادمنا برغرن مريضا جدا عند صعودنا إلى الباخرة؛ و قد عمل فى خدمة رجل سويدى، قاد حروبا عدة ضد البروسيين. و عند مغادرتنا من كوبنهاغن، كان يتميز ببنية قوية قادرة على احتمال متاعب الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية؛ غير أنه ما لبث أن أصيب بالمرض و لفظ أنفاسه الأخيرة فى ۳۰ آب/ أغسطس؛ فرميت الجثتين فى البحر.

و بعد عبورنا رأس غردافة، انتقلنا إلى مناخ مختلف كليا، فالهواء كان باردا للغاية إلى حد أننا ارتدينا ملابس سميكة. و كان الهواء شماليا غربيا من باب المندب إلى رأس غردافة؛ غير أنه كان جنوبيا غربيا من هنا إلى ساحل مالابار؛ و إن كان الربّان محنكا، استطاع أن يحدد موعد وصول السفينة إلى سورات أو بومباى، ما إن يبلغ رأس غردافة.

و يدّعى الإنكليز الذين عبروا عدة مرات من ساحل مالابار إلى الخليج العربى، أن المسافة التى تفصل بين بومباى و باب المندب تقع على خط الطول ۳۰ درجة؛ غير أن هذه المسألة لم تتعد ۲۶ درجة فى طريق العودة، نظرا لسرعة مجرى النهر، الذى كان يدفعهم نحو الشرق. أما السفن الأوروبية الأولى، التى أبحرت بهذا الاتجاه، و لم تستطع العثور على ساحل مالابار بفعل الأمطار و الضباب، فقد تعرضت لخطر الغرق على سواحل بلاد الهند. و لكننا نستطيع اليوم القيام بهذه الرحلة، دون التعرض لأى خطر، لأننا نشاهد شرقى بومباى فى قعر المياه، و غربها أفاع مائية، يتراوح طولها بين ۱۲ و ۱۸ بوصة، تطفو على سطح المياه. فما إن يبعد الربابنة ۲۴ درجة شرقى باب المندب، يبدؤون بالبحث عن هذه الأفاعى التى تشير إلى ابتعادهم عن الساحل درجتين تقريبا .

شاهدنا الأفاعى المائية، لأول مرة فى التاسع من أيلول/ سبتمبر؛ فعند الواحدة من بعد الظهر، كان عمق المياه يبلغ ۵۳ باعا؛ و مع اقترابنا من السواحل، راح مستوى المياه ينخفض. حرص الربّان على التقدم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۶

شمالا، لأن الرياح الجنوبية كانت تعيق عملية الإرساء. و بعد عناء و جهد، ألقينا المرساة فى ۱۱ أيلول/ سبتمبر فى مرفأ بومباى، و دخلنا إلى المدينة، صباح اليوم التالى.

علم القراء أن ملك سردينيا، أرسل إلى البلدان الشرقية، مجموعة من العلماء، أثاروا خلافات حادة عند وصولهم إلى الاسكندرية فى مصر، و لم يسمح إلا للسيد دوناتى، الذى كان يترأس المجموعة، بمتابعة الرحلة بينما عاد الآخرون إلى أوروبا. و يبدو أن أحدا لم يسمع شيئا عن السيد دوناتى، حتى العام ۱۷۷۲، لذلك وجدت نفسى مجبرا على ذكر الموضوع. فالذين أتيحت لهم فرصة التعرف

على هذا العالم، فى الشرق، يثنون على مهارته فى التاريخ و على فعاليته فى الأبحاث الأثرية، و أخبرنى القنصل فيرو فى القاهرة القصة التالية: وصل السيد دوناتى إلى القاهرة، آتيا من الإسكندرية؛ و عبر بعدها النيل ليصل إلى مصر العليا. و فى أحد الأيام، غادر سفينته ليرسم بعض الآثار، فاعترض فارسان عربيان طريقه؛ فتوسل إليه خدمه و بعض التجار المرافقين له، أن يعود أدراجه، حتى لا يقع ضحية هذين اللصين؛ غير أنه تابع الرسم، بينما عاد رفاقه إلى السفينة. انقض الفارسان على السيد دوناتى، و حاولا ضربه برماحهما؛ و لكنه كان مسترسلا للغاية فى الرسم إلى حد أنه لم يعرهما اهتماما، و لم تظهر عليه بوادر الخوف منهما. فتعجب الفارسان من تصرفات هذا الرجل؛ فترجلا عن جواديهما، و جلسا بقربه، إلى أن أنهى الرسم، و تركاه بعدها يعود سليما معافى إلى سفينته. و لعل الناس غالوا فى رواية هذه القصة، غير أن السيد دوناتى تابع أبحاثه بثقة و نشاط؛ و على كل رحالة يبغى الاستفادة من رحلة مماثلة أن يحذو حذوه.

قبل ستة أشهر من وصولنا إلى القاهرة قصد السيد دوناتى دمشق، و منها إلى بغداد و إلى البصرة برفقة خادم إيطالى، و شاب من القاهرة يجيد اللهجات الشرقية كلها. و بعد وصوله إلى البصرة، أبحر برفقة أربعة رهبان كرمليين إلى مسقط، على متن زورق إنقاذ صغير، علما أنه لا تكثر فى ذلك الفصل السفن المغادرة إلى الهند. و بعد أن ملّ من مسقط، أبحر ثانية برفقة الرهبان المذكورين آنفا، باتجاه مرفأ مانغلور، على ساحل مالابار. غير أنه مرض فى الطريق، و أسلم الروح بعد ثلاثة أيام، قبل أن يبلغ مركبه المرفأ المذكور. ترك دوناتى مبلغا من المال لترجمانه، حتى يتمكن من العودة إلى مصر، و لخادمه، ليعود إلى إيطاليا؛ فقصد بومباى، و منها إلى مسقط، قبل بضعة أشهر من وصولى إلى المدينة. قبل لى فى البصرة إن تاجرا إنكليزيا اصطحب الترجمان معه إلى حلب. أما الخادم الإيطالى فخسر جزءا كبيرا من أمواله فى بومباى، و اعتنق الإسلام فى مسقط.

يبدو أن السيد دوناتى اتخذ الإجراءات اللازمة، ليبلغ بلاده بآخر أخباره، و يرسل إلى إيطاليا أوراقه و أمواله مع الرهبان الأربعة. و لقد قابلت فى بومباى أحد الرهبان الكرمليين، الذى أكّد لى أنه سلّم أغراض السيد دوناتى إلى السيد فيربير. مما يشير إلى أنهم لم يستلموا شيئا فى تورين، كما و أنهم لم يعرفوا شيئا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۷

عن أخبار هذا العالم العظيم؛ و شاع فى إيطاليا أنه رحل إلى بلاد فارس حاملا معه أمواله كلها، و اعتنق الدين الإسلامى.

و لما كان من الصعب العثور على الأوراق التى تركها السيد دوناتى، علما أنه تمّ استجواب الرهبان الكرمليين، الذين قصدوا عام ۱۷۶۲ أو ۱۷۶۳، ساحل مالابار، فضلا عن نائب ملك غوا، يمكننا الافتراض أن نفقات ملك سردينيا على هذه المجموعات قد ذهبت سدى. أما بالنسبة إلى مجموعتنا، فلم يصل منا إلى بومباى، سوى السيد كرامير و أنا. غير أن الموت ما لبث أن سلبنى رفيقى فى السفر، بعد بضعة أيام من وصولنا إلى هذه المدينة. فلم يتبق بالتالى من المجموعة التى أرسلها ملك الدانماركك إلى شبه الجزيرة العربية سواى أنا. غير أننى أرجو أن لا تؤثر هذه الأحداث على حب الملوك لدعم هذه الرحلات أو على حماسة العلماء للقيام بها. فلو لم يسرع السيد دوناتى بالذهاب إلى الهند، و لو كنا ملقحين ضد الزكام؛ و لو حاولنا أن نعتاد على طريقة عيش الشرقيين؛ و لو أظهر أفراد هذه المجتمعات انفتاحا أكبر تجاه بعضهم بعضا و لم يعرقلوا سير رحلاتنا، لعدنا جميعا إلى أوروبا. و لنفترض أننا متنا فى هذه الرحلة، فإنه لفخر لنا أن نقضى فى سبيل العلم. و إن عدنا سالمين إلى بلادنا استرجعنا بالذاكرة المتاعب التى واجهناها، و الشعوب التى تعرفنا عليها، و التى تختلف صورتها كليا عن تلك التى وضعها لها الأوروبيون.

و فى هذه المناسبة، سأنقل لكم قصة عالم آخر، أرسلته فرنسا إلى الشرق، و لم يسمع به أحد فى أوروبا الشمالية. كان هذا العالم يدعى سيمون، و هو عضو فى جمعية العلوم فى باريس، و يعمل عالما بالطبيعيات و طبيبا و عالم فلك؛ أبحر هذا العالم من فرنسا إلى حلب. و حاول مواطنوه المقيمون فى هذه المنطقة، أن يجعلوا إقامته فيها ممتعة. غير أن رحلته ليست بهدف الاستمتاع برفقة الرعايا الأوروبيين. فقرر عندئذ الانتقال إلى ديار بكر، علّه يستطيع متابعة أبحاثه من غير إزعاج. فلم يقابل فى هذه المنطقة سوى رهبان كبوشيين استقبلوه فى ديارهم بالترحاب؛ غير أن هذه الجماعة كانت تعانى من الانشقاق؛ و أخذ الرهبان ينغصون على السيد سيمون

عيشه، خاصة بعد أن لا حظوا أنه يجنى أموالا طائلة من ممارسة الطب، مقارنة بالمكاسب التى يجنونها. و لما عجز السيد سيمون عن تحمل تصرفات الأوروبيين معه، قرر اللجوء إلى الجامع الأكبر و اعتناق الإسلام. فبذل الرهبان الكبوشيون قصارى جهدهم لثنيه عن مراده، غير أنه أصرّ على الخضوع لعملية الختان. و لعله ظن أن الأتراك سيغدقون عليه المال، نظرا لمهاراته، التى لا مثيل لها فى بلادهم. و رغم أن الأتراك سمحوا له بممارسة مهنته بحرية، إلا أنهم لم يكفوا عن احتقاره لأنه ارتدّ عن دينه و خان بلاده. و عند ذلك، انتقل السيد سيمون إلى بغداد حيث كان يبيع العقاقير، و يمارس الطب. و رغم كل ما جرى له، لم يفقد حبه لمهنته و لعمله. و فى تلك الحقبة كانت بلاد فارس تعانى من الحروب المدنية، فقد اكتسب أحد الضباط الفرس و اسمه نادر شاه: لقب خان، و حاول الفرس بقيادته السيطرة على عدة أقاليم مثيرين بذلك حروبا دموية. ثم أصاب المرض الخان، بعد أن استولى على إحدى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۸

المدن المحاذية للحدود التركية؛ و لما علم بأمر الطبيب الأوروبى المقيم فى بغداد، أرسل بطلب السيد سيمون، الذى رفض تلبية هذه الدعوة. فغضب الضابط الفارسى من رفض الطبيب طلبه هذا، و كان عاجزا عن إخراجه بالقوة من بغداد؛ لذلك استغل فرصة خروجه إلى الجبال لجمع الأعشاب و أرسل رجاله ليقبضوا عليه، و ليرغموه بالقوة على معالجة الخان، لخطورة حالته. و الجدير ذكره أن الفرس لا يدفعون أجرا للأطباء. و إن قضى المريض ألقوا اللوم على الطبيب المعالج. و بعد موت الخان، تعرّض السيد سيمون للضرب و زجّ فى السجن. غير أنه استلم الحكم فى البلاد خان آخر، مصاب أيضا بالمرض؛ و لما علم بوجود طبيب أوروبى فى السجن أطلق سراحه على الفور؛ و بعد أن عالجه، و ساهم فى شفائه، طلب الطبيب من الخان الإذن بالعودة إلى بغداد. فما كان من هذا الأخير إلا أن أجبر السيد سيمون على مرافقته فى غزواته ليقضى الطبيب فى واحدة منها.

و لقد أسف الأوروبيون، الذين تعرفوا على السيد سيمون لموته. الذى كتب للسفير الفرنسى خلال إقامته فى بلاد فارس، فى البصرة رسائل غريبة للغاية، جعلت البعض يقول إنه مضطرب عقليا. و لعله قرر اعتناق الإسلام فى ديار بكر، خلال إصابته بإحدى نوباته المشؤومة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۵۹

سير رحلة هولندى فى مناطق يمنية لم تذكر فى الصفحات السابقة

اشارة

هذا الهولندى هو المرتد نفسه الذى تحدثت عنه فى كتاب (وصف شبه الجزيرة العربية)؛ فقد عرض على الملاحظات الجغرافية التى دوّنها خلال رحلاته فى اليمن؛ و لا حظت أنه يصف فيها مدنا لم أزرها، فطلبت منه نسخة عنها؛ و حرصت على ترجمتها من الهولندية و إدراجها فى هذا الكتاب علما أنها تروق لهواة علم الجغرافيا. غير أننى نسيت أن أدوّن اسم هذا الرجل الطيب، لأننى أصبت بالمرض خلال إقامتى فى المخا؛ و الجدير ذكره أنه دوّن فى نهاية رواياته، الأحرف التالية(DWIIR) ؛ و هى تمثل الأحرف الأولى من اسمه.

I- الطريق المؤدية من صنعاء إلى بيت الفقيه عبر ريما

عند مغادرتنا صنعاء، نقطع ثلاثة فراسخ تقريبا لنصل إلى قرية حوص المسوّرة؛ و نعبر بعدها و ديانا و جبالا لنبلغ قرية ويسان(Weisan) الغنية بالمزروعات؛ و هى ملك عائلة إسحاق ابن الإمام المهدى أحمد، صاحب شار. و على مقربة من قرية ويسان، نشاهد قصرا كبيرا، مبنيا على قمة جبل شاهق. قطعنا بعده طرقات وعرة، مرصوفة بمعظمها لنبلغ قرية ضفة الصغيرة؛ و نرى على مقربة منها بقايا صرح قديم، و حجارة مقصوبة، مغطاة بنقوش غريبة . تمتد على بعد ثلاثة فراسخ تقريبا من ضفة أراض قاحلة، تضم

قريتين صغيرتين، و تؤدى إلى بلدة منجا، حيث نجد خانا للقوافل مبنيا من الحجارة. و تقع، على مسافة نصف فرسخ ضواحى مدينة دوران؛ يحد بها من الشمال سهل فسيح، و من الشرق و الجنوب و الغرب، مرتفعات و هضاب. و شق على الجبل الوعر، الذى تقع عليه المدينة، طريق مرصوف يصل إلى القمة؛ و نصادف فى منتصف الطريق، بابا مطينا يشرف على مقر الشيخ حسان كابالى. أما على قمة الجبل، فنجد جامعا كبيرا، يعلو قبر المتوكل إسماعيل بن قاسم الكبير، الذى يقدسه الناس؛ و على مقربة من هنا، نجد ضريح حسان بن قاسم الكبير، و الإمام المجد بلال بن المتوكل؛ فضلا عن مخزنين محفورين فى الصخر، يسميان جهنام و البنو . يبلغ طول مساحة الجبل، يوم سفر بكامله؛ و التربة فيه محروثة جيدا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۰

عند مغادرتنا دوران، نجد قرية صغيرة، على اليسار و قرية أخرى على اليمين، و بعد أن نسلك منحدرا وعرا، نصل إلى مقر نقيب من بيت الكرمى، و منه إلى خان جرف ابن عامر، الواقع على حافة جدول صغير، بين الجبال فى إقليم جميل، تكثر فيه مزارع البن؛ و نتابع بعدها طريقنا نزولا، لنعبر سهلا رمليا، و نصل إلى مضيق ديك ابن عامر؛ و يبلغ طول هذا المضيق الواقع عموديا، حوالى فرسخ تقريبا بينما يتراوح عرضه بين ست و سبع أقدام. و نقع بعدها على نهر راما الذى ينبع من هذا الأقليم. غير أننا اضطررنا لعبور النهر المذكور الذى تحدّه جبال وعرة حتى نبلغ خان زومان. و بعد أن قطعنا ثلاثة فراسخ، و هضابا و أودية متعرجة، بلغنا مدينة العبيد؛ و هى بلدة كبيرة، تقع على تلة خصبة بالقمح، و بمزارع البن.

و بعد أن سرنا خمسة أميال و نصف من عبيد، بلغنا مضيقا شمالى الجبل، يبعد فرسخين تقريبا عن بلدة سوق الحد. و مررنا لا حقا بقرية لوما، و قرية سوق السبت، و قصر شيخ سيلفيا الواقع على جبل شاهق، المحاذى لخان القوافل مبنى من الحجارة؛ كما و أن قصر المدعو على بن منصور واقع على القسم الأعلى من الجبل نفسه، و سلك الهولندى بعدها منحدرات كثيرة، و لا حظ فى طريقه، أشجارا غريبة؛ لكن من خلال وصفه لها، تبين لى أنها شجرة التين المعروفة فى الهند، التى تكثر عليها حشرة المغافير؛ و شاهد أيضا على هذه الطريق بساتين ينمو فيها البن تحاذى مقهى سقل(Sochol) . و مرّ بعدها بقرية مقيجا العين، و بمقهى بيت الشفلى، و وادى دهيجان؛ غير أنه اتجه بعدها يمينا ليصل إلى خان سوق الهال.

يتفرّع من هذه المنطقة طريقان؛ واحدة تؤدى يمينا إلى جبى و أخرى يسارا إلى قسمة؛ ففضل رحالتنا أن يتجه يسارا ليصل إلى مقهى عشب، و منه إلى قصر منور(ManoY ?r) . و بعد أن قطع فرسخين و نصف، شاهد على يساره، قصرا متداعيا كليا؛ فتابع طريقه، ليبلغ مقهى متاع. و بعد أن قطع الجبال و التلال المجاورة، وصل إلى بلدة قسمة حيث يقيم صاحب دولة هذا الأقليم؛ و بعد نصف فرسخ جنوبى غربى المدينة، يقيم الشيخ محسن بن أحمد الدير.

يتميز الطريق المؤدى من قسمة إلى بيت الفقيه بمنحدراته الوعرة، و بساتين البن الكثيرة، و قراه المتناثرة هنا و هناك و منها قرية منيرة، و خان العرس. و مقهى قبة الشريف. و إن تابعنا طريقنا إلى ألوج(Aludjse) ، قطعنا طريقا رمليا، يتحول إلى سيل جارف، خلال فصل الشتاء. تضم بلدة ألوج سوقا شعبيا و خانا للقوافل؛ و هى تبعد فرسخا على مقيا الدراية، و فرسخين و نصف عن أرض مغطاة بالأشجار، تمتد بعد الجبال الوعرة التى تصل هذا الإقليم بتهامة.

تتميز الحقول المجاورة لجبال تهامة بغناها بالمزروعات. و فى طريقنا من ألوج إلى بيت الفقيه، نعبر أولا بقرية سعيد، الواقعة على بعد فرسخ من الجبل و نصف فرسخ جنوبى مطاحن. و أظن أن قرية سعيد هذه هى قرية صعود(SauY ?d) ، التى مررت بها فى طريقى إلى حدى(Hadie) ؛ و مما لا شك فيه أن هذا الهولندى، سلك الطريق نفسه الذى و صفته سابقا، للوصول إلى بيت الفقيه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۱

فى الطريق من مدينة العبيد إلى قسمة نستطيع أن نسلك طريقا مختصرة و مريحة؛ غير أن العرب يدّعون أن هواءها ملوّث، و بالتالى، لا أحد يمر بها، تسمى هذه الطريق وادى دهيسان، و هى توصل منطقة سيلفيا عن مقاطعة أتوما(Othuma) ، و تمتد إلى منطقة

مسوار(Masu r) ، و منطقة دوبارا لتنتهى فى منطقة جمان(J man) ؛ و نقطع بعده منحدرات و مرتفعات كثيرة، لنصل إلى منطقة زيل الشفا(Ze ?l el Siva) ، على سفح جبل قسمة الوعر. و نجد على هذه الطريق أربعة مقاه؛ نسى الهولندى اسم أولها. أما البقية، فهى بيت الغزيلى، المجاور لمقر الشيخ صحبى حسين الغزيلى و لجامع جميل مزين بقبة، و مقية معن، و مقية السيفا.

II- الطريق المؤدية من قسمة إلى جبى

للذهاب من قسمة إلى سوق الهال، علينا أن نسلك طريق عبيد؛ و هى وعرة بمعظمها، و متعرجة حول الجبال، و تؤدى إلى مقر المدعو الشيخ سيد بن مفيد، و إلى قصر محمد بن مفيد شقيق الشيخ المذكور.

و بعد أن نتجه نزولا نصل إلى جامع صغير و خزان للمياه. و تقع على مقربة من هنا بلدة سوق التلعب(SuY ?k el TeluY ?b) ، على سفح جبل وعر. و على بعد فرسخ من هنا، بلدة جبى حيث يقيم صاحب دولة هذا الأقليم. و يقام كل نهار ثلاثاء سوق شعبى؛ و أحيطت هذه البلدة بسور عال و بنى لها بابان.

III- الطريق المؤدية من جبى إلى بيت الفقيه

ينحدر الطريق من جبى، شرقا و تحد به من الجهتين قرى صغيرة، و يؤدى على مسافة فرسخ و نصف إلى فندق ابن هذان المجاور لجامع رائع، حيث بنى خزان للمياه. و بعد أن نقطع فرسخين من الأراضى المزروعة، نصل إلى قرية تضم قبر النبى العلوى، الذى يحتفل بعيده فى شهر شعبان، و بعد أن نسير قرابة الساعة، مرورا بوادى رباط النهرى، نصل إلى بلدة كبيرة، يقام فيها سوق شعبى؛ و نشاهد على الجبل المحاذى لها، ضريح النبى عمر النهرى، الذى يعلوه جامع جميل، فضلا عن مقر المدعو زبد بو الغيث النهرى، الذى يهتم بالجامع المذكور، و يدير نزلا كبيرا، يلجأ إلى المسافرون للراحة. و نمر بعدها ببلدة بليبل، و مقية الخادم، و مطاحن، لنصل إلى بيت الفقيه؛ و يمكننا القول بالتالى إن جبى تبعد مسافة نهار و نصف عن بيت الفقيه (أظنه يقصد نهارين و نصف).

IV- الطريق المؤدية من جبى إلى سمفور

تتميز هذه الطريق بكثرة تعرجاتها حول الجبال، و هى تؤدى إلى بلدة قطفان، التى تضم خانا للقوافل.

و بعد أن نبعد عن الوادى، نصل إلى قرية سوق الجمعة الواقعة على سفح الجبل، و نعبر بعدها قرية مقية الفيل، لنرحل إلى سمفور. و يمكننا القول بالتالى إن هذه الطريق تحتاج نهارا و نصف.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۲

V- الطريق المؤدية من صنعاء إلى قسمة عبر لومة

بعد مغادرتنا صنعاء، مررنا ببلدة حسيس الصغيرة و المذكورة آنفا؛ و انتقلنا بعدها إلى بلدة سوق الآسس(S چk el Ass) ، الواقعة على الجبل، حيث تكثر مزارع البن. و بعد مغادرتنا هذا المكان، بلغنا بلدة سوق الحد، و منها إلى سوق الجمعة، التابعة لدوران. و بعد اجتيازنا مناطق جبلية وعرة، غنية بالأشجار وصلنا إلى قرية لومة التابعة لنفوذ حاكم سوق السبت؛ و منها إلى قسمة التى أتيت على ذكرها سابقا؛ و يمكننا القول بالتالى إن صنعاء تبعد مسافة ثلاثة أيام عن لومة.

VI- الطريق المؤدية من ذمار إلى دوران

خلال سفرنا من ذمار إلى دوران، نعبر فى جوار بلدة حيران، لنصل إلى قرية الخاما(El Kha Y ?ma) ، و منها إلى

قباتل(Kubatel) . و بعد أن نعبر سهولا رملية، و جبالا وعرة نصل إلى قرية مابر(Maber) حيث يقيم عدد كبير من النساجين، و تقع على مقربة من هنا، قرية منجا، المحاذية لمدينة دوران.

VII- الطريق المؤدية من صنعاء إلى صعدة

بعد مغادرة صنعاء، نمر ببلاد همذان، التى تبعد نصف نهار عن بلدة جربان، و نهارا بكامله، عن عمران. و هذه البلدة المسوّرة تقع فى أرض وعرة، جميلة و خصبة. فيها بابان، يقام قرب الباب الشرقى منها سوق شعبى كل أسبوع. و بعد أن نجتاز منطقة سوية و خصبة، تعرف ببقاع البون، نبلغ بلدة خباذ المسوّرة، و منها إلى دوبار، و جبل علا، و نجد على بعد فرسخ منها، خان رهيد، المبنى على سفح جبل تقع على قمته بلدة بيت الأدهم.

يمتد الطريق من رهيد غربا، إلى بلدة حمدة حيث يقام سوق شعبى كل خميس. أما الطريق الشرقى الذى يمر بسوق زيد و خان الشمس فيؤدى إلى دبين.

و يمتد من رهيد طريق آخر شمالا نحو جبال مزروعة مرورا ببلدة سبرا و قرية مهامة الواقعة على بعد نصف فرسخ؛ و نرى شرقا قرية جليدى(Djelledi) الكبيرة. و إن تابعنا طريقنا عبر الجبال و السهول الخصبة نصل إلى قريتين، تقع الأولى على منحدر وعر، و الثانية فى سهل منبسط، و تسمى مفاس، و تخضع لنفوذ بنى كلبان. و نجتاز بعدها قرية القصر المسوّرة، لنتابع طريقنا نحو قرية غولة، علما أن القرى الصغيرة، تحد الطريق من الجانبين. و ننتقل بعدها إلى مدينة شامير التابعة لإمام صنعاء؛ الذى عيّن سيدى ابن محسن، شقيق المرحوم الإمام المتوكل قاسم بن حسين، حاكما عليها؛ و الجدير ذكره أن منطقة شامير تقع فى مناطق نفوذ بنى سريم. و على مسافة أربعة فراسخ نصل إلى خان مقية بن عامر الذى يبعد فرسخا عن بلدة أسيرة. و نقع بعدها على مقر إقامة المدعو النقيب صلاح بن نصر، من عائلة حاشد؛ و تسمى هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۳

المنطقة بنى شعر. و نصادف بعدها قريتى مفوة و قاطرين، شرقى الطريق؛ و نمر فى بلدة حود المسورة الواقعة بين جبلى الجمار و رومية فى مناطق نفوذ بنى أسمد. على بعد فرسخ و نصف شمالا نصل إلى البلدة التى تقيم فيها عائلة النقيب على بن واسر الأحمر الذى قطع رأسه فى صنعاء. و إن تقدمنا فى البلاد بلغنا مقهى الفوق؛ لنتوجه بعدها إلى بلدة شوان المفتوحة، و المجاورة لبقايا قصور الأئمة الذين حكموا صنعاء فى الماضى. (تعود هذه البقايا إلى زمن بنى توبة الذين أشرت إليهم فى كتاب وصف شبه الجزيرة العربية).

و تقع غربى الطريق قريتا بوبان، و بيت التوبة. و بعد أن نجتاز جبل أسود، نصل إلى بلدة سوق الحرف، فى إقليم سفيان، ثم على بعد نصف فرسخ من هنا تقع بلدة مبروكة المسوّرة التابعة لعائلة جيش. و بعد مغادرتنا سوق الحرف نجد على مسافة أربعة أو خمسة فراسخ بلدة بركان على حدود إقليم سفيان.

يسمى الإقليم الممتد من بركان إلى بلدة قدة(Kuddet) ، أماسيا(Amasia) ؛ و هو إقليم شبه خال من السكان و يشكل خطرا على المسافرين. ثم نجد فى منتصف الطريق خزانا للمياه، اعتاد المسافرون على المبيت بقربه. و بعد أن نقطع نصف نهار فى الأراضى الخصبة، نصل إلى مدينة سعد المسورة، و التى تفوق صنعاء مساحة؛ و لها ثلاثة أبواب: باب هادى، باب منصور، و باب القصر. و تضم قصرا كبيرا و حصنا منيعا فضلا عن جامع مزين بقبة و ضريح الإمام المهدى، نبى الأنبياء. و يقول صاحب هذه الرحلات إن معظم سكان هذه المدينة هم من اللصوص و النصابين؛ و هم يرفضون منح حاكمهم يوسف بن قاسم مقرا له فى المدينة، علما أنه يقطن على بعد نصف نهار غربى سعد. و نجد على مسافة فرسخين أو ثلاثة من سعد، جامعا كبيرا، يدّعى العرب أنه ضريح أيوب، المعروف بصبره . تكثر فى سعد مناجم الحديد؛ و يقال إنها تبعد سبعة أيام عن صنعاء.

VIII- الطريق المؤدية من صنعاء إلى كوكبان

عند خروجنا من صنعاء نعبر فی بئر الغرب، و منه إلی خان مطبخ، الواقع علی حدود إقلیم حمدان.

و نقع علی بعد فرسخین و نصف علی خان طویلة الکبیر. و الجدیر ذکره أن الجبل یحد الطریق من یمنیها.

و بعد أن نقطع حوالی فرسخ و نصف نصل إلی خان بیت النوم. و نمر بعدها بجدول صغیر، و جبل شاهق، محاذیین لقریة مناکب، الواقعة فی واد رملی؛ و ننتقل بعدها إلی قریة حجر سید، التی تضم قصرا کبیرا.

أما إقلیم حیم فیقع جنوبی الطریق، و إن تابعنا طریقنا، نصل إلی مقهی، علی الحدود الفاصلة بین همذان و کوکبان، و إن قطعنا فرسخا آخر عبر أریاف مزروعة نصل إلی بلدة شبام المسوّرة و الواقعة علی سفح جبل وعر. و نشاهد خارج البلدة، بساتین جمیلة و جامعا کبیرا یضم قبر محمد بن حسین ابن سیدی أحمد الحاکم حالیا. و إن قطعنا نصف فرسخ عبر طریق مرصوف، فی جبل متعرج، نصل إلی مدینة

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۳۶۴

کوکبان؛ و هی مسورة من الشمال، و لها ثلاثة أبوب محصنة بثلاثة أبراج؛ منذ بضع سنوات، و لقد بنی الملک الحاکم، قصرا فخما علی جبل نقم، قرب صنعاء.

VIIII- الطریق المؤدیة من شبام إلی عمران

علی الطریق المؤدیة من شبام إلی عمران، نقطع أولا بساتین خصبة، و منها إلی مناطق وعرة، لنصل علی بعد فرسخ و نصف إلی بلدة تولا، المسورة؛ و هی تتمیز ببرجیها: باب هادی و باب عمران؛ و نجد أیضا هنا قصرا محصنا مبنیا علی صخرة وعرة، علاوة عن ضریح أحد أبناء الإمام الهادی، الذی دفن فی جامع فی صعدة. و علی بعد فرسخ و نصف نزولا نصل إلی قریة دهان المسورة، و منها إلی بلدة قریتین، بحیث یمتد الطریق عبر أریاف مزروعة، مرورا بقریة نجرا، و منها إلی عمران، علی بعد فرسخ تقریبا.

طریق کوکبان، عبر حشیش فی تهامة

بعد مغادرتنا کوکبان، نقطع حوالی ثلاثة فراسخ فی سهل واسع، لنصل إلی مقهی محاذ لجدول صغیر. و نشاهد فی طریقنا، قری صغیرة متعددة، مرورا ببلدة طویلة المفتوحة، التی تضم قصرا محصنا مبنیا علی صخرة وعرة، و سوقا شعبیا. و بعد أن نسیر حوالی فرسخین عبر طریق متعرجة نصل إلی قریة أخری تضم خانا للقوافل. غیر أننا نسلک بعدها دربا سویا و رملیا لنجد علی الیسار قصرا عالیا. و نتابع بعدها الطریق نزولا، و نعبر أراض مغطاة بالأشجار، لنبلغ قریة واقعة شمالی الطریق. إلا أن الطریق الممتد إلی إقلیم حبشة یؤدی إلی قریة رجم، الواقعة علی منحدر وعر؛ و منها إلی بلدة مهاود، حیث نجد بقایا قری قدیمة؛ و تعد بلدة مهاود من البلدات الکبیرة، و یقام فیها نهاری الثلاثاء و الأحد، سوق شعبی؛ و إن تابعنا طریقنا من هنا، نشاهد بعض القری علی حافتی الطریق، و بعض الأراضی المغطاة بالأشجار المثمرة؛ و نصل إلی مقهی علی حدود إمارة کوکبان؛ غیر أن الطریق الممتدة من هنا، محفوفة بالمخاطر، و مغطاة بالغابات الکثیفة؛ و هی تؤدی إلی جبل وعر، یعرف بجبل حفاش(Hofasch) ، یبعد فرسخا تقریبا عن مرکز لحرس صاحب دولة سفکین، حیث یتم تفتیش المسافرین؛ و یبعد هذا المکان حوالی فرسخین عن بلدة سفکین حیث یقیم صاحب دولة إقلیم حشیش.

تکثر الطرقات التی تؤدی إلی سفکین فی تهامة؛ و تقع واحدة منها غربا، و تؤدی إلی حدود محافظة حشیش و یتفرع من هنا طریق باتجاه و لاج، مرورا بملهان.

ملاحظة: تبعد صنعاء عن روضة مسافة خمسة أیام.

و تبعد روضة عن قطبة مسافة يومين، و تعز عن قطبة يومين تقريبا، و قطبة عن عدن ثلاثة أيام و نصف ، و تعز عن عدن أربعة أيام و المخا عن عدن ثمانية أيام.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۵

ملاحظات حول الجوّ فی کل من القسطنطينية و القاهرة و شبه الجزيرة العربية و بومبای

إن محرّ فهرنهايت الذی استعملته فی سفری کان من صنع تموتنغ و قد أشرف علی صناعته البروفسور هولمان و هو معروف بدقته الشديدة. أما محرّ ريومور فهو من صنع مارسيليا تحت إشراف السيد نويی.

و کان البروفسور کراتزنشتاين قد بيّن فی القسم العاشر من دراسات الأکاديمية الملکية للعلوم فی کوبنهاغن (ص ۳۲۹) و فی کتاب الفيزياء (ص ۳۰۰) أن محرّ ريومور الجديد لا تتفق نتائجه مع محرّ ريومور الأصلی. أما عن الملاحظات القليلة التی قمت بها حول محرّ ريومور فقد حولتها إلی مقياس فهرنهايت لکنی لن أذکرها هنا.

و فی دراساتی کافة کان المحرّ معلقا فی الهواء الطلق و فی الظل. ففی بيرا(Pera) علقته علی نافذة مفتوحة باتجاه الشمال الشرقی تقريبا، و فی القاهرة و جهته نحو جنوب الجنوب الشرقی و فی جدة نحو غرب الشمال الغربی و فی لحية و بيت الفقيه نحو الشمال. أما غرفتی فی المخا فلم تکن تسمح بهذه الدراسات. لذا کنت أضع المحرّ کل يوم عند الظهر فی غرفة علی مصطبة المنزل و کنت أفتح النوافذ و الأبواب کی أسمح للهواء بالدخول بحرية. فکنت أعلقه فی الصباح و أخرجه من البيت أثناء الليل.

و بما أن الشمس هی المصدر الأساسی لحرارة الجو، و بما أن القراء لا يعرفون بالضرورة تحديد موقعها خلال فترة زمنية ما و فی مکان محدّد، قررت أنه من الضرورة أن أحدد فی کل جدول درجة ابتعاد الشمس عن سمت المدينة التی قمت فيها بوضع هذه الملاحظات.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۶

تدوين السيد کرايمر فی السويس لدرجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت خاصتی أثناء رحلتی إلی جبل سيناء عام ۱۷۶۲.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۷

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فی القاهرة فی شهر تشرين الثانی/ نوفمبر ۱۷۶۲.

تنخفض جدة بنسبة ۲۱؟ ۲۸؟، عن القطب. فی ۳۰ ت ۲/ نوفمبر کانت الشمس تبعد عن السمت بمسافة ۴۳؟ ۱۱؟.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۸

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فی جدّة فی بداية شهر کانون الأول/ ديسمبر ۱۷۶۲

ملاحظات محرّ ريومور حول الخليج العربی بين جدّة و لحية فی شهر کانون الأول/ ديسمبر ۱۷۶۲، و قد سجّلت علی محرّ فهرنهايت فی المکان نفسه.

إن المسافة التی کانت تفصل الشمس عن السمت فی ۱۰ کانون الأول/ ديسمبر ۱۷۶۲ فی جدة کانت توازی ۴۴؟، ۲۶؟.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۶۹

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فی مخيّة فی شهر کانون الثانی/ يناير ۱۷۶۳

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۰

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى مخيّة فى شباط/ فبراير ۱۷۶۳

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى الشهر نفسه فى بيت الفقيه

فى ۱۹ شباط/ فبراير كانت الشمس فى لحية على مسافة ۲۶؟ ۵۸؟ من السمت فى ۲۸ شباط/ فبراير و كانت على مسافة ۲۲؟ ۲۸؟، فى بيت الفقيه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۱

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى بيت الفقيه فى شهر آذار/ مارس ۱۷۶۳

إن بيت الفقيه على ارتفاع ۱۴؟ ۳۱؟ من القطب. و فى ۳۱ آذار/ مارس عند الظهر كانت الشمس تبعد عن السمت ۱۰؟ ۲۲؟ إلى الجنوب.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۲

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى بيت الفقيه فى شهر نيسان/ أبريل ۱۷۶۳

فى ۱۹ نيسان/ أبريل عند الظهر كانت الشمس على بعد ۳؟ ۲۰؟ عن جنوب السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۳

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى المخا فى شهر أيار/ مايو ۱۷۶۳

يبلغ ارتفاع القطب فى المخا ۱۳؟ ۱۹؟. و فى ۱ أيار/ مايو عند الظهر كانت الشمس على مسافة ۱؟ ۴۵؟ عن السمت و فى ۳۱ منه كانت على بعد ۸؟ ۳۶؟ عن شمال السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۴

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى جدة فى بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر ۱۷۶۲

فى تعز فى نهاية شهر حزيران/ يونيو ۱۷۶۳

إن ارتفاع القطب فى تعز يبلغ ۱۳؟ ۳۴؟. و فى ۲۵ حزيران/ يونيو كانت الشمس على بعد ۹؟ ۵۲؟ عن شمال السمت.

خلال سفرى من تعز إلى صنعاء لا حظت ارتفاع مستوى محرّ ريومور.

ريمور فهرنهايت فى ۲۹ حزيران قبل طلوع الشمس بقليل على سهل جوبان(۱۳ (Haub n؟ ۱/ ۲ ۶۱؟

فى ۳۰ حزيران قبل طلوع الشمس بالقرب من معد ۱/ ۲ ۱۰ ۱/ ۲ ۵۵

بعد الظهر عند الواحدة تقريبا فى محرّس(۷۶ ۱۹ ۲ ۱/ (Mharras

فى ۳ تموز عند الظهر فى منزل(۷۲ ۲ ۱/ ۱۸ (Mensil

فی ۳ تموز فی منزل قبل طلوع الشمس ۱۳ ۶۱

فی ۱۰ تموز قبل طلوع الشمس فی یریم ۱/ ۴ ۸ ۵۲

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۵

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی تموز/ یولیو ۱۷۶۳ فی بئر القصب قرب صنعاء

درجات الحرارة وفقا للمحرّ نفسه فی المخا فی شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۳

تبعد بئر القصب عن ارتفاع القطب ۱۵؟ ۲۱؟. فی ۲۴ تموز/ یولیو، و عند الظهر کانت الشمس علی بعد ۴؟ ۳۵؟ من السمت إلی الشمال و فی ۲۰ آب، و عند الظهر کانت تبعد صفرا؟ ۴۹؟ عن النقطة العمودیة نفسها.

إن السید بورنفاینـد هو الـذی لاـحظ فی نهایـة شـهر آذار/ مارس و بدایـة نیسان/ أبریل ۱۷۶۳ فی بیت الفقیه ارتفـاع مسـتوی میزان فهرنهایت المـذکور فی ص ۳۹۲ و ۳۹۳ (من النسـخة الفرنسیة). و فی هـذا الوقت کنت أجول فی الجبـال و کنت أنقل من وقت إلی آخر ارتفاع مستوی میزان ریومور. و سنلاحظ فی هذا الإطار اختلافا کبیرا فی حرارة البقاع المختلفة من بلاد الإمام الصغیرة.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۳۷۶

فی ۲۸ آذار بعـد الظهر بربع ساعـة کنت فی حیران علی طریق عـدین(Udde ?n) فهرنهـایت ریومور و کان المحرّ یشـیر إلی ارتفاع ۸۵؟ ۱/ ۲ ۲۳؟

فی ۲۹ عند السادسة صباحا فی الوصفد(۱۵ ۶۶ (Wachf d

فی المکان نفسه عند الظهیرة ۸۸ ۲۵

فی ۳۰ عند السادسة صباحا قرب عدین ۷۷ ۲۰

عند الثانیة بعد الظهر علی الجبل العالی بین عدین و جبلة ۷۱ ۱/ ۲ ۱۷

فی ۳۱ عند السادسة و الربع صباحا فی جبلة ۶۷ ۱/ ۲ ۱۵

فی ۲ نیسان عند السادسة و الربع علی بعد میلین من شرق تعز علی السهل ۵۵ ۱/ ۲ ۱۰

فی ۳ نیسان الساعة السادسة و الربع فی ربعة شرقی تعز ۷۱ ۱/ ۲ ۱۷

فی ۴ نیسان الساعة السادسة و الربع صباحا فی عود(۱۷ ۷۰ (Oude

و فی لهیـة و صـنعاء دوّنت ارتفاعات البارومتر فی ساعات معینـة سأعاود کتابتها هنا لنری کیفیة تحرک المحرّ صـعودا و نزولا فی هذا البلد:

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۳۷۷

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی بیرا(Pera) قرب القسطنطینیة فی شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۱

فی بیرا یبلغ ارتفاع القطب ۴۱؟ ۲؟. و فی ۳۱ آب/ أغسطس کانت الشمس علی مسافة ۳۲؟ ۳۱؟ من السمت.

رحلة إلی شبه الجزیرة العربیة/ تعریب عبیر منذر، ج۱، ص: ۳۷۸

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر تشرین الثانی/ نوفمبر ۱۷۶۱

و يبلغ ارتفاع القاهرة ۳۰؟ ۳۶. فى ۳۰ تشرين الثانى/ نوفمبر، و كانت الشمس على مسافة ۵۱؟ ۴۸؟ من السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۷۹

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى القاهرة فى كانون الأول ۱۷۶۱

فى ۳۱ كانون الأول/ ديسمبر، كانت الشمس تبعد ۵۳؟ ۸؟ عن السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۰

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى القاهرة فى كانون الثانى/ يناير ۱۷۶۲

فى ۳۱ كانون الثانى/ يناير كانت الشمس تبعد عن السمت ۴۷؟ ۲۰.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۱

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى القاهرة فى شباط/ فبراير ۱۷۶۲.

فى ۲۸ شباط/ فبراير كانت الشمس تبعد عن السمت ۳۷؟ ۵۴؟.

ملاحظة: فى ۱ و ۲ و ۳ شباط/ فبراير كنت فى الجيزة أى بالقرب من النيل.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۲

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى القاهرة فى آذار/ مارس ۱۷۶۲

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۳

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى القاهرة فى نيسان/ أبريل ۱۷۶۲.

فى ۳۰ نيسان/ أبريل كانت الشمس على مسافة ۳۰؟ ۱۳؟ عن السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۴

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى القاهرة فى شهر أيار/ مايو ۱۷۶۲

فى ۳۱ أيار/ مايو كانت الشمس على بعد ۸؟ ۶؟ من السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۵

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى القاهرة فى شهر حزيران/ يونيو ۱۷۶۲.

فى ۳۰ حزيران/ يونيو كانت الشمس تبعد عن السمت مسافة ۶؟ ۵۲؟.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۶

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهايت فى القاهرة فى شهر تموز/ يوليو ۱۷۶۲

فی ۳۱ تموز/ یولیو کانت الشمس علی بعد ۱۱؟ ۴۸؟ من السمت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۷

درجات الحرارة وفقا لمحرّ فهرنهایت فی القاهرة فی شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۲

فی ۲۴ آب/ أغسطس کانت الشمس تبعد ۱۸؟ ۵۸؟ عن السمت.

فی بومبای علی ارتفاع ۱۸؟ ۵۵؟ کنت أراجع محرّ فهرنهایت ثلاث مرات فی الیوم. لکن بما أن الحرارة هنا کانت ثابتة لم أجد ضرورة فی وضع أی جدول کامل. لذا کنت لا أدوّن إلا أهم الأحداث آخر الشهر و سوف أدرجها هنا:

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۸

فی شهر أیلول/ سبتمبر ۱۷۶۳

فی الأیام الأولی من وصولنا إلی بومبای أی من ۱۱ إلی ۱۵ أیلول/ سبتمبر، کانت السماء صافیة. ثم من ۱۶ إلی ۲۴ کانت الأمطار تهطل کل یوم و أحیانا طوال اللیل و النهار. فی هذه الفترة إن أقصی ارتفاع بلغه المحرّ کان فی الیوم الثالث و العشرین و کان ۱/ ۲ ۸۳ أما المستوی الأشد انخفاضا فهو ۷۹؟

و قد سجّل فی ۱۹ أیلول/ سبتمبر فی الصباح الباکر. و فی الأیام التی یتساقط فیها المطر من دون انقطاع بقی ارتفاع الزئبق هو هو. و منذ الیوم ۲۴ و حتی نهایة الشهر صار الجو لطیفا و ارتفع الزئبق فی الیوم الثلاثین حتی المستوی ۸۸؟.

فی شهر تشرین الأول/ أکتوبر ۱۷۶۳

فی هذا الشهر کانت الدرجة العلیا التی وصل إلیها المحرّ ۹۱؟ و ذلک فی الیوم ۱۷. أما الدرجة السفلی فکانت ۷۹؟. و إن الفوارق فی کل یوم کانت فی بدایة الشهر ۴؟ أما فی نهایته فقد تراوحت بین ۸؟

و ۹؟. إن الیوم ۱۱ هو الوحید الذی أمطرت فیه. لکن حتی نهایة الشهر ظلت السماء صافیة. فی الیوم ۲۳ هبّ هواء شدید القوة.

فی شهر تشرین الثانی/ نوفمبر ۱۷۶۳

فی بدایة هذا الشهر بلغ ارتفاع المحرّ فی بومبای ۸۸؟، أما فی نهایته فانخفض إلی ۸۱؟ و فی الیوم التالی فی الصباح إلی ۷۳؟. أما التراوح فسجل ۹؟. و فی لیل ۲۷- ۲۸ هبّ هواء قوی جدا من الشرق، و فی الیوم التالی کان الطقس سیئا.

فی شهر کانون الأول/ دیسمبر ۱۷۶۳

کان المناخ سیئا منذ بدایة الشهر و حتی ۱۵ منه و فی الیومین الأخیرین هطلت الأمطار. ارتفع مستوی المحرّ فی هذا الیوم إلی ۷۲؟ فی الصباح و إلی ۸۴؟ بعد الظهر، و فی ۲۰ ک ۱/ دیسمبر سجل ۱/ ۲ ۸۷؟.

لکن فی نهایة الشهر انخفض فی الصباح إلی ۷۱؟ و بعد الظهر إلی ۸۲؟.

فی شهر کانون الثانی/ ینایر ۱۷۶۴

تراوحت الحرارة علی طول هذا الشهر بین ۷۱؟ و ۶۹؟ و بعد الظهر بین ۸۰؟ و ۸۳. و فی ۲۶ ک ۲/ ینایر انخفضت فی الصباح إلی ۶۴؟

و سجلت بعد الظهر ۷۶؟.

فی شهر شباط/ فبراير ۱۷۶۴

بقی المحرّ طوال هذا الشهر مسجلا ۶۹؟ بينما تراوح بعد الظهر بين ۷۹؟ و ۸۲؟. و فی اليوم التاسع هطلت بعض الأمطار.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۸۹

فی شهر آذار/ مارس ۱۷۶۴

فی ۱۱ آذار/ مارس ارتفعت الحرارة إلى ۸۸؟ بسبب الهواء الشمالی الغربی العنيف و فی ۱۳ آذار/ مارس بلغت ۸۹؟. و فی الأيام التالية و حتى منتصف آذار/ مارس لم تتجاوز ۸۳؟ فی بومبای.

فی الأيام الخمسة عشر المتبقية من شهر آذار/ مارس، توجهت إلى سرات(Sur t) و هی مدينة واقعة على بعد ۲؟ ۱۲؟ عن شمالی بومبای و ما يقارب ثلاثة أميال ألمانية عن البحر. حيث هنا ارتفعت الحرارة إلى ۹۳؟ و فی اليوم ۲۹؟ إلى ۹۸؟ بسبب الهواء الشمالی. و كان محرّ ريومور قد تحطم فی شبه جزيرة العرب. فی الطريق إلى سرات تعطل محرّ فهرنهايت فلم يبق لی أی أداة لإكمال أبحاثی عن حال الطقس. و فی بومبای بلغت الحرارة وفقا لمحرّ أحد الجراحين ۹۳؟.

و لقد أثبتت التجربة أن مستوى الزئبق فی الميزان يمكن أن يختلف فی المدينة نفسها. فمثلا لو أن أحدا لا حظ معی فی مثل هذا المناخ ارتفاع الزئبق فی منطقة منخفضة و كثيفة السكان فی القسطنطينية أو غالاتا لما حصل على الارتفاع نفسه الذی حصلت عليه فی بيرا المعرّضة للتأثر بالريح بسبب موقعها على هضبة.

كما وجدت فروقات كبيرة فی مستوى الزئبق فی الجيزة و القاهرة. فعلى ضفاف النيل لم ترتفع الحرارة عن ۵۵؟ لكن فی اليوم الرابع من الشهر بلغت ۶۶؟ فی القاهرة. إذا لا يمكن أن نتوقع الحصول على الحرارة نفسها فی مدينتين تقعان على الارتفاع نفسه و على البعد ذاته عن الشمس لأن هناك عوامل عديدة يمكن أن تتحكم بالحرارة و بالتالی بمستوى الزئبق فی المحرّ، كموقع المدينة: قرب البحر أو على سهل مزروع أو غير مزروع أو على رأس جبل أو فی أسفله أو فی منطقة تهيمن عليها الرياح الدافئة أو الباردة ...

فلا عجب إذا أن أكون قد وجدت الحرارة مرتفعة فی لحية فی شهر كانون الثانی/ يناير حتى أكثر ارتفاعا من حرارة صنعاء فی شهر تموز/ يونيو؛ علما أن هاتين المدينتين تقعان على فرق دقائق معدودة من حيث الارتفاع: تقع الأولى فی سهل منخفض و قاحل عند الخليج العربی بينما تقع صنعاء فی منطقة جبلية مرتفعة و خصبة. و عند ما كنت فيها كانت الأمطار تتساقط كل يوم. و يمكن أن يشير المحرّ إلى الحرارة نفسها فی مدن أخرى تقع على ارتفاع مختلف شرط أن تكونا متساويتی الارتفاع عن البحر و الابتعاد عن الشمس.

إن الفرق فی الارتفاع مثلا- بين كوبنهاغن و لحية هو ۴۰؟ تقريبا. و تقع هاتان المدينتان على الساحل لكن إحداهما تقع فی مكان خصب و الأخرى فی سهل جاف. و فی كوبنهاغن تكون الشمس فی شهر تموز/ يونيو على مستوى البعد نفسه عن السمت كما فی لحية فی شهر كانون الثانی/ يناير و اكتشفت أن الحرارة فی لحية فی هذا الشهر كانت أكثر ارتفاعا من الحرارة فی كوبنهاغن بشهر تموز/ يوليو كما وجدها البروفسور كراتزنشتاين.

و باعتبار أنی لم أصرف كثيرا من الوقت فی التحقق من درجة الحرارة فی غالبية المدن المذكورة أعلاه.

لن يستطيع القارىء معرفة درجة الحرارة فيها بدقة. إن هذه المهمة تتطلب سنوات عديدة. لكن يمكن أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۰

يستفيد الفيزيائيون من هذه الأعمال الأوليّة للتدقيق فی حرارة البلاد التی و صفتها حتى الآن ثم يقارنها مع ملاحظات الآخرين. ففی شهر تموز/ يوليو فی صنعاء كان المستويان الأكثر انخفاضا و الأكثر ارتفاعا فی المحرّ موازيين تقريبا للمستويين الأعلى و الأكثر

انخفاضا فى كوبنهاغن فى الشهر نفسه حسب ملاحظات البروفسور كراتزنشتاين. كما و قد لا حظت أن الحرارة فى شهر كانون الثانى/ يناير فى القاهرة قريبة جدا من حرارة كوبنهاغن فى شهر أيار/ مايو. لكن لا تكون الحرارة فى شهر شباط/ فبراير فى القاهرة أكثر ارتفاعا منها فى شهر تموز/ يوليو بكوبنهاغن. فى شهرى آذار/ مارس و نيسان/ أبريل فى القاهرة يكون مستوى الزئبق فى المحرّ أعلى منه بكوبنهاغن فى أشهر الصيف الأكثر حرارة. إن حرارة شهر آب/ أغسطس فى بيرا و حرارة شهرى تشرين الثانى/ نوفمبر و كانون الأول/ ديسمبر فى جدة و حرارة شهر حزيران/ يونيو فى تعز تكون تقريبا متوازية. و فى شهر تشرين الأول/ أكتوبر فى القاهرة و شهر آب/ أغسطس فى كوبنهاغن يكون ارتفاع المحرّ هو هو، أما ارتفاعه فى كانون الأول/ أكتوبر فى القاهرة فهو قريب جدا منه فى كوبنهاغن فى حزيران/ يونيو. فى المخا و القاهرة تكون الحرارة هى نفسها فى شهر حزيران/ يونيو. و فى منتصف هذا الشهر، تكون الشمس على مستوى الارتفاع نفسه فى هاتين المدينتين و بالتحديد على ۱۰؟

إلى الشمال فى المخا و ۱۰؟ جنوبى السمت فى حلب. لكن كلنا يعرف أن مدينة حلب شديدة الارتفاع عن سطح البحر.

ملاحظات حول حرارة الهواء فى القسطنطينية

فى بداية شهر آب/ أغسطس كان المناخ جيدا فى القسطنطينية. و فى ۱۲ آب/ أغسطس وصلت عاصفة من الشمال محمّلة بالبرق و الرعد و فى ۲۰ منه تساقطت الأمطار. و فى ۲۴ و ۲۵ من الشهر نفسه كان الطقس عاصفا و ممطرا و فى ۲۶ خيّم الضباب على المنطقة لكن عند نهاية الشهر كانت السماء صافية.

فى الإسكندرية

فى شهر تشرين الأول/ أكتوبر ۱۷۶۱ استمرت الريح بالهبوب من الشمال أو الشمال الشرقى.

و لقد جاء فى أقوال بعض المسافرين و بعض مقولات الكتّاب غير الموثوقين أن المطر لا يتساقط أو نادرا ما يتساقط فى مصر. إلا أن مصر شديدة الامتداد من الشمال إلى الجنوب. و إن جزءها الواقع فى أقصى الشمال و هو الجزء الأكثر وسعا يمتد على طول الشاطىء و ليس بقربه أى جبل. ثم إن الجزء الجنوبى منها ضيق فى بعض الأنحاء و فى طرف أو طرفين منه هناك جبال عالية. و هكذا فإن الفيزيائيين الذين لا يهتمون إلا بموقع هذا البلد يقررون أن حرارة الهواء لا يمكن أن تكون متشابهة فى كافة المناطق. و قد حاول البعض أن يؤكد لى أن بعض المناطق فى مصر العليا لا ترى المطر أبدا.

أما فى مصر السفلى فغالبا ما يتساقط المطر كل يوم فى شهرى تشرين الثانى/ نوفمبر و كانون الأول/ ديسمبر. و ليست الأمطار نادرة فى القاهرة كما زعم البعض و قد قالوا لى إنها تمطر أحيانا مرات

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۱

معدودة فى السنتين، لكن أثناء إقامتى فيها هطل المطر كثيرا و سأفصّل ذلك لا حقا.

فى القاهرة

تشرين الثانى/ نوفمبر: بعد وصولنا إلى القاهرة مباشرة فى تشرين الثانى/ نوفمبر ۱۷۶۱ هطلت الأمطار بشدة فى ليل ۱۳- ۱۴ فدخلت المياه إلى مصطبة منزلنا و أجبرت على تغيير مكان سريرى.

و لأن شوارع القاهرة غير مرصوفة، أصابتها الأمطار بأضرار بالغة فصار من المستحيل التجول فيها فى اليومين التاليين دون التلّوث بالوحول. ثم فى الأيام التالية صارت السماء شديدة الصفاء لكنها عادت و اكفهرّت لا حقا.

كانون الأول/ ديسمبر: فى ۳۰ من هذا الشهر بعد الظهر، هطل الماء بغزارة لمدة عشر دقائق. فى اليوم السابع من الشهر هطلت بعض

الأمطار عند الظهر. و فى مساء اليوم العشرين كثر البرق و الرعد و فى ليل اليوم ۲۱ هطلت الأمطار من جديد. و فى صباح اليوم ۲۲ تساقط المطر لمدة ساعتين و بعد الظهر لمدة ست ساعات دون انقطاع. لكن سرعان ما صفا الجو. ثم فى ليل ۲۷- ۲۸ تساقطت الأمطار بغزارة كذلك فى ليل ۲۸- ۲۹ و خيّم الطقس الكئيب على الأجواء من ۳ إلى ۹ و من ۱۷ حتى نهاية الشهر.

كانون الثانى/ يناير: فى اليوم الأول من الشهر استمرت الأمطار من طلوع الشمس حتى الساعة العاشرة و بقى الجو متكدرا طوال النهار. و بعد ظهر اليوم السابع تساقط المطر بغزارة و فى اليوم الثامن تساقط قليلا. ثم منذ اليوم ۱۱ و حتى نهاية الشهر أصبح الطقس لطيفا. و فى صباح اليوم ۱۳ وجد أحد خدامنا العرب جليدا على ملفوفة أحضرها الفلاحون إلى المدينة. و عرضها على عدد من الأوروبيين متباهيا بوجود الجليد فى مصر.

و فى الأيام الأخيرة من الشهر صارت الريح تهبّ من الشمال و كانت شديدة. أما فى اليومين ۲۷ و ۲۸ و حتى اليوم ۳۰ فلقد كان الضباب يغطى الأرجاء فى الصباح و تتلبّد السماء أثناء الليل.

شباط/ فبراير: فى بداية هذا الشهر تساقط المطر بغزارة و هبّت عاصفة قوية آتية من الجنوب طيلة بعد الظهر. و فى صباح اليوم السادس لم تمطر كثيرا. أما فى اليومين التاليين فلقد كان الجو متلبدا. ثم أمطرت فى ليل اليوم ۱۵ و صباح اليوم ۱۶.

آذار/ مارس: لم تمطر قط فى القاهرة طوال هذا الشهر. إلا أن الجو كان متلبدا فى الأيام ۳، ۴، ۸، ۹، ۲۴، ۲۹. أما فى اليوم السابع فقد هبّت عاصفة قوية.

نيسان/ أبريل: فى اليوم الثانى من هذا الشهر هبّت ريح قوية من الشرق. و فى اليوم الثالث تجهم الجو و تساقطت الأمطار. ثم فى اليوم ۱۷ هبّت ريح ساخنة من الشرق أى من جهة ليبيا و لشدة ما كانت هوجاء امتلأ هواء القاهرة بالغبار و الرمال التى شكّلت سحبا كثيفة. و عند ظهيرة اليوم ۱۸ هبّت ريح عاصفة. أما فى اليوم ۲۰ فهبّت رياح شمالية شرقية. و تسمى الريح الحارة فى القاهرة (الخماسين) لأنها تهبّ فى الأيام الخمسين بين عيد الفصح و عيد العنصرة عند الأقباط و عادة تأتى من الجنوب الغربى. و إن الغبار الذى تحمله معها دقيق للغاية فلا يكتفى بالتسرب من خلال النوافذ المحكمة الإقفال إلى بيوت

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۲

الأوروبيين بل و يدخل فى القوارير المغلقة. لا شك أن هذا الغبار هو سبب العمى فى مصر. و هكذا فإن البخار الفاسد الذى يتصاعد من القناة التى تجرى فى القاهرة يتسبب بموت عدد من الأطفال أو بآلام فى عيونهم. و فى اليوم ۲۷ ظهر البرق خلف الشفق ثم أمطرت. و فى اليوم ۳۰ اشتد المطر.

و فى أيار/ مايو: رافقت السيد بورنفاينذ إلى دمياط فى هذا الشهر. راقب السيد كرايمر فى غيابى ارتفاع مستوى الزئبق فى المحرّ و حرارة الهواء فى القاهرة. و فى اليوم الثانى هبّت فى المدينة و على الطريق المؤدية إلى دمياط ريح جنوبية عاصفة جعلت غيوما من الغبار تملأ الأجواء. و فى اليوم السابع هبّ هواء قوى من الجنوب و فى اليوم ۳۱ هبّت ريح أخرى هوجاء من الشمال.

و فى حزيران/ يونيو: فى اليوم الأول من الشهر هبّت ريح قوية من الشمال و رافقتها سحب كثيرة.

و فى اليوم الثانى بدأت الرياح تعصف من الجنوب ثم من الغرب و كان الهواء محملا بالغبار. ثم فى اليوم السادس كان الجو مكفهرا. و فى السابع هبّت ريح هوجاء من الشمال و فى اليومين ۲۴ و ۲۵ تلبّدت السماء بالغيوم فى شهرى أيار/ مايو و حزيران/ يونيو و لكن لم يتساقط المطر قط.

أما فى تموز/ يوليو: فلم تمطر قط فى القاهرة أثناء هذا الشهر. لكن السماء كانت دائما ملبّدة بالغيوم عند الصباح و أحيانا خلال باقى النهار.

آب/ أغسطس: فى اليوم ۱۳ من شهر آب/ أغسطس كان الضباب كثيفا فى القاهرة و كان يتحول إلى مياه. فى اليوم ۱۵ بعد الظهر هبت عاصفة قوية محمّلة بالأمطار على النيل و فى المدينة و فى منتصف الطريق بين القاهرة و رشيد.

الأشهر الثلاثة الأخيرة شديدة الحرارة فى مصر لكن فى القاهرة يمكن الهرب من أشعة الشمس اللاذعة داخل المبانى المؤلفة من أكثر من طابق واحد. كما و أن شوارع المدينة ضيقة لذا فهى تؤمن بعض الظل.

أضف إلى ذلك أن الشوارع تسقى عدة مرات فى اليوم الواحد و خاصة أمام بيوت الأعيان لترطيب الجوّ.

كما و تلعب الريح الشمالية دورا فى تخفيف حدة الحرارة عن سكان مصر فيضع الأعيان أنبوبا قصيرا على الدار فى بيتهم يكون ثقبه الأعلى موجها نحو الشمال بغية جذب الهواء البارد . فى هذه الغرف لا تكون الحرارة مرتفعة أبدا لذا لا نعجب إذا رأينا فيها أهل الطبقات الرفيعة يجلسون النهار بكامله و يغطون أنفسهم بالفراء. كما و يملك بعض السكان الأغنياء مياها جارية فى الغرف المكشوفة من منازلهم.

و باختصار أقول إن الأغنياء من المصريين يعرفون كيف يستعملون مواردهم ليردّوا عنهم الحرارة و هم أمهر من سكان البلدان الشمالية الذين يحاولون حماية أنفسهم من البرد.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۳

و الجدير بالذكر أنه فى أيام الحر الشديد فى مصر تكثر الغيوم و يهب هواء الشمال باستمرار و فى الأيام نفسها تمطر كل يوم تقريبا فى الحبشة و فى المناطق الجبلية فى اليمن.

فى شبه جزيرة العرب

تشرين الأول/ أكتوبر ۱۷۶۲: قضينا الجزء الأكبر من هذا الشهر على الخليج العربى بين السويس وجدة. و فى الأيام ۲۱ و ۲۲ و ۲۴ كنا نرى البرق كل ليلة من جهة الغرب و فى اليوم ۲۳ من جهة الشرق و الجنوب الشرقى و فى اليومين ۲۷ و ۲۹ من جهة الشفق. فى نهاية الشهر كان الجو مكفهرا خلال النهار و الليل.

تشرين الثانى/ نوفمبر: فى ليل ۱۲- ۱۳ كنا نرى البرق فى جدة من جميع الجهات. فى اليوم ۱۳ كان الجو مكفهرا و سمعنا أصوات الرعد. فى اليوم ۱۷ كان الجو عاصفا. فى اليومين ۱۸ و ۱۹ كان الجو قاتما فأمطرت و كنا نسمع البرق و الرعد أحيانا. بعد ظهر اليوم ۲۰ بدت السماء صافية و بعد ظهر اليوم ۲۱ قرب جدة هطلت الأمطار الغزيرة القادمة من الشمال الغربى. عند صباح اليوم ۲۲ رأينا البرق من جهة الشمال الغربى.

كانون الأول/ ديسمبر: فى بداية هذا الشهر حافظت الحرارة على استقرارها فى جدة و فى اليوم الرابع هبّ هواء قوى من الجنوب و فى مساء اليوم الخامس هبّ هواء آخر من الشمال الغربى. و فى اليوم التاسع عند المساء سمعنا الرعد و هطل المطر من الشمال الغربى. فى اليوم ۱۶ بدا الجو قاتما فى الخليج بين لحية وجدة. فى اليوم ۱۷ بقى الجو قاتما و جاءت عاصفة فى المساء و هطلت الأمطار. فى اليوم ۱۸ عند المساء رأينا البرق فى الشمال على الشفق و فى اليومين ۲۴ و ۲۵ بدت السماء متلبدة بالغيوم.

و فى شهر كانون الثانى/ يناير ۱۷۶۳: فى مساء اليوم السادس و طيلة اليوم السابع بدا الجو قاتما فى لحية. و فى صباح اليوم الثامن هطل وابل من المطر و بقى الجو متكدرا إلى اليوم التاسع مساء. و منذ اليوم ۱۷ و حتى نهاية الشهر كنا نرى الجو متكدرا كل صباح. و فى ليل ۱۹- ۲۰ هبّت ريح قوية من الجنوب و فى ۲۱ هطل المطر بغزارة. ثم فى مساء اليوم ۲۵ عبرت السماء عدة غيوم شفافة و بدا مدار القمر متوجا بإطار جميل رأينا مثله فى مساء اليوم ۲۸. و لقد دام الأول منذ التاسعة و حتى العاشرة و الربع، و الثانى دام أكثر من ساعتين و نصف. إن نصف القوس هذا كان فى كل مرة على ۲۳؟ و ربع.

و فى شباط/ فبراير: فى بداية هذا الشهر هطلت بعض الأمطار فى لحية لكن اشتد المطر من ۱ شباط إلى ۵ منه. فى اليوم السادس و اليوم السابع كان الجو متكدرا ثم عاد الصفاء بعد ذلك. فى ليل ۲۵- ۲۶ هطلت بعض الأمطار على بيت الفقيه.

و فى آذار/ مارس: فى اليومين ۶ و ۱۲ كان الهواء فى بيت الفقيه أقوى من العادة فامتلأ الهواء بالغبار و الرمل. و مما لا شك فيه أن

هذا الغبار الدقيق قدم من غلفقة إذ غالبا ما كانت التلال الرملية تغير مكانها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۴

كما ذكرنا فى السابق. و فى اليومين ۲۴ و ۲۵ اشتد الرعد ثم هطلت الأمطار. و فى الأيام التالية بقى الجو صافيا.

و نيسان/ أبريل: من اليوم ۱۱ و حتى اليوم ۱۹ كانت السماء متلبدة بالغيوم فى بيت الفقيه و رأينا فى المخا اعتبارا من ۲۴ نيسان/ أبريل و حتى نهايته الكثير من الغيوم لكن دون مطر. و كانت تمطر بغزارة فى الجهات الجبلية حتى أنه فى اليوم ۲۸ تدفقت المياه فى واد جاف فجرفت معها عدة أكواخ من خارج أسوار المدينة. و بعد فترة غير طويلة عاد قعر الوادى إلى الجفاف.

و فى أيار/ مايو: فى بداية هذا الشهر كنا نرى البرق على الشفق فى المخا. فى ليل ۴- ۵ و ليل ۵- ۶ هبّت ريح هوجاء من الجنوب. و فى اليوم الثامن عند الظهر، هبّت عاصفة قوية مصحوبة بالأمطار. و فى اليومين التاسع و العاشر اشتد صوت الرعد و هطلت الأمطار طوال الليل.

و فى حزيران/ يونيو: بعد ظهر اليوم الأول، سمعنا الرعد فى المخا و بقيت السماء ملبدة بالغيوم طوال الليالى إلى خروجنا من هذه المدينة. و بما أن موسم المطر كان قد حلّ فى البلدان الجبلية قبل وصولنا إليها، وجدنا الطقس فى تعز مختلفا عن الطقس الذى اعتدنا عليه فى تهامة. و سمعنا البرق و رأينا المطر فى فترات بعد الظهر كافة ما عدا فى الأيام ۱۵ و ۱۶ ۲۴. أما فى اليوم ۲۳ فتساقط القليل من المطر. علما أن الجو فى هذه الأيام لم يكن أقل تكدرا من السابقة. فى رحلتنا من تعز إلى جبل سمارة(Sum ra) كانت تمطر فى فترات بعد الظهر كلها.

و فى تموز/ يوليو: أثناء فترة إقامتنا فى صنعاء كان الجو لطيفا طيلة الأيام منذ شروق الشمس و حتى الساعة ۱۱ لكن كانت السماء تتلبد بالغيوم بعد الظهر و أثناء الليل فتحجب الشمس أو النجوم. و كانت تمطر أحيانا بعد الظهر و نادرا أثناء الليل. و يحكى عن وجود الجليد أحيانا فى فصل الشتاء لكنه سرعان ما يذوب بفعل حرارة الشمس خلال النهار. و فى طريق عودتنا إلى صنعاء تساقط المطر أحيانا. أما فى المخا فكانت الأمطار تهطل بغزارة مصحوبة بالرعد فى ۲۹ تموز/ يوليو.

و فى شهر آب/ أغسطس ۱۷۶۳: عدنا إلى تهامة فى بداية هذا الشهر و قلّما تمطر السماء فى تهامة.

فى ليل ۱۵- ۱۶ اشتد الرعد و المطر فى المخا. أما خلال باقى الشهر فكان الجو لطيفا و الهواء ساكنا مما جعل الحرارة لا تطاق فى هذه المدينة.

تتفاوت الحرارة فى مختلف مناطق شبه الجزيرة الهندية تماما كما فى شبه الجزيرة العربية. لا يبدأ موسم المطر على ساحل كورومندال(Coromandel) و فى إقليم البنغال(Bengale) إلا عند ما ينتهى على شاطىء ملابار(Malabare) . أما فى هذه المنطقة أى فى غرب الجبال الكبيرة التى تخترق الهند من الشمال إلى الجنوب تمطر ابتداء من منتصف حزيران/ يونيو و حتى منتصف تشرين الأول/ أكتوبر أى فى الموسم نفسه حيث تمطر فى المناطق الجبلية من اليمن و فى الحبشة. و يقول البعض إن موسم الشتاء فى بومباى يبدأ برعد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۵

قوى و ببرق آت من الشمال الشرقى ثم ينتهى بعد ذلك. و عند ما كنت فى بومباى شهدنا فى بداية شهر أيار/ مايو الرعد المصحوب بالمطر الغزير ثم صفا الجو بعد ذلك. و فى نهاية أيار/ مايو و بداية حزيران/ يونيو بات الجو متكدرا. و من ۱۰ إلى ۲۸ حزيران/ يونيو صار المطر ينهمر قليلا و أحيانا كانت تمر أيام بكاملها و الجو شديد الصفاء. أما فى مساء ۲۹ حزيران/ يونيو فقد وصلت عاصفة هوجاء من الشمال الشرقى و منذ ذلك الحين لم تمض ۲۴ ساعة من دون أن تتساقط فيها الأمطار. و بعدها سيطر مناخ لطيف على الأجواء و ذلك حتى ۲۰ تشرين الأول/ أكتوبر إذ انتهى موسم الشتاء بعاصفة من الشمال الغربى.

كلّف السيد بوير Boyer نفسه و هو تاجر من مرسيليا مقيم فى القاهرة بتسجيل ارتفاع مستوى الزئبق فى محرّ ريومور لمدة سنتين.

لكن بدلا من وضع المحرّ فى الهواء الطلق وضعه فى غرفة مغلقة. أضف إلى ذلك أنه لم يدوّن ساعات الصباح و المساء بدقة بل اكتفى بتدوين ساعات الظهيرة. و سوف أرفق بهذا الكتاب النسخة التى أعطانى إياها لربما اهتم بها الفيزيائيون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۶

ارتفاع مستوى الزئبق فى محرّ ريومور فى القاهرة طيلة الأيام عند الظهيرة على مدى عام ۱۷۵۹

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۷

ارتفاع مستوى الزئبق فى محرّ ريومور فى القاهرة طيلة الأيام عند الظهيرة على مدى عام ۱۷۶۰

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج۱، ص: ۳۹۸

ارتفاع مستوى الزئبق فى محرّ ريومور فى القاهرة طيلة الأيام عند الظهيرة على مدى عام ۱۷۶۰

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبيّة، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضيّة، الخـَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التـّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شـَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتـُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنـّها لا تـُوافِی الحجمَ المتزايد و المتـّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثـّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفـّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التـّمكـّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹